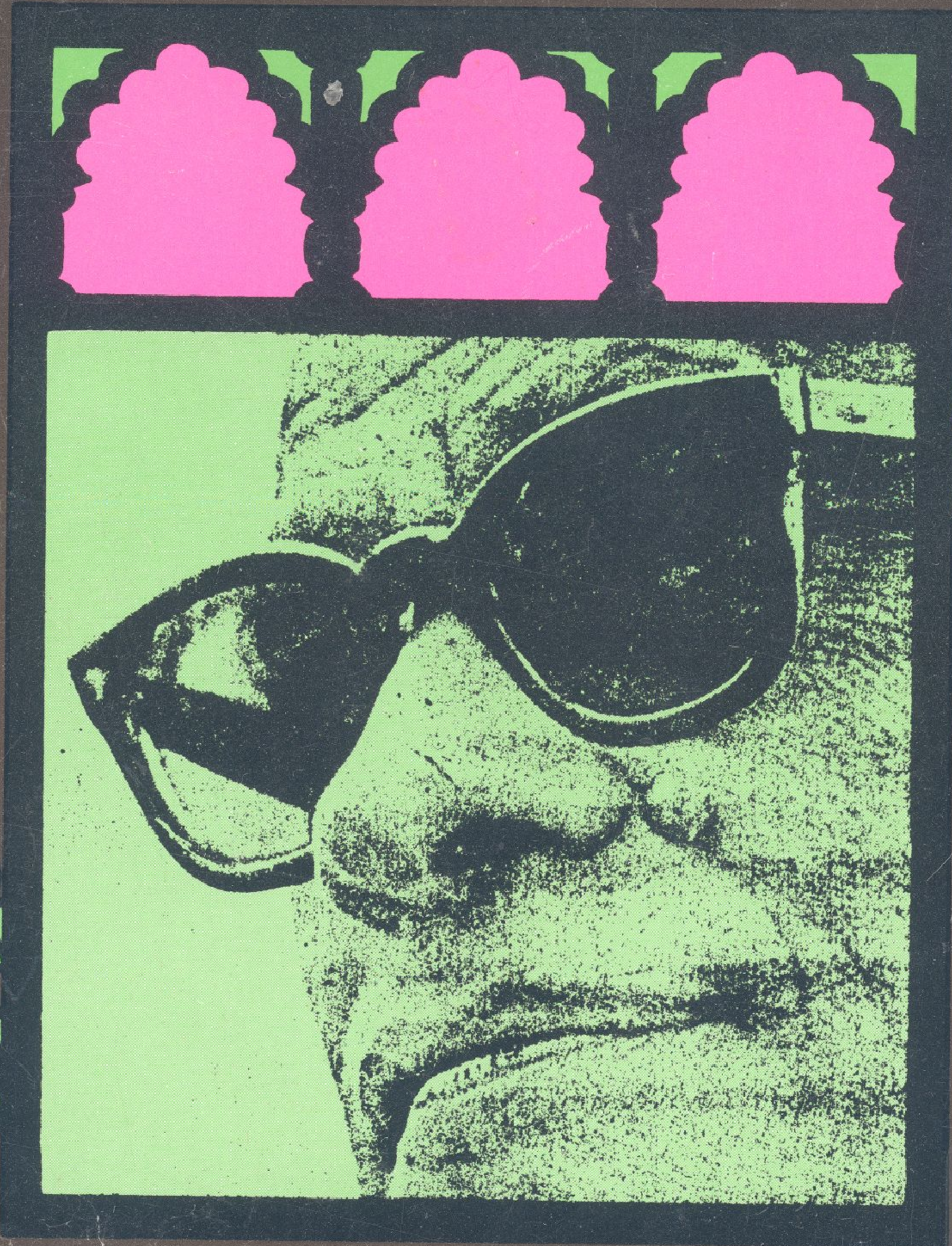


نجيب محفوظ إبداع نصف قرن

إعداد وتقديم الدكتور غالى شكرى



سيد قطب	لويس عوض	محمد مندور
محمود أمين العالم	أنور المعداوى	شكرى عياد
يحيى حقى	صلاح عبد الصبور	رجاء النقاش
ابراهيم فتحى	جابر عصفور	فاروق عبد القادر
	صوفى عبدالله	سامى خشبة

دار الشروق

الكتاب
الرقم
الكتاب
الرقم



**نَجَّيْبٌ مَحْفُوظٌ
إِبْدَاعٌ نَصِفَتْ قَتْرُنْ**

نجيب محفوظ إبداع نصفت قرن

إعداد وتقديم الدكتور غالى شكرى

طه حسين	محمد مندور	لويس عوض	سيد قطب
لطيفة الزيات	شكري عياد	أنور المعداوى	محمود أمين العالم
على الراعى	رجاء النفاش	صلاح عبد الصبور	يحيى حقي
فاطمة موسى	فاروق عبد القادر	جابر عصفور	ابراهيم فتحى
بهاء	سليم خشبة	صوفى عبدالله	

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت : ص.ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٧ - بوليغرافيا : دمشق - لبنان : SHOROK BOTS LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد الحنفى - هاتف : ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨ - بوليغرافيا : شروق - لبنان : SHROK UN ٩٣٥١

١٥٢

تقديم

د . غالى شكرى

تشهد هذه المختارات من نقدنا المعاصر حول أدب نجيب محفوظ أن هذا النقد قد غنى بالكاتب الكبير عناية فائقة ومحيطه وشاملة خلال السنوات الثلاثين الماضية أو أكثر قليلا . وهذا يعنى أن ثلاثية « بين القصرين » هى التى ركزت الانتباه على نجيب محفوظ ، أما أعماله قبلها فلم تحظ بالدرجة ذاتها من التركيز .

يجب الإقرار سلفاً بأن الثلاثية إحدى الذرى ، وليست مجرد رواية « جيدة » . ومن ناحية أخرى فقد أتيح لها النشر فى مجلة « الرسالة الجديدة » على حلقات فاتصلت بقطاعات من القراء أكثر انتشارا من قراء الكتاب . وكان رأى العام الأدبى الذى فاجأته هذه « الملحمة الروائية » كما سماها أنور المعداوى ، أحد عوامل الضغط على النقد الأدبى دفعه إلى الالتفات الخاص إلى صاحب هذا العمل الكبير . ومن كان يقرأ الثلاثية ، فقد كان يعود غالبا إلى الأعمال السابقة للمؤلف .

ولكن تلك الأعمال السابقة التى لا ترتفع إلى مقام الثلاثية قد نالت فى زمانها تقدير ناقدين من ألمع النقاد فى ذلك الوقت ، وهما سيد قطب وأنور المعداوى ، وقد كانا ينشران نقدهما فى مجلة « الرسالة » القديمة الذائعة الصيت فى الأربعينيات .

لقد كتب سيد قطب فى وقت مبكر غاية التبكير عن الروايات المسماة خطأ تاريخية ، وكذلك عن رواية « خان الحليل » . أما أنور المعداوى فقد اهتم بالكتابات التالية « زقاق الملوك » و « بداية ونهاية » .

يليهما يوسف الشارونى الذى اكتشف محفوظا وأدبه فى مقاله المبكر كذلك فى مجلة « الأديب » ، ولكن الشارونى يتميز بأنه ارتاد مجالا آخر حين كتب قصتين هما « مصرع عباس الحلو » و « زيتة صانع العاهات » مستلها الشخصيتين من رواية « زقاق الملوك » . ولكن هذا الاستلهام بدوره كان نقدا على نحو من الانحاء .

ويعود الفضل الى وديع فلسطين الأديب الذى كان يرأسل من القاهرة عدة مجلات أدبية عربية ، فهو أخذ الذين أذاعوا اسم نجيب محفوظ خارج مصر .

غير ان هذا كله لاينفى واقع الحال ، وهو ان أعمال نجيب محفوظ قبل الثلاثية لم تتل ماستحقته من تقييم وتقدير عند صدورهما أن كتابات قطب والمعداوى والشارونى وفلسطينى تشهد لهم بأنهم كانوا روادا فى اكتشاف الكاتب ، ولكنها لاتشهد للنقد المصرى انه كان فى مستوى الإبداعات الواعدة ، خاصة فى حقل القصة والرواية .

كان النقد حينذاك متقدماً على صعيد الشعر . أهم أعمال العقاد وطه حسين والمازنى ومحمد مندور كانت تلور حول الشعر . وحين كان يجرؤ أحدهم على التعريف برواية أو مجموعة قصص ، فإنه فى الأغلب كان ينجح إلى التلخيص والاطراء أو القدح . كان الفن الروائى والقصصى جديدا ليس له تراث محلى كالشعر ، ولاتراث نقدى كنقد الشعر القديم . وكان الكبار مهومون بالقضايا الفكرية والسياسية والتاريخ الإسلامى ، فكتبوا إلى جانب نقد الشعر « على هامش السيرة » أو « مستقبل الثقافة فى مصر » (طه حسين) ، وكتبوا « العبريات » كالعقاد . وكان النقد الجديد بتياراته المختلفة قد اهتم بالقصة والتمثيلية عندما يكتبها محمد أو محمود تيمور ، وبالكاد عندما يكتبها توفيق الحكيم أو يحيى حقي .

أما هذا الجيل الذى يضم نجيب محفوظ وعادل كامل وعبد الحميد السحار وعلى أحمد باكثير وهؤلاء مؤسسو « لجنة النشر للجامعيين » ثم الموجة التالية وقد ضمت إلى جانب رائدهم محمود كامل كلاً من يوسف السباعى وعبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب وإبراهيم الوردانى وإحسان عبد القدوس ، فقد اتجه حقا إلى كتابة القصة والرواية (باستثناء باكثير الذى اتجه إلى الشعر والمسرح والترجمة) ، ولكن النقد القصصى والروائى لم يكن قد بلغ هذه الدرجة من الحماس والتخصص .

كانت المرحلة تموج بالرومانسية فى الشعر والنثر على السواء ، فى الحياة ذاتها ، لذلك كان المجد الفرعونى الغابر ومآس الغرام والتشبث بالطبيعة (وخصوصا الريف) عناصر أساسية فى تكوين ذلك الجيل الذى نشأ على الأرجح بين الحربين العالميتين ، ونما فى أحضان الأربعينيات .

وإذا كان عصام الدين حفى ناصف فى روايته « عاصفة فوق مصر » ١٩٣٩ قد غيّر معزوفة الريف الرومانسى ، فقد كان نجيب محفوظ فى العام نفسه هو الذى غيّر معزوفة المدينة الرومانسية بروايته « القاهرة الجديدة » . ولكن أحداً من النقاد أصحاب البصيرة القديمة أو الجديدة لم يتلمس آفاق هذه البذور الأشبه بالنبوءة . بل إن سيد قطب الذى كان تقريبا أول من كتب عن نجيب محفوظ على الإطلاق ، قد غنى بالروايات الرومانسية المسماة خطأ تاريخية وحين تنبه إلى الروايات الأخرى اختار من بينها « خان الخليلى » التى

لا تقل رومانسية . أما أنور المعداوى فهو الذى استكشف بحاسة شم مرهفة « الجديد » حقاً ، والذى يميز محفوظ عن بقية أقرانه ، بعد انسحاب عادل كامل صاحب « ملهم الأكبر » . وكان الجديد جديداً فى كل شيء ، فى إبداع الشخصية ونسيج العلاقات والبنى الذهنية واللغة والمعمار . هذا ما أشارت إليه « زقاق المدق » وأكدت فى حسم « بداية ونهاية » .

والحال كذلك لا يحوز اتهام النقد بالتقصير ، لأن الكبار كانوا منشغلين بالشعر والفكر ، ولأن الشباب كانوا غارقين فى الرومانسية ، ولأن النقد الأدبى ذاته لم يكن قد بلغ مرحلة عالية من النضج التقنى والرؤية والأدوات الإجرائية .

ولكن ثورة يوليو والثلاثية وهذا التركب الجديد من الكتاب قد غيروا المشهد منذ أواسط الخمسينيات : نادى القصة ، الكتاب الذهبى ، مجلة الرسالة الجديدة ، دار الفكر ، مجلة الغد ، دار النديم ، كتابات مصرية ، مجلة التحرير ، القسم الأدبى فى جريدة الجمهورية . مجموعة « أرخص ليالى » ليوسف إدريس ، رواية « الأرض » لعبد الرحمن الشرقاوى ، اتجاه النقد إلى مزيد من الكتابة : لويس عوض ، مندور ، على الراعى ، محمود العالم ، عبد العظيم أنيس ، لطفى الخولى ، لطيفة الزيات ، رجاء النقاش ، وغيرهم وغيرهم .

فى هذا المناخ كتب شيخ النقد المعاصرين طه حسين مقاله الشهير عن الثلاثية . وفى هذا المناخ أيضاً قال العقاد إن الثلاثية أهم من أى عمل لشتاينبك أو همنجواى . وكان ذلك بمناسبة حصول إحداهما على جائزة نوبل . وأضاف إن نجيب محفوظ احق بهذه الجائزة .

ولم تكن الثلاثية قد صدرت فى كتاب حين أصدر عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم كتابهما المشترك « فى الثقافة المصرية » . وقد أثار تقسيمها لأدب محفوظ موجة هائلة من الحوار والتساؤل فى صفوف الرأى العام الأدبى عموماً ، وفى صفوف اليسار أيضاً . ولم يكن اليسار موحد الرأى فى هذه المسألة . ولكن تطور النقد وتطور محفوظ معاً جعل من النقد الموصوف سياسياً باليسا ثياراً أرتيسياً احتضن نجيب محفوظ بالاتفاق فلاختلاف ، طيلة الخمسينيات والستينيات .

كان الراحل نجيب سرور هو أول من كتب تحليلًا مفصلاً عن الثلاثية فى مجلة « الثقافة الوطنية » اللبنانية ، وكان على الراعى أول من كتب عن الثلاثية ، بعد طه حسين نقداً تحليلياً معمقاً داخل مصر . وكان كاتب هذه السطور أول من أصدر كتاباً كاملاً عن أدب

نجيب محفوظ . . وكان محمود أمين العالم هو الذى أعاد النظر بشجاعة وموضوعية فى « تأملات فى عالم نجيب محفوظ » وكان لويس عوض وأحمد عباس صالح ورجاء النقاش أكثر النقاد متابعة لأعمال الكاتب الكبير . وكان فاروق عبد القادر هو الذى واصل هذه المتابعة إلى اليوم . وكانت لطيفة الزيات هى الأكثر اهتماماً بعلاقة الشكل والمضمون فى تجسيد الرؤية الفنية عند نجيب محفوظ . وكان النقد « اليسارى » من محمد مندور إلى سامى خشة هو الذى تابع خطوات (البرجوازي الصغير) من الموت الرومانسى لأحمد عاكف فى « خان الخليل » إلى الموت - الشهادة لفهمى عبد الجواد فى الثلاثية .

كان التيار (اليسارى) إن جاز التعبير فى النقد ومايزال هو التيار الرئيسى الذى احتضن أدب نجيب محفوظ لا بالمتابعات وحدها ، وإنما فى المؤلفات المتخصصة بدءاً من « المستمى » إلى « تأملات فى عالم نجيب محفوظ » إلى كتاب إبراهيم فتحى « العالم الروائى عند نجيب محفوظ » .

ولكن هذا لا يمنع أن أدب الكاتب الكبير قد استقطب تيارات عديدة لنقده وتحليله ، من مختلف الاتجاهات والأجيال .

وهذه المختارات التى لا ترغم الشمول حاولت أن تخضع لبعض الضوابط والمعايير :
● أولها تعدد الأصوات فنيا وفكرياً فما قد يمثله شكرى عياد وصلاح عبد الصبور يختلف عما يمكن أن تمثله صوفى عبد الله وفاطمة موسى ، وما يمثله يحيى حقى يختلف عن أنور المعداوى ، وكلاهما يختلف عن سيد قطب أو طه حسين . هذه الاختلافات فى الرؤية والتقييم تمنحنا صورة أقرب إلى ملامح نجيب محفوظ العامة وأقرب إلى ملامح النقد المصرى المعاصر .

إن المقصود بتعدد الأصوات فنيا هو الأساليب التقنية فى النقد ، وتطورها من التلخيص والأحكام النهائية إلى الوصف الانطباعى الخارجى ومن التحليل البلاغى إلى التحليل الاجتماعى ، وتطور كل عنوان من هذه العناوين داخله . أما تعدد الأصوات الفكرية ، فأعنى به جملة المواقف الليبرالية والراдикаلية بدرجات كل منها .

● وهناك مواقف من أدب نجيب محفوظ قد تختلف فى المقدمات وقد تلتقى فى النتائج . لقد كتب عبد القادر القط فى « أخبار اليوم » ١٢ - ٥ - ١٩٦٢ مقالاً بعنوان « اللص والكلاب رواية فاشلة » ، وكتب يحيى حقى فى « المجلة » - عدد مايو ١٩٦٢ - مقالاً عن « اللص والكلاب » . والناقدان يختلفان كثيراً فى المقدمات ، ولكنها ينتهيان إلى حكم تقويمى واحد تقريباً .

وهناك العكس ، أن تتفق المقدمان وتختلف النتائج كهذا الاتفاق بيم مقدمات إبراهيم فتحى فى « رؤيا القديس حمزاوى » المنشور بـ « المجلة » عدد أغسطس ١٩٦٥ ومقدمات صبرى حافظ فى « استجداء الحقيقة » المنشور فى « المجلة » أيضا عددي إبريل ومايو ١٩٦٦ ولكن ما أبعد النتائج الموضوعية المتأنية فى مقال إبراهيم فتحى عن الانفعالات والمبالغات فى مقال صبرى حافظ . ولذلك استمر إبراهيم فتحى ثابتا على تحليله ورؤياه ، بينما انقلب حافظ رأساً على عقب وتناقض بين راية الحداثة التى يرفها عاليا وراية السياسة التى رفعها فى مقاله ضد نجيب محفوظ ونشره فى مجلتين إحداهما ليبية والأخرى عراقية ، أثناء حماسه للشائعة التى أطلقها عن ترشيح يوسف إدريس لجائزة نوبل ، وأثناء حماسه للقائلين خارج مصر بأن الثقافة المصرية قد انتهت وفى مقدمتها أدب نجيب محفوظ . بل لقد بالغ « الناقد » وكتب فى المقال المشار إليه أن محفوظ قد انتهى يوم ميلاده .

لقد تعمدت فى الاختيار أكثر الكتابات دلالة ، فإذا اتفق ناقدان مثلاً على رؤية ما لنجيب محفوظ ، أكتفى بالأكثر دلالة .. دون أن يتم هذا الاختيار على حساب النسبة التى يتميز بها كل تيار وكل اتجاه . ودون أن يتم هذا الاختيار على حساب النسبة التى يتميز بها كل عمل من أعمال نجيب محفوظ . أى أن الثلاثية مثلاً و « اللص والكلاب » يتمتعان بعدد كبير من المتابعات ، لأن الأولى ذروة اكتمل بها الوعي قبل الثورة ، ولأن الثانية كانت فاتحة أو استئنافاً للوعي بعد « أولاد حارتنا » .

لقد آثرت الترتيب التاريخي لأعمال نجيب محفوظ ، لا للأعمال النقدية ، فالكتاب يتابع الرحلة من أولها « عبث الأقدار » إلى أحدث أعماله « صباح الورد » .. فالصورة العامة لأدب نجيب محفوظ فى حركتها ، هى التى أملت على ترتيب المختارات . ولكن هذا الترتيب لا يلغى أننا سنطالع فى الوقت نفسه صورة موازية أو متداخلة أو متقاطعة لحركة النقد المصرى الحديث ، وقد أفسحت فى الخاتمة لجابر عصفور أن يرسم خطوط هذه الحركة حسب قراءته لها .

لقد تأخر صدور هذه المختارات زمناً طويلاً ، فما أحوجنا إليها ، لا بالنسبة لنجيب محفوظ فقط ، بل أدباء مصر ، فالأدباء العرب جميعاً . بل ما أحوجنا إلى أكثر من مختارات للأديب الواحد ، لأن المختارات فى خاتمة المطاف مجرد قراءة . ولعلنا نحتاج للكثير الكثير من القراءات .

د . غالى شكرى

القاهرة ٩ - ١٠ - ١٩٨٨

اتجاهى الجديد ومستقبل الرواية

نجيب محفوظ

فى مؤتمر الأدباء فى موسكو وقف الروائى الفرنسى آلن روبين جرييه يعلن أن « الرواية » قد استهلكت كل الموضوعات ، وأنه لم يعد هناك من جديد للروائى إلا الشكل . وبذلك يقدم جرييه تبريرا للشكل الجديد أو الطريقة الجديدة التى يتبعها فى رواياته والتى يسميها بعض النقاد بالمدرسة الشيئية . فجرييه يصف الأشياء العادية وصفا مسهبا ، وكأنه عالم طبيعى وقع على حفرة نادرة فأجرى عليها دراسة وصفية شاملة . إنه يصف مثلا أكرة باب أو نافذة فى عدد كبير من الصفحات فى دقة وإسهاب تبعث على الملل ، بل وعلى أكثر من الملل ، لدرجة أن كثرة التفاصيل غير الهامة تحير القارئ فى المعنى الذى يرمى إليه الكاتب .

وجرييه فى وصفه المسهب هذا وفى اهتمامه بالأشياء اهتمام الدهشة والفضول ، يريد أن ينقذ ألفة الإنسان للأشياء التى يراها ويستعملها فى حياته اليومية ، وأن يخلق نوعاً من الغربة بين الطبيعة والكون وبين الإنسان ، بل بين أكثر مظاهر الطبيعة قربا إلى الإنسان ، وهى الأدوات التى يستعملها ، والأماكن التى يزاول العيش فيها . إنه يريد القول بتفرد الإنسان فى الكون ، وبانقطاع أى صلة حقيقية له بما هو خارج نفسه ، وهو يوغل فى إنكار كل شىء لدرجة أنه يتهم كاتباً مثل جان بول سارتر بالإيمان ! .

وهذا الإغراب فى الشكل الذى انتشر بين كتاب الرواية الحديثة جاء نتيجة للافتقار إلى الموضوعات ، وإلى الاتهامات النقدية التى وجهت للرواية كفن ، بأنها انتهت كشكل أدبى لأنها طرقت كل الموضوعات ، ولم يبق أمامها من موضوع جديد لتطرقه .

والواقع أن « الرواية » طرقت جميع الميادين التى يمكن أن يتصورها الإنسان . تناولت الفرد والمجتمع والأسرة ، وتناولت الشوارع والمدن ، بل والقارات ، فدوس باسوس مثلا طاف فى قصصه بأكثر من قارة . بل إنها تخطت القارات والأرض ككل لتصعد إلى الكواكب . وما من عاطفة بشرية إلا وكانت موضوعا مكررا للرواية لفترات طويلة

والذين ينظرون إلى « الرواية » من هذه الناحية يحكمون عليها بأنها استفدت أغراضها ، مما أوقع الكثير من الروائيين المعاصرين في أزمة ، إذ أحسوا بأن كل ما يفكرون فيه قد فكر فيه من قبل ، وكل ما يريدون التعبير عنه قد سبق التعبير عنه ! وهذا هو الذى ركزهم هؤلاء الروائيين فى الشكل ، وبدأت الرواية عندهم تتجه نفس الاتجاه الذى اتجهت إليه الفنون التشكيلية ، وتحول إلى شكل صرف يصبح « الموضوع » فيه شيئاً دخيلاً .

ولكن إذا أخذنا هذه الآراء كحجة ندفن بها الرواية ، يجب أن ندفن بها أيضاً الأدب كله بل وجميع الفنون الأخرى . فأى موضوع للفن بصفة عامة قد سبق أن طرقه الفن . وكل موضوع بالنسبة للفنون جميعاً استهلك أكثر من مرة . إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة ، فالمستهلك يتجدد ، كما تتجدد الحياة نفسها ، والجديد دائماً ليس هو الموضوع الذى لم يطرق من قبل ، بل هو الفنان . والفنان هو إنسان وعصر وحضارة وكل جيل يعطى وجهة نظره فى موضوعات ثابتة فى جميع الأزمان .

وحين نتكلم عن التشابه والاختلاف يحذر بنا أن نتصور هذا الموقف : إذا نظرنا لبني الإنسان من طائرة على ارتفاع ما من الأرض وجدنا أن جميع الناس متشابهين . ولكن إذا اقتربنا منهم فوجئنا بأوجه الاختلاف .

والإنسان ككائن عضوى لا تختلف أفراده ، ففى كل إنسان نسبة من المعادن ونسبة من التراكيب لا تتغير أو تختلف فى إنسان عن آخر ، ورغم كل هذا فلكل إنسان ذاتيته وتميزه .

والمسألة فى الفن ليست مسألة جديد أو قديم . بل فى الوظيفة التى يؤديها ، فى تعميق الحياة وإثرائها بالتجربة ، وما يؤديه هذا الثراء فى الفهم والتجارب من تطور فى الحياة البشرية بوجه عام . وأعتقد أن الحكم على الفن لا يكون بمدى ما فيه من جدة ، بل بما يحققه من متعة وفائدة . وهذا المعيار هو الذى مر به التراث الفنى للإنسانية كلها ، وعلى أساسه اخترلت أعمال أدبية وفنية كثيرة ، وكتب لأعمال أخرى البقاء والاستمرار . وبالنسبة لعاطفة الحب مثلاً .. ما الجديد فيها ؟ هذا بصرف النظر عن علاقتها بالرواية ، أو كموضوع من موضوعاتها . هذه العاطفة إذا حكمنا عليها بمعيار الجدة ينبغي علينا أن نقتلها وننتهى منها !

والموضوع ليس له هذا القدر من الأهمية ، حين ننظر إليه من الناحية الجمالية والفنية والنقدية . فتابعة الحوادث فى أى صحيفة يومية تكشف عن عشرات القصص . سنجد

حادثة عطيل في حى شعبي . وسنجد حوادث كثيرة مطابقة لما حدث لهاملت أو للملك لير . ولكن هذه الحوادث لا ترتفع لمرتبة الفن بمجرد سردها على الناس . فالفن هو طريقة تناول الموضوع أو معالجته .

وعلى هذا الأساس لا يقوم أى خطر على « الرواية » كشكل من الأشكال الفنية ، بل ستظل شكلا محببا ما عاشت في نفس الإنسان الرغبة في الأدب والحاجة إليه ، وما بقيت وسيلة القراءة ممكنة وميسرة وغير منسوخة . ولقد كان اندريه جيد يقول « نحن نكتب على أمل أن نجد قارئاً لم يقرأ الأعمال السابقة علينا » .

وأزمة الرواية - مع ذلك - ليست أزمة عامة . ففي بلاد أخرى كثيرة كالاتحاد السوفيتي والهند والصين ، لا يشكو روائي شكوى كهذه الشكوى التي نجدها في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا .. فتلك البلاد لا تخلو مفاهيمها الحالية لحظة واحدة من الأزمة . والافتقار إلى الموضوع ترجمة لكلمة أخرى وراءها . وهي « أن ليس لدينا مضمون . وليست لدينا قيم تؤمن بها » . وإذا خلا الإنسان من القيم أصبحت كل الموضوعات الصالحة للمعالجة لا شيء .. فحين لاتصبح للإنسان قيمة تفقد الحياة معناها وتصبح شيئا تافها لا يستحق التناول وأزمة أوروبا هي أنها لم تعد تؤمن بشيء ، لم تعد تؤمن بالحياة ، ولا بشيء وراء الحياة أو قبل الحياة ، وبدون الإيمان بشيء ما تصبح الكتابة شيئا في الفراغ . وحين توجد التزعة الأدبية لدى إنسان في هذا المناخ العدمي تفرق نفسها في الشكل وتعتبره ملاذها الوحيد . ومن هنا تعود قضية الفن للفن بمعناها الصحيح ، والذي لم ينطبق على الفن الأوروبي في أى عصر من العصور ، كما ينطبق عليه الآن ، ليس في الأدب وحده ، بل في الموسيقى والفنون التشكيلية أيضا .

وظاهرة أخرى تلفت الأنظار في فن « الرواية » الحديثة هي التزعة الميتافيزيقية . ومع أن « الرواية » لم تخل يوما من موضوعات الفلسفة ، إلا أن الاتجاه الحديث في الرواية يجعل للفلسفة الميتافيزيقية مكانا واسعا فيها .

وهذه الظاهرة أيضا دليل آخر على أزمة الحضارة الأوروبية . ففي فترات الاستقرار والازدهار الصناعي الذي عاشته أوروبا قبل أن تمزقها التناقضات الحديثة ، سيطر عليها العلم التجريبي ، فازدهرت أو تجاهلت القيم الروحية ، كما يتعرض جسم الإنسان لأزمة بيولوجية أو نفسية تتعرض الحضارة للأزمة . وكما يستيقظ الإنسان على أزمته ليهيئ عن ملاذه في القيم الروحية فالحضارة تفعل هذا أيضا عندما يفلس الإنسان وعندما تفلس الحضارة تتذكر الله

كانت أوروبا تؤمن بالعلم ثم فقدت الإيمان به ، ومن هنا بدأت تتجه للميتافيزيقا .
وإذا كان لكاتب أن يتحدث عن تجاربه في مجال الحديث عن قضية عامة ، كمستقبل
الرواية ، فإني أستمع لنفسى أن أضرب مثلا برواية « أولاد حارتنا » لأنها في الواقع كانت
صدى للتفكير في أزمة العصر الحديث .
في هذه الرواية ظن العلم أنه في غنى عن الجبلاوى فقتله ، وهذه النهاية توصله إلى
الحواء ، وإلى الأحساس بمرارة الحياة ، وهي النتيجة التي وصل إليها البيركامي حين اعتقد
أن الحياة لا معنى لها ، وأن العبث هو المعنى الوحيد .
ومن الناحية الموضوعية فإن إنكار المعاني العليا في الحياة إذا كان يجد أدلة وبراهين ،
فاحتمالات وجودها ليس أضعف من احتمالات إنكارها . وهذا الإنكار غير المقطوع
بصحته خطأ أخلاقي ، يصل بالإنسان إلى أقصى درجات اليأس .
وحين كان الإنسان يؤمن بالمجتمع ظهرت الرواية الواقعية والرواية الطبيعية ، فلما بدأت
فترة الشك في المجتمع والعقل عادت جميع الأسئلة القديمة التي غمرها النجاح في النسيان
تلع في طلب الإجابة عليها .
وقد يقال - فيما يختص بمستقبل الرواية - إن الطابع الجديد للعصر هو طرح الأسئلة
ومحاولة الإجابة عليها ، وأن الجدل العقلي هو الصفة الغالبة للتفكير المعاصر ، وبالتالي فإن
الشكل الأدبي المناسب لأزمة العصر هو المسرح ، باعتبار أن المسرح هو الشكل الفني الذي
يرتكز أساسا على الجدل والحوار وصراع الأفكار .
وبهذا يرى القائلون بانتهاء عصر « الرواية » أن الموقف الميتافيزيقي السائد لا يجد مجاله في
التعبير عن نفسه في إطار الرواية ، بل يجده في المسرح .
وهذا صحيح إلى حد ما ، فالرواية قد تضرر قليلا بالنسبة إلى النشاط الذي قد يلحق
المسرح . والأزمة الحالية ليست أبدية فالتقدم يسير في طريقه ، وما يبدو الآن من بوادر
الأزمة في المجتمعات الأوروبية قد يكون نهاية حضارة وليس نهاية الإنسانية .
ومع ذلك فالرواية لم تقف مكتوفة اليدين بإزاء الموقف الجديد ، إنها تغير أسلوبها في
العلاج ، وتكتشف « فنية » جديدة لها . وهو الذي يفسر المحاولات الجديدة في الرواية
المعاصرة . وعندما كانت الرواية تهتم بالحياة في حد ذاتها كان الأسلوب الروائي التقليدي
أنسب شيء لها ، وكانت الشخصية الإنسانية تظهر بكل تفاصيلها .
أما حين تتحول الحياة إلى مشكلة لا يصبح الإنسان شخصا معينا ، بل مجرد إنسان .
ليس هو شخص بالذات يتميز عن سائر الناس بتفاصيله الخاصة وذاتيته .. ولهذا تختفى

التفاصيل ، ويختفى السرد ، وتتصدر المناقشة كل العناصر الأخرى . ومثلا رواية « أولاد حارتنا » مع أنها تروى تاريخ الإنسانية كلها تعتبر من حيث الحجم أقل من جزء من أجزاء رواية كثرلثة بين القصرين .

وعندما يكون الإنسان أمام مصيره وجها لوجه تفقد التفاصيل قيمتها ، وهذا هو الفرق بين « عرقة » بطل « أولاد حارتنا » وكمال أحمد عبد الجواد (بطل الثلاثية) . ولكن إذا حاولت الرواية تجديد نفسها بالطريقة التي سار عليها جريه فن المؤكد أنها مستتهى ، فن الغريب أن جريه لا يؤمن أيضا حتى بالعلم .

ومستقبل الرواية فى ظل ظروف العصر قد يكون مشكلة بالنسبة لكتاب القيم المهارة ، وقد يكون البحث عن تكنيك جديد شيئا هاما بالنسبة لهم . ولكن من خلال تجاربي فى الرواية لم أشعر بمشكلة التكنيك بهذه الحدة ، بل إني أحلها بمنتهى البساطة . فالمضمون الذى أفكر فيه وما وراءه من انفعال هو الذى يحدد لى الشكل دون عناء ، ودون اكتراث بقدمة أو جدته . التكنيك بالنسبة لى مناسب أو غير مناسب ! .

وحين كنت مشغولا بالحياة ودلالاتها كان أنسب أسلوب لى هو الأسلوب الواقعى الذى قدمت به أعمالى لسنوات طويلة . كانت التفاصيل سواء فى البيئة أو الأشخاص أو الأحداث على قدر كبير من الأهمية . وهو أسلوب يعكس الحياة فى جملتها ، وقد تنبثق منه الأفكار بطريقة غير مباشرة .

أما حين بدأت الأفكار ، والإحساس بها يشغلنى ، لم تعد البيئة هنا ، ولا الأشخاص ولا الأحداث مطلوبة لذاتها . الشخصية صارت أقرب إلى الرمز أو النموذج ، والبيئة لم تعد تعرض بتفاصيلها ، بل صارت أشبه بالديكور الحديث ، والأحداث يعتمد فى اختيارها على بلورة الأفكار الرئيسية .

والخطورة هنا أن تفرض الفكرة نفسها على الواقع فلا تتلاءم معه ، أو تضطر لأن تخلق له واقعا خاصا ، ولكن حين تتبع الفكرة من الواقع ونتيجة لمعيشة خصبة له ، لا يوجد التناقض بينها وبين الواقع حين تحاول التجسد فى شكل من أشكاله .

على أن هناك صعوبة يواجهها الكاتب ، إذ ينبغى أن تأتى الأحداث والأشخاص والجو العام للعمل الفنى بصورة طبيعية بعيدة عن افتعال الصنعة والتدبير المسبق . وهو ما يبعد هذا المنهج فى التعبير عن الأدب الفكرى .

والفرق الأساسى فى اعتقادى بين هذه الطريقة وبين الأدب الفكرى المعروف ، كما عند كفاكا مثلا ، هو أن كفاكا خلق عالما له أبعاد خاصة غير عالمنا ، عالم مختلف يصح أن

الإنسان فيه توجه له تهمة لا يعرفها ، في موضوع غير معروف . عالم تستساع فيه مثل هذه الأحداث ، ومثل هذه الطريقة . فالأفكار هنا خلقت لها عالما يناسبها . وفي مسرحية شهر زاد لتوفيق الحكيم مثل آخر على خلق واقع خاص مختلف عن الواقع المألوف ليخدم الفكرة . فليس مألوفا في الحياة العادية أن يسلك الملك شهريار سلوكه المعروف في المسرحية . إن لهذه الأعمال واقعها الخاص ولا ينبغي أن يقارن بالواقع العادي .

وفي محاولاتي الأخيرة تنبع أفكارى من الواقع ، لأنه هو الذى يوحى بها ، وبالتالي فإنها تعود إليه دون أن يكون هناك فرض أو تناقض .

ولست هذه المحاولات شيئا جديدا على الأدب ، فكثير من الكتاب ، في العصور الأدبية المختلفة ، تحولوا من الطبيعية إلى التعبيرية ، مثل سترندبرج وتوماس مان وأونيل وهيننجواي .

والرواية كشكل فني مرنة جدا ، وتستطيع أن تهضم جميع الأشكال الفنية السابقة عليها كالمرح والشعر والملحمة ، فكما قد تقوم على الاسترسال ، من الممكن أيضا أن تقوم على الشكل الدرامي الأصيل إلى التركيز ، وإلى إعطاء الصدارة للحوار . وهى تستطيع أن تناقش الفكر كما تستطيع التعبير عن الحياة . بل إنها تستطيع أن تعرض مناقشات طويلة وعويصة مما يعتبر إدخاله في المسرح مغامرة من المغامرات ، مثل المناقشات التى دارت في رواية « الجبل السحري » لتوماس مان . أو كالمناقشات التى عرضها بزومت في « الزمن المفقود » وهى مناقشات طويلة وخاصة في الفلسفة والفن من الممكن أن تجتأ من الرواية لتصدر في كتب منفردة .

وبالتالى فإنى لا أعتقد أن تجاربي الجديدة في الرواية لها صلة بالأزمة الأوروبية ، فهذه أزمة خاصة جدا ، ومازال مجال الرواية متسعا أمام الروائيين في كثير من دول العالم التى تملك فلسفة حياة وعقيدة إنسانية .

وللرواية أخيرا ميزة كبرى تمتاز بها عن سائر الأشكال الأدبية ، فهى تخاطب الإنسان كفرد واع مفكر دون أن تعتمد على أى سحر . بينما الأشكال الجماعية تتطلب من المتلقى الوجود في حالة سلبية تامة كالسينما والتليفزيون والإذاعة والمسرح إلى حد ما . والمتلقى في السينما لا يبذل جهدا خلقيا ، بينما هو مع الرواية يلعب دورا خلاقا ويشترك مع المؤلف في تحويل الكلمات إلى وقائع وأحداث وانفعالات .

وهناك قضية كانت تلح على دائما ، وهى قضية الالتزام ، لأن الالتزام ينقذ الفن من الانتحار في القوالب الشكلية ، وهو الأمر الذى تتجه إليه الرواية الأوروبية الحديثة . ومع

أنه من الصعب جدا تصور وجود كاتب غير ملتزم ، أو حتى وجود مواطن غير ملتزم . إلا أن الالتزام بمعناه الاصطلاحي هو التزم بموقف تقدمي من الحياة . ولكني أعتقد أن أساس الفن الوحيد هو الصدق . فالكاتب الاشتراكي ليس من الضروري أن يكون ملتزما بالاشتراكية لتلحقه صفتها . بل يكفي أن يكون اشتراكيا لتظهر آثار اشتراكيته فيما يعمل وهو ملتزم بالالتزام الأساسي والوحيد في الفن ، وهو الصدق . وهذا الأساس يخرج الفن المقتعل من نطاق الفن . ولعله أفيد للأدب وللمجتمع أن يوجد كاتب رجعي مخلص من أن يوجد كاتب اشتراكي مقتعل . لأن الرجعي المخلص سيثير تفكير القارئ والناقد ويخلق مجالا للصراع تزداد الأفكار من خلاله وضوحا ، أما الاشتراكي المقتعل فيسقط افتعاله على الاشتراكية ويسىء إليها .

من « عبث الأقدار » إلى « السراب »

محمود أمين العالم

لسنا في حاجة إلى بحث لإثبات أن الرواية العربية عند نجيب محفوظ قد مرت بمراحل ثلاث . إنها مسألة بينة بذاتها . ولكن بماذا نسمى هذه المراحل ؟ . هنا ندخل في تقييمها وتحديد معالمها ! وسأتعسف وأطلق عليها اسم المرحلة التاريخية فالمرحلة الاجتماعية ثم المرحلة الفلسفية . ولكن .. لماذا أعتبر هذا تعسفا ؟ .

أليست النظرة الأولى لتلك المراحل تكاد تؤكد هذه التسميات لها ؟ . هذا صحيح من حيث النظرة الأولى .. ولو تأملنا هذه المراحل بنظرة تأملية أكثر عمقا ، لتبين لنا أن المرحلة التاريخية رغم موضوعها التاريخي القديم ، تعبر عن مضمون اجتماعي خالص ، تعبر عن رؤية فلسفية كذلك . وتبين لنا أن المرحلة الاجتماعية رغم اجتماعية موضوعها ومضمونها فهي تتسلسل تسلسلا تاريخيا ، وتتحرك دائما في إطار تاريخي ، وتتضمن رؤيا فلسفية كذلك . وتبين لنا أن المرحلة الفلسفية لا تنفقر أبدا إلى الطابع التاريخي أو الدلالة الاجتماعية .

ولهذا فالتسميات الثلاث تسميات متعسفة إلى حد كبير ، أو لو شئنا الدقة ، تسميات من الخارج لا تتعمق دخائل كل مرحلة . ولكنها على أية حال تسميات صحيحة ، تعبر عن الطابع العام الغالب ظاهريا على كل مرحلة ، فضلا عن أنها تسميات ضرورية ونافعة من الناحية المنهجية .

والمهم ألا نخدعنا هذه التسميات ، فتقيم حوائط صينية بين المراحل الثلاث ، نحرمنا من متابعة النمو والتداخل بين هذه المراحل جميعا .

المرحلة التاريخية :

تتسب إلى هذه المرحلة رواياته الثلاث الأولى وهي : عبث الأقدار وراادويس وكفاح طيبة .

وهى جميعا تجري فى التاريخ المصرى القديم . ولكن الروايات الثلاث تشير إشارات رمزية واضحة إلى واقع اجتماعى حديث فى حياة بلادنا أثناء الحكم الملكى البائد . فالرواية الأولى تدين سياسة الاستبداد والقوة وتسخر منها . والثانية تنتقد الفساد الملكى .

والثالثة تغلى بقضية تحرير وادى النيل سياسيا واجتماعيا . والروايات الثلاث تتخذ منهج المتابعة التاريخية ذات الاتجاه الواحد فى بناء أحداثها ، وإن اختلفت الروايات الثلاث من حيث التفاصيل . ولا شك أن هذا المنهج نابع من طبيعة الموضوع التاريخى نفسه ، فضلا عن أنه مرحلة أولى فى تطور موهبة التأليف الروائى .

عبث الأقدار :

وتبدأ الرواية بطرح قضية أساسية هى قضية الصراع بين القوة والقدر ، بين الإرادة الفردية والحتمية القدرية ، يلتقى فرعون بعراف يؤكد له أن خليفته لن يكون منه ، وإنما سيكون ابن الكاهن الأكبر لرع . ويجرى فرعون وراء هذه النبوءة بعسكره لإخماد أنفاسها . ولكن عبثا . الطفل ينقذ من طغيان فرعون وتتاح له حياة آمنة .

وتجرب أحداث الرواية مع حركة نمو الطفل ، وحركة اقترابه من تحقيق النبوءة ، وتتوالى الأحداث والمصادفات ثم تنتهى بأن يقول فرعون : منذ نيف وعشرين عاما أعلنت على الأقدار حربا شعواء وتحديث بها إرادة الآلهة تنتهى وهو يقر بأن « الرب صفع كبرياءه » .

إن الرواية تتمحن القضية الفكرية وتفصل فيها بالأحداث والوقائع . وتتخذ منهج تنمية الأحداث فى اتجاه واحد هو حركة الطفل منذ أن هرب من سيف فرعون حتى يبلغ سلم العرش .

رادويس :

أما الرواية الثانية رادويس فتبين فيها نفس المتابعة ذات الاتجاه الواحد فى بناء أحداثها .

فالفصل الأول يبدأ بموكب ملكى فى زيارة معبد وينتهى الفصل بانتهاء الموكب ويبدأ الفصل الثانى بعودة الموكب إلى القصر ، أما الفصل الثالث فيعود بنا إلى الشارع حيث اختفى الموكب لنتلقى برادويس الغانية فى عربتها ، ونعود معها هى كذلك إلى قصرها وهناك

نقع أغلب فصول الرواية ، نقع فيه في الفصل الرابع ، فإذا كان الفصل الخامس التقينا فيه بفرعون زائراً محباً . أما السادس فنواصله مع رادوبيس بعد أن غادرها فرعون وهكذا . أغلب فصول الرواية تتوالى وتتابع لتنمية الحدث الواحد . وأحياناً يكون الانتقال من فصل إلى فصل آخر هو مجرد استمرار لنفس الحادثة ولنفس الموقف . ففصل ينتهى مثلاً عن رادوبيس هكذا « ثم راحت في تفكير عميق » ثم يبدأ الفصل التالى مباشرة على هذا النحو « وتهدت رادوبيس عن قلب مقروح وقالت لنفسها وأسفاه » الخ . الخ . والرواية تصور ملكاً عابثاً منغمساً في ملذاته ، في تناقض مع مصالح الكهنة والشعب ، وتنتهى بموته في أحضان رادوبيس .

كفاح طيبة :

أما الرواية الثالثة فيطغى عليها الطابع التاريخي طغياناً كاملاً شكلاً وموضوعاً . وهى تنقسم إلى أبواب ، لكل منها عنوان محدد ، كما ينقسم كل باب إلى فصول . والأبواب في الحقيقة مراحل تاريخية . والفصول بدورها امتدادات مباشرة يفضى بعضها إلى بعض لا من الناحية التاريخية العامة فحسب ، بل من ناحية الأحداث الجزئية التفصيلية كذلك ، كما رأينا في رادوبيس .

فنهاية الفصل الرابع مثلاً خاصة بموت الملك وتنتهى بالكلمة التالية : « ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح » . ويبدأ الفصل الخامس هكذا « وسجى الطبيب الجثة وسجد الرجال حولها » الخ . وهكذا .

وهذه الرواية تصور صراع أحمر لطرد الهكسوس من مصر وتحرير وادى النيل منهم وجعل مصر للمصريين ، فضلاً عن تحقيق التقدم الاجتماعى للشعب . وإلى جانب هذه السمة العامة التى تتسم بها هذه الروايات الثلاث مواعنى بها التنمية للأحداث في اتجاه واحد مطرد بما يعبر عن طابعها التاريخى العام ، فإنها تتسم بسمات أخرى أساسية بعضها ينبع من ذلك الطابع التاريخى ، وبعضها مجرد سمات مصاحبة ، متوازية معه .

أولاً : التحديد الزمنى عنصر بالغ الأهمية في بناء الأحداث وتطورها ، وقد يكون هذا التحديد إشارة إلى فصل من فصول السنة ، أو إلى شهر من الأشهر ، وقد يكون يوماً من الأيام وقد يكون فترة من فترات هذا اليوم ، نهراً أو ظهراً أو عصرًا أو ليلاً .. وهكذا .

وقد يبلغ هذا التحديد مبلغا من الدقة فتحدد السنة والشهر بل واليوم تحديدا كاملا دقيقا . ونجد هذا المستوى من التحديد في بعض روايات المرحلة الاجتماعية .

والحقيقة أن هذا التحديد ليس مسألة اعتبارية في معمار الرواية عند نجيب محفوظ ، إنما هو تعبير عن تنظيم داخلي في العلاقة بين الأشياء والأحداث والأشخاص . إن كل شيء يتحقق في إطار زمني منتظم . وهذا تعبير عن نظام شامل ، تعبير عن حتمية وضرورة في علاقة الفرد بالطبيعة ، بالكون ، بالمجتمع ، بالآخرين ، بالنظام العام .

كل شيء مترمّن بزمن ، متحرك مع زمن ، أو ضد زمن ، كل شيء في علاقة ما مع نظام شامل . وبحسب طبيعة هذه العلاقة تتحدد كثير من المصائر . وهذه العلاقة ليست علاقة ثبات وتحجر . بل هي تعبير كذلك عن تغير دائم ولكنه تغير في نظام ، تغير في إطار ، تغير في علاقات مع أشياء وأحداث وأكوان . وستأمل هذه الظاهرة في مختلف رواياته .

ثانيا : ومن ذلك الطابع التاريخي ، ومن ذلك الرباط من النظام والحتمية ، تنبع سمة أخرى من سمات تلك المرحلة بل من سمات الرواية عند نجيب محفوظ في مراحلها الثلاث . هذه السمة هي بروز المصادفة كعامل أساسي في بناء الأحداث وتطورها . والمصادفة هنا ليست خروجا عن النظام كما قد يفهم البعض ، وليست كذلك تخلصا في بناء الرواية وركاكتها ، وإنما هي تعبير عن حتمية وقدرية ، عن ضرورة أعمق من تدبير الإنسان الفرد ، وأبعد من إدراكه المباشر .

المصادفة عنده ليست غير المتوقع . وإنما هي الضروري . هي الحدث الذي لم يدبره الإنسان الفرد ولكن فرضته الحتمية الكونية أو القدرية أو الاجتماعية أو الفلسفية . إن المصادفة لم تكن في ظاهرها مناقضة للمنطق الفردي ، فإنها تعبير عن منطق أرقى من منطق الفرد . وسنجد المصادفة تصوغ الأحداث وتبينها دائما في المرحلة التاريخية ، كما سنجد لها تواصل المهمة نفسها في المرحلة الاجتماعية والفلسفية على السواء . وسندرك أنها محور أساسي من محاور المعمار الفني في روايته ، ومحور أساسي من محاورها الفلسفية كذلك . عبث الأقدار تقوم كلها على المصادفات الضرورية !! .

فالرواية صراع بين القوة والقدر . وينتصر فيها القدر بسلسلة من المصادفات التي تحتم في النهاية إرادة الآلهة .

المصادفات إذن تخطط قدرى في بناء الأحداث وتنميتها .

وفي كفاح طيبة مثلاً نجد أن أخطر أحداث الرواية التي تقيمها وتطورها وتبنى هيكلها

العام وتبرز مدلولها تتم بمصادفات خارقة .
ولو كانت المصادفة تبني الحدث الفني فحسب لقلنا إنها نقيصة فنية ، ولقلنا إن البناء
ركيك مفتعل . ولكنها هنا لا تبني الهيكل الروائي فحسب وإنما تفلسفة كذلك ، ويرتبط بها
مبنى الرواية بمعناها ارتباطا وثيقا .

ولا تقتصر المصادفة عند مفهوم القدرية اللاهوتية في روايات نجيب محفوظ وخاصة
الأخيرة منها ، وإنما تتخذ مفاهيم أخرى كما ذكرت أنها توحى بالحنمية العامة أو النظام
الشامل . وهي بهذا توحى بشائية خصبة في أدب نجيب محفوظ بين القدر والقانون
العلمي ، بين الإيمان والعلم المادى .

ولن نستطيع أن نفهم بعمق حقيقة دور المصادفة في بناء رواية نجيب محفوظ وفي
فلسفتها إلا في تحليلنا لرواياته جميعا . ولكن حسبنا أن تؤكد هنا هذا المعنى فيما يتعلق
بالمرحلة التاريخية وهو أن المصادفة تشارك مشاركة فعالة في بناء أحداثه ، وفي إعطاء معنى
من الضرورة القدرية لحركة الأشياء والبشر وللعلاقة المتشابكة بينهم جميعا .

ثالثا : الطابع العام لأغلب شخصيات هذه المرحلة التاريخية أنها هياكل خارجية ذات
أقنعة تاريخية عامة . فنحن لا نكاد نحس بجوارها الباطنى . ويغلب على حوارها عامة
الطابع العقلى التجريدى الخالص . لانحس بخصوصيته وحيويته ، إنه حوار زاهر
بالمعلومات أكثر مما يكون زاهرا بخصوصية نفسه أو وحدانية .

شخصيات الروايات شخصيات عامة . هم الملك والكاهن والقائد .. الخ . حقا قد
نجد بعض الشخصيات الحية مثل طاهو في رواية رادويس الذى يذكرنا بياجو ومثل الأم
توتيشيرى أو اللص في رواية كفاح طيبة ، إلا أن الأنماط أو حتى الشخصيات الحية لم
تتضح بعد في تلك المرحلة .

رابعا : انعكس الطابع التاريخى العام على البناء اللغوى للرواية سواء في السرد أم
الحوار . فالسرد القصصى تغلب عليه الفخامة والرصانة والأبهة . والحوار فصيح غاية
الفصاحة يبلغ أحيانا حد الثقل والتعقيد .

إن ما يحكم الحوار هو التعبير عن فكرة معينة وتأکید لمضمون محدد ، وتسجيل لمعنى
من المعانى أو تحليل لموقف من المواقف .

وهكذا تصبح اللغة في كثير من المناقشات - كذلك التناحر المتبادل بين أحمرس بعد
انتصاره على الهكسوس وبين امريديس - مثقلة بالأفكار والمعلومات ، أكثر منها تعبيرا عن
شخصية أو وجدان أو موقف . إنها لغة ذات طابع تاريخى كذلك .

وفى هذا الإطار من الإحساس التاريخى بالمهابة والفخامة ، وفى إطار الحرص على التسجيل والتحليل ، كان من الطبع أن تكون اللغة العربية فى أدق وأرصن تعابيرها سردا وحوارا ، هى وسيلة التعبير ولعل هذا يفسر كذلك استمرار استخدام اللغة العربية الفصيحة حتى فى المرحلة الاجتماعية والفلسفية ، وذلك لاستمرار هذا الحس التاريخى الشامل كما سنرى .

هذه هى السمات الرئيسية فى تقديرى التى يتسم بها بناء الرواية فى المرحلة التاريخية ، وإن لم تكن سمات قاصرة على هذه المرحلة وحدها إنما منجدها ممتدة متطورة فى المرحلتين التاليتين .

بداية المرحلة الاجتماعية :

تبدأ هذه المرحلة برواية القاهرة الجديدة وتنتهى بالسكرية . وفى هذه المرحلة كذلك - كما ذكرنا من قبل - لا نفتقد المتابعة التاريخية فى بناء الحدث الروائى ، ولا نفتقد التحديد الزمنى الدقيق لحركة الأحداث ، ولا نفتقد كذلك الإحساس بالحمية والقدرية الشاملة . إلا أن المتابعة التاريخية لن تظل على حالها ، مجرد تنمية للأحداث ذات اتجاه واحد ، وإنما ستتوسع وتتعدد اتجاهاتها . ولكن لعل أخطر ما يصادفنا فى هذه المرحلة بروز الأنماط الاجتماعية والشخصيات الحية بدلا من الأقنعة التاريخية .

سنحس فى هذه المرحلة بالفرد الخاص دون أن نفقد الإحساس بالاجتماعى العام أو التاريخى الشامل ، بطريقة أو بأخرى .

وفى هذه المرحلة ستنبض القضايا الاجتماعية ويتضح الصراع الاجتماعى ، وستظل اللغة على حالها من الرصانة يغلب عليها طابع التسجيل والتحليل ، إلا أنها قد تمتلئ أحيانا بحرارة التجربة الخاصة والوجدان الخاص .

القاهرة الجديدة :

وتبدأ هذه المرحلة برواية القاهرة الجديدة . وتبين فى هذه القصة استمرار التخطيط الخارجى لرواية عبث الأقدار .

فلقد بدأت عبث الأقدار بمناقشة حول القوة والقدر ، ثم سارت أحداث الرواية

بمناقشة ما انتهت إليه الأحداث .

وكذلك تبدأ هذه الرواية بمناقشات حول العديد من القضايا الاجتماعية ، ويختلف الرأى فيها ويتنوع بين ثلاثة أشخاص أولهم واحد من الإخوان المسلمين هو مأمون ، والثاني شيوعى هو على طه والثالث محجوب وهو نمط للإنسان غير المبالى غير المتمى الذى يتخذ من كلمة « طظ » حكما وتقييما لكل شيء .

وتستخدم المناقشات أساسا حول المسلك الأسلم لعلاج الواقع الاجتماعى الفاسد ، ويقترح مأمون وعلى من الحلول المختلفة ما يتفق مع رأيها . أما محجوب فليس له من اقتراح غير « طظ » على كل شيء على المجتمع والأخلاق والمبادئ .

ثم تجرى الرواية بعد ذلك بمحجوب وحده أساسا ، كأنما هى اختبار لدعواه فى محك الواقع . ولا يلبث محجوب بفضل فلسفته أن يصبح قوادا ، يتروج من حبيبة على لتكون عشيقة لوزير يعمل سكرتيرا له ، ولم يكن زواجه منها على هذا النحو إلا ثمنا لوظيفته تلك !! . وتنتهى الرواية كلها بمناقشة بين مأمون وعلى يجتبران فيها أفكارهما فى ضوء ما حدث لمحجوب .

نفس التخطيط الشكلى الخارجى لعبث الأقدار مع اختلاف موضوعيهما ! . ورغم تنوع وتعدد شخصيات هذه الرواية ، وتعقد موضوعها ورغم أنه موضوع اجتماعى خالص ، وليس موضوعا تاريخيا ، فإنها تنتهج فى بنائها العام نهج التسلسل التاريخى كذلك ، أى تنمية الأحداث فى اتجاه واحد أساسا .. حقا إنها أكثر نضوجا من حيث البناء الفنى من روايات المرحلة السابقة فكل فصل فى الرواية له وحدته وأحداثه الخاصة . والفصول تنمو إلى بعضها نموا مطردا ، ولا تتداخل الأحداث بين الفصول كما رأينا فى تلك الروايات . ولكن الرواية ماتزال تنهج الاتجاه الواحد فى بناء أحداثها وعلاقاتها . إنها بغير شك تنعطف انعطافات جانبية لتصور شخصا ، أو تثير جدلا ، أو تضىء ذكرى ، أو تفرش على أحداث فرعية محيطة بالحدث الرئيسى ، ولكن الأساس فى تنمية الرواية هو التنمية فى اتجاه واحد . هو أساسا اتجاه حركة محجوب النفسية والاجتماعية . ولعل مصدر هذا هو ارتباط الحدث الأساسى فى الرواية به .

وتحيط الرواية الحدث الأساسى بملاحظات سياسية واجتماعية عامة . فتاريخها حوالى عام ١٩٣٣ ، الحزب النازى نجح فى ألمانيا ، وسقطت حكومة صدق ، ولكن المجتمع المصرى يعج بالفساد والرشوة والترييف العام لكل شيء والدعارة والانحراف الجنسى والاستسلام للاستعمار والرجعية ، والحفلات الخيرية التى يقيمها الارستقراطيون والارستقراطيات للعبث

والفجور. في هذا الإطار العام يمضي محجوب يبحث عن طريق ، ويحدد موقفا من الحياة ، فيقوده طموحه وأنانيته ووصوليته إلى الوظيفة اللامعة ، ولكن بغير ضمير أو شرف. ولكن الحدث الرئيسي يواصل طريقه مؤكدا ذاته. ونستطيع أن نحدد السمات الأساسية لهذه الرواية في العناصر الآتية :

١ - لأول مرة يقدم نجيب محفوظ نموذجاً إنسانياً ونمطاً اجتماعياً ناضجاً ، هو نمط محجوب وينسج قسماته النفسية والاجتماعية بعناية فائقة تارة خلال استبطانه لنفسه ، وتارة أخرى خلال مواقفه العملية ومنهج مواجهته للأحداث المختلفة .

أما بقية الشخصيات فأبرزها نجيب محفوظ إبرازاً عقلياً خالصاً ، بالتحليل والتفسير والاستقصاء . صفحات كاملة يعكف على تحليل شخصية مأمون مثلاً أو شخصية علي طه ، أخلاقه ، عواطفه ، أفكاره ، أسرته .

وهو لم يحرم محجوب من هذا التصوير العقلي التحليلي ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك تعمق وجدانه ، وكشف لنا أسرار النفس باصطدامه بالأحداث . أما بقية شخصيات الرواية فلم تحظ بهذا . ولذا بقيت في معظمها ملامح فكرية عامة نتيئها من الخارج ، أكثر منها شخصاً حياً نلمس حياتها الباطنية الفنية .

ولعلنا نستثني من هذا شخصية إحسان زوجة محجوب اسما ، وعشيقه الوزير فعلا ، فلقد اعتنى نجيب محفوظ بإبراز بعض جوانب داخلية في بنائها النفسي .

والحقيقة أنه يغلب على بنائه للشخصيات في هذه الرواية الاتجاه الطبيعي ، لا بمعنى التصوير الفوتوغرافي كما يفهم خطأ من هذا التعبير ، وإنما بمعنى الاستقصاء الدقيق والتحليل التفصيلي لمختلف تلك الشخصيات ، وبيان الأسباب والعلل النفسية والاجتماعية وراء مسلكهم وشخصياتهم .

٢ - ماتزال المصادفة عاملاً من عوامل بناء هذه الرواية كذلك وإن تكن تتخذ مدلولاً رمزياً جديداً أكثر رهافة من المدلول القدرى الذى وجدناه في المرحلة التاريخية . فلتأمل مثلاً هذه المصادفة الغليظة في ظاهرها : أن يكتشف محجوب أن الفتاة التي يراد له أن يتزوجها هي إحسان حبيبة على .

لماذا اختار نجيب محفوظ هذه الفتاة من دون الناس جميعاً ؟ لماذا لم تكن فتاة جامعية أخرى ؟ ! .

في تقديري أن نجيب محفوظ بحرصه على هذا اللقاء بين إحسان وبين محجوب ، إنما يريد أن يقول شيئاً ضرورياً عبرت عنه مصادفة هذا اللقاء ، يريد أن يحدد قانوناً تفرضه

طبيعة الأشياء الاجتماعية . يريد أن يقول إن الكلمات الثورية وحدها لا تستطيع أن تنقذ فتاة مثل إحسان السقوط في وهدة الرذيلة .

لم يكن جهد على طه إلا العناية بالكلمات الثورية وحدها ، كان دائما يقف من إحسان حييته موقف المعلم . ولكن فلسفته لم تتخذ موقفا عمليا فعلا بعد ، ولذا عجزت عن إنقاذ إحسان . وفي مثل ذلك الإطار الاجتماعي الفاسد ، وفي مثل ظروفها الخاصة من فاقة عائلية وعوز ، كان من الضروري أن تنزلق إلى الرذيلة ، وأن تلتقى بمحجوب هذا اللقاء الزوجي المشين . كان كلاهما في الحقيقة ضحية فقره وطموحه ، وكان لقاؤهما المصادف معنى من معاني وحدة المصير وضرورته .

وفي هذا المثال تلعب المصادفة دورا مزدوجا في بناء جانب هام من الهيكل العام للرواية وفي بناء جانب هام كذلك من فلسفتها الاجتماعية كذلك ! .

٣ - نلمح في بلاء الرواية بداية ارتباط وتفاعل بين الطبيعة الخارجية والأجواء النفسية للرواية ، وخاصة الجو النفسي لبطلها محجوب . فيكون مثلا شهر أمشير بزعايبه وعواصفه وبرودته هو الإطار الخارجي لأزمة من أشد أزماته النفسية ، كان يناصب فيها الدنيا العدا ، وسنجد هذا التوازي بين الحالة النفسية والحالة الطبيعية عنصرا بالغ الأهمية في تعميق الإحساس الدرامي بل في بناء كثير من الأحداث والمواقف في رواياته كلها .

٤ - يطل في هذه الرواية عنصر سيكون له أهمية بالغة كذلك في بنائه الروائي فيما بعد . وسيكون محورا لكثير من الأحداث في رواياته جميعا ذلك هو النافذة . والنافذة في أدب نجيب محفوظ قد نجد لها امتدادا وتطويرا للدور المتمتع الذي لعبته النافذة والشرقة في رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم ، ولكنها تتطور في أدب نجيب محفوظ . وهي وإن لم تكن لها في هذه الرواية دلالة كبيرة معمقة كتلك التي ستعدها في الروايات الأخرى ، إلا أننا نجد نقطة بدايتها في هذه الرواية .

إنها تعبر في الحقيقة عن إمكانية مفتوحة للحوار مع الآخرين والالتقاء بهم . وسيتنوع بالطبع هذا الحوار وسيختلف من رواية إلى أخرى .

٥ - نجد في بناء هذه الرواية بروزا لظاهرة الثنائية في تركيب رواية نجيب محفوظ عامة . حقا قد نجد بعض آثارها في المرحلة التاريخية السابقة إلا أنها تتخذ ابتداء من هذه الرواية وضعاً أشد رسوخا ووضوحا . وأعني بها تلك الثنائية الفكرية بين رجل الإيمان ورجل العلم ، رجل المثالية ورجل المادية ، في هذه الرواية ، وما تفرضه هذه الثنائية في الموقف الفكري من تشكيل خاص لبناء الرواية .

فهذه الرواية تبدأ بصراع فكري أساسي بين مأمون وعلى طه ، وتنتهى صفحاتها الأخيرة بهذا الصراع كذلك ، وقد يتخذ هذا الصراع بين طرفي هذه الثنائية ، مظهرها هامشيا في البناء العملي لهذه الرواية ، إلا أننا مع تطور روايات نجيب محفوظ بعد ذلك سنجد دائما هذه الثنائية تمتزج بالبناء الأساسي لرواياته ، وتشكل عاملا أساسيا من عوامل هيكلها الفني وفلسفتها الاجتماعية .

ويكاد يقوم عالم نجيب محفوظ دائما على هذه الثنائية ، وتكاد تكون المأساة في هذا العالم هي في الخروج عن واحد من طرفي هذه الثنائية . ولعل مأساة محجوب دليل على ذلك . إن مأساته نابعة من عدم انتماؤه ، من عدم التزامه بطريق من الطريقين ، طريق الإيمان أو طريق العلم المادى .

والغريب أن نجيب محفوظ يجعل من كلا الطريقين وسيلة من وسائل التنظيم الوجداني والفكري للحياة ، ورغم ما بينهما من تناقض ، فإن مابينهما من التزام وارتباط بحتمية شاملة ، قدرية أو موضوعية ، يكاد يوحد بينهما في عالم نجيب محفوظ ، بين المثالية والمادية ، بين السماء والأرض ، بين الدين والعلم - لقاء خصب في هذا العالم ، ستيينه أكثر فأكثر كلما تعمقنا في بقية رواياته .

إلا أن هذه الرواية - كما ذكرت - هي نقطة البداية الأولى في إبراز هذه الثنائية التي ستواجهنا في كل رواياته المقبلة ممتزجة أكثر بالمعمار الفني نفسه لتلك الروايات . وإذا كنا قد أطلنا نسيا في إبراز بعض معالم هذه الرواية ، فذلك لأن تلك الإطالة ستغنيا عن الوقوف كثيرا عند بقية روايات هذه المرحلة . باستثناء الثلاثية . ولهذا سنكتفى بتأكيد بعض المعانى الأساسية فحسب . والحقيقة أننا رغم اعترافنا بالإطالة ، فلا تكاد هذه الكلمات على طولها أن تكفى في رسم صورة الهيكل العام لتلك الرواية . ما أحوج كل رواية بدراسة مستقلة بذاتها . إننى أكتفى هنا بتقديم بعض الخطوط العامة فحسب .

خان الخليل :

وإذا ما انتقلنا إلى رواية خان الخليل مستبين في بنائها بعض القسمات الأساسية التي ذكرناها عند حديثنا عن الرواية السابقة : والرواية باختصار تصور أسرة من البرجوازية الصغيرة تنقل من السكاكني إلى حي الحسين هربا من الغارات . وتحرك الرواية أساسا حول الابن الأكبر أحمد عاكف الذى بلغ الأربعين من عمره ولكنه لم يتزوج ، لم تتضح رؤيته الاجتماعية والفكرية ، يعيش في قوقعة من الحجل والتردد .

ومن خلال النافذة يلتقي بنوال وتأخذ علاقاته بها في النمو ، وبهذا تفتح له في حياته مرحلة جديدة ، لولا أن يقدم أخوه الأصغر الموظف وسرعان ما تنشأ بينه وبين الفتاة علاقة عاطفية تنتهى بالخطبة .

إلا أن الأخ الأصغر يمرض بمرض الصدر نتيجة لانهماكه في المتع الحسية ، فتتفكك الخطبة بينه وبين فتاته ثم يموت أخيرا .

ونكاد نستشعر في النهاية بداية خروج أحمد عاكف من تروده وبداية حنينه إلى تنمية علاقته من جديد مع نوال . ولكن القصة لا تقف عند هذه الحدود الخارجية . إنها تزخر بالتسجيل الدقيق المستأنى لحياة الأسرة المصرية ، تقاليدها وعاداتها في مختلف المواسم والأعياد والملابس الاجتماعية المختلفة . وهي تزخر بالمناقشات الفكرية والفلسفية والاجتماعية .

إن أحمد عاكف بطل القصة نمط آخر للامتى كذلك ، ولكن على نحو يختلف عن عدم انتماء محبوب ، ذلك لأنه عدم انتماء تابع عن عجز وخجل وتردد .

وفي مقابل أحمد عاكف نجد في الرواية طرفا لثنائية متمثلا في أحمد راشد . وهو صورة أخرى من صور على طه من الناحية الفكرية والعلمية والمادية ، وإن اختلف معه شكلا ومزاجا . وأغلب الخلاف بينهما يحتمل عبر الرواية بين القديم والجديد ، بين الصوفية والعلم ، بين السلبية والإيجابية والجمود والتغير .

وتنتهى الرواية ببداية تغيير يطرأ في نفسية أحمد عاكف . وأحمد عاكف كما سنرى هو البداية الأولى لبناء شخصية كمال في الثلاثين . ويتفق بناء هذه الرواية مع الرواية السابقة في كثير من السمات كما رأينا :

١ - الثنائية بين عاكف وراشد ولعل في التسمية نفسها رمزا لتلك الثنائية .

٢ - تتحرك الرواية أساسا حول شخصية عاكف . ولذا تكاد تقتصر على إبراز الملامح الوجدانية الدخيلة لهذه الشخصية ، مكفية فيما يتعلق بالشخصيات الأخرى بالوصف والتحليل الخارجيين . ولهذا يكاد يغلب على الرواية في حركة بنائها طابع الاتجاه الواحد كذلك .

٣ - تتحرك الرواية في إطار زمني محدد دقيق لا في حدود الفصول ، أو الأشهر فحسب بل تتحدد بعض الأحداث باليوم والشهر والعام كذلك . فأحد أيام العيد هو من الأيام الأولى من يناير عام ١٩٤٢ . وشقيق أحمد عاكف تنتهى أجازته المرضية بالدقة في يوم ٣٠ مايو عام ١٩٤٢ . وعندما نتابع مرضه نتابعه يوما يوما وشهرا شهرا .

٤ - تزدحم الرواية بالتحليل والتفصيل الدقيق لكل شيء ، والمتابعة المستأنية لحركة الأحداث والمواقف . صفحات تمتلئ بوصف محطة السكة الحديد وانتظار الشقيق هناك ، وحركة المسافرين . وصفحات كذلك تمتلئ بتفاصيل المرض والمصحة . وهكذا . وإلى جانب هذا الوصف التفصيلي الدقيق لحركة الأشياء ، تمتلئ كذلك بما يشبه التسجيل الدقيق لصور من عاداتنا ومظاهر تقاليدنا الشعبية وأغاني تلك الفترة ، فضلا عن تحليلها وتفسيرها المستأنى لنفسية أحمد عاكف ومتابعة وجدانه وفكره في أزماتها ومواقفها المختلفة .

الرواية مثقلة بالفعل بالاتجاه الطبيعي في تصوير المواقف والأحداث والأشخاص .
٥ - تبرز المصادفة كذلك كتعبير رمزي للانتظام بين الأشياء . فنوال تبسم لأحمد عاكف أول مرة في يوم ليلة القدر ، ويتم فصل أخيه رشدي يوم امتحان نوال ، وتنطلق رائحة نبتة لكلب ميت في الحارة إيذانا بموت رشدي الذي يموت فعلا بعد ذلك بقليل أو أثناء ذلك . وهكذا .

٦ - يبرز الشباك كوسيلة للتعرف والحوار والتطلع إلى الآخرين والحب . كما يبرز معه عنصر آخر سيكون له دوره المتنوع في بقية الروايات كذلك هو السطح . والسطح في هذه الرواية رؤيا شاملة على الأفق وفرصة للحديث الغرامي الخاطف ، وهو في الروايات الأخرى مجال لتربية الزهور ، أو لتربية الطيور أو للأحاديث الغرامية ، أو للاغتصاب الجنسي أو للعبور إلى جريمة قتل كما سنرى .

٧ - السرد القصصي والحوار مازال يغلب عليه طابع الرصانة العقلية والمنطق المدروس ، ولا يكاد ينبض بحرارة الوجدان الخاص إلا عند بعض الشخصيات الثانوية .

٨ - بهذه الرواية تبدأ رحلة نجيب محفوظ إلى منطقة جغرافية واجتماعية ، هي حي سيدنا الحسين والدراسة . وسنقع بها طويلا خلال أكثر من رواية له . وتشارك الطبيعة الخاصة لهذه المنطقة الجغرافية والاجتماعية ، كما تشارك عزلتها وانقطاعها عن حركة العالم ، في تغذية المأساة العامة في تلك الروايات ، وتحديد معالم كثير من أنماطها وشخصياتها وأحداثها كذلك .

زقاق المدق :

ولعل رواية زقاق المدق من أكثر الروايات عمقا في التعبير عن المأساة النابعة من الطبيعة الجغرافية والاجتماعية لتلك المنطقة كما سنرى . وأعتقد أنه قد آن الأوان أن تنتقل

كذلك إلى هذه الرواية .

وزقاق الملق تعتبر خطوة غاية في النضج في بناء روايات نجيب محفوظ . وسنجد فيها بقايا من الروايات السابقة ، ولكننا سنجد فيها كذلك انتصارات معمارية وفكرية جديدة . أما التأثيرات السابقة فنتبينها في الأمور الآتية :

١ - إن حميدة بطلة هذه الرواية هي صورة أخرى في الحقيقة من محبوب ، يحركها كذلك الطموح والفقر . أراد هو أن يخرج عن إطار حياته الضيقة بأى ثمن ، وأرادت هي كذلك أن تخرج من إطار زقاقها الضيق بأى ثمن ، فأصبح هو قوادا وأصبحت هي عاهرة . ومن شباكها المرتفع تطل على عالم الزقاق في ضيق واشمئزاز وتتطلع إلى بعيد .

٢ - الثنائية تتصل في هذه الرواية كذلك ، ولكنها أكثر امتزاجا بأحداث الرواية وحركتها الداخلية . وتقوم الثنائية أساسا بين حميدة رمزا للتمرد وعدم الرضى والطموح ، وبين السيد الحسينى رمز الرضى بالقضاء والقدر . ولكل منهما رحلة إلى خارج الزقاق هي إلى حانات الانجليز ، وهو إلى بيت الله في مكة . وقد تختلف طبيعة الثنائية هنا عن طبيعتها مثلا بين مأمون وعلى طه أو بين على عاكف وعلى راشد ، ولكنها في الحقيقة ثنائية أساسية من ثنائيات العلاقات البشرية والبناء الفنى في روايات نجيب محفوظ ، وهي تنوع وتفرع على الموضوع الأصلي كما يقال .

٣ - المصادفة ماتزال تلعب دورا كبيرا في بناء الأحداث وتوجيهها وفلسفتها .

٤ - ما يزال التحليل والتفسير النفسى الدقيق المستأنى طابعا غالبا في بناء أغلب الشخصيات وفي متابعة الأحداث والمواقف ، وينعكس على اللغة ، سواء كانت لغة السرد أم لغة الحوار ، فيطبعها بطابع التحليل والتعقيل .

ولكن إلى جانب هذه القسمات التى تكاد تشترك فيها مع الرواية السابقة فإنها تتميز بميزات جديدة منها :

١ - لا نكاد نحس بالتسلسل التاريخى في بنائها . بل تشعب وتتعدد اتجاهات التنمية لأحداثها وشخصياتها المختلفة .

٢ - رغم أن الرواية تكاد تتركز على متابعة الوجدان الداخلى لحميدة في تمرداها على الزقاق وتطلعها إلى حياة أرحب وأفسح ، إلا أنها تتعمق كذلك المشاعر الداخلية لكثير من الشخصيات الأخرى بل تنجح في بناء أكثر من نمط اجتماعى متكامل !

٣ - يتخذ بناء الرواية من الناحية الخارجية إطارا مختلفا وجديدا ، وهو إطار خارجى ، ولكنه نابع كذلك من الفلسفة العميقة للرواية . ويقوم هذا الإطار أساسا على التقابل

والصدام بين الزقاق المحدود وبين العالم الكبير غير المحدود . ومن هذا التقابل والصدام تتحرك مأساة الرواية .

فالزقاق رغم ضيقه ، ورغم ما يمتلئ به من فقر وعوز ، إلا أنه هادئ محدود الرذائل . ثم لا يلبث العالم الكبير أن يقبل عليه في أشكال متنوعة ، مرة عن طريق الأورنس الإنجليزي كقوة جاذبة تغرى بالكسب ، ومرة أخرى عن طريق مواكب الانتخابات التي يأتي معها القواد فرج إبراهيم الذي يقود حميدة إلى عالم الدعارة . والزقاق يخرج إلى العالم الخارجى في أشكال ثلاثة : إلى الحج وإلى العمل وإلى الدعارة .

والشكل الأول والثاني ليس خروجاً عن الزقاق ، وإنما هو توثيق للرابطة بالزقاق ، فالحاج الحسيني يعود من حجه لينشر الرضى والحجة والاستقرار . وعباس الحلو وحسين اللذان ذهبا للعمل في أورنس الجيش الانجليزي ، إنما ذهبا بحثاً عن مال يوطدان به حياتهما ، وخاصة عباس الحلو الذي عاد من العمل بشبكة ذهبية لحميدة ولكنه وجدها قد خرجت من الزقاق . حميدة هي وحدها التي خرجت على الزقاق . بتمردها عليه وطموحها إلى شيء أكبر منه . حقا قد يشاركها هذا إلى حد كبير حسين كرشه ابن المعلم كرشه صاحب القهوة في الزقاق ، ولكنه سرعان ما يرتبط ارتباطات اجتماعية تفرض عليه العودة إلى الزقاق والاستقرار فيه . هي وحدها التي تمردت وخرجت منه . لم تخرج من مجرد منام إلى يقظة صاخبة ، من زقاق ضيق إلى ميدان فسيح ، وإنما خرجت من زقاق المدق ، لتلتقي مع عالم الحرب العالمية الثانية بكل ما تعنى من قيم ومغامرات .

وعبقرية الرواية تكمن في هذا الصدام بين زقاق المدق والحرب العالمية الثانية . ومن هذا الصدام يتفجر المعنى اللا أخلاقي للحرب وتترف قيم السلام .

إن حميدة تذهب وتواصل حياتها بين الحانات ، ويذهب إليها عباس ليعيدها إلى الزقاق ، ولكنه يصطدم بالحرب العالمية الثانية اصطداماً مميتاً في معركة عنيفة مع الجنود الانجليز . ويموت عباس الحلو . وتواصل حميدة طريقها ، ويواصل الزقاق كذلك حياته ، حياة العمل والأشواق المتجددة ، وتطلع الأجيال الجديدة .

السراب ...

ومن زقاق المدق نتقل إلى رواية أخرى هي السراب . وبعض النقاد يخرجها عن التسلسل الطبيعي لتطور الرواية عند نجيب محفوظ ، بل يعتبرها غريبة وشاذة بين إنتاجه

الرواية . ولكن الحقيقة أن السراب تعد استمرارا وامتدادا طبيعيا لكل تلك المرحلة السابقة ، إنها بعد من أبعادها ، سواء في فكرتها أو بنائها الفني . بل تكاد هذه الرواية أن تكون وجهها آخر لتجربة زقاق المدق .

أنها تقدم نموذجا مناقضا معكوسا لحميدة بطة الزقاق . ففى مقابل طموحها وقررها وتمردتها ، نجد كامل رؤية لاظ بطل السراب فى تردده وجبنه وخجله وعجزه وتلعثمه وانكماشه .

وإذا كانت رواية زقاق المدق خروجا من الزقاق المحدود إلى العالم الواسع الرهيب بل واصطداما بالحرب العالمية الثانية ، فإن السراب انسحاب من العالم الواسع الرهيب لا إلى شارع أو زقاق وإنما إلى داخل النفس ، إلى باطنها الخبيء الجبان .

والسراب تقدم نموذجا للعجز ، العجز الجنسي ، والعجز عن التكيف الاجتماعى ، والعجز عن المشاركة الإنسانية العامة ، والعجز عن التعليم .

وتنفرد هذه الرواية بنموذج واحد هو كامل رؤية لاظ معبرة عن وجدانه الباطن وتجربته العاجزة . ولهذا نجد فى بناء الرواية كذلك التسلسل ذا الاتجاه الواحد ، سواء أكان إلى الماضى مع الذكريات أم إلى المستقبل مع حركة الأحداث ونموها فى اتجاه واحد ، هو نمو وجدانه السقيم .

والرواية تكاد تكون وثيقة نفسية حية لتجربة عقدة أوديب . فكامل رؤية لاظ يعيش مع أمه ولا يكاد يفارق أحضانها أو سريرها أو غرفتها حتى بعد أن بلغ سن الرجال . والعلاقة بينها تختلط بكثير من الأحاسيس الجنسية . لفترة طويلة من طفولته كانا يستحمان معا ، وكان يأخذ الصابون من جسدتها ليضعه فوق جسده ، وكانت تحمله على كتفها وتدور به فى البيت كله ، وهى تترين له دائما عند عودته من عمله .. الخ . الخ .. أما أبوه فهو يعيش بعيدا غارقا فى خمره ، معزولا عن العالم أجمع .

وعندما يتزوج كامل رؤية لاظ يعجز عن المعاشرة الجنسية ، ويعود إلى ما كان قد انقطع عن ممارسته للعادة السرية ، والتطلع إلى الخادومات الدميات . ويشك فى زوجته ، ويأخذ فى مراقبتها ، وخلال ذلك يبصر فى شرفة من الشرفات بامرأة دميعة الوجه ، لحيمة الجسم ، وتنشأ بينهما علاقة جنسية ناجحة .

ثم يكشف خيانة زوجته له عندما تموت نتيجة عملية إجهاض . وتتسم الرواية بكثير من السمات العامة التى وجدناها فى الروايات السابقة . إلا أن الطابع النفسى الانعزالى الخالص لطبيعة النمط الرئيسى للرواية يفرض عليها بعض السمات الخاصة . فرغم الحركة

النامية فى اتجاه واحد ، إلا أننا نفتقد تماما الإحساس بالزمن الدقيق ، قد نعرف العام الذى تتحرك فيه الأحداث ، وقد يبرز شهر أكتوبر كشهر عودة المدارس ليصير كامل رؤية بالفتاة الذى أحبها ، ولكن الزمن مفقود فى الرواية ، اللهم إلا بالإحساس بالماضى كتجربة وجدانية عامة ، ولكن التحديد الزمنى الدقيق الذى نجده فى الروايات الأخرى نفتقده فى هذه الرواية .

وهذا أمر طبيعى تابع من طبيعتها النفسية الاستنباطية . كما نفتقد فى الرواية الإحساس بالإطار الاجتماعى أو السياسى الذى نجده فى كل الروايات الأخرى .

وهذا أمر طبيعى كذلك تابع من الطبيعة المنعزلة للوجدان الأساسى للرواية . إلا أن هذا الطابع النفسى الخاص للرواية أضفى على لغتها إيقاعا شعريا هو بغير شك ثمرة الحديث الذاتى ، والإفضاء الوجدانى .

وفضلا عن هذا فإن وحدة الرواية تكاد تنبع أساسا من الوحدة الرائعة لمنطقها النفسى ، لا من منطق أحداثها ووقائعها .

عن كتاب « تأملات فى عالم نجيب محفوظ »

القاهرة ١٩٧٠

خان الخليلي

سيد قطب

هذه هي القصة الثالثة للمؤلف الشاب ، سبقتها قصة « رادوييس » وقصة « كفاح طيبة » وكلتاهما قصتان ، معجبتان ، مستلهمتان ، من التاريخ المصرى القديم ... ولكن هذه القصة الثالثة هي التى تستحق أن تفرد لها صفحة خاصة فى سجل القصة المصرية الحديثة ، فهي متزعة من صميم البيئة المصرية فى العصر الحاضر ، وهى ترسم فى صدق ودقة ، وفى بساطة وعمق ، صورة حية لفترة من فترات التاريخ المعاصر ، فترة الحرب الأخيرة ، بغاراتها ومخاوفها ، وبأفكارها وملابساتها ، ولا ينقص من دقة هذه الصورة وعمقها أنها جاءت فى القصة إطاراً لحوادثها الرئيسية ، وبيئة عاشت القصة فيها . ولكن هذا كله ليس هو الذى يقتضى الناقد أن يفرد لهذه القصة صفحة متميزة فى فصل القصة المصرية الحديثة ...

إنما تستحق هذه الصفحة ، لأنها تسجل خطوة حاسمة فى طريقنا إلى أدب قومى واضح السمات متميز المعالم ، ذى روح مصرية خالصة من تأثير الشوائب الأجنبية - مع انتفاعه بها - نستطيع أن نقدمه - مع قوميته الخاصة - على المائدة العالمية ، فلا يندغم فيها ، ولا يفقد طابعه وعنوانه ، فى الوقت الذى يؤدي رسالته الإنسانية ، ويحمل الطابع الإنسانى العام ، ويساير نظائره فى الآداب الأخرى .

وهذه الظاهرة حديثة العهد فى الأدب المصرى المعاصر ، لم تبرز وتتضح إلا فى أعمال قليلة من بين الكثرة الغالبة لأعمال الأدباء المصريين . وهى فى هذه القصة أشد بروزاً وأكثر وضوحاً . فمن واجب النقد إذن أن يسجل هذه الخطوة ويذكرها .

* * *

وبعد ، فلا بد أن أضع أمام القارئ ملخصاً للقصة يعينه على تتبع السمات الفنية فيها ، ويشركه معى فى تحليل هذه السمات . ولكن « القصة » بالذات من الأعمال الفنية التى لا سبيل إلى تلخيصها ، وحين تلخص تبدو هيكلها عظيماً خالياً من الملامح والسمات التى

تحدد الشخصية ، وتبرز مواضع الجمال والقبح فيها .. فلا مفر إذن من الحديث العام عن القصة دون الدخول في التفاصيل إلا بمقدار .

ليس في القصة كلها صخب ولا برق ... إنها خلو من الالتماعات الذهنية والأفكار . ليس فيها « لافتة » واحدة من اللافتات التي تستوقف النظر . ومحيطها ذاته محيط عادي . وأحداثها وحوادثها مما يقع كل يوم في أوساطنا المصرية العادية . اللهم إلا تلك الغارات الجوية التي روعت بعض المدن في زمن الحرب . والتي روعت أسرة « أحمد افندي عاكف » فأزعجت عن حى السكاكيني الذي استوطنته زمناً طويلاً ، إلى الحى الحسيني وخان الخليلي ، لتكون في منجاة من الغارات ، في حى ابن بنت رسول الله ! . ولقد كان « أحمد عاكف » وهو يحمل عبء الأسرة بمرتبته الصغير (إذ هو موظف بالبيكالوريا في قلم المحفوظات بوزارة الأشغال) كان قد أغلق قلبه وطوى أحلامه .. لم يفكر في الزواج ، ولم يعد يطمح إلى الحب ، أو إلى الشهادة العالية . لقد وقفت أمامه العراقيل العائلية والمادية والعلمية ، كما وقفت دونها مواهبه الطبيعية ، فانطوى على نفسه واستراح إلى اليأس بعد الفشل المكرور ، وقد ترك هذا الفشل في نفسه مرارة لا تمحى ، ولون شخصيته تلويحاً معيناً ، ودس فيها عيوباً شتى . ولكنه وقد عجز عن الطموح جعل العزوف عن المطامع سلوته ، والترفع عن الوسط طابعه ، وآوى إلى مكتبته وكتبه ، وهي مثله تمثل جيلاً مضى وتعرض مباحث قديمة لاصلة لها بالحاضر وما فيه ، فزاده هذا بعداً عن الجيل ، وإيغالا في التاريخ ! .

وحينما انتهى من تعليم أخيه الصغير تعليماً عالياً كان قد ناهز الأربعين . كان قد شاخ ، فأحس أن الألوان قد فاتت ، وصار في طريقه يقطع الحياة كالأجير المسخر ، منظوياً على نفسه ، وقد أورثه الفشل والعزلة طابع التردد والتخوف والحذر من كل خطوة إيجابية ، فهو يعيش في داخل نفسه عاجزاً عن تحقيق تصوراتهِ وتجسيم خيالاته .

ولكن القدر الساخر لا يدع الناس يستريحون - ولو راحة اليأس المريرة - إنه يطلع على هذا الكهل - كما يسميه المؤلف - بوجه جميل يلوح له في النافذة المقابلة . إنه وجه فتاة صغيرة لا تزال طالبة بالمدرسة . إنها تصلح أن تكون ابنته ولكن هذا الوجه ييسم له فيثير في نفسه كوامن المشاعر النائمة ، على حين يدركه حذره وتردده ، وخجله من فارق السن السحيق .

وتمضي الأيام وهو في شغل مقعد مقيم بهذا الحادث الجديد الذي يهز كيانه الضعيف هزاً عنيفاً متواصلاً بين الإقدام والإحجام . ويبدع المؤلف في تصوير شتى النوازع

والاتجاهات في هذه النفس المعقدة ، وفي نفس الفتاة الصغيرة ، تلك الأنثى المهيأة لحياة البيت والزواج .

وفي اللحظة التي يكاد يقدم فيها على الخطوة الحاسمة في حياته ، وقد تندى قلبه الجاف ، وترعرعت البذور المظمورة في أعماقه تحت أكداس اليأس والفشل والتردد ... في هذه اللحظة الحاسمة يسخر القدر سحره العابث ، فيطلع له في الميدان منافساً قوياً لا يملك منافسته ، بل لا يملك حتى أن يشفي نفسه منه بالحقد عليه ! إنه أخوه وربييه « رشدي عاكف » لقد نقل في هذا الوقت من فرع بنك مصر في أسبوط إلى المركز الرئيسي بالقاهرة . وإنه لا يعلم من أمر أخيه الكبير شيئاً . إنه شاب جسور مغامر بل مستهتر ، حاد العاطفة لا يعرف التردد ولا الحذر إنه الوجه المقابل لصورة أخيه .

وفي اليوم الأول يلمح الوجه الجميل فيستهويه . عندئذ يسلك إلى قلب الفتاة طريقه المباشر في غير ما حذر ولا تردد ، ويقطع الطريق الطويل الذي أنفق أخوه في قطعه أشهراً ... في يوم أو يومين . فيتصل ويصبح حياً ومحبوباً ، وفرداً من أسرة الفتاة ... ! وأخوه يتطلع إلى هذا الانقلاب في دهشة بالغة ، وفي ألم كسير وفي يأس مرير ، وفي إعجاب كذلك بأخيه الجسور !! .

ويقضي الشاب مع فتاته أويقات حلوة ، يسكران فيها بكأس الحب الروية ، ويقطفان معاً أجمل زهرات الحب الجميلة ... وذلك ريثما يضرب القدر ضربه الأخيرة ، فيمرض الشاب المغامر بالسل نتيجة لإفراطه في الشراب والسهر والمقامرة مع رفاق حي السكاكيني . ولكنه يمضي في استهتاره ثقة بشبابه وخشيته أن يعلم الناس بمرضه ، وأن تعلم من الناس خاصة ... هذه الفتاة ! .

وفي اللحظة التي يلمس الحب الحقيقي قلبه العابث ، فيملؤه جداً ، ويتوجه إلى اتخاذ خطوة عملية حاسمة ، تكون الأقدار قد ضربت ضربتها الأخيرة فيستشري الداء في الصدر المسلول ، ويذهب الشاب بعد ليالات مريرة من الضنى والعذاب ، وبعد أن تبين أن فتاته الحبيبة تخشى منه العدوى ، فلا تراه ! .

ثم تغادر الأسرة الحى في النهاية ... تغادره وقد فقدت الشاب الصبوح الفنى الجرىء . وقد انطوى قلب عاكف على جرح جديد ، بل على جرحين في جرح . والأقدار تسخر سحرها الدائبة ، ودورة الفلك تمضي إلى ملأها . كأن لم يكن قط جرح ولا جريح !!! .

* * *

حياة هذه الأسرة وجروحها وأحداثها وأحاديثها هي محور القصة ، وقد أدار المؤلف حول هذا المحور حياة أهل القاهرة في هذه الفترة من فترات الهول أيام الغارات ، فعرض منها لوحات بسيطة صادقة تشبه في بساطتها وصدقها فطرة هذا الشعب الطيب الفكة المؤمن المستسلم للقدر ، المتأثر بشتى الخرافات والدعايات ، ومن بين الصور التي عرضها صورة مقاهى خان الخليلى و « غرزه » أيضاً . وقد حوت أشكالا وشخصيات لم تكن لتجتمع إلا في مثل هذا الحى الغريب حقاً ، كما رسم صورة مقاهى حى السكاكينى و « شلل » الشبان فيه ! وسجل أطوار المقامرين ومجالسهم رسماً قوياً في جو مزيج من الجلد والدعابة ! . ولقد كان هذا الإطار من مكملات الصورة الأصلية ، كما كانت الريشة في يد المؤلف هادئة وثيدة ، فوق في إبراز الملامح والقسمات الجزئية ، وسائر الحياة مسيطرة بسيطة عميقة ، منتفعا إلى جانب مهارته الفنية بمباحث التحليل النفسى دون أن يطغى تأثيره بها على حاسته الفنية الأصلية ، وعاشت في القصة عدة شخصيات ، من خلق المؤلف لا تقل أصالة عن نظائرها في الحياة ! .

ولكن ليست المهارة الفنية في التسلسل القصصى ، والبراعة الصادقة في رسم الشخصيات ، والدقة التامة في تتبع الانفعالات ... ليست هذه السمات وحدها هي التي تعطى القصة كل قيمتها ... إن هناك عنصراً آخر هو الذى يخرج بالقصة من محيطها الضيق ، محيط شخصياتها المحدودة ، وحوادثها المحدودة في فترة من فترات الزمان ، إلى محيط الإنسانية الواسع ، ليصلها هناك بدورة الفلك ، وحلبة الأبد ... إنك لتقرأ القصة ثم تطويها ، لتفتح قصة الإنسانية الكبرى .. قصة الإنسانية الضعيفة في قبضة القدر الجبار . قصة السخرية الدائبة التي تتناول بها الأقدار تلك الإنسانية المسكينة .

هذه أسرة تفر من هول الغارات وخطر الموت من حى إلى حى . فما تغادر هذا الحى « الآمن ! » إلا وقد أصابها الموت في أنضر زهرة وأقوم عود ! . وهذا رجل شاخ قلبه ، وانطوى على نفسه ، وآوى إلى يأس مرير ولكنه هادئ ساكن ، فما يلبث القدر أن يثير في قلبه إعصاراً على غير أوان ، ويزيح الركام عن البذور المطمورة في قلبه الهرم ، ليعود فجأة فيقصف الأعواد التي تنبت في بطن وحذر ، يقصفها في قسوة عابثة ، ويبد من ؟ بيد أحب الناس إليه : شقيقه وريبه ! ولو قد أمهله بضعة أيام لانتهى إلى الواحة المرعة بعد طول الجذب في الصحراء . ولو قد تقدم به أياما لأعفاه من إضافة تجربة فاشلة إلى تجاربه المريرة ؟ .

وهذا شاب مستهتر عابث ، ما يكاد الحب يقومه ويبحث فيه الجد والمبالاة حتى ينخطفه الموت الذى لم ينخطفه أيام العبث والاستهتار .

والأرض تدور ، والزمن يمضى ، والناس يقطعون الطريق المجهول كأن لم يكن شىء مما كان : رفاق الشاب فى قهوتهم يقامرون ويعربدون ، وأصحاب الرجل فى « غرزتهم » يدخنون أو فى قهوتهم يتندرون . والقدر الساخر من وراء الجميع لا يبدو عليه حتى مظهر الجد فى سخريته المريرة . والمؤلف نفسه لا يكاد يلتفت إلى الدائرة الوسيعة التى تنتهى إليها قصته ، لأنه يلقي انتباهه كله إلى إدارة الحوادث ورسم الشخصيات !! .

* * *

ولعل من الحق حين أتحدث عن قصة « خان الخليلى » أن أقول : إنها لم تنبت فجأة ، فقد سبقها قصة مماثلة ، تصور حياة أسرة ، وتجعل حياة المجتمع فى فترة تقرب إطاراً للصورة ... تلك هى قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم .

ولكن من الحق أيضاً أن أقرر أن الملامح المصرية الخالصة فى « خان الخليلى » أوضح وأقوى ، ففى « عودة الروح » ظلال فرنسية شتى . وألمع مافى عودة الروح هو الالتماعات الذهنية ، والقضايا الفكرية بجانب استعراضاتها الواقعية ، أما « خان الخليلى » ، فأفضل مافىها هو بساطة الحياة ، وواقعية العرض ، ودقة التحليل .

وقد نجت « خان الخليلى » من الاستطرادات الطويلة فى « عودة الروح » فكل نقط الدائرة فيها مشدودة برباط وثيق إلى محورها الأصيل .

وكل رجائى ألا تكون هذه الكلمات مشيرة لغرور المؤلف الشاب المرجو - فى اعتقادى - لأن يكون قصاص مصر فى القصة الطويلة . فما يزال أمامه الكثير لتركيز شخصيته والاهتمام إلى خصائصه ، واتخاذ أسلوب فنى معين توسم به أعماله وطابع ذاتى خاص تعرف به طريقته .

وبعض هذه الخصائص قد أخذ فى البروز والوضوح فى قصصه السابقة وفى هذه القصة ، وهى الدقة والصبر فى رسم الخوارج والمشاعر وتسجيل الانفعالات المتوالية ، والبساطة والوضوح فى رسم صورة حياة أبطاله .

والبقية تأتى إن شاء الله ! .

البرجوازي الصغير

د . محمد مندور

البرجوازي الصغير هو أحمد أفندى عاكف ، الذى لقيه الأستاذ نجيب محفوظ فى « خان الخليلى » ، فالتقط لنا صورته الجسمية والنفسية بل والاجتماعية أيضاً ، وذلك لا لأنه بطل من أبطال الإنسانية ، ولا علم من أعلام الحياة العامة ، ولكن لأنه مثلى ومثلك ، من آلاف الناس الذين يكونون تلك الطبقة الوسطى ، التى يسمونها فى أوربا بالبرجوازية الصغيرة ، بعد أن حلت البرجوازية الكبيرة ذات الثراء الواسع ، الذى تدره الصناعة والتجارة ، محل الارستقراطية القديمة التى كانت تقوم على الدم الأزرق أو إقطاع الأرض .

أحمد أفندى عاكف نموذج بشرى لتلك الطبقة الوسطى ، التى تكون العمود الفقرى فى المجتمع المصرى ، وتكون همزة الوصل بين طبقة العمال الكادحين والسادة المترفين ، بل لعلها الطبقة القلقة المعذبة ، التى لا تريد أن تطمئن إلى الحياة كما تطمئن الطبقة الدنيا ، لتأخذ منها ما تستطيع منحه من ملذات ومباهج فى غير تدمير ولا سحق ، كما لا تستطيع فى سهولة أن تشبع طموحها ، فترتفع إلى مستوى الطبقة العليا ، أى البرجوازية الكبيرة ، وتدخل بين صفوفها لستمع بما تنعم به تلك الطبقة من مال وجاه وسلطان . وبالرغم من هذا القلق والعذاب المقيم ، فإن تلك الطبقة لا تخلو من فضائل رائعة ، بل لعلها تفرد دون غيرها بطائفة من الفضائل التى ترفع من قيمة الإنسانية . وفى رأس تلك الفضائل يأبى الإحساس الصارم بالمسئولية العائلية ، والتضحية فى سبيل الأسرة ، والتفانى فى سبيل الأهل والأخوة . وهذه الفضائل هى التى قربت أحمد أفندى عاكف من نفس نجيب محفوظ ، بل ومن نفوسنا جميعاً ، لما فيها من إنسانية وخلق كريم ، يرتفع ميزانها عندنا نحن الشرقيين ، الذين تعمر قلوبنا بروحية الأديان والمثل العليا .

ولقد حرص نجيب محفوظ على أن يصور فى دقة أحمد أفندى عاكف لكى نستطيع أن نتعرف إليه إذا لقيناه ، ولا أظننا إلا ملاقيه فى كل يوم فى خان الخليلى وغيره من

أحياء القاهرة ، التى تقطنها البرجوازية الصغيرة . ومن المؤكد أن نلقاه أيضاً فى دواوين الحكومة التى يعمل فيها هو وأمثاله ، فى حياة راتبة كثيفة ، تتلاحق السنون دون أن تحرك شيئاً من مائها الآسن . وإليك هذه الصورة : « أحمد أفندى عاكف كهل يدنو من ختام الأربعين ، عسى أن يسترعى الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطراباً يستدر الرثاء ، والواقع أن تكسر بنظونه ، وانحسار ذراعى الجاكطة عن رصغيه ، وتلبد العرق والغبار على حرف طربوشه ، وتقبض القميص ورثاة رباط الرقبة ، وصلعته البيضاء ، وسعى المشيب إلى قداله وفوديه ، كل أولئك أوهم بتكبير سنه ، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل شاحب اللون ذو رأس صغير مستطيل ، ينحدر انحداراً خفيفاً إلى جهة تميل إلى الضيق ، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان ، يظللان عينين بالغتين فى امتدادهما وضيقهما ، فهما يكادان أن يملآ صفحة الوجه الضيقة ، فإذا ضيقها ليحد بصره ، أو ليتقى شعاع الشمس ، بدتا مغمضتين ، واختفى لونها العسلى العميق ، وقد تساقطت أهدابها واحمرت إحمراراً خفيفاً ، يتوسطها أنف دقيق ، وفم رقيق الشفتين ، وذقن صغير مدبب » .

ولقد يدفعنا حب الاستطلاع إلى أن نتساءل عن سر إهمال أحمد أفندى لنفسه وعدم عنايته بملابسه ، فنجد أن نجيب محفوظ قد ساوره نفس التساؤل فأجهد نفسه فى تحرى الأمر ، وإذا به يعلم أن أحمد أفندى الذى ينحسر ذراعاً الجاكطة عن رصغيه الآن .. الخ .. قد كان يوماً ممن يعنون بحسن هندامهم وأناقتهم ، وكان يبدو إذ ذاك فى صورة مقبولة ، ولكن اليأس والحرص ، وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبه بالمفكرين ، نزع به عن أية عناية بنفسه أو بلباسه . وما أن اكتشف نجيب محفوظ هذا التطور فى صورة أحمد عاكف الخارجية ، حتى أخذ ينقب عن أسبابها الداخلية ، التى ترجع فى معظمها إلى ظروف الحياة وقسوة المجتمع ، فعلم أن أحمد أفندى « كان قارئاً نهياً لا تروى له غلة ، وقد أدمن على القراءة إدماناً قاتلاً ، وأكب عليها عشرين عاماً كاملاً من عام ١٩٢١ - تاريخ حصوله على البكالوريا - إلى عام ١٩٤١ . بيد أنها امتازت منذ البدء بنقصائص لم تفارقها مدى العشرين عاماً ، وهى أنها قراءة عامة لاتعرف التخصص ولا العمق نزاعة إلى المعارف القديمة سريعة مضطربة ، لعل السبب فى عدم تركيزها ، ما كان من اضطرابه إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا ، مما لم يهيئ له فرصة منتظمة للتخصص . وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة فى حياته الاجتماعية والنفسية ، لم ينبج من شرها مدى الحياة ، أما سببه فهو أن أباه أحيل على المعاش فى ذاك الوقت ،

وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحة بإهماله ، وتطاوله على المحققين الإداريين ، فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة ، لينفق على أسرته المحطمة ، ويربي أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما ، وصار الثاني موطئاً بينك مصر . ولقد كان نجيب محفوظ يستطيع أن يجد في أحمد أفندى عاكف غنيمة باردة يطبق عليها نظريات فرويد وغيره من علماء التحليل النفسي ، الذي لا بد أن الأستاذ محفوظ قد درسه ، أو درس طرفاً منه ، أثناء إعداده لليسانس الفلسفة بجامعة القاهرة . ولكن الظاهر أن نجيب محفوظ يدرك أن الثقافة الحققة هي أن تنسى ما حصلناه ، بعد أن يكون قد أدى وظيفته في صقل النفس وشحن القدرة على الملاحظة والمشاركة الوجدانية ، كما أنه لا بد مقدر أن مهمته كقصاص ، أسمى من مهمة علماء النفس وأعلى درجة في سلم الإنسانية ، ولذلك لا نراه يتهم أحمد أفندى عاكف بما كان يستطيع تلاميذ فرويد وحواريوه أن يتهموه به ، لو أنهم لا قوه في فجاج الحياة . فنجيب محفوظ لا يراه مريضاً « بمركب نقص » ولا بغيره من « العقد النفسية » ، التي يرى فرويد وحواريوه في ظروف أحمد عاكف ما يمكن أن يولدها . وإنما يكتفي بأن يقص علينا طرفاً من تصرفات أحمد أفندى في الحياة ، وأن يصور جانباً من مشاعره ، دون أن يترك فكرة علمية تسيطر على عقله وخياله وقوة ملاحظته ، فتتلف حكمه على الرجل . ولذلك لم تخرج الصورة النهائية لأحمد أفندى عاكف من يدى نجيب محفوظ ، صورة رجل مريض ملطخة بلون واحد هو السواد ، بل على العكس من ذلك لم يضمن نجيب محفوظ على الرجل بشيء من عطفه . ولا غرابة في ذلك ، فنجيب محفوظ لم يلاحظ الرجل من نافذة برج عاجي بل نزل إلى الشارع ، إن لم يكن إلى الزقاق ، الذي يقيم فيه أحمد عاكف بحى خان الخليلي ، الذي انتقل إليه هو وأسرته بسبب الغارات الجوية ، التي اضطرتهم إلى الانتقال من مترهم القديم بحى السكاكيني القريب من العباسية ، هدف الهجوم عندئذ . ولعل نجيب محفوظ من أولئك الإنسانيين الذين يحبون الضعفاء ويعطفون عليهم ، ولا ينكرون طموحهم المشروع في عرف الحياة ، وينادون مع الفريد دى فيني قائلين : « إننى بقدر ما أحب الأقوياء أحب الضعفاء ، الذين يلقون وسط الأمواج الصاخبة ، بأذرعهم الهزيلة » . وتلك نظرة إنسانية لم تنم عن عطف على الحياة فحسب ، بل واحترام لها . وإلا فمن الذى يستطيع أن ينكر على أحمد أفندى عاكف حقه المشروع - بحكم الحياة ذاتها - فى أن يتطلع إلى رفع مستواه ، وتحقيق طموحه المشروع ؟ ومن ذا الذى يضمن عليه بالعطف ، عندما يحس ما وقر فى أعماقه من إنه شهيد

مضطهد وعبقريّة مقبورة وضحية مظلومة للحظ العاثر ، وبخاصّة إذا ذكرنا أن نجيب محفوظ رغم دقة ملاحظته ومهارة تحرياته - لم يعلم أن هذا الاعتقاد قد دفع أحمد أفندى عاكف إلى الإساءة إلى غيره من البشر ، أو أحاله إلى مجرم ساخط على الإنسانية ، دائب على تخطيطها ، وإهدار كل القيم الإنسانية . وكل ما لاحظته نجيب محفوظ بحق هو أن أحمد أفندى عاكف كان يطمئن إلى « المعلم نونو » الخطاط ، أكثر من اطمئنانه إلى أحمد أفندى راشد المحامي ، وذلك لأن عاكف أفندى كان بحس كموظف بتفوقه الاجتماعي والثقافي على المعلم نونو ، بينما كان يشعر بشيء من التمرد والحقن إزاء الأستاذ راشد ، الذي أتم دراسة القانون وأصبح محامياً ، بينما لم يستطع عاكف أفندى أن يحقق هذا الحلم ، ونفض يده من الدراسة الليلية بعد أن رسب في امتحان السنة الأولى بالحقوق ، بسبب اضطراره إلى أن يكتفي بالانتساب من الخارج ، حيث كان يعمل في الصباح بوزارة الأشغال ، ليقوت نفسه ويقوت أسرته . وما نطن أن هذا التصرف يرجع إلى مرض نفسي . فعاكف أفندى رغم اطمئنانه للمعلم نونو ، فإنه كان يغبطه بل ويحسده أحياناً ، لما لاحظته فيه من رضى بالحياة ، وقدرة على خوض غمارها واستهانة بآلامها وأعبائها . وقد تركزت فلسفته في الحياة في جملة واحدة كانت تصعد من الزقاق إلى نافذة عاكف أفندى وهي « ملعون أبو الدنيا » !! .

وإذا كان هناك أي شك في أن أحمد أفندى عاكف لم يصب بعقدة نقص أو غيرها من الأمراض النفسية التي يدعى الفرويديون أنها تتلف حياة البشر ، وتنزل بهم إلى منزلة حيوانية شريفة ، فإن هذا الشك يتبدد ، عندما نطالع ما حدثنا به نجيب محفوظ من فضائل أحمد عاكف وقدرته على التضحية بنفسه وماله وسعادته في سبيل أسرته ، وبخاصّة أخيه الصغير رشدي عاكف ، الذي تكفل بتربيته وتعليمه حتى حصل على بكالوريوس التجارة ، وتوظف بينك مصر في فرع أسبوط أولاً ، ثم نقل إلى القاهرة ، حيث حطم أحلام أخيه الأكبر ، وبدد سعادته المرتقبة بعد طول الزمن ، إذ استطاع بفضل نضرة شبابه وفيض حيويته وجسارته ، أن يتترع حب نوال بنت الجيران من أخيه الكهل المفرط الحياء . ولقد كان أحمد أفندى عاكف يستطيع أن يخبر أخاه الصغير الذي يتزله منزلة الأب بتعلقه بنوال ، ويطلب إليه الانصراف عنها لتخلص له فيتزوج منها ، ولكنه على العكس من ذلك آثر أن يكتنم شعوره نحو هذه الفتاة ، وأن يخلى السبيل لأخيه الصغير بالرغم من قسوة ما تحمل في سبيل ذلك من آلام . بل لقد أصيب أخوه رشدي بعد ذلك بمرض السل ، فحنا عليه أحمد حنواً رائعاً ، ووالاه بعطفه ومواساته على أنبل

نحو وأرقاه في سلم الإنسانية . ثم حم القضاء فأت رشدى وأصبح أحمد أفندى - بعد أن انقضت غمرة الحزن - في حل من أن يعود إلى الفتاة . ولكن وفاءه لذكرى أخيه الحبيبة إلى نفسه ، زادته صلابة في تضحية سعادته ، ومحاربة كل خاطر يعاوده عن تلك الفتاة ، وهكذا أيد أحمد أفندى ما قلناه من أنه أنموذج لتلك الطبقة الوسطى التي تتمثل فيها خير فضائل المجتمع ، رغم ما تعانيه من محن وآلام .

نعم إن قسوة الظروف لم تجعل من أحمد أفندى عاكف رجلاً مريضاً أو شريراً ، بل ظل مثلي ومثلك ومثل نجيب محفوظ ، رجلاً عادياً كغيره من آلاف الرجال الذين تقسو عليهم أحياناً الحياة ، وتقصر ملكاتهم عن تحقيق طموحهم ، فيشقون ويتمردون ، بل ويتمنون في لحظات خاطفة أن لو دمر العالم مع نجاتهم هم ومن يعلقون بهم سعادتهم ، كما تمنى أحمد أفندى عاكف في إحدى لحظات يأسه وشعوره بالضعف ، أن لو بادت القاهرة بمن فيها ولم يبق إلا هو ونوال فيفوز بها دون غريم أو منافس ، ولكن مثل هذه اللحظات التي يسيطر فيها ضعفنا البشرى على عقولنا وحسننا الخلق ، لا تلبث أن تتبدد ، وأن نستعيد منها بترعة الخير الأصيلة في نفوس أحمد أفندى وطبقته الاجتماعية . ولا أدل على ذلك من أن نجيب محفوظ لم يلحظ عليه أية خاطرة ولو عابرة ، من غبطة ظاهرة أو خفية ، بل ولا من انفراج كرب ، لوفاة أخيه رشدى وإمكان انفراده بنوال . وعلى العكس من ذلك حزن أحمد أفندى لوفاة أخيه حزناً عميقاً ، وظل وفياً لذكره قاسياً على نفسه ، متحملاً جميع أرزاء الحياة في شجاعة وصبر كريم .

هذا هو البرجوازي الصغير أحمد أفندى عاكف كما صورته نجيب محفوظ وأحسن التصوير . ولقد يستطيع الفرويديون أن يقتنصوه ليشرحوه في معاملهم ، ولكن نجيب محفوظ لن يكون مسئولاً عن هذا الشطط ، بعد أن صور فأحسن التصوير في دقة وأمانة ، ولاحظ أنه إذا كانت هذه الطبقة الوسطى تضطرب حياتها بالألم والسخط والتمرد ، كما تضطرب بعض علاقاتها الاجتماعية ، بسبب طموحها الفاشل ، وتخبطها في الجهاد للارتفاع عن مستوى طبقتها الاجتماعي ، والثورة على أوضاع الحياة ، وكثرة السخط ، نتيجة لإيمانها المسرف بحقها المضطهد ، وعبقريتها الشهيدة - فإنها مع ذلك تحتفظ بالكثير من أسمى الفضائل الإنسانية ، التي يأتي في قمتها تقديس الأسرة والتضحية في سبيلها ، وهذه الفضائل هي التي حملت نجيب محفوظ كما حملتنا على العطف على أحمد أفندى عاكف البرجوازي الصغير ، أنموذج الطبقة الوسطى المصرية ، بما فيها من هنات وفضائل ، قد تتفاوت نسبها ، ولكنها في جملتها حقائق ، يستطيع أن يثبت منها

كل مصرى إذا أمعن النظر فى سكان خان الخليلى ، وغيره من أحياء القاهرة ، وذلك بشرط أن يحسن الملاحظة ، لأن ملاحظة مانراه كل يوم أمر شاق ، يحتاج - كما قال روسو - إلى كثير من الفلسفة ، التى وهبها الله لنجيب محفوظ .

عن كتاب « قضايا جديدة
فى أدبنا الحديث » - بيروت ١٩٥٨

بداية ونهاية

أنور المعداوى

« بداية ونهاية » دليل ماذى لا ينكر ، على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فنى كامل ... لقد أتى على وقت ظننت فيه أن نجيب محفوظ قد بلغ غايته فى « زقاق المدق » ، وأنه لن يخطو بعد ذلك خطوة أخرى إلى الأمام . أقول غايته هو لا غاية الفن ، لأن « زقاق المدق » كانت تمثل فى رأى الظنون أقصى الخطوات الفنية بالنسبة إلى « إمكانياته » القصصية . ولهذا ، خيل إلى أن مواهب نجيب قد « تبلورت » هنا وأخذت طابعها النهائى وتوقفت عند شوطها الأخير ... ومما أيد هذا الظن أن المستوى الفنى فى « السراب » وقد جاءت بعد « زقاق المدق » ، كان خطوة « واقفة » فى حدود مجاله المألوف ولم تكن الخطوة الزاحفة إلى الأمام ! .

كان ذلك بالأمس .. أما اليوم ، فلا أجد بدا من القول بأن « بداية ونهاية » قد غيرت رأى فى « إمكانيات » نجيب ، وجعلتنى أعتقد أنه قد بلغ الغاية التى كنت أرجوها له ، غايته هو وغاية الفن حين كانت الغايتان مطلباً عسير المثال ! .

إننى أصف هذا الأثر القصصى الجديد لهذا القصاص الشاب ، بأنه عمل فنى كامل . هذا الوصف ، أو هذا الحكم ، مرده إلى أن أعماله الفنية السابقة كانت تفتقر إلى أشياء ، تفتقر إليها على الرغم من المزايا المختلفة التى تحتشد بين يدي صاحبها وتحدد مكانه فى الطليعة من كتاب الرواية ! .

ماذا كان ينقص نجيب قبل « بداية ونهاية » ؟ ماذا كان ينقصه فى « خان الخليلي » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » و « السراب » ؟ لقد كان نجيب فى هذه الروايات الأربع ، يملك من الخطوط الفنية ما يتيح له أن يخرج « التصميم العام » للقصة وهو سليم فى جملته .. ومع ذلك فقد كان ينقصه عنصر الالتزام الدقيق لحدود « الواقعية الأولى » فى عرض حوادث القصة وتوجيه حركات الشخصوص . وأقول « الواقعية الأولى » لأن « الواقعية الثانية » كانت هى الساحة الكبرى التى دأب نجيب على أن يعرض فيها أكثر نماذجه البشرية ! .

إن الفرق بين هذين اللونين من الواقعية هو أن اللون الأول نقل « مباشر » لصور الحياة وطبائع الأحياء ، كما هي في الواقع المحس الذي تلمسه العين وتألفه النفس . أعني أن تكون الحادثة القصصية والنموذج البشري مما يقع كل يوم في محيط اللقطة البصرية والنفسية ، أعني مرة أخرى أن يكون تمثلاً للحوادث والشخصيات تمثلاً شعورياً لا ذهنياً عندما نقارن بين حقيقتها على الورق وبين حقيقتها في الحياة . هذا هو اللون الأول وهذه هي مظاهره ، أما اللون الثاني من الواقعية وهو ما نعبر عنه بـ « الواقعية الثانية » ، فهو التصوير « التقليدي » لا « الطبيعي » للحوادث اليومية والسماوات الإنسانية . أو هو تلك النسخة من الحياة التي يمكن أن نقول عنها إنها « قريبة » من الأصل ولا يمكننا القول بأنها « طبق » الأصل ، ونسخة كهذه مهما اقتربت من الواقع فهي نسخة « مقلدة » على كل حال .. وقد يكون الفن في جوهره تقليداً للحياة ، ولكن رسالة الفنان هي أن يشعرنا بأن المشهد الذي يصوره أصيل لا أثر فيه للمحاكاة ، وألا يترك لنا فرصة للشك في أن هناك اختلافاً بين الصورة الحقيقية والصورة المنقولة ، أو أن هناك حلقة اتصال مفقودة بين الواقع والمثال ! .

نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة هو ذلك القصاص الذي يمثل « الواقعية الثانية » في الكثير الغالب من الأحيان ، ولست أنكر أن للواقعية الأولى مجالاً في فنه ، ولكنه المجال « المحدود » تبعاً لطريقته الفنية التي يسير عليها في كتابة القصة . هذه الطريقة الفنية أساسها أن نجيب مولع بأن يضع كثيراً من نماذجه البشرية تحت مجهر التحليل النفسي ، ليتخذ من سلوكها الإنساني مادته الرئيسية في تحليل ما يقع تحت المجهر من « حالات مَرَضِيَّة » ! قل إذا شئت إنه يطبق بعض الأصول من « علم النفس المرضي » على كثير من أبطال قصصه « المنحرفين » ، وأنه تبعاً لهذا التطبيق يفرض على فنه أن يسير في خط اتجاه نفسي محدد تدور فيه الشخصية « المريضة » من البداية إلى النهاية ، تدور فيه بقوة الدفع « المرضية » التي تبرر سلوكها في محيط « الواقعية الثانية » .. من هنا يخرج نجيب على منطق « الواقعية الأولى » لأنه يجبر حوادث القصة وحركات الشخص على أن تسير نحو غاية معينة ، تحقيقاً لمنهج الفن الذي يلتمس عند النتائج المادية تفسيراً للظاهرة النفسية أو تشخيصاً للحالة المرضية . وتشعر أن التشخيص النفسي لهؤلاء « المرضى » غير سليم في بعض الأحيان ، ومرجع هذا الشعور إلى أن سلوكهم مفروض عليهم فرضاً ولا يملكون فيه حرية الاختيار ! .

هنا مفرق الطريق بين واقعيتين : « الواقعية الأولى » و « الواقعية الثانية » . هذه

نسخة من الحياة « قريبة » من الأصل كما قلت وتلك نسخة « طبق » الأصل . وموقف الفن بينهما واضح عندما نضع أنفسنا أمام هذه الحقيقة ، وهى أن النموذج البشرى فى حدود الواقعية الأولى موجود فى الحياة « بالفعل » ، وأنه فى حدود الواقعية الثانية موجود فى الحياة « بالإمكان » .. أى أننا إذا رجعنا إلى بعض الشخصيات التى رسمها الأستاذ محفوظ فى أعماله الفنية السابقة ، وسألنا أنفسنا هل هى موجودة بيننا حقاً تروح وتجيء ، وتقع عليها العين وتدرى الحواس ، ونشعر نحوها بشيء من الألفة التى تخلق بيننا وبينها نوعاً من المشاركة الوجدانية ؟ إذا سألنا أنفسنا هذا السؤال فإننا ننتهى إلى هذا الجواب : وهو أنها غير موجودة « فعلاً » ولكنها « ممكنة » الوجود ، أى أن وجودها غير متعذر لأن منطق الحياة يهضمه إذا « وجد » وكذلك طبيعة الأحياء . من هنا تلمس الفارق الدقيق بين كلمتين : « موجود » .. و « ممكن أن يوجد » ، وبالطبع لا يضيق الفن بالكلمة الأخيرة وإن كان يفضل الكلمة الأولى بلا مرأ !! .

هذا عنصر من العناصر الفنية كان ينقص نجيب محفوظ ، وثمة عنصر آخر كان ينقصه ، وأعنى به « التذوق الشعورى » الكامل للحياة .. هناك قصاص فهم الحياة حق الفهم وخبرها كل الخبرة ، ومع ذلك فهو يتذوقها بقدر معلوم لا يتناسب مع خبرته العميقة وفهمه الأصيل ، فما هو الفارق بين طبيعة « الفهم » وطبيعة « التذوق » فى حياة الفنانين ؟ لتوضيح هذا الفارق الفنى بين الطبعين نقول : إنك تفهم الشيء بعقلك وتتذوقه بشعورك ، أعنى أن الفهم أدوات الذهن الفاحص وأن التذوق أدوات الإحساس الرهيف .. إنهما طاقتان : طاقة عقلية وطاقة شعورية ، والذين قويت عندهم الطاقة الأولى وضعفت الثانية ، هم الذين تتوقد فى نفوسهم شعلة الفهم وتخبو شعلة التذوق ، بالنسبة إلى أى قيمة من قيم الأشياء وأى معنى من معانى الحياة . إن هناك مثلاً من « يفهم » قصيدة من الشعر ، يفهم فيها اللفظ والمعنى ، ويفهم فيها الوزن والقافية ، ويفهمها شرحاً إن طلبت إليه الشرح والتفسير . ومع هذا كله فهو لا يستطيع أن « يتذوق » فيها الوحدة الفنية ، ولا الظلال النفسية ، ولا التجربة الكبرى وهى مصبوبة فى بوتقة الشعور .. وقل مثل ذلك عن الذى يفهم « النوتة الموسيقية » للحن من الألحان ، ثم لا يتذوق جمال اللحن ، ولا يهترفيه لروعة الإيقاع ، ولا يستجيب لأنغامه التصويرية ! .

إن فهم الحياة هو أن تفتح لمشاهدها أبواب العقل ، أما تذوق الحياة فهو أن تفتح لتجاربها أبواب القلب .. إننا « نراها » هناك تحت إشعاع الومضة الفكرية و « نلتقها »

هنا تحت تأثير الدفقة الوجدانية ! وعلى مدار هذه الكلمات تستطيع أن تنظر إلى نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة .. إنك لا تستطيع أن تجرده من التذوق الشعوري للحياة ، ولكنه التذوق العابر الذى لا يتناسب مع خبرته العميقة بها وفهمه الأصيل ! . ويبقى بعد ذلك عنصر قى ثالث كان ينقص هذا القصاص الموهوب .. أتدرى ماهو؟ هو تلوين الأسلوب القصصى تلويها خاصا يتلاءم وجو المشهد المصور أو طبيعة النموذج البشرى المرسوم ... فى القصة مثلا موقف إنسانى يتطلب عند تصويره أسلوبا معيناً تتوفر فيه لمعات الشاعرية ، وموقف آخر لا نحتاج فيه إلى مثل هذا الأسلوب الشاعرى ، عندما نتناول الملامح المادية لمشهد من المشاهد أو لشخصية من الشخصيات ، بأسلوب السرد الفنى المؤلف الذى تحتشد له القدرة على التقاط الجزئيات . وهناك موقف ثالث يفرض علينا أن نعالجه بأسلوب آخر هو أسلوب التجريد والتحليل ، حين تعرض طريقنا لحظة من اللحظات الزاخرة بألوان من الحركة الذهنية أو النفسية ! .

نجيب محفوظ فى أعماله الفنية السابقة يكاد يستخدم أسلوبا واحدا فى تصوير شتى المواقف والترعات ، وأعنى به أسلوب السرد الفنى المؤلف . إننا إذا ارتضينا هذا الأسلوب فى تلك المواقف المخصصة لإبراز الملامح المادية للمشاهد والشخص ، وتجاوزنا عنه فى تلك المواقف الأخرى المهياة لتسجيل الحركة الجائشة فى الذهن أو المختلجة فى الوجدان ، فإننا لا يمكن أن نسيغه بالنسبة إلى المواقف الإنسانية لأنه يفقدها طابع الجو الشعرى الذى يجب أن تعيش فيه ، ومثل هذا الجو إذا فقدته تلك المواقف تعرضت للهمود واعتراها الفتور ! .

كل من هذه العناصر الفنية الثلاثة التى كانت تنقصه بالأمس : عنصر الالتزام الدقيق لحدود « الواقعية الأولى » وما يترتب عليه من تشخيص سليم للحالة المرضية ، وعنصر « التذوق الشعورى » الكامل للحياة وما يتبعه من إدراك عميق للتجربة النفسية ، وعنصر « التلوين الخاص » للأسلوب القصصى وما يعقبه من إثارة الشعور فى الموقف الإنسانى ، كل منها قد احتشد له اليوم فى صورته القوية الرائعة فى « بداية ونهاية » ، وإذا هذه الرواية الممتازة تعد فى رأى النقد عملا فنيا كاملا لا مثيل له فى تاريخ القصة المصرية .. باستثناء « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ! .

« بداية ونهاية » قصة « مصرية » تمثل حياة أسرة .. أسرة تذوقت طعم الفقر وتجربت ذل الفاقة ، بعد أن فرقت بينها وبين عائلها تلك اليد التى تفرق بين الأحياء .

والفقر وحده هو المسئول عن البناء الذى تصدع والشمل الذى تبدد ، شمل الأسرة الكادحة التى كان للتضحية عند كل فرد من أفرادها طعم ومذاق .. الأم ، وحسين ، وحسن ، وحسين ، ونفيسة ، كل نموذج من هذه النماذج البشرية التى كونت الهيكل الإنسانى العام للقصة ، قد فهم التضحية فيها خاصا وكانت له فيها وجهة نظر خاصة ، وجهة نظر حددت الطريق وقررت المصير .. كانوا فلاسفة حياة ، فلاسفة أخضعوا الفلسفة لمنطق الشعور المحترق بلهب الحرمان ، حتى خرج بعضهم من هذه الفلسفة وهو منحرف العقل مريض النفس ، والفقر وحده هو المحور الرئيسى الذى دار حوله السلوك الإنسانى لهؤلاء المرضى المنحرفين ! .

هذه الأم العظيمة التى صورتها ريشة نجيب فى قدرة فائقة ، كان عليها أن تكافح بعد موت الزوج لتخلق من هؤلاء الصغار رجالا يواجهون الحياة .. وهؤلاء الأبناء الأربعة لم يكن لهم مورد فى الحياة غير تلك الجنيات الخمسة التى كانت تأتيهم من معاش الوالد الراحل ، كامل أفندى على الذى أنفق فى الوظيفة زهرة العمر وعصارة الشباب ! وماذا تفعل الجنيات الخمسة لأسرة تواجه مطالب الحياة من مسكن وملبس ومأكل ومحافظة على المظهر القديم أمام الناس ؟ هنا يبرز دور الأم ، الأم الصابرة العاقلة الحازمة المكافحة فى سبيل البقاء .. باعت أثاث البيت قطعة بعد قطعة لتسكت البطون الصارخة من وطأة الجوع ، وهجرت « الشقة » التى كان يدخلها النور والهواء ولجأت إلى أخرى عشش فيها البؤس والظلام توفيراً لقروش معدودات ، ورأت أن يقضى حسين وحسين أيام الدراسة الثانوية بلا « مصروف » يومى يشعرهما بأن للحياة فرحة يستشعرها الصغار من الأحياء ، وفرضت على نفيسة أن تطرق الأبواب لتحصل لهم على الأجر الضئيل الذى كان يأتيها من حياكة الثياب بين حين وحين .. أما حسن الذى دله أبوه حتى طردته المدرسة ونبذته الحياة ، فقد أعرض عن نصائحها وهام على وجهه يبحث عن لقمة العيش من كل طريق غير شريف ! .

ودارت عجلة الزمن والأم الصابرة مازالت تكافح .. كان الطريق طويلا ، رهيبا ، قد انتثرت على جانبيه الصخور . ومع ذلك فقد مضت فى طريقها لاتلوى على شئ : يد تجفف العرق المتصبب من حرارة الكفاح ، ويد تدفع إلى الأمام بالقافلة المكدودة التى أنهكها طول المسير ! لقد كان هناك أمل .. أمل يتراءى على جنبات الأفق البعيد فينسيهم أنهم مشردون وإن ضمهم مسكن ، عراة وإن سترهم ثوب ، جياع وإن حصلوا على الرغيف .. أمل يتمثل فى الغد القريب الذى سيفتح عينى الأم الصابرة

المكافحة على منظر فريد ، تسعد فيه برؤية الصغيرين وقد أصبحا رجلين ، يشغل كل منهما بعد الفراغ من التعليم مكانه المنتظر في دنيا الناس ! .

وجاء الغد المرتقب يحمل إليهم أول بشرى .. لقد ظفر حسين بالبكالوريا والتحق بإحدى الوظائف في مدينة طنطا . قبل الوظيفة الصغيرة ليستطيع أن يمد يد العون إلى أسرته .. أخوه حسنين ، أمه ، أخته نفيسة ، كان من الظلم ألا يختصر طريقه في الحياة ليخفف عنهم جزءا من أعباء الحياة : ترى أكان يمكنهم أن يصبروا على شظف العيش حتى ينتهى من دراسته العالية ؟ محال ! وحين اطمأنت نفسه إلى هذه الحقيقة ، أقدم على التضحية وهو سعيد مرتاح البال .

لقد ضحى حسين بآماله العراض .. إن المصير الذى ينتظره لن يفترق كثيرا عن مصير أبيه ، وهو مصير الألوف من الموظفين الصغار ! مستقبل محدود مظلم ولكنها فلسفة حياة .. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية في كثير من الأحيان ! ونفيسة .. لقد ضحيت هي الأخرى وكانت التضحية فادحة ، لقد ضحيت بالشرف الغالى والعرض المصون .. كانت فقيرة ودميمة ، وأين هو الزوج المأمول وقد حرمت إلى الأبد عزة المال ونعمة الجمال ؟ رجل واحد يستطيع أن يقبلها زوجة وتعيش معه تحت سقف واحد ، رجل مضيق في الحياة مثلها فقير دميم ! ولقد وجدت يوما هذا الرجل .. هذا الحيوان الذى استجابت له مرغمة تحت تأثير الحلم الجميل ، حلم كل عذراء فقيرة قبيحة الوجه وجدت بعد طول انتظار من يقول لها إنك جميلة ، يازوجة الغد القريب !! .

وسقطت نفيسة .. وفر الحيوان الذى سلبها الشرف وتركها وحيدة تواجه الخاتمة في معركة المصير ! وقالت لنفسها يوما : ماذا بقى لك يابائسة ؟ لا مال ، ولا جمال ، ولا شرف .. هل بقى شيء تحرصين عليه ؟ هل هناك أمل في زواج جديد ؟ وحين قهقه في أعماقها الجواب .. انطلقت في طريقها تلبى نداء الجسد عند كل عابر سبيل ! انحدار إلى الهوة السحيقة الرهيبة ولكنها فلسفة حياة .. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية في كثير من الأحيان ! .

وحسن ، ذلك الشريد الهائم في الطرقات .. ماذا فعلت به المقادير ؟ لقد جاع لأنه لا يصلح لأى عمل شريف ، لقد فقد القدرة على أن يحيا حياة نظيفة ، مرتبة ، هادئة ، فيها أمن وفيها استقرار ! هناك في الحياة خط سير يستطيع أمثاله أن يسلكوه .. خط سير يعج بالدروب والمنحنيات التى تختفى فيها الكرامة ، والشرف ، والفضيلة ، والإنسانية .. قيم ستختفى إلى الأبد ومثل ستهب إلى غير معاد .. ولكن ستظهر بعدها

اللحمة الدسمة التى تملأ كل معدة خاوية ، وميقبل فى إثرها الثوب الجديد الذى ينعش كل جسد مهان ، ومتخطر البسمة المشرقة التى تسعد كل شعور ملتان . وهذا هو خط السير الذى سلكه الفتى الشريد .. يتجر بالمخدرات ، ويعيش مع العاهرات ، ويألفها من حياة .. حياة ينكرها عليه « الشرفاء » من أسرته ، وفى طليعتهم حسنين الذى تخرج فى الكلية الحربية وأصبح ضابطاً محترماً فى سلاح الفرسان ! .

من فيض هذه الحياة الآتمة الهابطة استطاع الفتى الشريد أن يخلق من العدم حياة أخوين .. ساعد الأخ الموظف حتى استقر فى وظيفته ، ولولا الأساور الذهبية التى سطا عليها من بيت عشيقته وقدمها إليه لما استطاع أن يستقر ، ولولا التضحيات الأخرى المماثلة لما استطاع الملازم حسنين أن يسدد أقساط الكلية الحربية ، وأن يرتدى الحلة الأنيقة ذات النجمة الصفراء .. ومع ذلك يعيره الضابط « الشريف » بحياته الشائنة ، ويحاول جاهداً أن يتشله من وهدة الإثم والهوان ! صورة أخرى رسمها نجيب فى دقة وأصالة ، وأبرز من خلال سطورها حقيقة تقول لك : لقد انحرف حسن وحاد عن الطريق ، ولكنها فلسفة حياة .. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان ! .

أما حسنين ، الملازم حسنين كامل على فقد كانت تضحيته من ذلك النوع النادر فى حياة البشر .. كان فتى طموحاً منذ نشأته الأولى فى « عطفة نصر الله » بحى شبرا ، تلك العطفة الحقيمة التى لم تكن لتحد من طموحه يوم أن كان تلميذاً صغيراً بالمدرسة التوفيقية ! كان طموحاً رغم فقره ، ورغم حاجته ، ورغم البيئة التى نشأ فيها ولم تكن توحى لأحد من أبنائها بأمل أو طموح .. إنه يقارن منذ أن صار ضابطاً بين يومه وأمسه ، فيشعر بهول الفارق بين حاضره وماضيه ! هذه العطفة الحقيمة التى شهدت أيام بؤسه وبؤس أمه وإخوته ، يجب أن تغادرها الأسرة إلى مكان بعيد ، مكان يسدل على الماضى البغيض ستاراً من النسيان .. حسبه أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أخته نفيسة وهى تسعى إلى كسب عيشهم بعد أن كلت قدماها من السير وتعبت يداها من طرق الأبواب ، وحسبه مرة أخرى أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أنات بيتهم وهو يباع قطعة بعد قطعة ليعيشوا على الكفاف . وحسبه مرة ثالثة أن تلك العطفة القذرة قد شهدت رجال الشرطة وهم يقتحمون المسكن الذليل بحثاً عن أخيه المجرم الطريد .. كل شىء قد فسد يستطيع حسنين أن يصلحه إلا شيئاً واحداً يتعذر معه الإصلاح ، هو أن يهتدى حسن إلى الطريق القويم ! أما نفيسة فلم يكن هو ولا أحد من أسرته يعلم أنها قد

اندفعت إلى ذلك الطريق .. وخيل إليه وهو ينتقل بالأسرة الحبيبة إلى مصر الجديدة ، خيل إليه أنه قد رد إلى نفيسة كرامتها حين حال بينها وبين الهوان !! .
وهناك ، في ذلك المكان الجديد الآمن تنفس حسنين الصعداء .. لقد بدأت الحياة تبسم بعد طول التجهم والعبوس ، حين انقطعت أخبار حسن الذى كان يهدد طموحه وسمعته ونظرته إلى المستقبل كلما فكر فيه ! وبهية .. تلك الفتاة التى أحباها فى عطفة نصر الله وخطبها إلى أبويها وهو تلميذ صغير ، تلك الفتاة « البلدى » الفقيرة الساذجة لم تعد تصلح لأن تكون زوجة لضابط عظيم .. إن زوجة المستقبل وشريكة الحياة هناك ، فى ذلك القصر الأنيق الذى ذهب إليه « خاطبا » منذ أيام ! إنه يريد أن يقطع كل علاقة كانت تربطه بعطفة نصر الله ، ولو كان له فى تلك العطفة حب قديم ، حب قضى بين أحضانها أجمل أيام العمر وأسعد لحظات الشباب !

لقد اختفى حسن ، واستقرت نفيسة ، وذهبت بهية ، وبقي أن يفتح القلب على مصراعيه ليستروح أنسام السعادة التى كان يحلم بها منذ بعيد .. ولكن القدر لا يريد للأسرة البائسة المسكينة أن تستريح ، ولا يريد للفقى الطموح الآمل أن يسعد بأحلامه وأمانه ! لقد هوى بضرباته السريعة المتلاحقة على أحلام العمر فبعثرها مع الريح فى كل طريق .. لقد حيل بينه وبين حبه الجديد ، حين رفضت الأسرة العريقة المترفة أن تصاهر ضابطا يتهامس الناس حول أخته ويتحدثون عن أخيه .. وحين أفاق الملازم حسنين من الصدمة الأولى زلزلت كيانه الصدمة الثانية حين جىء إلى بيته بأخيه حسن محمولا تترف فيه الدماء ، وعليه أن ينتظر اللحظة الرهيبة المقبلة فى أعقاب الشقيق المجرم طريد القانون ! وحلت اللحظة الرهيبة الحاسمة حين أقبل أحد رجال الشرطة ليستدعيه إلى قسم البوليس .. حسن ! بالطبع ليس هناك غير حسن ، تلك السحابة السوداء فى أفق ينذر بالغيوم .. وحوله ، حوله وحده ينتظره هناك سؤال وجواب !

وفى قسم البوليس وجد أخته الساقطة بدلا من أن يجد استجوابا عن أخيه الطريد لقد ضببت نفيسة فى بيت يدار للفساد !! وأظلمت الدنيا فى عينيه وضاق الفضاء .. لقد فقد كل شيء ، فقد حبه ، وفقد أمه ، وفقد سمعته ، وفقد فى الحياة القصيرة التى ملأها بالأحلام كل حلم جميل ! وأخذ أخته وخرج .. إلى أين ؟ لا يدري فكرة ولا تدرى قدماه .. إن فى أمواج النيل الحانية مثنى لكل بائس شريد منبوذ من الحياة . هكذا قالت له نفيسة حين سألها أن تحدد لنفسها الطريق وتتخير المصير ! ومضت أمامه

ومضى خلفها إلى هناك .. إلى حيث يتاح للبائسين أن يعرفوا طعم الراحة بعد طول العناء ! .

وقال الملازم حسنين لنفسه : لقد حكمت عليها بالإعدام فقبلت الحكم وهي راضية صابرة مستسلمة للقضاء .. وما كان أشجعها وهي تستقبل الموت وكأنها تستقبل الزوج الحبيب الذى قضت العمر تفتش عنه فى دروب الأمل ! امرأة ضحت بأيام الحياة فرارا من قسوة الحياة ، وأنت ؟ أنت يارجل .. ماذا تنتظر ؟ ! .

صورة ثالثة أوفى نجيب على الغاية وهو يحدد خطوطها النفسية ، خطوطها التى تطل عليك من آفاق الشعور لتقول لك : ترى هل كان حسنين شجاعا حين لحق بنفسه ؟ أم كان جباناً حين فر من لقاء الناس ؟ مهما يكن من شىء فقد كانت فلسفة حياة .. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان ! .

عن كتاب « نماذج فنية من الأدب والنقد »

القاهرة ١٩٥١

بين القصيرين

د . طه حسين

قد أتيح لنجيب محفوظ في هذه القصة الرائعة البارة نجاح ما أرى أنه أتيح له مثله منذ أخذ المصريون ينشئون القصص في أول هذا القرن . ولكن الأدب المعاصر كغيره من الآداب على اختلاف عصورها وكغيره من الإنتاج العقلي . شيء نفهمه نحن ولا يفهمنا ، ونقدريه نحن ولا يقدرنا ونشعر نحن بما يتاح له من نجاح وما يفرض عليه من إخفاق ولا يشعر هو برضانا عنه أو سخطنا عليه . فلا أقدم نهشتي إذن كأصديق وأعمق ما تكون التهته إلى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ ولأقدمها إليه بلا تحفظ ولا تخرج فهو جدير بها حقا لأنه أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم يتحه لها كاتب مصري قبله .

وما أشك في أن قصته هذه « بين القصيرين » تثبت للموازنة مع ما شئت من كتاب القصص العالمين في أى لغة من اللغات التي يقرأها الناس . وما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها منذ تبدأ إلى أن تنتهى فلا تحس بها ضعفا ولا تشعر فيها بفتور في أى موقف من مواقفها ولا تثير فيك احساسا بأن الكاتب على إطالته قد أدركه شيء من الأعيان أو أصابه شيء من التراخي أو ناله ما ينال الكتاب المطولين من هذا الجهد الذي يدعو إلى شيء من الراحة والتنفس في ذلك . بل ما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها أنت فلا تشعر في أى وقت من أوقات القراءة بالحاجة إلى أن تستريح منها إلى غيرها من الكتب أو تستريح من القراءة إلى غيرها من ألوان العمل وإنما يتجدد نشاطك إلى المضي في قراءتها دون أن يجد الملل أو السأم أو الضعف أو الفتور إلى نفسك سبيلا ، وأنت جدير أن تأخذ في قراءتها فلا تدعها حتى تتمها لولا أن ظروف الحياة تحول بينك وبين ما يجب من ذلك وتضطرك إلى الوقوف لتأني عملا لا تستطيع تأجيله أو تقرأ شيئا لا سبيل إلى إرجاء قراءته . ثم أنت لا تكاد تفرغ من هذا العمل الذي صرفك عنها حتى تعود إليها مدفوعا إلى

هذه العودة دفعا لا تستطيع مقاومته ولا الامتناع عليه .

بل أنت لا تفرغ من هذه القصة لتصرف عنها إلى غيرها من فنون القراءة وألوان العمل وإنما أنت مضطر إلى أن تفكر فيها تفكيرا طويلا متصلا وربما أخذت فيما يجب أن تأخذ فيه من أعمالك وقراءاتك واضطربت فيما يجب أن تضطرب فيه من شئون الحياة ولكنك ترى نفسك بين حين وحين مضطرا إلى أن تعود إلى التفكير فيها والإعجاب بها والثناء عليها بينك وبين نفسك والتحدث عنها إلى الناس حين تلقى الناس .

تقف بعقلك وقلبك عند هذا الموطن من مواطنها أو هذه الصورة من صورها فلا تكاد تتحول عنه إلا لتقف عند موطن آخر أو صورة أخرى .

وقد يمضي الوقت الطويل بعد فراغك من قراءتها وإذا أنت على ذلك تعود إليها فترى أنك لم تنس منها شيئا لأن قراءتك الأولى لها قد ثبتت أحداثها وصورها وأحاديثها في نفسك تثبيتا .

بهذا كله شعرت أنا وبهذا كله شعر غيرى من القلة الذين لقيتهم وتحدثت إليهم عنها فإذا هم قد قرأوها وتأثروا بها كما تأثرت وقدروها كما قدرتها وأحسوا من روعتها مثل ما أحسست وألحت على عقولهم وقلوبهم كما ألحت على عقلى وقلبي .

ومصدر هذا كله فيما أرى أن الكاتب يحقق في هذه القصة تحقيقا رائعا خصلتين يبلغ بهما الأثر الأدبي أقصى ما يقدر له من النجاح وهما الوحدة التي لا تغيب عنك لحظة والتنوع الذى يزود عنك السأم ويحيل إليك أنك تحيا حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والأحداث .

فأنت تنتقل فى كل هذه المظاهر والمناظر والأحداث لا كما ينتقل المتره فى بستان يختلف فيه الزهر والثر والشجر بل كما ينتقل الإنسان فى حياة مضطربة لا يمر يوم من أيامها أو ساعة من ساعاتها إلا لقيه فيها حدث من الأحداث يرضيه أحيانا ويسخطه أحيانا يثيره مرة ويرده إلى الهدوء مرة أخرى .

والقصة اجتماعية بأدق معانى هذه الكلمة لأنها تصور بيئة مصرية معينة فى عصر بعينه من عصور هذا القرن تصور بيئة رجالها من التجار المترفين فى الأحياء القديمة من القاهرة وفى أثناء الحرب العالمية الأولى وأعقابها ونساؤها من المحصنات الغافلات المحجبات اللاتي لم يبلغن التطور الحديث بعد فلبث محفظات بعادات القرن الماضى فى البيئات المصرية الخالصة وشبابها مختلفون يمتازون بما يمتاز به الشباب فى عصر من عصور الانتقال ، منهم الجاد الذى لم يدركه خمود ولا خمول فهو طامع إلى أن يتعلم ويبلغ من

التعليم أرقاما كانت تتاح للشباب في ذلك العصر . ومنهم الكسل الذي لا يتجاوز الشهادة الابتدائية ويقنع بعمل كتابي في مدرسة النحاسين ، وصبيته من هؤلاء الذين عرفناهم أول القرن في تلك الأحياء القديمة في القاهرة يختلفون إلى المدارس كارهين لها حراسا مع ذلك عليها ويعبثون في الطريق بينها وبين الدار ويتفكهون حين يتاح لهم ذلك بالوقوف عند بائع البسبوسة وتأتلف عقولهم الناشئة من هذه الأحاديث المختلطة المتناقضة التي يسمعون بعضها من معلمهم في المدرسة ويسمعون بعضها الآخر من أمهاتهم إذا راحوا إلى الدور .

ويؤلفون بين هذه المتناقضات مزاجا لا هو بالجديد الخالص ولا هو بالقديم الخالص وإنما هو شيء بين ذلك يعجب ويروق . وبناتها معجبات غافلات أيضا يتحرصن مع ذلك من اختلاس النظر بين حين وحين من ثقب المشرقيات إلى ما يجري في الشارع ومن يمر فيه من الشباب . والأسرة التي اتخذت محورا لهذه القصة تقيم في ذلك الشارع القديم بين القصرين رئيسها تاجر من تجار الحى قد جاوز الشباب ولم يبلغ الشيخوخة بعد وهو أنيق مترف رائق المنظر والمظهر لا يكاد يخرج من داره حتى يكون صورة رائعة للترف والوقار أثناء النهار وصورة رائعة للعبث والمجون شطرا من الليل ولا يكاد يعود إلى داره حتى يكون صورة مروعة للجد والصرامة والحزم والتحكم ما أقام فيها .

وهو قد ملأ الدار وأهلها إعجابا به وحبا له وخوفا منه يبلغ الذعر والهلوع .. تحبه زوجته كل الحب وتفرق منه كل الفرق فهي خادم له تدعوه سيدها وتسهر منتظرة عودته وتضئ له طريقه إلى حجراته متى عاد . هي خادم ولكنها خادمة عاشقة وبناته وأبنائه يسلكون طريق أمهم في الخوف والفرق والإعجاب والحب .

وله ابن من غير زوجته هذه خادمة خامل وتعس بائس قنع يعمل في مدرسة النحاسين وقد طلقت أمه لسوء سيرتها وهو يعلم ذلك حق العلم ويشقى به أشد الشقاء . وهو يسلك طريق أبيه لا في الجد والنشاط ولا في الوقار والاحتشام بل في العبث والمجون . وعلى هذه الأسرة تختلف أحداث الحياة هادئة مطردة أثناء الحرب ثم عيفة مضطربة حين تضع الحرب أوزارها وتشب الثورة وينقئ سعد زغلول .

وقد قلت إن القصة اجتماعية لأنها تصور هذه الأسرة والبيئة التي تضطرب فيها وما يختلف عليها من صغار الأحداث وكبارها ما يحزن منها وما يسر ولكن للقصة وجه آخر فهي تاريخية بأدق وأعمق وأوسع وأبرع معاني هذه الكلمة فلست أعرف قاصا صور الثورة المصرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى كما صورها الأستاذ نجيب محفوظ .

صورها حية كأقوى ما تكون الحياة وصورها متغلغلة في أعماق الشعب على اختلاف طبقاته مستأثرة بالقلوب والألباب مؤثرة في حياة العابثين والجادين جميعا وفي حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما .

وصورها بما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم وجود الشيوخ بأموالهم وجود الأمهات والأخوات بأمانين ودعائهن .

وصورها بما فيها من قسوة الإنجليز ويطشهم وغدرهم واستخفافهم بكل شيء وبكل إنسان وبكل مكانة وانتهاكهم للحرمان وخروجهم عن طور المتحضرين .

صور هذا كله أروع تصوير وأبرعه وأقساه لا بالألفاظ الرائعة المنمقة بل بالأحداث التي تفتقر القلوب وتمزق النفوس .

ولست أقف في هذا الحديث عند ما في القصة من هذه الصور الأخاذة الخلابة التي لا تحصى لأن هذا يطيل الحديث أكثر مما تتحمل الجمهورية بل أكثر مما تتحمل صحفنا السيارة في هذه الأيام .

لا أقف عند صورها الهادئة التي تعجب وتروق ولا عند صورها المثيرة التي تملأ النفوس حزنا وجزعا أحيانا وتملؤها إيمانا وأملا أحيانا أخرى وتملؤها ثقة بمصر دائما . لأنني إن حاولت ذلك لن أفرغ منه وإنما أعيد ما قلته في أول هذا الحديث من أن هذه القصة هي أروع ما قرأت من القصص المصرية منذ أخذ المصريون يكتبون القصص ومن أنها تثبت للموازنة مع ما شئت من القصص في أى لغة من اللغات التي يقرأها الناس وأضيف إلى ذلك أن روعة القصة لا تأتي من هذه الخصال التي أشرت إليها آنفا فحسب ، وإنما تأتي من لغتها أيضا فهي لم تكتب في اللغة العامية المبذلة ولم تكتب في اللغة الفصحى القديمة التي يشق فهمها على أوساط الناس وإنما كتبت في لغة وسطى يفهمها كل قارئ لها معها يكن حظه من الثقافة ويفهمها الأميون إن قرئت عليهم .

وهي مع ذلك لغة فصيحة نقية لا عوج فيها ولا فساد .

وقد تجرى فيها الجملة العامية أحيانا حين لا يكون منها بد فيحسن موقعها وتبلغ منك موقع الرضى .

• وأكبر الظن أن الأستاذ نجيب محفوظ قد وفى للجامعة التي تخرج فيها أصدق الوفاء وأقومه .

• وفى لها بالعمل الصادق المنتج فأثبت أنها لم توجد عبثا . وأنها لم تخرج العلماء

فحسب وإنما أخرجت معهم الأدباء البارعين أيضا وأخرجت معهم أروع القصاص المصريين كذلك .

• وكل شخصية في هذه دليل واضح قاطع على أن الأستاذ نجيب محفوظ قد انتفع بما سمع في كلية الآداب من دروس الفلسفة . لم يصبح فيلسوفا ولا مؤرخا للمذاهب الفلسفية وإنما أصبح فقيها بالنفس الإنسانية بارعا في تعمقها وتحليلها . قادرا على أن يضع يد قارئه على أسرارها ودقائقها .

وحسبك بهذا كله نجحا للجامعة ونجحا لخريجها نجيب محفوظ .

عن كتاب « من أدبنا المعاصر »

القاهرة ١٩٥٨

ثلاثية بين القصرين

د . على الراعى

١ - فى التكنيك

لست أدرى بماذا شعر نجيب محفوظ وهو يضع القلم جانبا ، بعد أن خط آخر سطر فى ثلاثيته . ربما يكون قد شعر بالفخر لأنه أتم هذا العمل الكبير ، وربما يكون قد أحس بالارتياح لأن عبئا كبيرا قد انزاح عن كاهله . وقد يكون داخله شعور بالتساؤل : كيف يستقبل الناس عمله هذا ، راضين أم ساخطين ، أم ذاهلين ؟ .

كل هذه الأحاسيس ربما وجدت طريقها إلى قلب نجيب محفوظ وعقله ، أما أنا ، فقد استبد بى إحساس واحد فقط ، عقب قراءتى للثلاثية . ذلكم هو الارتياح العميق . أحسست أن أدبنا العربى المعاصر قد حقق لنفسه مكسبا كبيرا بظهور هذه الرواية ، مكسبا يسمح لنا - دون أدنى حرج - أن نقول : إن فن الرواية فى بلادنا قد دخل - على يد نجيب محفوظ - مرحلة التأليف الكبير ، وإن اليوم الذى يقف فيه المؤلف الروائى العربى على قدم المساواة مع المعلمين الكبار فى هذا الفن لم يعد بعيدا ، إن لم يكن قد حل فعلا بظهور الثلاثية للناس .

وأنا أحاول أن أزن كلامى بدقة قبل أن أخطه على الورق ، أعالج نفسى علاجا شديدا ، وأحذرهما من الاندفاع وراء الحب والإعجاب اللذين أشعر بهما نحو هذا العمل . ومع هذا أجدنى غير مستطيع التحول عن القول بأن نجيب محفوظ يغترف ، فى الثلاثية ، من نفس النبع الذى اغترف منه قبلا مؤلفون عالميون من طراز ديكتز ، وتولستوى ، وجيمس ، جويس ، وغير هؤلاء من الكبار والفاتحين فى فن الرواية . وينطبق هذا القول - أكثر ما ينطبق - على نقاط بعينها فى الثلاثية ، يمكن إجمالها فيما يلى :

* الهدف الفنى الكبير الذى رمى إليه المؤلف من وراء روايته . وهو هدف طويل وعريض وعظيم . إنه إعادة إحياء دنيا كاملة من الناس ، بأفكارها وآرائها وإحساساتها

وتحيزاتها ومغامراتها ومزاياها ونواقصها . إنه - فى كلمات - استنقاذ حياة كاملة من براثن العدم . وتحليلها إلى الأبد على ذلك الشريط السحري الباعث للحياة الذى نسميه بالعمل الفنى .

« رسم الشخصيات بطريقة علمية موضوعية ، توازن تماما بين النمو الداخلى والخارجى للشخصية الواحدة .

« غنى هذه الشخصيات فى حياتها الداخلية والخارجية ، وتعدد أنواعها وتفرد كل منها بميزات واضحة محددة تميزها عن باقى الشخصيات .

« نجاح الكاتب فى أن يخلق من كل واحدة منها على حدة ، ومنها جميعا ، كلا واحدا ، ناميا ، متسقا ، تؤدى بداياته - بطريقة طبيعية منطقية - إلى نهاياته .

« بناء القصة التى تكمن وراء الرواية بطريقة هندسية وظيفية محضة . فكل ما يذكر فى الرواية من أفكار وآراء وعادات وملامح للشخصيات يؤدى وظيفة معينة خاصة به . وهذه الوظائف الصغيرة مهندسة كلها ، بحيث تخدم الهدف العام للرواية ، فى نفس الوقت الذى تؤدى فيه وظيفتها العادية ، بالنسبة للحادثة أو المناسبة التى ذكرت فيها .

« الدهاء الكبير الذى يستخدم به المؤلف هذه التفاصيل ليقدم قصته ، ويبرر مفاجآتها ، ويخفف من حدة منحنياتنا .

« الانسجام التام بين شكل الرواية وموضوعها . وبراعة الكاتب فى انتقاء الأدوات الفنية الخليفة بخدمة أهدافه دون التقيد بمدرسة فنية واحدة .

* * *

ولكن : أى نوع فى الروايات تحسب الثلاثية ؟ ما هى أهدافها الفكرية والفنية ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ وماذا نجحت فى تحقيقه من هذه الأهداف ؟ ..

من قرائنا من ذهب إلى القول بأنها ليست رواية فى الواقع ، بل هى سجل اجتماعى تاريخى ، اتخذ شكل السرد الروائى وسيلة لبلوغ أهدافه . وإلا فأين البطل فى هذه الرواية ؟ أين هى الحادثة الكبرى التى يندفع إليها تيار السرد ، والتى تتأزم عندها الأمور ثم تسير إلى انفراج تعقبه النهاية ، أيا كانت هذه النهاية سعيدة أم مفاجئة ؟ .. إن الثلاثية - فى رأى هذا الفريق من قرائنا - ليست رواية بالمعنى المفهوم لأنها جملة قصص فى قصة واحدة ، وهذا يسلبها الشكل الفنى المتسق ويضعف من تأثيرها الفكرى والفنى على القراء .

هذا الفريق من القراء معذور إذا وجد نفسه ضائعا فى غمار هذا العمل الكبير المتعدد

الألوان والمستويات . إنه ينظر إلى لوحة حائطية ضخمة من نفس البعد الذى ينظر به إلى اللوحة الصغيرة . وعلى هذا تشغله التفاصيل المتعددة عن تبين التصميم العام للعمل . يرى أمامه عدة أبطال وعدة حوادث وعدة قصص ، فيظن أن هذا هو كل شئ وأن هؤلاء الأبطال وهذه الحوادث ، والقصص لا يسلكها تصميم أعم منها جميعا يصبح فيه كل بطل وكل حادثة وكل قصة قالب طوب فى بناء شامخ له فعلا بطل واحد وحادثة واحدة وقصة واحدة .

على هؤلاء القراء أن يتراجعوا إلى الوراء قليلا ، ليتبينوا اللوحة الحائطية الضخمة التى رسمها نجيب محفوظ فى ثلاثيته . ولو فعلوا لوجدوا أن بطل الرواية هو المجتمع المصرى فى السنوات ما بين قيل الحرب العالمية الأولى ومنتصف الحرب العالمية الثانية وأن الحادثة الرئيسية فى هذه الرواية هى سير الزمن . وتأثير هذا السير على أجيال عدة من المصريين عاشت بين هذين المعلمين الكبيرين من معالم التاريخ الحديث ، وإن القصة التى تكمن وراء الرواية هى قصة أسرة السيد أحمد عبد الجواد ، وما يحدث لها ولأصهارها وتابعيها وأصدقائها فى هذه الحقبة من التاريخ .

تسجل الثلاثية أحداث هذه الحقبة تسجيلا فنيا قبل أن يكون تاريخيا . ذلك أنها تتأمل هذا الذى يحدث وتتفعل به . وتتخذ منه موقفا ، ولا تكتفى بأن تسرده أو تقرره . ووسيلة هذا التسجيل هى شخصيات إنسانية نجدها فعلا فى مجتمعنا ، ولكنها دخلت لا واعي الفنان وواعيته على السواء ، فأصابتها من التغيير والتبديل والحذف والإضافة ما جعل منها نماذج إنسانية وفنية فى وقت واحد . أى أشخاصا حقيقيين يمتون للواقع بكثير من الروابط . ورموزا فنية تنتمى إلى حياة الفنان الذاتية فى داخل نفسه وخارجها ، على السواء .

الثلاثية إذن خلق فنى قائم بذاته ، بصرف النظر عن مدى مطابقته للواقع الحى الذى استمد منه المؤلف مواد روايته . . إن له قيمة كبرى كرواية ، حتى لو قام باحث اجتماعى أو مؤرخ فأثبت - غدا أو بعد غد - أن حوادث وأشخاصا كالتى نجدها فى الثلاثية ما كان يمكن أن نجد لها مكانا فى الحقبة التاريخية التى تتخذها الرواية موضوعا ومسرحا فى وقت واحد .

ولأن الثلاثية عمل فنى صادق مخلص . . ولأن المؤلف لم يسع فيه إلا لمجرد إعمال روحه وفكره وفنه فى الواقع الذى شب فراه يضطرب حوله ، تكتسب هذه الرواية الكبرى قيمتها . التسجيلية غير المنكورة ، فما أشك أن الباحثين الاجتماعيين سيجدون فيها

فى قابل الأيام عوناً كبيراً على «إعادة بناء» الحقبة الاجتماعية التى تمثلها ، على نحو ما يفعل زملاؤهم فى إنجلترا - مثلاً - حين يلجأون إلى روايات «ديكتر» ليستعيدوا لأنفسهم ما كان يجرى فى البلاد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

الثلاثية على هذا النحو عمل فنى من النوع الذى يسمى أحياناً «براوية الأجيال» ، أى الرواية التى تمتد حوادثها على مدى أجيال متتابعة من الناس تشغل بشئونهم وشئون أعقابهم وأحفادهم وتنتهى حينما تصل قصة الرواية إلى حد يحسن أو يمكن الوقوف عنده . إنها ضريب لرواية «الحرب والسلام» مثلاً ، فهى مثلها متعددة الأبطال ، كثيرة الحوادث ، وكلتا الروائيتين تعتمد فى كيانها على رسم بانوراما هائلة لمجتمع بأكمله ، عن طريق تفاصيل دقيقة لا تكاد تحصى ، ولكن ما فيها من واقعية يضفى على الرواية وأشخاصها ومناظرها وضوحاً وازدهاراً ، وبينها قطعة قطعة ، حتى إذا ما انتهى المؤلف من سرد روايته ، استوت هذه الرواية أمامنا بناءً شامخاً متكاملًا ، وتبيننا على الفور أن الذى وضع اللبنة الأولى لهذا البناء كان يرى خاتمته وهو يمهّد الأرض ويدق الأساس .. إن الروائيتين تحويان تصميمًا عامًا لا تتبينه إلا إذا بحثنا عنه وتأملناه طويلاً .. وإن كان هذا القول يصدق بصفة خاصة على «الحرب والسلام» ذلك أن البحث عن التصميم العام وراء الثلاثية لا يعجز إلا القارئ المهمل وحده ، ولا يشق على المتأنى . قلت إن «الثلاثية» مشغولة طوال صفحاتها المائة والثلاث والستين بعد الألف بتسجيل سير الزمن وتأمل هذا السير والانفعال به ، واتخاذ المواقف منه . وأضيف أن هذه العمليات المتعاقبة تتم على أساس من نغمتين كبيرتين سائدتين فى الرواية ، النغمة الأولى تجرى على النحو التالى :

الزمن : ما أكثر ما يتغير ، ما أبشع ما يتغير ، من أسف أنه يتغير ، لا دافع لتغير الزمن ، لا مفر من أن يتغير ، من يدرى ، لعل فى تغيره رحمة بالناس .

والنغمة الكبرى الثانية تقول :

الشر فى العالم : كم هو قاس ! كم هو فائن ! كم هو ضرورى . هو لا يمنع الخير من أن يسود . بل لعله يضفى عليه فتنة . بل هو ينقلب خيراً أحياناً .

هكذا يتغنى كمال عبد الجواد طوال الرواية إذ هو يتأمل ما يحدث داخل نفسه وخارجها من أحداث . إذ هو يتأمل حبه ، ومغامرات أبيه الجنسية ، وارتفاع قواد الحمزاوى إلى مقعد القضاء ، والنكبات التى تحمل بعائشة ، وانهيار السيد عبد الجوار وانهيار حياته هو ، وحقاقت ياسين اللطيفة ، وانفراط عقد الأصدقاء بعد زواج عابدة

وسفر حسين .. ومغامراته هو في بيوت البغاء . وكفاح كل من عبد المنعم الإخواني وأحمد الشيوعي .

وكمال لا يخرج من تأملاته بموقف حاسم يواجه به الحياة . إنه يظل حتى النهاية معذبا حائرا بين الشك والإيمان .. بين السلبية والإيجابية .

ولكننا نحن الذين أنعم علينا المؤلف بمقعد من مقاعد الآلة نتأمل منه من عل ما يجري في دنيا الثلاثية من أحداث ، نرى بوضوح خطا قويا متطورا ينتظم الحوادث . لقد ولد للسيد أحمد عبد الجواد ، الذي يكتفي من الوطنية بالعطف الخالص ، ودفع التبرعات والدعاء للزعماء الوطنيين في مجالس الأنس ، ولد له فهمي الذي انضم لحركة المقاومة السرية ووزع المنشورات ومات في مظاهرة تحتفل بعودة سعد ، وولد له أيضا كمال ، الذي عمق بدراساته وتأملاته مفهوم الوطنية وجعله أقرب إلى العمل من أجل الناس أجمعين ، في داخل مصر وخارجها ، ثم جاء من أحفاد السيد عبد الجواد من ربط بين الكفاح الوطني والكفاح الاقتصادي . وعرف في أعدائه المحليين - من مصريين وأجانب - أعداء عالميين لهم نظراء في كل مكان . ولهذا المفهوم تجب مقاومتهم . ثم لم يكف أحمد بهذا بل قطع العقدة التي تشل خاله عن العمل ، وقرر التزول إلى الميدان ، لأنه « يؤمن بالحياة والناس ويرى نفسه ملزما باتباع مثلهم العليا ما دام يعتقد أنها الحق ، إذ النكوص عن ذلك خيانة ! » .

/ الثلاثية إذن لا تكتفي بتسجيل الحوادث ولا حتى بتصويرها تصويرا فنيا أخذا . إنها ليست مجرد عرض لسير الزمن . ولكنها تبيان لما في هذا السير من متناقضات وأزمات وتطورات ، واعتراض عليه أو امتداح له حسبما يتجه إليه تيار الحوادث .. إنها - باختصار - تنحو منحى الواقعية النقدية ، التي تضع الموقف إلى جوار الصورة الفنية ، وترى المستقبل الواعد وراء نماذج الحاضر المتغير والماضي المسرع إلى المغيب ..

- ٢ -

حينما نتأمل ما صارت إليه مقدرات مجموعة من الناس مختلفة التكوين والاتجاهات مثل السيد أحمد عبد الجواد وأبنائه ياسين وفهمي وكمال ، وبتيته : عائشة وخديجة ، وجارتيه : أم مريم وابنتها مريم ، وابن مساعده في الدكان فؤاد الحمزاوي ، نخرج من تأملاتنا بنتيجة واضحة هي : أن كل هذه الشخصيات حملت بين طياتها منذ البداية

العوامل التي أدت آخر الأمر إلى ما انتهت إليه ..

فمثلا ، ظل السيد أحمد عبد الجواد طيلة حياته ، يصرف أكبر همه إلى إرضاء رغباته ويحذ في هذا الإرضاء شاهدا قويا على فحولته ومدعاة لتفاخره على غيره من العشاق الأقل توفيقا ولكن هذا الاستسلام التام لنداء اللذة هو نفسه الذى يهدم شخصية عبد الجواد - فى نظر نفسه على الأقل - ويحيل غزواته الموفقة إلى سلسلة من الهزائم الكئيبة . أليس يضطر كارها إلى قبول كل الشروط المتعسفة التي وضعتها زنوبة العوادة ثمنا لصداقتها له ، بعد أن عيرته بكبر سنه ، وأذلتة ووضعت أنفه فى الرغام ! .. أليست غزواته الموفقة هي التي تسببت فى أن تصبح زوجة ابنه ياسين تارة رفيقة سابقة له « زنوبة » وتارة أخرى ابنة لرفيقة سابقة « مريم » ؟ .

أليست هذه الغزوات هي السبب فى أن يتحول سر مغامراته الليلية المصون إلى مضغة ونكتة فى أفواه بنيه وخليلاته ؟ وأخيرا ألم تؤد هذه المغامرات إلى أن يحمل كالطفل ، ذات ليلة كئيبة دهما من ليلالى الغارات إلى بيته ، وهو بين الموت والحياة ؟ .

وياسين ، أليست شهوته هي التي تدفع به - دون أن يدري - إلى تلقف نفايات أبيه حيناً - ومنح أبيه بعض نفاياته هو ، حيناً آخر ؟ وتؤدى به أيضا إلى أن يجرى فى الطريق لاهثا ملئ اللسان وراء كل امرأة وأية امرأة - طالما توسم بين أحضانها ما يبشر بتغيير طعم الملل المر فى فمه . وهي شهوته التي تقعد به عند حد التعليم الابتدائى وتحكم عليه بأن يظل حتى الخمسين من عمره حبيس الدرجة السابعة لا ينقذه منها إلا وساطة ابنه « الوسيم » رضوان لدى الحكام .

وفهمى .. أن موته كامن فى بداياته الأولى . التي تجعله العضو الوحيد فى أسرة السيد أحمد عبد الجواد الذى يتمشى مع عواطفه الوطنية حتى نهاياتها المنطقية ، فيجد نفسه مدفوعا إلى العمل السياسى السرى ، وإلى التظاهر العلنى ، حتى تختم حياته رصاصة طائشة من رصاص أعداء أصر على تحديهم رغم توسلات أمه وزجر أبيه .

وكال .. لم يرزق ذلك التزاوج العظيم الخطر بين الآراء والأفعال الذى وهبه أخوه فهمى .. يقضى حياته حائرا بين القول والفعل .. بين المبدأ والعمل . ألسنا نجد بداية معقولة لهذه الخيرة فى موقفه الأول وهو حدث صغير إذ يسب الإنجليز فى البيت ويصادق جنودهم فى الشارع ، فيوضح بهذا أن قلبه كان من يومه نهبا لشتى العواطف المتضاربة ؟ ألم تتكرر حادثة الهرب من رصاص المعتدين مرتين فى حياته ، لجأ فى الأولى إلى دكان بائع بسبوسة ولجأ فى الثانية إلى مقهى ظل فيه ساعات حتى زال خطر الموت ، فخرج

وهو يحاول أن يتذكر اسم بائع البسبوسة الذى حماه من الهلاك وهو طفل ؟ .
 وهل من عجب أن تصبح خديجة زوجا مسيطرة مشاكسة لحمايتها ؟ أليس هذا تطورا
 طبيعيا لنشاطها فى منزل الوالد ؟ . وعائشة التى كانت وهى عذراء تحب الغناء أكثر من
 العمل ، وتدمن النظر فى المرآة لتشاهد جمالها فى كل وقت . أليست حياتها الناعمة
 اللاهية فى حضان زوج يعشق الطرب وأبناء يؤثرون اللهو والرقص ، أليست هذه الحياة
 نموا معقولا لبذور بذرها الفنان فى روحها من أول ما قدمها لنا ؟ .
 ويفاجئنا نجيب محفوظ بأن مريم أصبحت مديرة بار أيام الحرب العالمية الثانية
 فندهش قليلا ثم لا نلبث أن نتبين أن الفتاة التى شاغلت جنديا انجليزيا أيام الحرب
 الأولى لا تتردد طويلا فى غياب الزوج والأم والعائل ، عن الترفيه عن جنود انجلترا فى
 حرب عالمية ثانية .
 وقل مثل هذا فى باقى الشخصيات .

* * *

الواقع إن نجيب محفوظ ينظر إلى شخصياته نظرة علمية موضوعية فيضع لكل منها
 أساسا معيناً ، كأنما هذا الأساس مقطع عرضي للشخصية ، يضم عناصرها جميعاً ، ثم
 يأخذ الفنان يطور هذا المقطع على ضوء اعتبارين اثنين :
 ١- التركيب الداخلى للشخصية (بما فى هذا من أثر لكل من الوراثة والعادات
 والأفكار المكتسبة) .

٢- تفاعل هذا التركيب مع البيئة المحيطة من أشخاص وأشياء وحوادث .
 فالشخصية الواحدة فى عالم الثلاثية لا تسير وفق وحتى أهوائها ، ولا حتى - لو دققنا
 النظر - وفق المشيئة المطلقة للمؤلف بل هى تتبع واحداً أو أكثر من احتمالات التصرف ،
 كلها موجودة فى بنائها منذ البداية . مريم مثلاً ، الفتاة الغزلة التى لا تتردد فى أن تشاغل
 وتقبل كمال صيبا . ماذا يمكن أن تصبح ؟ اختار لها المؤلف أن تنتهى مديرة بار . وكان
 يمكن أن يجعلها فتاة من فتيات الهوى أو تاجرة أعراض أو غير ذلك من الأعمال التى
 تعتمد على التعامل بفتنتها أو فتنة الأخريات .. أى عمل فى دائرة الهوى ، ولا شىء غير
 هذا .

ولو كان المؤلف اختار أن يجعلها رئيسة لجمعية دينية أو عضواً فى جمعية خيرية ،
 لصرخنا جميعاً فى استياء : ليست هذه مريم فى شىء . كان عليك أن تمهد لهذا التطور

منذ البداية بأن تظهرنا على ناحية تبتل في شخصية مريم تعيش جنباً إلى جنب مع غزلها وتبرجها .

فإذا بحثنا في حياة مريم عن ظروف محيطة تشجع فيها ميلها إلى التبرج والتهتك وجدناها في مسلك أمها ، ومغامراتها مع السيد أحمد عبد الجواد ، بل إننا لو بحثنا عن سبب لمسلك الأم نفسها لوجدناه في سنوات الشلل الطويلة التي قضاها زوجها طريح الفراش . والأم تحب المرح والزوج مريض وهي بعد بها بقية من شباب !! .

كل تصرف إذن من تصرفات الشخصيات في الثلاثية ، مقدر ومحسوب حسابه ، إنه ينبع طبيعياً من مقدمات سبقت واستتبع نتائج بعينها ، لا مفر منها . وهذا بالطبع يضمن على الشخصيات ميزة الاتساق والنمو الطبيعي غير أنه يجعل مهمة الفنان عسيرة حقاً إذ هو مطالب بأن يقدم لنا أحداث رواية طويلة تتجاوز ألف صفحة ، وأن يجعل هذه الحوادث من التشويق بحيث تحملنا على متابعة القراءة ، وكل ذلك في نطاق عام محدد لا يستطيع هو ولا أبطاله أن يتخطوه .

مر فإذا يفعل نجيب محفوظ كي يحتفظ لروايته بما يلزمها من تشويق ومفاجآت ؟ . من أهم ما يعتمد عليه المؤلف نوع من « خفة اليد » لازم لكل عمل فني ، فالقن - قبل كل شيء - إليها وهذا الإيهام قائم على محاولة متصلة بينها الفنان لإخفاء الصنعة التي يلجأ إليها لجعل الوهم يبدو وكأنه حقيقة ، الفن كما يقولون في النقد هو إخفاء الفن .

* * *

ولكى نوضح هذه النقطة ، علينا أن نعرض لحوادث معينة من الرواية . لنختبر مثلاً حوادث ميلاد وحياة وموت نعيمة ابنة عائشة . إن هذه الحوادث مثل طيب من أمثلة استعمال عنصرى التشويق والمفاجأة عند نجيب محفوظ استعمالاً منطقياً « شريفاً » وفعالاً في آن .

يحيى عائشة المخاض ونعلم أن ولادتها ستكون عسرة ونأخذ أن نشفق عليها ، ونخاف ، ثم يزداد إشفاقنا وخوفنا حتى لنغدوا شبه متأكدين أنها ستموت . وفجأة يحدث أمر غير متوقع . يقول الطبيب إن الخوف ليس على الأم . فقد اجتازت أزماتها بسلام ، ولكن المولودة هي الأحق بأن نشفق عليها . لقد ولدت ضعيفة القلب . ومن المحتمل أن تموت الليلة ، فإذا ما نجت بدورها فإن من الأرجح ألا تعيش بعد العشرين ولكن الأعمار بيد الله .

أزمة متصلة ضمن بها المؤلف اهتمامنا طوال الحادثة ثم جعل الأم تجتازها بعد أن أدت الأزمة دورها في ربطنا بالرواية تليها أزمة صغيرة هي أزمة احتمال موت أو نجاة الوليدة ولكن المؤلف - عامداً - لا يقيم الدنيا ويقعدها من أجل هذه الأزمة ، بل يسارع إلى تطميننا عن طريق الطيب نفسه (الأعمار بيد الله) وعن طريق أم خليل « سيكون عمرها بإذن الله مديداً كعمر جدتها » . وأخيراً عن طريق حديث السيد أحمد عبد الجواد مع نفسه : « دعا الأحمق الطيب ليطلع على زوجته بغير موجب » .

لماذا يريد المؤلف تطميننا ؟ ليس إشفاقاً على أعصابنا بالطبع ، بل لأنه يريد لنا أن نعتقد أن نعمة ستعيش طويلاً . إن هذا الاعتقاد يخدم أغراضه الفنية لأن في تصميمه للرواية أن تموت نعمة بعد عشرين سنة لا أثناء الولادة وهو يريد أن يحىء هذا الموت مفاجأة لنا ، لأنه بهذه الطريقة يصبح أفدح ، وأكثر تأثيراً وأدعى لإشعارنا بالمأساة التي حطمت عائشة .

هو إذن يخدر أعصابنا ليفاجئنا في الوقت المناسب . ومع هذا فليس لنا أن نحتاج عليه . إنه كما قلت يستخدم عنصرى التشويق والمفاجأة استخداماً شريفاً . لقد أعطانا كل الحقائق من قبل فإذا ما فاجأنا بموت نعمة بعد عشرين سنة فليس لنا إلا أن نلوم أنفسنا لأننا ننسى بسهولة ما يريد لنا المؤلف أن ننساه .

* * *

إلى جانب حيلة المفاجأة الشريفة يلجأ الكاتب إلى حيل فنية أخرى يضمن بها لروايته التشويق اللازم ، وهذه الحيل يمكن حصر أهمها فيما يلي :

* أخذ القارئ إلى العالم السفلى للمجتمع حيث يجد كل غريب لاف للنظر مثل حياة اللهو الماجن في بيوت الراقصات والمغنيات ، وفي العوامات . ومن أهم ما يجده القارئ في هذا العالم السفلى أم ياسين وعلاقتها المتعددة المتشابكة بالرجال تلك العلاقة التي تضيء عليها « رومانتيّة » المرأة ذات الماضي ، وتجعل منها ومن ابنها ياسين شخصية أشبه بشخصيات الروايات الميلودرامية . (المرأة الحاطة والابن الموصوم من الموضوعات المألوفة في التأليف الميلودرامى عامة) .

* كثرة وسرعة التنقل بين حوادث القصة وأشخاصها تجنباً لإملال القارئ . وهنا كثيراً ما يلجأ المؤلف إلى حيل فرعية مثل بداية الفصل الواحد بطريقة غامضة لا نعرف منها مباشرة أية شخصية يتحدث عنها الكاتب ، ومثل إنهاء الفصل على حادثة لم تستوف

تطورا ، وحكاية وذلك حتى يظل اهتمامنا بها مشبوبا .

* تنوع الشخصيات تنوعا مدهشا وطريفا من أمثله : الشيخ متولى عبد الصمد ، والباشا صديق رضوان وعجوز البار الذى يتمضمض بالويسكى ستة عن جده ، وصديق السيد أحمد عبد الجواد الذى كان « بالعمى متروك » حين قبض عليه الانجليز إلى آخر حشد كبير ومسل من الشخصيات .

* الوصف التفصيلى لكثير من العادات والتقاليد التى اندثرت أو كادت ، والتى تربطنا بها روابط عاطفية وفكرية كثيرة . مثل الأفراح وطرق إدارة البيت وعادات الأسر فى التزاور والطهو .. الخ .

يمثل هذه الوسائل الفنية - مستخدمة استخداما بارعا واعيا ، وإن جعله دهاء الكاتب يبدو - كما قدمت - تلقائيا عارضا - يحقق نجيب محفوظ ما يشبه المعجزة ، فى حقل القراءة فى العصر الحديث فيحمل القارئ العادى حملا على أن يقرأ عملا طويلا من ثلاثة أجزاء تتجاوز صفحاته الألف ، فى الوقت الذى يعرض فيه نفس هذا القارئ عن أعمال أخرى أصغر حجما وأيسر قراءة ، وأكثر تمثلا لتحيزاته وغرائزه . ولكنه العمل الجاد ، المخلص ، يفرض نفسه دائما على القراء فيقبلون هذا الفرض راضين مرحبين .

- ٣ -

ماصنعه دانتى من أجل بياتريس ، يريد كمال أن يفعله فى الثلاثية . قال دانتى عن بياتريس فى ختام « الحياة الجديدة » : سأقول عنها ما لم يقله أحد قط عن امرأة . ثم اتخذها من بعد هاديا له ومرشدا . جعلها رمزا ومثالا ، ومثقفا فأغنت حياته وأمدت فنه بالمبدأ والنمط المبرر .

وكان كمال يود لو أتيح له أن يفعل كل هذا . أما الكتاب فلم تنقصه أبدا الرغبة فى كتابته ، وهو لو كان كعبه لجعل لعائدة فيه المحل الأول ، لجعلها الرمز والمثال والنمط والمبرر ولكنه فقد عائدة فأحس لأمر ما أنه لم يعد من سكان هذا الكوكب ، شعر بأنه غريب ينبغي أن يحيا حياة الغرباء .

سأل كمال نفسه : « هبك خيرت بين عائدة وبين الحياة السامية ، فأيهما تختار ؟ » وكان جوابه على نفسه : لكن عائدة تتخيل لعينى دائما وراء المثل ! أية عائدة هذه التى تتخيل أمام عينيه ؟ عائدة المرأة ، أم عائدة المثال الذى خلقه كمال على هيئة معبودته ،

ونفخ فيه من روحه وجعله كائنا أثريا يطوف حول المعبود ولا يتزل أبدا إلى واقع المعشوقة ؟ .

رغم غرام كمال المسرف في الرومانسية ورغم إصراره الذي لا يتزعزع على أنه يعشق من عابدة الروح ، ويغفل الجسد ، فإنه لا يستطيع أن يتعزى عن فقدائها بأن يحولها إلى فكرة . إنه إذن يرغبها لنفسه رغم ما يردده دائما من أنها المعبود الذي لا يريد أن يجيا معه حياة أخرى غير حياة الروح . يشكو ياسين لكمال ما يعانيه من ملل في الحياة مع الزوجة - أبة زوجة - حتى لتصبح هذه منظراً معادا ونعمة مكررة ويتساءل : ترى لو كان نالها أكان في وسع الأيام أن تجعل منها منظرا معادا ونعمة مكررة ؟ ويصدمه هذا الاحتمال الكئيب ولكنه لا يلبث أن يقول : غير آنى أتحسر أحيانا على الملل من شدة الشوق ، كما يتحسر ياسين على الشوق من شدة الملل .

إنه إذن يريد عابدة المرأة ، وعابدة المثال . ولأنه لا يحصل على المرأة ، يثور ثورة العاجز وينسحب من الدنيا ويهمل الحياة ويلقى بالمثال إلى أغوار نفسه اللاواعية .

لا . إن حب كمال لعابدة ليس كحب دانتى لبياتريس .. لم يجل هذا الحب قط من الرغبة . فلم يستطع كمال أن يرقى به إلى سلمة التجريد الكامل . آبة هذا أنه يتخيل عابدة في أوضاع كثيرة تتصل بالجنس ، يتخيل ما يدور في غرفة نومها ليلة الزفاف ، ويتخيل بطنها وقد تكور بالحمل ، ومعدتها وقد أضنتها أعراض الوحم . وصحيح أنه يتقزز لتخيل هذه المواقف ولكن طوافها بخياله أمر ذو بال ، إنه يمثل رغبة مكبوتة .

لعلنا نجد مثالا أقرب إلى حب كمال لعابدة في حب فيرتو لشارلوت . كلا الشابين يفقد المرأة التي يحب ، فيقيم الدنيا ويقعدها من أجل خسارته هذه ، وكلاهما يتألم فيجد الألم ، ويتأمل حبه وخيبة أمله فيولى الدنيا ظهره ويؤثر الموت على الحياة - فيرتو يتحرر - وكمال يموت وهو حي - كلاهما لم يستطع أن يخلص الحب من حب الذات ، فكان لا مفر أمامه من أن يلاشى الذات ليهرب من موقف لا يمكن إلا الأبد احتماله .

* * *

على أن مأساة كمال ، إن كان الحب يحركها ويتحكم فيها فهو أبدا لم يخلقها في البداية - إن حيرة كمال وتردده ولدت معه - هي حيرة مبعثها التعلق بشيء غامض ، مطلق ، مجهول يسميه الحقيقة . في الثانية عشرة اصطاد عصفورا وخنقه ثم كفنه وحفر له قبرا في فناء البيت قرب البئر القديم . وبعد أيام أو أسابيع نبش القبر وأخرج الجثة فماذا رأى وماذا شم ؟ ذهب إلى أمه باكيا ، يسألها عن مصير الميت ، كل ميت ، وقد عرف

قلبه الصغير توا كذب المعنى الأول لكلمة الخلود .

وقد ظل كمال طيلة حياته يجرى وراء هذا الشيء الغامض المطلق بغية أن يمسك به ، ويعرف كنهه . في سبيله أعرض عن الدين والأسطورة والفن ، وجعل يبنى حياته من جديد على صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى في سبيل إدراك الحقيقة خرج كمال في « رحلة بحث » استغرقت حياته كلها ، وكانت عدته فيها : « رأس كبير وأنف ضخمة ، وحب خائب ، وأمل في المرض » .
هل هو سيرانو دى بيرجيراك ؟ .

المعبودة نفسها تومئ إلى هذا من طرف خفي ، وكال يقبل المقارنة ويزيد عليها صلة يعقدها بين نفسه وبين أحدهم نوتردام . إن بين صاحبي الأنفين الكبيرين صلة تتعدى الحلقة . كلاهما يحب يائسا ، ويسكب قلبه أغاني ومدائح في وصف الحبيبة . ولئن كان سيرانو يعين كريستيان - عامدا - على الظفر بيد محبته فإن موقف كمال أشد من هذا مفارقة وأدعى إلى الألم . إنه - دون أن يدري - يعين غريمه على نيل المرأة التي يحب . هو يثير حماس ابن المستشار للفتاة بما يظهر من حب لها ، وما يضع من أغان في الإشادة بجألها فيأخذها الفتى لنفسه ويعود كمال صفر اليدين - لا امرأة ولا مثالا . يرجع من عدوه وراء الوهم الجميل كما رجع « بيرجينت » في مسرحية « ابسن » عجوزا ، محظا . فقد كمال حبيته ولم يبق له إلا أن يفتش في ذاته إلى الأبد ، يخلع أوراقها ورقة ورقة ، كأنما هي البصلة التي يمسك بها بطل ابسن في المسرحية ، ويعريها رويدا رويدا ، ليصل إلى لها ! .

* * *

غير أن مأساة كمال لا ترجع إلى مثاليته المستحيلة التحقيق ، قدر ما ترجع إلى عجزه عن جميع القدرة اللازمة لتحويل المستحيل إلى حقيقة . هذا العجز هو الذي يجعله يفرع من اتخاذ المواقف ، وتحديد الاتجاهات لأن الموقف والاتجاه يستبعان العمل ، والعمل بالنسبة له شيء رهيب ! .. هو لهذا يهرب من الممكن إلى المستحيل ، ومن الجزئي السهل التحقيق إلى المطلق المستعصى على البلوغ . هو هاملت آخر مشلول الإرادة مشفق من حمل العبء ، ساخط على القدر لأنه خصه هو بهذا العبء . على كمال تنطبق عبارة يقولها أحمد عن نفسه :

« لشد ما يبدو لي المبدأ أحيانا كأنه لعنة مصبوبة علينا من القضاء والقدر .. كأنني المسئول الأول عن الإنسانية .. »

ولكن - من حيث أن أحمد يتقدم ، بعد جهاد ، ليحمل تبعة تحقيق مبادئه فيجد بهذا سعادة وراحة من العبء نفسه ، يظل المبدأ أمام كمال لغزا يتهيب أن يحله فيقتال اللغز أيام حياته يوما وراء يوم ، كما اغتال « وحش طيبة » الواحد بعد الآخر من سكانها .

كمال يدفع ضريبة فادحة يتقاضاها التاريخ من كل من يواجه معركة كبرى فيقرر تارة أن يلعب فيها دور « اللامتى » وتارة أخرى دور الإنسان الكبير القلب الذى تضعه عواطفه النبيلة فوق المعركة . فى الحالتين ينأى كمال عن المعركة ، والمعركة بعض منه ، تدور فى داخل نفسه كما تدور فى خارجها . ألم يخسر ابن التاجر فئاته لأنه ابن تاجر ، ولأن غريمه ابن مستشار ؟ .. ماذا أغناه إزاء هذه الخسارة أن يتعفف عن الشتاتة بآل شداد ويتركها لأحمد المفتون بصراع الطبقات ؟ فوارق الطبقات حقيقة دمرت حياته . وكلما حاول أن يهرب منها لاحقته فى موقف وراء آخر ، يقول فؤاد الحمزاوى ، وقد أصبح وكيلا للنياية ، إنه سيتنظر دون زواج حتى يرقى قاضيا فيستطيع أن يتزوج من ابنة وزير ، يعلق كمال على هذا فى سره قائلا « يابن جميل الحمزاوى ! عروس من صلب وزير وحمايتها من المبيضة .. » .

هذا هو الإحساس الراقد فى نفس كمال بوجود الطبقات ، يعلن عن نفسه بعد أن استفزته وصولية فؤاد الحمزاوى . إن هذا الأخير انتهازى قطعا ، ولكن صلة كمال به من أولها لآخرها تعكس وجهها بعينه من أوجه صراع الطبقات - وجهها نرى فيه كمال المفكر المثالى المتعالى على الطبقات ، يتصرف بنفس الأحاسيس التى تتصرف بها أمه أمينة فى نفس هذا الموقف . تقول أمينة بعد أن بلغها أن فؤاد لم يتقدم لخطبة نعيمة : « هذا عبث لا يليق .. ألا يدري من يكون هو ومن تكون هى ؟ » .

كيف إذن يريد كمال أن يتجاهل وجود الطبقات ؟ .. إن هذا التجاهل ليس إلا وسيلة أخرى من وسائل الهرب من الجزئى القابل للتحقيق ، إلى المطلق المستحيل البلوغ . مادام ليس هناك طبقات بل إنسانية عامة فليس ثم محل للمعركة وهذا هو مايريده كمال وما يسعى إليه ليعيش فى سلام مع نفسه ، ولكن الواقع المحيط به ، وتساؤلاته الدائمة تؤكد له جميعا زيف هذا المعتقد . إن هذا موقف لا يتخذه إلا من حرم الإيمان . لهذا يحسد كمال ابن أخته عبد المنعم على إيمانه المقرون بالعمل ويتخايل أمام عينيه مثل آخر جديد نبت من تأمل هذين الشابين .

* * *

قال له أحمد وهو في سجن القسم ينتظر الترحيل إلى الطور . « إن الحياة عمل وزواج وواجب إنساني عام » . وما هذا الواجب العام إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الأعلى . وقد فهم كمال هذا القول على أنه دعوة للإيمان ، وتبين أنه ليس من اليسير على المرء أن يعيش في ققم أنانيته ، ثم يكون سعيدا في نفس الوقت .. هذا إذا كان إنسانا حقا .. !

يعود « اللامتى » من رحلة البحث الطويلة ، ومشكلة الإيمان ما زالت قائمة أمامه دون حل ، يعود . وهو يقول : « غاية ما أستطيع أن أعزى به نفسي هو أن المعركة لم تنته ولن تنتهى ولو لم يبق من عمري إلا ثلاثة أيام .. » .

وقد يكون هذا جوهر ما يشعر به كمال ونحن على أهبة توديعه بعد رفقة طويلة . غير أن هذا المسافر بلا متاع قد عاد من طوافه وقد انسكب على مشكلته ضوء جديد . لقد تبين أن الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السلبي بالعلم .

ومن يدري ؟ لعله يتغير . لعله في اليوم الثالث من الأيام الثلاثة التي ستبقى من عمره يحس بدفء الإيمان يدلف إلى غرفات قلبه ، بعد أن عاشت هذه الغرفات طويلا في البرد والفراغ .

عن كتاب « دراسات في الرواية المصرية »

القاهرة ١٩٦٤

فهمى عبد الجواد

« .. ولكنه يشعر بكل ما فى قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ربما لم يجده ماثلاً فى عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامناً فى قلبه ودمه ، فما أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع ، أو فلتنمض الحياة عبثاً من العبث وباطلاً من الأباطيل . »

* * *

فى بناء أدبى متماسك من نوع رواية « بين القصرين » للكاتب الروائى الكبير نجيب محفوظ ، يصعب أن نتترع شخصية واحدة لنفحصها بمفردها وبمعزل عن بقية الشخصيات والعلاقات والأحداث التى تتبلور وتتحدد فى علاقة وثيقة بعضها ببعض . فالرواية تقدم لوحة كاملة تتحرك فى بطاء زمنى وثيد ، تتداخل ألوانها وظلالها ، وتشبك أحداثها وعلاقات شخصياتها فى محاولة من أجل خلق تصور شامل عن جوهر مرحلة تاريخية كاملة من حياة شعب بأسره . وبهذا الشكل ، قد يكون من التعسف أن نزل شخصية فهمى عبد الجواد لنفحصه بمفرده بعيداً عن بيته وأسرته . إن ما يمنعنا من القيام بهذا العمل بصورة مباشرة ، هو ذاك المنهج الذى أخذ به المؤلف نفسه من محاولة النفاذ إلى جوهر الحقيقة التاريخية الواقعية واستحضارها إلى عمله الأدبى ، الشئ الذى لا يجعل الرواية مجرد عمل واقعى ناضج وحسب - وإنما يحيلها إلى صورة حية متماسكة لذلك الجانب من الحقيقة الواقعية الذى جعله المؤلف أساساً تاريخياً - وفنياً - لعمله الأدبى . كما أن التماسك الشديد الذى يتميز به بناء الرواية ، والرؤية الشاملة التى تشكل قوة جاذبة تلحم جزئيات الرواية وتشدها بعضها إلى البعض - هذه الرؤية التى استهدفت كشف المعنى الكلى للعملية الاجتماعية فى تلك الفترة التى شملتها الرواية من التاريخ - أقول إن ذلك التماسك وتلك الرؤية هما ما يجعلان اكتشاف المعنى الكلى للعمل الأدبى شيئاً لازماً من أجل فهم شخصية واحدة من شخصيات الرواية ، وعلى وجه الخصوص

من أجل فهم شخصية فهمى عبد الجواد .

وفى مثل تلك المرحلة التاريخية التى اختارها نجيب محفوظ بيئة لخلق الفنى ، حينما عاش الشعب المصرى تجربة الشروع فى النضال من أجل استعادة حريته ، لا من برائن الاستعمار الإنجليزى وحده ، وإنما من تحت تسعة قرون كاملة من التجهيل والإفقار والتجمد الحضارى والضياع القومى والقهر السياسى والفقر الروحى المدقع ، أقول إن عملاً روائياً يتخذ من تلك المرحلة التاريخية التى تحتوى مثل تلك التجربة ، لا يسعه أن يتخذ من « الشخصيات » المتفردة وحدة لبناء عمله الفنى ، إلا بمقدار ما تكون تلك الشخصيات أنماطاً دالة على مجموع الآخرين . فإن الشعب فى مجموعه هو الذى عانى الجهل والفقر والتجمد والضياع والقهر ، ولم يتفرد بهذه المعاناة أشخاص متميزون . كذلك فإن الشعب فى مجموعه هو الذى شرع يشن النضال من أجل الحرية ، على مستويات متفاوتة من النضال ولم يستأثر بهذا النضال أشخاص متفردون . ولكن الحرية هنا تتخذ مفهوماً أكثر شمولاً من مجرد الهدف السياسى الذى تحدده الحركة السياسية لنفسها . الحرية هنا لا تعنى مجرد « الاستقلال » أو طرد جيش الاحتلال ، وإقامة حكم وطنى ، أو إعادة حكم الخليفة التركى باعتباره صاحب السلطة الشرعية فى مصر .

وقد قال لنا نجيب محفوظ فى إشارة عابرة إن فهمى قد تأثر بشيء من تعاليم الشيخ محمد عبده . فما معنى تأثر الثورى الوحيد فى « بين القصيرين » بهذه التعاليم ؟ المفروض أن يكون فهمى بهذا الوضع امتداداً لمقاومة العقلية المصرية ذات الأسس الثقافية التقليدية لكل صور التخلف السياسى والاجتماعى والعقلى والروحى التى سادت مصر والعالم العربى طوال القرون العشرة السابقة .

إن محاولات الغزاة على اختلاف مستوياتها لم تتوقف فى سبيل الوصول إلى امتلاك روح الشعب العربى المقهور وعقله . ومنذ دخل الفاطميون مصر وحكموا الشام كله والجزيرة العربية ، بدأت تلك المحاولات لترويض الشعب العربى وعقله وإخضاعها لنظم عقلية وفكرية تقوم فى معظمها على النقل والخرافة ، أو على الاستعلاء العنصرى والترريف الحضارى المنظم . وربما لم تبدأ المقاومة الجدية من جانب العقل العربى فى مصر إلا فى منتصف القرن الثامن عشر فى الأزهر ، ولم تبلغ هذه المقاومة ذروتها إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى عصر الشيخ محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وأديب إسحق وقاسم أمين وغيرهم .

إن مساهمات الشيخ محمد عبده فى الدفاع عن الإسلام أمام اتهامات هانوتو لإثبات

« قيمة الإنسان وحرية إرادته » في الإسلام لم تكن غير إعادة تفسير موقف الفكر الإسلامى من قضية الإنسان والجبر الكونى أو المشيئة الإلهية^(١). كما كانت مساهمات الشيخ عبد الرحمن الكواكبي في البحث عن الشكل السليم للحكم وهجومه على الاستبداد وتأكيده على ضرورة أن يكون الخليفة عربياً وأن يكون اختياره بالانتخاب وسلطته روحية مع وجود حكومة منتخبة مسئولة أمام مجلس الشورى يتغير كل فترة من الزمن^(٢)، كانت هذه المساهمات تعبيراً عن قلق فكري إزاء قضية الرابطة الدينية وقضية العروبة من ناحية، كما كانت تعبيراً عن بداية رفض تداخل الدين والدولة والمطالبة بدولة علمانية من ناحية أخرى. أما دعوات أديب إسحق صاحب الدعوة إلى مجانية التعليم، وقاسم أمين الداعى إلى تحرير المرأة وتعليمها في أواخر القرن التاسع عشر، ففى غنى عن كل تفسير من ناحية مغزاها الاجتماعى الواضح.

إن هذه المساهمات وغيرها، التى بدأت منذ منتصف القرن الماضى على وجه التقريب واستمرت رغم نكسة الحركة السياسية الوطنية بهزيمة الثورة العرابية فى مصر ١٨٨٢ إنما كانت تعبيراً عن تلك الروح الجديدة التى دبت فى أوصال العقلية التقليدية السائدة فى الربع الأول من القرن العشرين. فالإسلام لم يعد طقوساً للوضوء والصلاة والحج والنفقة، وإنما أصبح سنداً لتحرير السلطة السياسية من الطغيان بعد أن ثبت أن « الخليفة » التركى لا يملك تفويضاً من الله ولا من النبى يتصرف بمقتضاه فى شئون الخلق. والمسلمون لم يعودوا هم كل من يدينون بالإسلام. ففكرة القومية تبدو باهتة متذبذبة بين الدين والوطنية القطرية، وفكرة العروبة تتوسطها ولا تحصل على فرصتها كاملة فى النضج والوضوح. ومناقشة حرية الإنسان تتخطى مسألة « جدارة » الإنسان بالحرية لكى تصل إلى تأكيد « حقه » فى تلك الحرية، وضرورة الحرية من أجل أن يصبح جديراً بصفة الإنسانية^(٣) والتعليم لا ينبغى أن يترك للصدفة وللعميان من الفقهاء ولا لمشايخ عواميد المساجد والمرأة لا ينبغى أن تظل متاعاً ولا هماً ملقى يتسلى بالدسائس والطعام والثروة.

كانت هذه هى ذروة مقاومة العقل المصرى التقليدى للتخلف وذروة محاولته لتخطى

جموده القديم ، واستمداد مبررات التطور من أسسه التقليدية أو إقامة هذا التطور على تلك الأسس . ولكن فهمى - باعتباره طالباً في مدرسة الحقوق لم يكن امتداداً خالصاً لذلك الفرع من مقاومة العقلية المصرية للتخلف الفكرى والروحى - التى استندت أصلاً إلى العقلية الإسلامية والجانب المستنير من تراثها . كان فهمى بوضعه الآخر الجديد ثمرة لحركة أخرى - بدأت من الأزهر أيضاً منذ عصر رفاة الطهطاوى - ولكنها خرجت عليه منذ نادى لطفى السيد بضرورة الترجمة والنقل الثقافى من الغرب . وعلى أى حال فلم يكن من الممكن أن يستمر الوفاق بين العقلية التقليدية والثقافية الغربية طويلاً طالما أن حملة الثقافة الغربية لم يعودوا يأتون من صفوف طلبة الأزهر - معقل العقلية التقليدية . وإنما أصبح لهم نظام تعليمى جديد لا علاقة له بالنظام الأزهرى ولا بالثقافة الأزهرية ، خاصة وأن السلطة الاجتماعية قد انتقلت إلى خريجي هذا النظام التعليمى الجديد من الأفندية أبناء البورجوازية الجديدة التى قررت أن تقلد قاهرها وأرباب نعمتها الأوروبيين فى كل شىء . وبذلك بدأ الانفصام العقلى داخل العقل المصرى ، وبدأ الصراع بين القديم الأزهرى ، وبين الجديد الذى مثلته دفعات الدارسين فى أوروبا ، المتعلمين الأفندية أبناء الطبقات العليا والمتوسطة من قراء أرسطو وجان جاك روسو وكل الثقافات المثالية ، يقابلون بين ثقافتهم التى اعتبروها « عقلاً » خالصاً ، وبين التراث كله الذى اعتبروه « خرافة » خالصة ، رغم محاولات كتاب من مثل محمد حسين هيكل ، أو طه حسين للاحتفاظ بنوع من التواصل أو الجسر الممتد بين الثقافتين والعقليتين . ومن هنا بدأ الانفصال بينهم وبين عقلية مجتمعهم سواء العقلية التقليدية الجامدة السائدة ، أو العقلية التقليدية ذات الاتجاه التجديدى المتحرر .

وقد قال لنا نجيب محفوظ فى إشارة عابرة أيضاً أن فهمى قد تأثر بمحمد فريد - الزعيم المنفى للحزب الوطنى - وظل يردد اسمه ليربط عودته بعودة الخديو عباس الذى عزله الإنجليز ، وليربط بينهما وبين عودة الخلافة إلى سابق قوتها ، دون أن يدرك شيئاً عن التناقض بين استقلال مصر الذى يريده محمد فريد ، وبين عودة الخديوى بسلطة الخلافة المنتصرة التى يريدها هو مثلاً تريدها أمه الطيبة وأبوه المتحمس السلبى - إلى جانب الاستقلال . وربما أراد نجيب محفوظ بالربط بين عودة محمد فريد وبين انتصار الخلافة وعودة الخديوى المغزول ، ربما أراد أن يشير إلى أن فهمى - ثورى بين القصرين - إنما كان الشخصية النمطية التى تجمع بين اتجاهات التجديد فى العقلية التقليدية وبين اتجاهات التغيير العقلى الكامل الذى تطالب به الثقافة الجديدة . وربما

كانت الإشارتان السابقتان عن تأثيره بمحمد عبده ومحمد فريد كلتاهما تأكيداً لهذا المعنى في شخصية فهمى عبد الجواد . وقد ظل فهمى يردد اسم محمد فريد والخديوى عباس ويتمنى أن تنتصر تركيا في الحرب حتى تعود الخلافة إلى سابق قوتها ، إلى أن انتهت الحرب ، وهزمت تركيا ، فانهارت كل هذه الآمال . ولكنه يسمع أن وفداً يترعمه رجل نصف مشهور اسمه سعد زغلول قد تقدم بمذكرة إلى المندوب السامى الإنجليزى مطالباً برفع الحماية وإعلان الاستقلال . منذ ذلك الحين أصبح فهمى وطنياً بالمفهوم السياسى الجديد ، مطالباً بالاستقلال التام ، يتمنى الموت الزؤام فى سبيله ولا يبدى استعداداً كبيراً للقتال المنظم من أجل هذا الاستقلال ، ولا يكاد يعرف شيئاً عن صورة وطنه بعد تحقيق ذلك الاستقلال الذى تخامره الرغبة فى الموت فى سبيله . وربما كان هذا التحول إشارة من جانب المؤلف إلى تحول فى عقلية بطله الثورى نحو فهم جديد لكل القضايا يطرحها على ذهنه الوضع السياسى والفكرى الجديد الذى ساد فى وطنه مع انتهاء الحرب ومع اكتمال انهيار العالم القديم وانهيار مبررات الأمل فى تطويره . إلا أن المؤلف لم يستخدم أياً من إشارات - الأولى ولا الأخيرة - إلى المؤثرات العقلية التى كانت عقلية فهمى عبد الجواد بأية صورة . إننا لا نرى ثورى « بين القصرين » الوحيد وهو يفكر على الإطلاق ، ولا نراه وهو يفرز ثمرات تأثيره بمحمد عبده ومحمد فريد - بكل ما يعنيه هذا التأثير من معان ، ولا نراه وهو يلعب الدور الإيجابى المنتظر منه لكى يعكس ما طرأ على روح وطنه وعلى عقله من تغير بانهيار العالم القديم الذى كان ينتمى إليه هذا الوطن ، وكان هو نفسه ينتمى إليه فى جانب من جوانبه .

فهل كانت إشارة نجيب محفوظ إلى تأثير فهمى بتعاليم محمد عبده ومحمد فريد إشارة عشوائية ظن المؤلف أنها تكفى للتدليل على « نمطية » فهمى عبد الجواد ؟ وهل تحول فهمى إلى نمط حقيقى بهذه الإشارة ، حتى إذا أضفنا إليها كل حضوره القليل فى البناء الروائى لبين القصرين فى مجموعته ؟ لقد كان من الممكن أن يتحول فهمى عبد الجواد إلى نمط شامل الدلالة على كل تناقضات روح وطنه وعقليته لو أن تلك الإشارات العابرة قد تحولت إلى هم حقيقى للمؤلف بمثل ما تحولت « حوادث » ياسين المضحكة (وهو الأخ الأكبر لفهمى) إلى هم كبير من هموم الرواية حملت على عاتقها أن توضحه بكثير من التفاصيل التى لا جدوى منها .

* * *

هكذا نوشك أن نستغرق فى عملية عزل فهمى عبد الجواد وتأمله على انفراد ، قبل

أن نقدم ما يبرر هذه العملية . ولكتنا نرى في فهمي عبد الجواد - رغم حركته المحدودة في الرواية - الجوهر الحقيقي لذلك الجانب من الواقع التاريخي الذي أراده المؤلف بيئة لعمله ، والذي شغل المؤلف نفسه بمهمة استحضاره إلى الرواية . فإذا كانت « بين القصيرين » باعتبارها بداية لنهاية مرحلة كاملة من أدب نجيب محفوظ - إذا كانت جزءاً من بحث هذا الأديب المفكر عن حقيقة وطنه وعن حقيقة معنى انتماؤه الاجتماعي والفكري داخل هذا الوطن ، وإذا كان منهج الالتزام بالحقيقة هو المنهج الذي اختاره المؤلف - بغض النظر عن مدى التزامه به - حتى يصل إلى هدفه الفردي والجماعي في وقت واحد ، فإننا نرى أن فهمي عبد الجواد هو المحور الذي يدور حوله جوهر تلك الحقيقة التي التزم بها نجيب محفوظ . فقد كان فهمي هو الوحيد في ذلك الجيل من أجيال الرواية الذي أثقلت المعاناة الروحية - رغم خفة معاناته - تجربته مع الحب والأسرة والوطن ، أي تجربته الفردية والجماعية كلها . وإذا نظرنا إلى « بين القصيرين » باعتبارها الحلقة الأولى من ثلاثية روائية كان بطلها الأساسي هو « كمال عبد الجواد » الشقيق الأصغر لفهمي ، وكان موضوعها الأساسي هو معاناة كمال الروحية والفكرية والاجتماعية - باعتباره تصويراً للمؤلف نفسه كما أقر بذلك نجيب محفوظ ، وباعتباره محاولة لتجسيد جيله بكامله - فإننا نرى في فهمي السلف الحقيقي لكمال ، وليس أباه الروحي ، تماماً مثلما كان جيل فهمي هو السلف الحقيقي لجيل كمال بينما عجز أيهما عن الارتباط الروحي بالآخر . فبينما انشغل كمال بقضايا الفكر المجردة بعيداً عن هموم الواقع أو متباعداً عن الأصول الواقعية لقضايا الفكرية ، فسرى كيف انشغل فهمي « بالمهام » وليس « بالقضايا » اليومية الشديدة الجزئية ، دون أن يشغل عقله بالبحث عن مدلولاتها الفكرية حتى ولا على المستوى الجزئي العادي إلا نادراً ، وغالباً من خلال تقارير المؤلف الخارجية ، وليس من خلال مواقف الشخصية نفسها . ورغم هذا فقد كان فهمي هو المشتغل الوحيد بين مجاله في الرواية بشيء أكبر من ذاته الفردية الصغيرة ، على العكس تماماً مما كان كمال من بعده . انشغل فهمي بالعمل الثوري دون كثير من التفلسف أو دون تفلسف على الإطلاق ، بالصورة التي أرادها له المؤلف ، من أجل استقلال وطنه بينما انشغل كمال بالبحث التأمل الخالص عن وجوده الفردي مروراً بكل الفلسفات التي عرفها . ولكن ، قد يبدو التشابه بين الشقيقين والتابع المنطقي بينهما ، في بداية انشغال كل منهما بمشكلته الأساسية الخاصة به من خلال تجربة كل منهما العاطفية الموهودة ، وفي الأسباب التي أدت بكل من التجربتين إلى الفشل - بعد التشابه الجزئي

بين ملامح التجربتين - وفي رد فعل كل من الشقيقين إزاء فشل تجربته . لكل ذلك فإننا نريد أن نتزعزع فهمي عبد الجواد قليلاً من بين أبيه وأمه وإخوته - وليس من بين ارتباطاته بهؤلاء أو بوطنه - لكي نتأمله على انفراد .

ومع هذا فإننا بعزلنا لفهمي عبد الجواد لا نفرض على شخصيته وضعاً بعيداً عن الوضع الذي هيأه لها المؤلف . فبين أب جبار متعال بالغ القسوة لا تشغل عقله غير أمور تجارته أو بيته أو فسقه ، وأم مستضعفة مقهورة سلبية أمام زوجها تعمل لحسابه أمام أبنائه ولحسابهم أمامه تكاد الخرافة أن تكون هي لباب تصورهما عن عالم الروح والعقل ، ثم أشقاء تنوزعهم مشاغل الزواج أو المرح - المشروع وغير المشروع - والثرثرة التي بلا نهاية ، أقول إنه بين أسرة هذا هو جوهر تكوينها النفسي والعقلي ، فلن يكون الشاب الحقوقى المتقدم حماساً الذي يسمح لنفسه بأن يحب ، وأن يشغل عقله بأمور السياسة والحرب ، لن يكون هذا الشاب سوى نبت غريب غير مألوف ، وإن كان حبيباً ومحترماً من الجميع . ولن يكون من المستغرب أن .. « تراءى لعينه دنيا جديدة ، وطن جديد وبيت جديد وأهل جدد ، يتفضون جميعاً حماساً وحيوية ، ولكن ما أن يفيق على هذا الجو من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين أضلعه نار الحسرة والألم ، فتروم في قهرها متنفساً - أياً ما كان - تنطلق منه إلى السماء » ... إلى السماء يود أن ينطلق في هذه اللحظة ، غريباً حتى في البيت الذي يعيش فيه أهله ، غريباً حتى عن أهله . ولكن فهمي لا يعانى هذه الغربة إلا في لحظات « انفعاله » الحماسى الذى لا يقابله انفعال حماسى من جانب الآخرين . فهو مؤمن بدينه إيماناً راسخاً ، ولا يمانع في تقبل أحجية الشيخ المجذوب ، بل يتقبلها في رضى ظاهر رغم إنه يتشكك فيها « وإن أبت عليه دماثة خلقه أن يحهر بتشككه أو يعلن استهائته » ، غير أنه يستطيع في لحظة الانفعال أن يواجه أمه بهذه القولة المجدفة « إن سعداً سيعمل ما كانت تعمله الملائكة لسيدنا محمد » . وهو يستطيع في لحظة الانفعال أن يرفض طلب أبيه إليه بأن يقسم على القرآن ألا يشترك في المظاهرات ولا في أعمال الثورة ، ولكنه في لحظة التروى الهادئ لا يجرؤ على مواجهة الأب الجبار حتى ولو من أجل التشفع لأمه الحبيبة نفسها . لذلك فإننا نراه في لحظة الانفعال قادراً على السخط على « الفتور والسذاجة وعدم المبالاة » ولكنه في لحظة التأمل الساكن ، لحظة الاستيقاظ من النوم ، يستطيع أن يوائم بين قلقه الروحى الذى لا يستقر وبين سكون بيته التى لا يتأبها قلق من هذا النوع ، وأن يطمئن من سخطه ليكتشف أن « كبار الحادثات لا يعطل صغار الأعمال - ليست أمّاً على هامش الحياة هي التى أنتجته

والأبناء وقود الثورة ، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الأبناء ، الحق أن ليس ثمة شيء تافه فى هذه الحياة . هكذا يستطيع فهمى أن يلم شمل تطلعه المتواضع إلى حياة جديدة وموقف جديد من عالم متغير ، مع نفس الحياة القائمة والعالم الموروث والموقف الراسخ . ولكن كيف لنا نحن أن نستسلم فى شخصية فهمى لهذا التقابل بين لحظات الإيمان ولحظات القلق ، لحظات التمرد ولحظات القبول ، لحظات الرفض ولحظات الحنين ؟ .

الحق أنا سنخطئ خطأ فادحاً إن نحن تصورنا غربة فهمى عبد الجواد باعتبارها من نوع تلك الغربة التى عاناها شقيقه الأصغر كمال فيما بعد حينما تحطمت مثله العليا أمام ناظره ثم لم يحصل على مثل أعلى واحد جديد بدلاً من المثل القديمة المتحطمة . كانت غربة كمال غربة عقلية فرضتها عزلته الاجتماعية الكاملة ورغبته فى حل مشاكل الفكر المجرد بعيداً عن مشاكل الواقع المادى . كذلك فإننا سنخطئ خطأ لا يقل خطورة إن نحن اعتقدنا أن غربة فهمى من نوع غربة المثقف الغربى المعاصر - الذى حصلنا منه على مفهوم الاغتراب الحديث . فهذه الأخيرة غربة اجتماعية يعيشها مثقف فقد انتماءه لمجتمعه القائم نتيجة لتعقيد هذا المجتمع وماديته وضراوته . لا يسعنا أن ننظر إلى فهمى باعتباره نوعاً من المغترب العقلى لأنه لم يشغل نفسه بأمور العقل كثيراً ، كذلك فإننا لا يسعنا أن ننظر إليه باعتباره نوعاً من المغترب الاجتماعى وضحية عالم معقد طالما لم يكن عالمه معقداً إلى الدرجة التى يمكن أن تخلق هذا المغترب الحديث ، وطالما استطاع فهمى أن يعيش فى سلام جزئى على الأقل مع واقع أهله العقلى والروحى المتخلف رغم حنينه إلى بيت جديد وأهل جدد . إلا أن ثورة فهمى - أو ثورة جيله التى قدمها علاجاً لذلك العالم إنما كانت موجهة فى أساسها ضد « احتلال » الغزاة ، وليس ضد تخلف مجتمعه وتعفنه إلى جانب توجيهها ضد هؤلاء الغزاة . لقد نظر فهمى - كما نظر جيله من الثوار - إلى الغزاة نظرة الكراهية ، واكتفوا بالنظر إلى وجه مصر نظرة الأسى . لقد خرجوا من رحم مصر ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القدرة على أن يمنحوها وجهاً جديداً ، إذ لم يمتلكوا أى تصور عما يمكن أن يكون عليه هذا الوجه الجديد ، رغم تشككهم فى جمال وجهها الذى عرفوه ، ورغم سخطهم على ما علق به من غبار القرون العشرة السابقة . هكذا كانوا ثواراً فى مواجهة الاحتلال - على اختلاف مستوى ثورتهم واستعدادهم للمضى فى الثورة إلى مداها - ولكنهم لم يكونوا غير مشفقين مما آل إليه عقل شعبهم وروحه . وهكذا كان فهمى بنبله ودمائه وحرمانه واستشهاده - وهذه هى الصورة التى رسمها المؤلف

الثورى « بين القصرين » - يعيش بين جماعة رجالها من القساة الغلاظ الفاترين أو السليين الفسقة ، رغم طبييتهم وتدينهم وتجاوبهم الوجدانى الذى لاشك فيه مع شعبهم ، ونساؤها مستسلمات قانعات ساذجات جاهلات - أقول إن فهمى كان بهذا الوضع مغترباً أخلاقياً وضحية لعالم منحط .

ومع هذا فإننا لا يسعنا إلا التساؤل عن موقف فهمى الحقيقى - بعيداً عن تحديد نوع اغترابه - من انحطاط عالمه ، وهو العالم الذى لم يبرز منه المؤلف سوى البيت والأسرة . إننا لم نعرف شيئاً عن أصدقاء فهمى فى مدرسة الحقوق - قبل الثورة أو فى أثنائها - وقد كانت دراسة الحقوق فى هذه الفترة من أنضج أمثلة العلم الحديث الذى خلف التعليم الأزهرى القديم . بل إننا لم نلمح شيئاً مما تأثر به فهمى من هذه الدراسة أو علاماتها على شخصيته أو تفكيره أو مواقفه . إن فهمى يلوح كما لو كان قد ولد جاداً رزيناً عاقلاً طموحاً عاطفياً مكثباً ، بعيداً كل البعد عن شخصية أبيه - فيما عدا ملامح وجهه - ومناقضاً كل التناقض لشخصية أخيه الأكبر الشهوانى المندفع ياسين . لم يصدف فهمى حين اكتشف الجانب الآخر المنحل من شخصية أبيه فى « فرح » أخته عائشة ، بل إن دهشته كانت دهشة قليلة بالقياس إلى وقع هذا الاكتشاف الذى زعزع وجدان كمال فيما بعد . حينما رفض أبوه فى غلظة أن يخاطب له فتاة أحلامه مريم ، كان رد فعله هو « الصمت » المطبق الكامل ، والهروب إلى أحلام اليقظة تتمرج فيها مريم بانتصار الثورة ومقابلته للزعيم ، وحينما جاء نبأ علاقة حبيبته القدسية هذه بالجندي الإنجليزى لم يتعد انفعاله أكثر من « الألم » الذى لم يمنعه من مجارة مناقشات شقيقته خديجة فى مزاحها الذكى حول مريم نفسها ، المزاح المحمل بموقف خديجة الحاسم من مريم ومن حب شقيقها لها ، أما كمال فقد واجه ما يشبه الانهيار الداخلى الكامل حينما « تزوجت » معبودته التى لم يكن هو نفسه قد فكر فى الزواج بها . وحينما انتهت الحرب ، وهزم الألمان ، وهزم الخليفة التركى ، وطاشت أحلام فهمى الوطنية الأولى وبدأ الموقف مظلماً باعثاً على اليأس ، لم يشعر فهمى بأكثر من الأسى الممترج بالدهشة السطحية لهذه النهاية غير المتوقعة . فما الذى دفع فهمى إلى الثورة والانغماس فى أعمالها هذا الانغماس الكلى الذى دفع به إلى الموت ، وهو الذى شعر بالامتعاض فى البداية لأن الزعماء الجدد لم يكونوا من رجال حزه الوطنى القديم ؟.

الحق أننا نخالجنا بعض الشك فى دوافع فهمى إلى الثورة - رغم كراهيته المبكرة للإنجليز - وإن لم نخالجنا أى شك فى نبل اندماجه التالى فى الثورة نفسها ، ولا فى عظمة

استشهاده المجيد . فيينا أجهد المؤلف نفسه في تصوير شخصياته جميعاً من خلال مواقفهم العملية الخارجية ، ومن خلال التجسيد البارز لعلاقاتهم بعضهم البعض ، ولم يلجأ إلى التحليل اللفظي لهذه الشخصيات أو لعلاقاتها من داخل وعيها الباطني الخاص إلا نادراً - ربما باستثناء الأب . فإننا نرى فهمي وحده لا يحظى بمثل هذا الاهتمام من جانب المؤلف . إنه صامت معظم الوقت في جلسات القهوة العائلية في المساء - إلا إذا ثارت مناقشة سياسية ، مناقشة فحسب . ساعتها ، سنرى فهمي والانفعال يطغى على الوعي عنده ، وإذا به لا يردد أكثر من مجموعة من الشعارات الحماسية ، يسندوها باستشهادات دينية متواضعة ، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن مدى معرفة هذا الثوري بتعليم أستاذه في الاستنارة والثورة - اللذين ذكرهما المؤلف عرضاً - محمد عبده ومحمد فريد . وفهمي يحب بطريقة فيها من الصمت والسلبية أكثر مما فيها من محاولة البوح والوصول ، حتى أننا نتساءل عن مصير هذا الحب لو أن مريم هي التي وقع عليها اختيار المؤلف لكي تكون البادئة بالاهتمام بفهمي . وهو يفضل التظاهر بالنوم حين نكتشف فضيحة أخيه ياسين الأولى ثم الثانية . إننا لا نكاد نلمح لفهمي طوال الرواية أكثر من موقفين إيجابيين بارزين ، الأول هو مقابله صدفة لكمال بعد انفضاض إحدى المظاهرات وطلبه إلى شقيقه الأصغر ألا يتفوه بكلمة عن هذه المقابلة في البيت . والموقف الثاني هو ذلك اللقاء بينه وبين أبيه بعد حادثة الجامع . اللقاء العاصف من جانب الأب ، الدامع المرتبك - ولكن الممتلئ إصراراً على موقفه - من جانب فهمي . ولكن فهمي إلى جانب فقره الظاهر في المواقف العملية الخارجية ، نرى المؤلف يغلق عليه من محاولات صنع المونولوجات الداخلية - بهدف اكتشاف وعيه الباطن وتيار تفكيره - حيث تبرز فيها المناجاة الذاتية ، بتقريرات المؤلف المباشرة ، بجزئيات صغيرة من البيئة الواقعية المباشرة التي يعيشها فهمي في لحظة المونولوج . ومع هذا فقد اندفع فهمي إلى عمله الثوري الأول من خلال موقف عملي آثر المؤلف أن يورده في صورة تقريرية لا تجسيد فيها ، حينما احتدمت المناقشة بين الطلبة والركاب في الترام المتجه إلى مدرسة الحقوق ، ساعتها اندفع فهمي إلى المظاهرة ، لا يستطيع أن يكون خطيباً ، فهو لا يتمتع بموهبة الخطابة ولكنه يكتفي بترديد هتافات الخطباء طالما هذه الهتافات تعبر عما يضطرم بداخله من أفكار ومشاعر . ولكننا نعرف بعد هذا ومن خلال تقريرات المؤلف أيضاً ، المتناثرة في مونولوجات فهمي الداخلية أنه أصبح ذا رأى مسموع في اللجنة التي انضم إليها ، وإن لم يصبح من أعضائها البارزين . هذا هو « سلوك » فهمي عبد الجواد ،

يتمتع بكمية كبيرة من المواقف السلبية فيما يتعلق بكل مشاكل أسرته ، المشاكل التي تقوم عليها المادة الأساسية للبناء الروائي ، ولا يتخذ سوى موقفين إيجابيين إلى جانب كمية لا بأس بها من المناجيات الذاتية التي يتوزعها السخط والرضى ، التمرد والقبول ، الرفض والحنين .

فما الذي دفع فهمي إلى الثورة ؟ نجيل إلى أنه لابد قبل الإجابة على هذا السؤال أن نطرح سؤالاً آخر أكثر شمولاً : ما الذي أشعل الثورة في رواية نجيب محفوظ ؟ لقد سارت تجارة السيد عبد الجواد على خير حال فلم يمسه ضرر ، بل لقد تزوجت البتآن في أثناء الحرب ، وتزوج ياسين وطلق أيضاً في أثناء الحرب نفسها ، بكل ما سببته هذه الزيجات الثلاث والطلاق الواحد للسيد عبد الجواد من تكاليف باهظة . بل لقد كان الجنود الإنجليز ظرفاء للغاية مع كمال الصغير وكانوا يرددون معه الأغنيات وينفعلون جداً مع أغنية « يا عزيز عيني ، بدى أروح بلدى » ويمنحون كمال الحلوى ولم يشرعوا في « القتل » إلا لمواجهة المظاهرات التي انفجرت « بسبب » نفى الزعماء المجهولين الذين لم يفعلوا أكثر من تقديم مذكرة مهذبة للمندوب السامي يطلبون فيها رفع الحماية وإعلان الاستقلال . أما فهمي فلم يكن يملك من الأفكار غير تلك الانفجارات الانفعالية عن أنه « لا حياة لأمة يحكمها أجنبي » ، فكان منطق أمه البسيط الذي لم يستخدم سوى برهان واحد « لقد ولدنكم جميعاً في ظل حكمهم وما زلنا أحياء بحمد الله » ، كان هذا المنطق مقابلاً متكافئاً مع أقوال فهمي التي لاتحمل الكثير من ثمار عقله الثوري الجديد . لقد كانت أمثال هذه الأقوال الشاعرية كافية قبل انفجار « الثورة » الشاملة بعشر سنوات أو أكثر قليلاً لإلهاب حماسة الطلبة والتجار والأعيان الذين كان مصطفى كامل يخطب بينهم . ولكن هذه الأقوال لم تعد كافية أبداً لإشعال ثورة تشمل مصر كلها ، فلاحيا وعمالها وطلبتها وموظفيها وشيوخها وتجارها وأعيانها وفنانها . ومن البديهي أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا يملكون الأفكار عينها ، لأنهم لم يكونوا يملكون نفس المصالح ولا يتمتعون بنفس الطاقة الثورية التي تملكها وتتمتع بها كل من تلك الفئات المختلفة . ولكن فهمي ثوري « بين القصرين » الوحيد - لا يبدى ما يدل على انتباهه الفكري إن كان يتمتع حقاً بانتماء ما ، يؤهله لأن يكون عضواً في لجنة من لجان الثورة ، وذا رأى مسموع في هذه اللجنة ، ثم لأن يكون مندوباً عن لجنة الطلبة العليا في المظاهرة الأخيرة . إن هذا الفقر الواضح الذي يعانيه فهمي ليدفعنا إلى التساؤل عما إذا كانت مصر خالية من الفكر الثوري - على أي مستوى من المستويات - قبل ثورة ١٩١٩ .

حقاً إن مصر - التي ازداد تكوينها الاجتماعي والفكري نضجاً وتعقيداً في خلال السنوات العشرين السابقة على الثورة - لم تكن هي نفس ذلك المجتمع الذي تسوده ثقافة واحدة وعقلية واحدة تنبع من أصل واحد هو الأزهر . ولذلك فإن من حقنا أن نتساءل عن موقع فهمي الفكري الذي لا يكفي لتوضيحه مجرد انتمائه الاجتماعي إلى أسرة من متوسطي التجار . قد يكون هذا التوضيح مقبولاً في التحليل التاريخي - بل إنه فعلاً هو التوضيح العلمي للتاريخ - ولكنه لا يكفي في الصورة الأدبية أن يترك المؤلف الشخصية التي خلقها لكي تكون نتاجاً سلبياً لوضع اجتماعي تعتمد أن يقدم له صورة تفصيلية - تجعله في كثير من الأحيان وضعاً شاذاً واستثنائياً - بينما يترك الشخصية الثورية - محور الجوهر الواقعي الذي ينبغي نقله إلينا - دون أن يلقى عليها شعاعاً واحداً من الضوء بحيث تصبح شخصية نمطية دالة على مجموع الآخرين من أمثاله الثوار ، مثلاً كان السيد أحمد عبد الجواد شخصية نمطية دالة على مجموع الآخرين من أمثاله التجار . ذلك أن الشخصية السلبية - كشخصية السيد أحمد عبد الجواد - يمكن أن تكون نتاجاً سلبياً للوضع الاجتماعي ، أما الثوري فلا يمكن أن يكون كذلك . إنه - أي الثوري - يضيف إلى الواقع الاجتماعي رؤيته الفكرية وفهمه للعملية الاجتماعية ، وإلا لما أمكن له أن يصبح ثورياً أو لظل مجرد متمرّد مندفع لا يخلف وراءه أكثر من زوبعة من الحزن والذكريات الطيبة . بل إن ابتعاد المؤلف عن أية أزمة اجتماعية حقيقية تواجهها الأسرة التي حصر نجيب محفوظ عمله داخلها - غير قصة إجبار أحمد عبد الجواد على ردم حفرة بالتراب في أثناء عودته ثملاً من بيت عشيقته آخر الليل - أقول إن هذا الابتعاد ليدفعنا إلى التساؤل عن ماهية هذه الثورة التي تنفجر لهذا السبب الوحيد المباشر العلوي - القبض على زعماء ثلاثة - أو باشوات ثلاثة كما دعاهم أحد أصدقاء السيد أحمد من التجار - اثنان منهم مجهولان تماماً حتى عند الثوار المثقفين ، وثالثهم متهم بعماله للإنجليز من بعض هؤلاء الثوار . يقول ياسين في مناقشة مع فهمي إن من بين المعتقلين حمد الباسل باشا وهو شيخ قبيلة مرهوية لن تسكت على اعتقاله ، فيجيبه فهمي بأن القضية قضية وطن بأجمعه وليست قضية قبيلة من القبائل . المؤلف إذن يعرف الأسباب الحقيقية للثورة ، وفهمي يكاد يعرف هذه الأسباب . ولكننا لانجد أثراً لهذه المعرفة في مواقف فهمي - السلبية أو الإيجابية - بل لانجد لها أثراً في مناجياته الذاتية البعيدة عن رقابة الأب الجبار القاسي وعن رقابة السلطة العسكرية . أكان اندفاع فهمي إلى العمل الثوري إذن بسبب فشله في الحصول على حبيبته ، أم

كان نوعاً من التمرد على الإرهاب الأبوى في مجال بعيد بعيد عن المجال المباشر لهذا الإرهاب ، أم كان مجرد رغبة في الامتلاء بإحساس جماعي شامل وجارف فراراً من العزلة الفردية ؟ هذه كلها عوامل فردية وقفاها المؤلف حقها كاملاً ، ولكن « الثورة » نفسها تصبح بهذا الوضع حالة نفسية فردية وليست ذروة لعملية اجتماعية مركبة وشاملة ، إلا إذا قبلنا هذا الفصل الكامل بين الثوري والثورة الذي وضعه المؤلف .. « لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمات غماً وكمداً ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوثيد على أطلال الرجال والآمال ، كان لابد من انفجار ينفس عن صدر الوطن وأرضه كالزلزال الذي ينفس عن أبخرة بطن الأرض المتجمعة فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه في خضمها .. » كيف وقعت الواقعة إذن ، وكيف تهباً فهمي لكي يكون في الوضع الفكري والنفسى الملائم للاندماج فيها كل هذا الاندماج ، متخلياً عن كل سلبية طبقته وفتورها ولا مبالاتها . لقد امتلأت غربة فهمي الأخلاقية بالكثير من الأحلام عن الحب وعن الأسرة وعن الوطن ، ولكن أحلامه لم تتجاوز حدود الرؤى الشعرية الطيبة - بعيدة كل البعد عن « ثقافته » المفترضة المستوحاة من أستاذه محمد عبده ومحمد فريد ، ومن دراسته القانونية المثقلة بثمار العقل الأوروبي المستنير عن تاريخ القانون والدراسات الدستورية .. الخ .

إن الثوري لا يصبح ثورياً من خلال اكتشافه لضياح قيم معينة يريد هو تأكيدها أو إيجادها على أساس ارتباطاته الاجتماعية - التي يختارها هو من خلال وعيه الاجتماعي لا من خلال استسلامه لبيئته ومحاولة استرضائها - وعلى أساس انتماؤه الفكري . وهو بهذا الوضع يصبح مهاجماً لمؤسسات اجتماعية وقيم اجتماعية عتيقة ومهترئة ومعوقة كما يصبح مدافعاً عن مؤسسات وعن قيم أخرى جديدة وأكثر إنسانية ودافعة لحركة المجتمع ولحركته هو الشخصية . أما فهمي عبد الجواد فلا يكاد يفتقد أكثر من تجاوب الآخرين من أبناء أسرته معه ، هذا التجاوب الذي لا يمنع حدوثه سوى تشوه الآخرين الأخلاقي وتحلفهم الفكري المروع . ولكن فهمي لا يهاجم التشوه مطلقاً - رغم حلمه بأن يكتسبوا أخلاقاً مغايرة ، ولا يكاد يهاجم تحلفهم الفكري إلا هجوماً « دمثاً » موارباً على كثير من الحياء . فما الذي أراد فهمي أن يوجد؟ لقد حلم بأن يتغير أهل بيته ، وأن يستقل وطنه . ولكنه لم « يفعل » شيئاً من أجل أن يتغير هؤلاء الأهل ، وإن كان قد اندفع إلى العمل الثوري من أجل « الاستقلال » الذي لم يعرف شيئاً عما ستكون عليه صورة وطنه إذا تحقق .

هكذا يكون فهمى عبد الجواد بطلاً لم يحسن إعداده للقيام بثورة لم تكن الظروف قد تهيأت لانتصارها . إن فراغ فهمى الفكرى وامتناعه عن مقاومة الخطاط عالمه - أو اقتصار مقاومته على الاندهاش أو التألم أو عدم التصديق ، ثم المحافظة على نبلة وطهارته الذاتية ، ليدفعان إلى اعتبار موته فى النهاية نوعاً من الانتحار رغبة فى التطهر - لا من مجرد « خطيئة » جبنه فى المظاهرات السابقة - وإنما التطهر مما اعتقده نوعاً من الضعف أو التخلى أو النكوص . فقد مضى قبل موته يفكر فى مريم وفى أبيه وأمه وإخوته ، وفى هروبه السابق فى المظاهرات ، وفى الزعيم نفسه ، متخيلاً نفسه شهيداً - وليس ميتاً بالتحديد - يتسبب استشهاديه فى قلب حياة كل هؤلاء رأساً على عقب . ويقول التاريخ إن حياة مصر لم تنقلب رأساً على عقب بفعل ثورة ١٩١٩ ، وإن كان قد أصابها بعض التغير . فقد نجحت الطبقات العليا فى تهدئة الثورة والجمامها وعزلها عن جماهير الشعب الكادح أو عزل جماهير الشعب عنها ، حينما حصلت هذه الطبقات على ما ظنته كافياً لضمان مصالحها الخاصة من مكاسب . وبهذا المعنى يكون موت فهمى عبد الجواد تجسيداً لنهاية الثورة بالصورة التى وضعتها الطبقات العليا ، وطبقاً لما أعطاه التاريخ « الرسمى » أو التقليدى للثورة .

وهكذا لا يكون فهمى عبد الجواد بطلاً « لمصر » ، وإن كان بطلاً لمحاولة مخففة من أجل تحقيقها . لقد تضخم وجدانه الشعرى على حساب وعيه ، وتضخمت مطامحه غير المحددة على حساب إمكانياته غير المعروفة له ، وانفصلت ثقافته الشخصية عن تراث شعبه المستنير ، علاوة على عدم حصوله من ثقافته الجديدة سوى على قدر محدود وغير متناسب كفى مع ظروف عالمه المحلى الفقير ، لكل ذلك كان لابد أن يموت شهيداً لنبلة الساذج ، لا لرصاص أعدائه وأعداء شعبه . أما التاريخ فيقول بأن شهداء آخرين قتلوا على المشانق فى القرى ، فى الفترة نفسها التى قتل فيها فهمى عبد الجواد بالرصاص فى شوارع القاهرة ، وكانوا قد طلبوا الحبز والأرض مع الاستقلال . أولئك كانوا أكثر « واقعية » من فهمى عبد الجواد ، لأنهم - بغير تفلسف - رأوا الثورة فى شمول أكثر اتساعاً ، ومن خلال معاناتهم المباشرة للجوع والمرض والفقر ، وليس من خلال معاناة الحب الفاشل أو قسوة الأب أو فتور المناقشة مع الأخوة . لقد كشف فهمى عبد الجواد عن جانب من طبيعة المقاومة المصرية كما عرفها التاريخ الحقيقى - لاشك فى هذا - ولكن التاريخ فى شموله ، ما يزال بحاجة إلى اكتشاف على الدرجة نفسها من الشمول .

عن كتاب « شخصيات من

أدب المقاومة » - بيروت ١٩٧٠

المرأة في ثلاثة أجيال

صوفى عبد الله

● « المارد الذى خرج من القمقم » . هذا هو الشعب الذى رسم نجيب محفوظ صورة تطوره فى السنوات الثلاثين التى انقضت من الحرب العالمية الأولى حتى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ثلاثة عقود من الأعوام خرجت فيها ثلاثة أجيال ، الفرق بين كل جيل منها والذى يليه كأنه ألف سنة .

ولكن هذا المارد الذى خرج من القمقم لم يكن ماردا مذكرا فحسب ، بل كان معه أيضا مارد مؤنث . فالمرأة المصرية - كما تبدو فى أعمال نجيب محفوظ - تبدلت صورتها فى هذه الأجيال الثلاثة كأنها رؤيا سحرية لا تثبت على حال .

المرأة المؤنثة التى ظلت ألف سنة - وربما أكثر من ذلك - « حرمة » أو « حرمتا » للرجل تتمثل فى أنقى صورها عندما نفتح أولى صفحات بين القصصين . إنها المرأة الزوجة . التابعة . المتقادة . التى تجدد ذروة وجودها وكيانها كله فى « التلاشى » فى إرادة الرجل المعين الذى قسمته لها الأقدار .

هذه المرأة الزوجة المثلى بحسب مفهوم الحريم هى أمينة زوجة أحمد عبد الجواد ، التى نراها « عند منتصف الليل استيقظت كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بإيجاء من « الرغبة » التى تبيت عليها فتواظب على إيقاظها فى دقة وأمانة . وبإدراكها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفניה من خشية أن يكون النوم خانها ، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس .. وكان مايشمل البيت من صمت ينم على أن بعلمها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه . فهى العادة التى توقظها فى هذه الساعة - عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعها ، ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية - أن تستيقظ فى منتصف الليل لتتظر بعلمها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام .. وهى اليوم فى الأربعين من عمرها .. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة ،

فسرعان ما وجدت نفسها عقب وفاة حماها وسيدتها الكبيرة للبيت الكبير تعاونها امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة القرن بالفناء ، تاركة إياها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود زوجها العنيد من سهرة طويلة ...» .

وفي هذه الصورة الافتتاحية نرى سمات كثيرة واضحة يكاد نجيب محفوظ يضع خطوطا تحت كل سمة منها : فأمانة هنا ليست حالة فردية . ولكنها نموذج لآداب مجتمع معين في طبقة معينة هي الطبقة الوسطى الميسورة الحال من أبناء البلد التجاري في المدن الكبرى . وما تفعله في الأربعين ظلت تفعله منذ تزوجت وهي في الرابعة عشرة . وهي لم تفعله مستقلة بنمط سلوكها ، بل لأن هذا هو النمط المفروض في الحياة الزوجية في بيتها : فهي تقوم طول النهار بأعباء الخدمة في البيت . وهي يومئذ أثقل من أعباء خادمة البيوت اليوم بمراحل كثيرة . فاليوت كبيرة مترامية الأطراف متعددة الطوابق ، لم يدخل عليها نظام « الأجنحة » أو « الشقق » الصغيرة المعروفة لنا الآن . والخبز لا يقوم بصناعته الخبازون في أفران عامة ، بل تقوم المرأة في البيت بالعجن والخبز لأهل بيتها والطهو يتم في الأفران المنزلية التي توقد بالخشب أو الفحم أو الحطب على حسب الظروف . فالتأكل كله مزدحم بالعمل المجهد ، حتى إذا جاء الليل وأطفئت مصابيح البترول في البيت ونام العيال والخدام كان على الزوجة أن تقطع نومها تقطيعا - وبلا منبه - كي تكون يقظانة حسنة الهندام صاحبة الذهن والحواس حين يعود سيدها ومولاها - فهذا الاسم كانت تدعو زوجها - لتقوم على خدمته عندما يحلو له أن يعود قبيل الفجر من سهرته الطويلة هاشة باشة حفية به ! .

ولا يذهبن بك الظن أنها تفعل ذلك مسخرة له ضيقة به بل عن « رغبة » . وحينما تصل الواجبات المرهقة في الخدمة إلى أن تكون رغبة باطنة تتغير صورة الإنسان من الإكراه إلى الطبع ، فيكون عبدا مطبوعا لا عبدا مرغما .. ولا يجد في وضعه ما يسخطه ، بل هو يتمسك به ويكاد ينخلع قلبه إذا تهدد هذا الوضع خطر يفتح له أبواب سجنه و « وبيتليه » بالحرية ! ..

إن صورة الحياة في وجدان أمانة - وفي وجدان كل أمانة على شكلها من بنات نمطها في جيلها - صورة مستقرة لا يخطر ببالها أن غيرها من الصور ممكن أو مستساغ . فكل شيء ثابت له نواميس متصلة بنواميس الكون كلها في مجموعها . ومن الطبيعي أن كل ما في هذه الحياة خاضع لقوى قدرية لا فكاك منها . فالحياة والموت يحكمها القدر . فكل شيء مقدر مقسوم ، من رزق وصحة وعمر ، وليس على العبد إلا الطاعة ، وخير ما يجوز له أن يصبو

إليه أن يكون عبداً أميناً ، أو عبدة « أمينة » .. والزوج وكيل الله في حياة المرأة قصاراها أن تعيش له . وكل تفكيرها وإرادتها وإحساساتها من باطن ذلك الرجل ، لحسابه الخاص . فهي ليست كائناً مستقلاً في شيء من هذا كله . وحتى ليلاً ليس طليقاً ، فهو عامر مأهول بقوى الجن والشياطين التي يتم بسلطانها المرهوب إحكام الرقابة والسيطرة على كل شيء في حياة المرأة في السر والعلن ، في الراحة والعمل ، في النهار والليل ، « فلم يكن يغيب عنها - هي التي عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم الإنس ، أنها لا تعيش في البيت الكبير وحدها . فكم دب إلى أذنيها من همسات الجن وكم استيقظت على لفحات أنفاسهم .. فتقرأ الصمدية ولكنها لا تعرف الطمانينة الحقة حتى يعود الغائب » .

وأنها للفتة نفسية بالغة العمق من هذه العبقرية الفنية المبدعة ان تربط بين هيئة الجن في نفس أمينة وبين وجدانها الخاضع وإرادتها السلبية بصفة عامة . فمثل هذه النفس لا يمكن أن تعرف الاستقلال من الرهبة في أي أفق من آفاقها ، ولا بد أن تسود ظلمة التحكم الاستبدادي القاهر المدعور ، كل وجه من وجوه سلوكها وإحساسها وليس بلا مغزى أن الجن يفرعونها هي ، أما زوجها فلا يفرع من الجن ، بل ينكشون بحضوره ! وينقلب هذا الذعر إلى رغبة عن طريق ما يَحْتال به اللاشعور من محاولة التقرب إلى مصدر الذعر والتماس رضاه بإظهار الحب له . وهي حيلة نفسية لا شعورية كما قلنا ، فيظل صاحبها جاهلاً بدوافعها .. ويعتقد أنه مخلص في ذلك الحب والولاء حتى النهاية .

بل يصل الأمر في هذا النمط من التبعية المتزلفة إلى الإخلاص في التفاني بحيث توأد الغيرة الأنثوية الفطرية : « وقد خطر لها مرة - في العام الأول من معاشرته أن تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل ، فما كان منه إلا أن أمسك بأذنها وقال لها بصوته الجهورى في لهجة حازمة « أنا رجل ، الأمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك » فتعلمت أنها تطيق كل شيء - حتى معاشرة العفاريث - إلا أن يحمر لها عين الغضب . وقد أطاعت وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرها ، ووقر في نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها - وحتى ساعة الانتظار هذه - على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة - أحببتها من أعماق قلبها فإنها كانت ولم تزل الرمز الحي لحديثها على بعلمها وتفانيها في إسعاده ، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني وذلك الحلب » .

وحتى مخادنته للنساء في سهراته تتراءى لها « من صفات الرجولة كالسهر .
والاستبداد .. ووجدت أن موقفها من الغيرة شأنها حيال المتاعب التي تعترض سبيل حياتها
لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد إلى وسيلة في مقاومتها إلا أن
تنادى الصبر ، وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحى في مغالبة ما تكره ، فانقلبت
الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى ، وكمعاشرة العفاريث ، مما يحتمل » .

بل إن مجلسها معه في ساعة الخلوة ليس مجلس الأنثى من الذكر من أبناء النوع الواحد
من أنواع الكائنات الحية ، فهي إذا « أغلقت الباب سحبت شلثة من تحت السرير
فوضعتها أمام الكنبه وتربعت عليها ، إذ لم تكن ترى لنفسها الحق في أن تجلس بجانبه
تأديا ، وهي ملازمة الصمت حتى يدعوها إلى الكلام فتكلم .. وإذا جلس للطعام لم
تؤاكله ، بل تقف وراءه مستعدة للخدمة في لحظة .. » .

وكل ذلك كان في سنة ١٩١٦ ، ولا يخلو البيت في تلك الفترة وما بعدها على
الخصوص بأحاديث في السياسة عن السلطان الذي مات وأبى ابنه أن يجلس بعده على
العرش ، وعن السلطان قواد الذي أجلسه الإنجليز على ذلك العرش بعد موائد القمار . ثم
انتهت الحرب وكثر حديث السياسة ، وكثرت المشاركة فيها ، ولكن دور أمينة من ذلك
كله ، جل امره أو هان ، هو دور « الأطرش في الزفة » . فهي لا تدرى من ذلك الحديث
كله شيئا ، وترى « أولى الأمر » واجبة طاعتهم ، كما تطيع هي التقاليد ، وكما تخضع هي
لسلطانها الخاص - وهو زوجها - وكما تتحاشى إغضاب الجن . وإذا ما شارك بنوها بعد
قليل في السياسة ذكرت ما انتهى إليه أمر عرابي على يد الإنجليز الأقوياء وملكتهم فكتوريا
ولما رأت بعينها عساكر الإنجليز أمام بيتها في أيام الأحكام العرفية سنة ١٩١٩ ، وكيف
استباحوا الحرمات ثار غضبها ، ولكنه غضب يشله الخوف من العنف والقوة الباطشة ،
فهي تقول لابنها فهمي المتحمس « ارحم نفسك يا بني ، ربنا يلطف بنا ! » وهي تتابع
مشفقة الحديث الثائر الهائج ، وقلبها لم يخل من أسف على أفندينا عباس واقرن النفي في
ذهنها باليأس من العودة وإلا فآين أفندينا ؟ ومن أجدر منه بالعودة من المنفى ؟ « فأفندينا في
نظرها ولي الأمر الشرعى الذى نشأت في طاعته ولا تتصور انقضاء ولائها له أو انتقاله إلى
سواه . وهي تقول لفهمي ابنا « لا تبد للجنود الإنجليز الكراهية . إن كنت تحبني لا
تفعل » . وهي قلقة طول النهار « فإن احتمال تعرض الجنود لأحد رجالها في ذهابه أو إيباه لم
يكذ يفارق رأسها » .

وعندما سبق زوجها بين الجنود الإنجليز لحفر الخندق .. وحمل الأتربة أبغضتهم بغضا

لا حد له ، لأن أذاهم وصل إلى بيتها وزوجها . فالقضية العامة عندها لا يكاد يكون لها وجود إلا بمقدار ما تمس حياتها الضيقة الحدود .

ولما استشهد فهمى فى المظاهرة السلمية برصاص الإنجليز الغادر خطرت أمينة ببال زوجها لأول مرة « فأوشكت أن تخونه قدماء .. ماذا عسى أن يقول لها ؟ كيف تتلقى الخبر الضعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور ! ماذا تصنع لمقتل فهمى ؟ أتذكر كيف همت دموعها لمقتل ابن القولى اللبان ؟ فماذا تصنع لمقتل فهمى ؟ » .

وهنا يترك الفنان الصورة لترسمها مخيلة القارئ ، ولا يرتكب تجسيد حزن أمينة وجزعها على مصرع ابنها الحبيب أو « سيدى الصغير » كما كانت تناديه . فهو تصدع الجبل وتزلزل الأرض . إنه الحزن الوجيع ، حزن المرأة الضعيفة التى هيات أن تجد الاستشهاد فى سبيل القضية العامة عزاء عن فجيعتها الخاصة .

وهكذا تم صورة أمينة . صورة المرأة القديمة ، الزوجة المتفانية فى ولائها ، التى تضيق آفاق حياتها جميعا فتتخفى فى ذلك الولاء الدليل فى أضيق حدوده الاجتماعية والفكرية . وينبغى ألا نخلط بين ضيق الأفق هنا وبين المستوى الجدير بالاحترام . فمقاييس أمينة هى أرقى نموذج للزوجة فى زمانها وبيئتها ، فالعيب ليس فى أمينة ، بل العيب فى الظروف الفكرية والاجتماعية التى جعلت منها ثمرة طبيعية جدا لها .

* * *

أما الجيل التالى لهذا النموذج ، الجيل الذى ظهرت فيه على آثار المرأة المنقادة الضعيفة السلبية امرأة حازمة تملك زمامها وتسوس الأسرة وتتولى مقادها فى اقتدار الربان أو القائد فى الميدان ، فهذا ما يمثله لنا نموذج الأم فى « بداية ونهاية » .. المرأة التى تتصدى للمسئولية الثقيلة المولة وتنهض بها فى غير تردد أو تحاذل . وهى على النقيض تماما من المرأة الضعيفة « الولية » التى يقوم بالولاية عليها مخلوق أقوى منها .

والإطار الأمثل لظهور هذا النموذج هو وجود الأسرة فى حالة تأزم نفسى واجتماعى واقتصادى ، وانعدام العائل الشرعى لها . وكل ذلك توفر فى بداية ونهاية منذ صفحتها الأولى . ومنذ الصفحات الأولى أيضا تبرز شخصية هذه المرأة « المسئولة » ككفاء لمسئوليتها الجسيمة :

« لم يخلف الراحل شيئا ، وهيئات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبة كله يستفد فى ضرورات الأسرة . وقد وجدت فى محفظته جنهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك

من نقود حتى تنتظم الأمور . ورنا بصرها إلى حجرة الأبناء في سهوم : اثنان في المدرسة - معفيان من المصاريف حقا ولكن هيات أن يغنى هذا عنها شيئا - أما الثالث ففي حكم الصعاليك !... وتهدت من الأعماق ، ثم حولت عينها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألما : فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب . وهذه هي الأسرة التي باتت مسئولة عنها بلا معين . بيد أنها لم تكن من النساء اللاتي يفضضن همومهن بالدمع . وإن حياتها الماضية وإن أمست حلما سعيدا موليا إلا أنها لم تكن يسيرة خصوصا في مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنهات معدودات . وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح . كانت دائما قوية .. وكانت محور البيت الأول ، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب ، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأمهات وضعفهن . أجل كانت امرأة قوية .. واجتمع حولها الأبناء وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوها . ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله .. ولعله لم يكن يحيرها شيء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة ، وباطنها الذي يننئ رحمة وعظفا .. وشعرت بالخلاء يكتنفها ، ولكنها أبت أن تستسلم لليأس وقالت :

- ليس لنا من قريب نعتمد عليه . وقد رحل العزيز الغالي دون أن يترك لنا شيئا إلا معاشه ، ولا شك أنه دون المرتب الذي لا يكاد يكفيننا . فالحياة تبدو كالحلة الوجه ، ولكن كم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى بر الأمان .. فلا يجوز لنا أن نياس ، ولكن ينبغي أن نعرف رأسنا من قدمنا وإلا هلكنا ، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدر لنا من حظ بصبر وكرامة .. لا مصروف بعد اليوم لحسين وحسين ، وأحذر كما من ترك نصيبكما من الغذاء المدرسى كما تفعلان عادة ..! » .

أم كفاء للقيادة في الملمات ، لا تطيش الكارثة صوابها منذ البداية حتى النهاية . تعرف بالضبط ماذا تريد ، ولا تدع مجالا لعواطفها أن تغلبها فتتخاذل . إنها تواجه الواقع بتدبير عملي في غير تضعضع . ولا تترك التحسر يغلبها . فلا بد مما ليس منه بد ، ولا فائدة في البكاء والتباكى . ولذا نراها لا تكتفى بهذه التدابير السلبية للاقتصاد والتوفير ، بل تتخذ خطوة إيجابية جريئة لتلافي العجز في دخل الأسرة : « ورددت عينها اللتين انتفخ جفناها واحمرت أشقارهما بين أبنائها ثم قالت :

- أما نفيسة فتحسن الخياطة . وهي تحيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ولست أرى بأما في تقاضها على تعبها مكافأة ..

وصاح حسين بغضب وقد اصفر وجهه :

- خياطة ؟.. لن تكون أختي خياطة . كلا ، ولن أكون أنا الخياطة .

وقطبت الأم في غضب وصاحت به :

- أنت ثور ، تأكل وتنام ، ولا تدري عن الدنيا شيئا : وهيهات أن يفهم عقلك الغبي حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

- احرص !..

فتفخ دون أن ينس بكلمة . ورأت الأم أنها فرغت من معارضته فالتفتت إلى حسين فالتفت عيناهما برهة قصيرة ، ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض :

- إذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله .. !

فقالت الأم بتأثر :

- ما عيب إلا العيب .. لست أحب لأحد منكم المهانة ، ولكن للضرورة أحكام ، ولا حيلة لي .. !

وفي سائر المواقف تبدو أم حسن بهذه البادرة من الحزم الصارم . إنها امرأة تعرف لها مسئولية واضحة محددة لا تعرف شيئا سواها تقيم له اعتبارا . فالسياسة لا شأن لها بها ، ولا تحب لأولادها أن يخوضوا فيها . ومشكلات المجتمع كمسائل عامة لا تطوف بذهنها .. فهي تقر الإطار الاجتماعي العام ، وتعترف بما فيه من قيم ، ولكنها كالجرح الذي يعرف قيمة أعضائه الجسم ومع ذلك يتر منها ما يتر إبقاء على الحياة في جملتها . وهي لا تضع نصب عينها سوى وصول أسرتها إلى بر الأمان كائنا ما كان الثمن ، ولو بيعت المهانة ، وبر الأمان عندها هو رفع الأسرة البرجوازية من كبوتها لتعيش في مستوى اقتصادي أفضل ، في مسكن لا ينجلون منه كمسكنهم الأرضي الجديد ، ويكتسبون ويأكلون بغير حرمان ، ويتفوقون في شيء من السعة ، ولا تشتغل الابنة خياطة ، ويكون لهم « مركز » أو « وضع » اجتماعي محترم يتمثل في الوظائف المريحة بالدولة .

وهي قضية ليس فيها عنصر واحد عام . فكل ما فيها خاص . وعلى أساس الاعتراف بالأوضاع الاجتماعية السائدة في غير مناقشة . وبذلك يكون كل اشتغال من جانب أولادها بما يجاوز هذا الهدف الجزئي المحدد نوعا من الخيانة أو الهروب من ميدان المعركة الأوحده . فلا قضايا وطنية ، ومن باب أولى لا قضايا اشتراكية تناقش العدالة الاجتماعية . وإنما هي العزيمة والصلابة في إقامة ما تدعى من البناء العائلي اقتصاديا واجتماعيا ، وعلى نحو أفضل - من وجهة نظرها المحددة - إن أمكن ذلك .

فهي قائد قوى ، ولكن في ميدان صغير ، ولغاية صغيرة . لأن نظرتها الضيقة تحول بينها وبين رؤية الأمور الكبيرة في خارج مجال رؤيتها المحدود ...

وهذه المرأة هي الثمرة الطبيعية لجيل ثورة ١٩١٩ الذي عرف معاني الكرامة والاستقلال والطموح ، ولكن على المستوى الفردي . وكل عيوب نمطها راجعة إلى عيوب البيئة والمرحلة التاريخية التي أنبته .

أما الجيل الثالث ، فنلتبس نمطه في الثلاثية مرة أخرى . وفي أخريات السكينة أى ختام الثلاثية كلها . إنه جيل المرأة التي خرجت في النهاية من القمقم وسبقت الفتى في كثير من الاتجاهات الواعية التقدمية ...

إنه جيل « سوسن حماد » المحررة السياسية المكافحة المؤمنة بالاشتراكية العلمية ، ابنة العامل صفاف الحروف في مطبعة الجريدة التقدمية التي يعمل بها أحمد شوكت كما تعمل بها سوسن . وعنها يقول نجيب على لسان أحمد شوكت الشاب التقدمي المتحمس : « إننا زميلان مخلصان لم ينطق الحب بيننا ولكن لا أشك أننا متحابان ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون ، بدأنا رفيقين في ميدان الحرية وعملنا يدا واحدة ، وكلانا مرشح للسجن ، وكنت كلما نوهت بجهالها حملت في وجهي محتجة وزجرتني مقبلة كأن الحب شيء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنا فيه من عمل .. وقلت لها يوما « إني مثلك أرى الرأسمالية في طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها ، وأن على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدير آلة التطور ، إذا أن الثمرة لن تسقط وحدها ، وإن علينا أن نخلق الوعي ، ولكني بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك ! » .. ولثمت خدها فحدجتنى بنظرة قاسية وأكبت على ترجمة ماتبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتحاد السوفييتي الذي كنا نترجمه معا » .

نمط الفتاة العاملة الجادة القوية المعتدة بنفسها وبدورها الرائد في التطور الفكري والاجتماعي ، لا تبالي بالسجن عند اللزوم .

وما أعظم الفرق بين هذا النمط والتمطين السابقين ، من حيث الأهداف والدوافع وأفق الرؤية ، وإن يكن فيه من نمط المرأة القوية المسئولة أم حسن مشابه من الحزم والإرادة والتصميم وتقديم « المعركة » على العاطفة ... على ما بين المعركتين من فروق هائلة . « حبيبتى لا تمل الحديث عن مبادئها ... وعندما قلت لها إني تواق لسماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبجنتي قائلة باحتقار « هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة ... هه ؟! » فقلت لها إن احترامي لك فوق كل كلام ، وإني لأعترف بأنني تلميذك في

أنبل ما صنعت في حياتي ، ولكني أحبك كذلك وما في ذلك بأس ... وإنما لكائن بديع جميل العقل والجسم معا رغم إغراقها في السياسة ، وعندما دعوتها للترهة في الحديقة قالت « على شرط أن نأخذ الكتاب معنا لنواصل الترجمة » ... وكان يخيل إلى قبل ذلك في ساعات التقهقر والخور أن الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج ، ولكن المسلم به كذلك أن العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيرني كثيرا وطهرني لدرجة محمودة من أدران البورجوازية المستوطنة في أعماقي ! ...

... وقلت لها مازحا :

- سيلقى القبض علينا آجلا أو عاجلا إلا إذا أدبنا الزواج !

فهزت منكبيها بازدراء وقالت :

- من أدراك أنني أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك ؟

- مزيف ؟

فتفكرت قليلا ثم قالت باهتمام جدى :

- لست من طبقة العمال مثلي ! كلانا يحارب عدوا واحدا ، ولكنك لم تخبره كما خبرته . لقد ذقت الفقر طويلا ، ولمست آثاره الكريهة في أسرتي ، وغالبته أخت لي حتى غلبها فماتت ، أما أنت فلست ... لست من طبقة العمال !

- ولا كان انجلز من هذه الطبقة ! ...

- ... لا أنكر عليك مبدأك ، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة ...

- أنت مخطئة يا ظالمة . لا يعينني ما ورثته ، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعينني . لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيا ، ولا عيب إلا في الجمود والتخلف عن روح العصر ..

فقال له وهي تبسم :

- لا تغضب ! كلانا ظاهرة طبيعية علمية . لا نسأل عما وجدنا أنفسنا عليه ، ولكننا مسئولون عما نعتقد ونفعل . إني أعتذر إليك يا انجلز .. ولكن يهمني شيء واحد .. كرامتي ! .. وأنت أدري بتقاليد أناسك ! مستمتع كثيرا عن الأصل والفصل وسائر هذه القيم البورجوازية .

- لست منها في شيء .

- هل تدرك خطورة قولك ؟ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات

المأثورة مثل حب . زواج . الغيرة . الوفاء . الماضي ...

صورة جديدة تماما للمرأة التي تقيم عالما جديدا بكل قيمه على أنقاض عالم قديم بكل قيمه ، فى ثقة وجراءة وإيمان واستعداد للتضحية بكل شىء : تضحية بالحرية الشخصية عن طريق السجن ، وبالهناء الشخصى عن طريق رفض الزواج التقليدى الموروث ...

امراة كل ما فيها جديد . امراة تقود ولا تقاد وامراة تقلب الأنظمة وتقيم أنظمة غيرها .. امراة هى إنسان رائد مريد فعال لما يريد ، مشغول بأمر البشرية كلها قبل أمر نفسه وذويه ...

وهكذا تم خروج الماردة من القمم كما صور أطوار خروجها منه أديب مارد ثاقب النظرة متعدد الأعماق ...

عن كتاب « حواء وأربعة عمالقة »

القاهرة ١٩٧٦

اللص والكلاب

د . لويس عوض

« من المستحيل تحديد مصدر النباح الذى ينطلق مع الهواء فى كل موقع ولا أمل فى الهروب من الظلام بالجرى فى الظلام » .

نجيب محفوظ

لكم ترددت قبل أن أكتب هذا المقال ؟ .

ترددت أولاً فى أن أكتبه أولاً أكتبه فأنا لم أكتب عن نجيب محفوظ كلمة واحدة رغم كثرة ما كتب وكثرة ما كتبت . ترددت تردد المتهيب ، ففى أكثر من مرة يصدر لنجيب محفوظ كتاب جديد كنت أقرؤه ، ثم أمسك بالقلم لأكتب ، فيتوقف القلم تهيأ . ولم أكن أعرف لهذا التهيأ علة إلا خشيتى من أن أظلمه وأظلم معه نفسى . فما من مرة صدر لنجيب محفوظ كتاب جديد إلا وانطلق كوراس النقاد من أنهر الصحف وعلى موجات الإذاعة وفى حلقات الندوات بتمجيده تمجيذاً بلا حساب أو يوشك أن يكون بلا حساب . وما عرفت كاتباً من الكتاب ظل مغموراً مغبوراً مهملًا عامة حياته الأدبية دون سبب معلوم ثم تفتحت أمامه كل سبل المجد دفعة واحدة فى السنوات الخمس الأخيرة دون سبب معلوم أيضاً مثل نجيب محفوظ . وما عرفت كاتباً رضى عنه اليمن والوسط واليسار ورضى عنه القديم والحديث ومن هم بين بين مثل نجيب محفوظ فنجيب محفوظ قد غدا فى بلادنا « مؤسسة » أدبية أو فنية مستقرة تشبه تلك المؤسسات الكثيرة التى تقرأ عنها ولعلك لاتعرف مايجرى بداخلها وهى مع ذلك قائمة وشاحنة وربما جاءها السياح أو جىء بهم ليتفقدوها فيما يتفقدون من معالم نهضتنا الحديثة . والأغرب من هذا أن هذه المؤسسة التى هى فى نجيب محفوظ ليست بالمؤسسة الحكومية التى تستمد قوتها من الاعتراف الرسمى فحسب بل هل مؤسسة شعبية أيضاً يتحدث عنها الناس بمحض الاختيار فى القهوة وفى البيت وفى نوادى المتأدبين والبسطاء .

بعد هذا كله لم يعد صعباً تفسير تهيبى العظيم كلما سولت لى نفسى أن أتناول نجيب محفوظ . فنجيب محفوظ عندى كاتب من أولئك الكتاب القلائل فى تاريخ الأدب فى

الشرق والغرب ، كلما قرأته غلى الدم فى عروقي وودت لو أنى أصكه صكاً شديداً ، ونجيب محفوظ فى الوقت نفسه هو عندى كاتب من أولئك الكتاب القلائل فى تاريخ الأدب فى الشرق والغرب كلما قرأته عشت زمناً بين أبحاد الإنسان وقالت نفسى : ليس فن بعد هذا الفن ولا مرتقى فوق هذه القمم الشاهقة . وليس يجوز لمثلى أن يفسد على الناس أفراحهم كلما احتفلوا بوليد جديد ، وليس يجوز لمثلى أن يشارك فى عرس عظيم كل من فيه منتش إن بأصنى السلاف وإن بمجرد الإيجاء : فلقد اكتشفت فيما اكتشفت أن بعض من كتبوا عن « ثلاثية » نجيب محفوظ الشهيرة مثلاً لم يقرأوا منها إلا صفحات معدودات وأنا شخصياً أعلن وأعترف على الملأ أنى لم أقرأ منها إلا جزءها الأول وأعلن وأعترف على الملأ أنى لن أقرأها ثانية إلا حين يتاح لى أن أعتكف أسبوعين فى مرسى مطروح أو فى ظروف تتيح التفرغ لقراءة مثل هذا العمل الأدبى الخطير .

ورغم أنى قرأت أكثر ما كتب نجيب محفوظ فلن أتحدث هنا عن نجيب محفوظ ، ولن أتحدث إلا عن شىء واحد هو قصته الأخيرة الصغيرة « اللص والكلاب » . سأتحدث عنها لا لأنى أعتقد أنها أهم ما كتب ولا لأنها تمثل « فن » نجيب محفوظ ، ولكن لأشرح من خلالها فن نجيب محفوظ فى « اللص والكلاب » بلا زيادة ولا نقصان .

فإن أردت أن تعرف موضوع هذه القصة فى كلمات فقل إنها قصة جان فالجان فى القرن العشرين أو شىء من هذا القليل . وجان فالجان هو بطل رواية « البؤساء » لفكتور هيغو ، وهو نموذج اللص الذى يطارده المجتمع حتى بعد أن يستوفى قصاصه . كذلك الحال فى رواية نجيب محفوظ : فيها سعيد مهران أو سعيد فالجان . لص شبه مثقف يدخل السجن فى اللصوصية ، وحين يخرج من السجن تبدأ مأساته الحقيقية ، فهو يجد أن زوجته التى طلقته وهو فى سجنه قد خائنه ، وتزوجت من أخلص صديق له فى عصابته ، ويجد أن ابنته الصغيرة سناء تنكره إنكار الولد الذى لم ير أباه أبداً ، ويجد أن أصدقائه بين المتعلمين وهو الأستاذ رءوف علوان المحامى قد خان كل ما كان يبشر به من مبادئ لنصرة الفقراء وتأليبهم على الأغنياء ، وباع تعاليمه الاشتراكية أو الشيوعية لأدري (فنجيب محفوظ لا يحدد لنا بالضبط هذه التعاليم) مقابل قصر جميل قرب الجزيرة . وقد كان المحامى رءوف علوان مثله الأعلى لأنه هو الذى فلسف لسعيد مهران اللصوصية وجعل من سرقة الفقراء للأغنياء مذهباً وعمق فى هذا اللص شبه المثقف نوازع النهب والسلب والسطو وقطع الطريق حتى غدا بفضل زعيم عصابة خطيرة :

ويبدو أن سعيد مهران قد تبلورت فى ضميره فكرة « روبين هود » أو « اللص

الشريف » ، أو يبدو أنه رسم لنفسه مثلاً أعلى في الحياة هو أدهم الشرقاوى الذى جاء ذكره فى الماويل أنه يسرق الأغنياء ليعطى الفقراء ، أقول يبدو لأن نجيب محفوظ لم يرسم هذا الجانب من شخصية سعيد مهران بوضوح كاف .

أخلص أصدقائه يسلمه للبوليس ليخطف زوجته وماله وأحب امرأة فى حياته تتخلى عنه للتزوج من تابعه الخائن الذى لايساوى قلامة ظفر ، وبنته الصغيرة محور أحلامه تنكره إنكارها لرجل جاء من الطريق ، وأستاذه وملهمه يبيع كل ما نادى به من مبادئ مقابل الجاه والحياة الناعمة . هؤلاء هم الكلاب الذين أحاطوا باللص ساعة خروجه من السجن فلم يبق أمام اللص إلا سبيل واحد هو مطاردة الكلاب وتدميرها الواحد بعد الآخر . وفى عملية المطاردة هذه تبين أن القدر نفسه يقف فى سخرية مريرة إلى جانب الكلاب فحين يتسلل سعيد مهران ليلاً ليغتال صاحبه اللص الخائن عlish تفتك رصاصاته بمجهول برىء استأجر شقته من بعده وحين تسلل سعيد مهران ليلاً ليغتال المصلح الاجتماعى الدعوى رءوف علوان تفتك رصاصاته بالبواب المسكين البرىء .

وهكذا يفر سعيد مهران كالقنينة وقد خابت كل آماله فى تطهير الدنيا من الكلاب . ويبدأ طراد من نوع جديد ، طراد المجتمع لهذا السفاح الجديد ، فالبوليس وراءه لا يهدأ لأن هذا واجبه والرأى العام وراءه لا يهدأ لأن الصحافة تسثيره ، أما هو فهو معتصم آنا عند بغى عاشقة له اسمها نور تعيش فى بيت على حافة المقابر ومعتصم آنا بين المقابر نفسها حتى يحاصره رجال الأمن من كل جانب ويوشك أن يتزل بهم وينفسه الدمار ، ولكن قواه تخذله فى اللحظة الأخيرة فيستسلم للبوليس .

أما ماذا فعل نجيب محفوظ الفنان فى « اللص والكلاب » فهو قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه سيد من بينى البناء فى أدبنا القصصى . فهو مهندس من أعظم طراز يعمل بالمسطرة والفرجار ولا أعتقد أنى أبالغ فى القول إن قلت إن بناء « اللص والكلاب » لا يقل إحكاماً عن بناء أعظم ما قرأت فى القصص الكلاسيكى العالمى كل شىء فيها محسوب بأدق حساب ، ولا أريد أن أقول البداية والوسط والنهاية كما يقول الأرسطاطاليسيون ، ولكن أكتفى بأن أقول إن كل خصائص القصة الكلاسيكية وصلت فيه إلى حد الكمال . فهو يعرف أين يتحرك وأين يقف وأين يتكلم وأين يصمت ، وهو يهتم بالصقل والصحة والسلامة والاقتصاد والتوازن اهتماماً ليس بعده اهتمام ، وهو لا يتوه فى التفاصيل ولكن يركز على الجوهريات .

ولكن غريبة الغرائب فى « اللص والكلاب » أنها قصة كلاسيكية القالب رومانسية

المضمون . فهذا اللص الشريف إن صح هذا التعبير شخصية ملتبة الخيال تستطيع أن تعيش بشهوة واحدة في الحياة ، هي شهوة الانتقام بعد القوة الملتبة العنيدة التي سيطرت على شخصيات الأدب الرومانسي العظيم كشخصية هيثكليف في « مرتفعات وذرنبج » لإيملي برونتي وشخصية آدمون دانت في « الكونت دي مونت كريستو » لإسكندر دumas الأب وغيرهما كثير في أدب الرومانسيين حيث تسم عقل البطل ووجدانه أو تسيطر عليه فكرة واحدة أو شهوة واحدة آكلة مدمرة تعصف به وبكل من حوله .

فكيف أتيج لنجيب محفوظ ، وهو على غير ما يذهب النقاد ، عدو الواقعية اللدود ، أن يصب كل هذا الوجدان الرومانسي في هذا الإحكام الشكلي الكلاسيكي ، هذه هي الظاهرة المحيرة حقاً في أدب هذا الأديب العظيم ، وهي أيضاً علة هذا الصدع الكبير في هذا الأديب الكبير ، الصدع بين مادة الفن وصورته ، ذلك الصدع الذي نلمس آثاره في باطن قصة « اللص والكلاب » .

وهذا الصدع ينجلي أول ما ينجلي في بناء نجيب محفوظ لشخصياته ، فهي بوجه عام شخصيات مرسومة من الخارج ، مرسومة بإحكام ولكنها مرسومة من الخارج رغم هذا الإحكام . فهذه الشخصيات باستثناء شخصية الصوفي الفقير إلى الله ، وربما شخصية المومس « نور » إلى حد لا بأس به . حين أقول إنها مرسومة من الخارج أقصد أن اللص الشريف سعيد مهران والمحامي المزيف رءوف علوان وعامة اللصوص وقطاع الطرق الذين صورهم نجيب محفوظ لا يتكلمون بلغتهم وإنما بلغة نجيب محفوظ ، ولا يفكرون بعقولهم وإنما يفكرون بعقل نجيب محفوظ ، خواطرهم خواطر نجيب محفوظ وذكرياتهم ذكريات نجيب محفوظ ، لست أقصد نجيب محفوظ الرجل وإنما أقصد نجيب محفوظ الفنان . كل هؤلاء ليسوا لصوصاً ولا بغايا ولكنهم يمثلون فكرة نجيب محفوظ عن اللصوص والبغايا ، انظر هذا الحوار بين اللص الشريف وبين الشيخ الصوفي على الجنيدى :

« هل تستطيع أن تقيم ظل شيء معوج ؟ »

فقال الشيخ بركة :

« أنا لا أهتم بالظلال ! » .

وأنا لا أعتقد أن لصاً مهما كان شبه مثقف قادر على أن يجادل رجلاً من رجال الله في مشكلة تقوم ظلال الأشياء المعوجة . فإذا ما توغلا في الحديث قال الشيخ :

« قال سيدى إني لا أنظر في المرأة كل يوم مراراً مخافة أن يكون قد اسود وجهى .

« أنت ؟ »

- بل سيدى نفسه ! .

فتساءل ساخراً :

- فكيف ينظر الأوغاد فى المرأة كل ساعة .

أما الأوغاد فهم الكلاب الذين يطاردهم اللص أو يطاردونه ، فالمطاردة فى نجيب محفوظ متبادلة لأن سعيد مهران فريسة وكلب صيد معاً سواء قبل سجنه أو بعد خروجه من السجن والمجتمع فرائس وكلاب صيد معاً . ولست أعتقد أن اللص مها كان مثقفاً أو شبه مثقف مستطيع أن يفكر فى هذه الوقفة الفلسفية التى تذكرنا لابد بخوف كاليبان من أن ينظر إلى نفسه فى المرأة فى أوسكار وايلد .

ولو أنى أردت أن أسوق من أمثال هذه الخواطر والملاحظات والتعليقات ما يوضح رأيى هذا لسقت مائة مثل ومثل .

ولكن كل هذا لا يفض من جمال هذا العمل الفنى العظيم . فنجيب محفوظ ومعه عامة نقاد الكلاسيكية مستطيع أن يقول : أنا لا أصف لك الواقع بخدافيره وبتفاصيله ولكنى أصف لك الواقع فى جوهره وكمالاته . ليس من الضرورى أن أصف لك كيف واقع سعيد مهران المومس نور ولكن يكفينى أن أوحى لك بأن الليلة حين انتهت كانت قبلة امتنان « وكانت ثمة فراشة تعانق المصباح العارى فى تلك الساعة من الليل » .

فإن أردت أن تعرف من بطل هذه القصة الجميلة قلت لك إنه ليس سعيد مهران ولكن شخص آخر لا يفكر أحد فيه ، وهو المومس نور ، بل أكاد أقول إن شخصية المومس نور من أجمل الشخصيات التى صادفتها فى أية قصة من روائع الأدب العالمى . ولا تعجب من هذا القول لأن نجيب محفوظ جعل منها البصيص الوحيد الذى يمتلج (ولا أقول ينير) وسط هذا الظلام الحالك .

أما رمزيتها فلا يجوز أن تخفى على أحد ، فهى شىء أشبه مايكون إلى نور الخير ، وسط غابة ظلماء لا مكان فيها إلا للصمصام والكلاب . نور هى النور الوحيد فى حياة سعيد مهران ، نور خافت حقاً ، نور لا يرغب فيه أحداً حقاً ، حتى أحوج الناس إليه ، نور لا يشع وسط الأحياء ولكنه يمتلج كالنجم الباهت على تخوم الحياة حيث يلتقى الموتى بالأحياء عند مقابر الإمام . وهى أخيراً نور زائف ، زيفها من زيف هذه البغى ، التى تستطيع أن تجمع فى وقت واحد بين أظهر معانى الحب والتضحية وبين بيع الهوى كروتين يومى لا بدخل فى اختصاص علم الأخلاق .

وحتى هذا النور البعيد الشاحب الممتلج بين تخوم الموتى وتخوم الأحياء ، حتى هذا

البصيص أطفأه نجيب محفوظ حين جعل المومس نور تختفي فجأة لا أحد يعرف كيف ولماذا ، ولكن نرجح بسبب مهنتها وهي الدعارة أنها وقعت في أيدي رجال البوليس . اختفت في اللحظة التي كان فيها اللص المطارد أحوج ما يكون لا أقول إلى يد منقذة أو قبلة حانية ولكن إلى أربعة جدران يحتمى فيها ولقمة عيش يتبلغ بها بعيداً عن عيون مطارديه . فهل رأيت تشاوماً أكثر من هذا التشاؤم الذي تفصح عنه قصة « اللص والكلاب » ؟ أنا مارأيت تشاوماً من هذا التشاؤم إلا في قصص دوستوفسكى وبلزاك ، ولا تستكثر على نجيب محفوظ صحبته دوستوفسكى وبلزاك فهو أخ لها صغيرهما مختلف عنهما في منهج فنه وفي صورة فنه .

وهل رأيت تشاوماً أكثر من هذه الصورة التي رسمها نجيب محفوظ للصومس أشباح وكلاب أشباح يطارد بعضهم بعضاً بين القبور . فكأنما القرافة في نجيب محفوظ هي رمز الدنيا كلها ، ولا أقول رمز القاهرة وحدها أو هي الأرض الخراب التي حدثنا عنها الشعراء في شعرهم الحزين ، وكأنما البشر من الفصيلتين يعيشون في مأساة طراد خائب من الجانبين ساحة ليست عالم النور ولا عالم الظلمات ولكن تلك التخوم التي يلتقي فيها الموت بالحياة لحظة ثم يشمل الكون كله ظلام ساكن عميق .

عن كتاب « دراسات في الأدب والنقد »

القاهرة ١٩٦٤

اللص والكلاب بين الفن والواقع (*)

- ١ -

د . فاطمة موسى

منذ نشر نجيب محفوظ الجزء الأخير من ثلاثيته العظيمة عام ١٩٥٧ تكهن المتكهنون بأنه سينقطع حتماً عن كتابة الرواية ، فلم يعد في إمكانه أن يسير بتاريخ أسرة بين القصرين إلى أقرب مما سار في السكرية لأن أحداث السنوات الأخيرة ألصق بحياتنا من أن تصلح مادة لقصة في مستوى الثلاثية ويسألون كيف يتسنى للكاتب أن يضع هذه الأحداث على مبعدة منه وينظر إليها من كل جانب بدون أن تطرف له عين وهو الذي يعيش في قلبها ؟ ومن قائل إن نجيب محفوظ قد أفرغ ما في جعبته ، عن مجتمع اليوم . وقد توجهت جهوده بنيله جائزة الدولة ، وأنه متجه إلى التصوف والتعبير الرمزي ، وكأن فناناً حساساً كنجب محفوظ يمكن أن تفرغ جعبته في يوم من الأيام ! .

ومنذ أيام طلع علينا نجيب محفوظ بقصة جديدة هي اللص والكلاب يدرك من يقرأها منذ الوهلة الأولى أنه قادر على تجديد نفسه دائماً وأنه (بلغة الدعاية لنجوم السينما) ، قد تفوق على نفسه فعلاً وفتح فتحاً جديداً في تاريخ الرواية العربية .

فاللص والكلاب شاهد على قدرة الفنان الكبير - حتى بعد وصوله إلى القمة - على أن يطرح عنه أسلوباً قديماً بالياً ويتخذ لنفسه أسلوباً جديداً في التعبير أشد تركيزاً وقصداً ، وهو لذلك أرقى فناً لأن النجاح فيه أبعد منالاً من أسلوبه القديم . ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في التكنيك الجديد الذي اتبعه نجيب محفوظ في هذه القصة . ولذلك نكتفي بمناقشة وجه واحد من أوجه هذا التكنيك أو قل مستلزماته - وهو علاقة القصة بالواقع .

ومن الواضح أن الكاتب استوحى قصته من حادث « سفاح الإسكندرية » محمود أمين سليمان الذي شغل الأذهان يوماً وأقام الدنيا وأقعدها ، وجعلت منه تهويلات الصحافة بطلاً وصورته عموماً في صورة الإنسان الخارق القادر على كل شيء ، ثم كانت نهايته بواسطة الكلاب البوليسية التي اقتفت أثره - أو رائحته - حتى فر إلى كهف في الجبل

(*) أخبار اليوم : ٧ فبراير ١٩٦٢

كما تفر الضواري أمام كلاب الصيد .

وعندما أقول استوحى فإنما أعني أن الكاتب قد اهتز لحادث هذا السفاح كما اهتز له غيره من المواطنين . ولكنه - كفنان - ترجم انفعاله هذا إلى عمل فني رائع له صفة العموم والدوام . وترجع قيمة العمل الفنية إلى أن الكاتب وإن استوحى موضوعه من الواقع ، لم يجعل من قلمه عبدا لكل ما يتضمنه الواقع من تفاصيل لا معنى لها ولا قيمة ، بل فرض رؤياه على هذا الواقع ، وعلى أساس هذه الرؤيا انتخب من التفاصيل الكثيرة المتناثرة ما يخدم موضوعه حقا ، كما أضاف إليها من عنده ما يجعل لأجزاء العمل الفني معنى مترابطا ومغزى ذا قيمة إنسانية .

ورؤيا الفنان وليدة حياته وثقافته ومزاجه ونوع حساسيته لما يقع حوله من أحداث ، وليس من شأننا أن نتبع مصادر هذه الرؤيا (وقد يكون هذا من شأن عالم النفس لكنه لا يهتم المتذوق في شيء) إنما يكفيننا من الفنان أن تكون رؤياه واضحة عميقة موحدة لا يفسدها شك أو تذبذب . وليس من السهل أن يشرح الناقد رؤيا الفنان ، ولا يسعه إلا أن يقول للقارئ : هاك القصة . فاقراها بتعمق (الناشر مكتبة مصر بالفجالة . الثمن ١٥ قرشاً) على أنه يمكننا - مع الإيجاز المخل - أن نلخصها في أن اللص قد نصب نفسه قاضيا وجلادا موكلًا بإنزال القصاص بالكلاب ، والكلاب من خانوا ثقته ومودته ويمضى عاصفا بطارد هؤلاء الكلاب ، ولكن رصاصاته تطيش فلا تصيب منهم مقتلا بل تصرع الأبرياء بلاذنب جنوه لأنه هو ليس بطلا حقا كما ظن نفسه ، ولكنه لص وبهلوان . وتقلب الآية فإذا به هو المطارد ، تجد في أثره الكلاب حقيقة لا مجازا ، كلاب البوليس إلى أن يصرعه البوليس برصاصه .

ولعل المقارنة بين سفاح الإسكندرية وسعيد مهران بطل هذه القصة تفيدنا كثيرا في كشف مدى تأثير الكاتب بالحادثة الواقعية وتحرره منها من ناحية أخرى ، فبين اللصين ملامح شبه كثيرة ، ولكنها جميعا لا تتعدى السطح إلى أعماق الشخصية ودوافع السلوك . ويشترك اللصان في الضجة التي أثارها كل منهما ، وإن كان الكاتب لم يركز أضواءه على هذه الضجة ، بل اقتصر على تصويرها من خلال أثرها على اللص نفسه إذ ملأته بغرور لا يخلو من شعور بالمرارة .

وكلا اللصين زلت قدمه قبل النهاية فأنسى جزءا من ملابسه مكن منه أنوف الكلاب - وإن لقي سعيد مهران حتفه لا في كهف في الجبل بل بين القبور التي تقف دائما في القصة على مرمى بصره .. ومرمى بصر القارئ - لتذكره دائما أن الجميع مآلهم إليها ، الفريسة

ومطاردها ، ومن قتل ظلماً ومن قتل عدلاً كلهم سائرون إلى القبر حتماً .
ويكاد الشبه بين اللصين يقف عند هذا الحد : فشخصية السفاح في الواقع كانت تافهة لا معنى لها ولا قيمة ، لمع صاحبها يوماً ثم انطفأ وزال أثره من الوجود ، وقد يصلح بطلا لقصة بوليسية أو لفلم من أفلام الرعب والمطاردة ولكنه لا يصلح بطلا لعمل فني بالمعنى الدقيق ، كانت تسيطر عليه فكرة أن زوجته تخونه وقد وجب عليها القصاص ، ولعل في هذا سر عطف الكثيرين عليه في حينه وليس بيننا من يستطيع الجزم بأنه كان وإهما أو كان على حق . فجعل نجيب محفوظ الحيانة في حالة سعيد مهران حقيقة واقعة ، فزوجته طلبت الطلاق وهو في السجن لتتزوج من صديقه وتابعه وقد استولى الإثنان على ماله وابنته ولم يعترف الصديق الغرم بأن لسعيد في ذمته شيئاً سوى عمود من الكتب أصاب أكثرها التلف ، ولعل للزوجة والصديق وجهة نظر أخرى ولكننا لا نعرفها ولا تعيننا في شيء على أي حال ، ويشك سعيد مهران بل يقطع أنها نصبا له كمينا مع البوليس أصلاً :

« ومن وراء الظهر تبادلت الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيار الشهوة التي يحملها . كالقطة الزاحفة على بطنها في هيئة الموت نحو عصفورة مادرة . وغلبت الانتهازية الحياء والتردد فقال عايش سدره في ركن عطفة أو ربما في بيتي . سأدل البوليس عليه لتخلص منه - فسكت أم البنت . سكت اللسان الذي طالما قال لي بكل سخاء أحبك ياسيد الرجال . هكذا وجدت نفسي محصوراً في عطفة الصيرفي ولم يكن الجن نفسه يستطيع أن يحاصرني . وانهالت على اللكمات والصفعات . » .

وكان « للسفاح » صديق محام يرتعد خوفاً على حياته من انتقام المجرم ولم تكن لهذه الصداقة القديمة قيمة أو معنى أبعد من العامل الشخصي .. أما نجيب محفوظ فقد جعل العلاقة بين اللص والأستاذ رءوف علوان خريج الحقوق علاقة مريد بأستاذه ، وقد علم الطالب المثقف الفتى الفقير أن المجتمع ظالم ، ولقنه السخط على الأغنياء وعلى قيود الملكية التي يفرضونها ، حتى لقد ذهب إلى أن سرقة أموالهم عمل مشروع لو عدل الناس ما عوقب عليه الفقراء ، ولكن الأستاذ رءوف علوان قد أضحي اليوم دعامة من دعائم المجتمع ، طرح عنه عناء الجهاد وأضحى صحفياً نابهاً يقطن قصرًا فاخرًا على النيل ، ويتفضل على مريده القديم بورقتين من ذات الخمسة جنيهات ، ويردد سعيد مهران لنفسه جزعاً :

« تخلفني ثم ترد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تجسد في شخصي كي أجد نفسي

ضائعاً بلا أصل وبلا قيمة وبلا أمل ، خيانة أليمة لو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت
نفسى » .

وهكذا يتسع معنى الخيانة هنا ، فيشمل نوعاً أشد خطراً من الخيانة الشخصية . هو
خيانة الأستاذ لتعاليمه بعد أن أوردت هذه التعاليم تلميذه موارد التهلكة .
ويضيف الكاتب إلى شخصية المجرم تاريخاً يفسر سلوكه وإن كان لا يبرره فمن خلال
ذكريات اللص نرى لمحات من طفولته يوم كان أبوه عم مهرا ن بوابا في عمارة للطلبة ،
يصطحب ابنه أحيانا إلى حلقات الذكر عند الشيخ على الجنيدى . ونرى الطفل يرقب
الذكر بعين مبهجة وإن استغلق عليه فهم ما يدور حوله . ونراه فى صباه وقد حل محل أبيه .
ونراه وقد سرق للمرة الأولى ليدفع عن أم مريضة غائلة الموت ، ونرى رءوف علوان
الطالب الثائر وقد أنقذه من ورطته وجعل منه تلميذا له يلقنه ما يعتمل فى عقله من سخط
وثورة ، ونرقب حبه لنبوية خادم العجوز التركية وزواجه ومولد سناء ابنته ، كل هذا فى
لمحات تومض فى عقل البطل أحيانا ويجمعها القارئ بنفسه ليكون منها صورة عن حياة
اللس الماضىة ، ولست أعنى بهذا أن الكاتب يستدر عطف القارئ على بطله ، فسعيد
مهرا ن شخصية كريمة قد نفهمها جيدا ونذكر البواعث والدوافع التى أدت بها إلى ما
وصلت إليه ولكنها لا تستدر العطف . فقد خلا تصوير الكاتب لشخصية البطل من أى أثر
لعاطفة رخيصة أو فكرة مبتذلة إذ أبرز كل ما فيه من قبح وغرور واستهانة بالآخرين . هو
يكره الكلاب ولكنه هو نفسه كلب أو بينه وبين الكلب سبب وشبه كبير ، فهو حاد
الحواس سريع الحركة يتقض فى خفة ولكن نباحه و « عضته » تضع كلها هباء ، ولعل
هذا الشبه هو ما دعا صاحبه نور إلى حبه والتعلق به إلى هذه الدرجة ، لأنها على حد قولها
تحب الكلاب ولم يخل بيتها منها يوما ، وقد أكد الكاتب هذا التشابه الدقيق بصورة
محسوسة لا أظنه أوردها عفوا :

« وقرصه الجوع رغم قلقه وأفكاره ، فذهب إلى المطبخ فوجد فى الصحاف كسراً من
الخبز وفتات لحم عالقة بالعظام وبعضا من البقدونس فألقى عليها فى نهم شديد وتمصص
العظام ككلب » .

ولكن سعيد مهرا ن لا يعرف نفسه فهو أعمى جزئيا كأبطال المآسى فى كل العصور ، إنه
يظن نفسه عصفورة سادرة ويأخذ الغرور فيقول « قلبى لا يكذبنى أبدا » ولكن قلبه يكذبه
مرارا وتكرارا ومأساته ليست فى أنه ملق فى وحدة مظلمة بلا نصير رغم تأييد الملايين كما
خيل له غروره ، بل مأساته الحقيقية فى أنه ظن أن بإمكانه أن يحقق فردوسا من الوفاء

والصدق والعلاقات الإنسانية الصافية الشريفة وسط جحيم السرقة والقتل الذى يجيا فيه
لامقتنعا بل متفانيا ، وهو إذ فقد جنته تلك الزائفة يرعد مطالبا بالقصاص ولكن أعداءه
أشد منه مكرًا لأن أعينهم لم تضللها يوما غشاوة أو زيف وقد عرف الماكرون كيف يحتمون
من بطشه تحت جناح القانون .

وترتفع الغشاوة عن عينيه فى لحظة قبيل النهاية فيعرف نفسه حقًا : إنه بهلوان لا أكثر ،
كما يعرف مصير ابنته ، إن مستقبلها فى مهنة نور صائدة الرجال ولكنه لا يسلم ... إلا
للموت .

وفى قصة « السفاح » الواقعية من الحوادث المثيرة ما كان كفيلا بإغراء قصاص قد
لا يرقى إلى مستوى نجيب محفوظ ، وفيها من التفاصيل ما كان كفيلا ، بإغراء نجيب محفوظ
نفسه أيام ولعه بالتفاصيل المسهبة ، ولكنه اليوم يتقى من هذا الواقع بميزان دقيق ، يأخذ
ما يخدم شخصية بطله وموضوع قصته وأما ما زاد على ذلك فيطرحه عنه بحزم الفنان الذى
يعرف أصول اللعبة فيطبقها بحذق وصرامة . وفى هذا مثال طيب للمفهوم الصحيح
للواقعية فى الأدب ، فنطق العمل الفنى الصادق أهم من منطق الواقع الجزئى ، وما ينفع
الفن يبقى على الأرض فى تراث الإنسانية جيلا بعد جيل .

٢ - (*)

« .. وتتابع الغناء حتى صفقت اليد داعية إلى الذكر من جديد ، فتردد اسم الله بغير
انقطاع .. واستسلم للسمع ، وزحف الليل ، ثم ركضت الذكريات كالسحب . تمايل عم
مهران الأب مع الذاكرين وجلس الغلام عند النخلة يراقب المشهد بعينين مشدوهتين
وانبثقت من الظلمات أخيلة عن الخلود فى كنف الرحمن وومضت آمال باهرة نافضة عنها
تراب النسيان . تحت النخلة الوحيدة بشارع المديرية نلت همسات ندية كأفراح الفجر ...
وتكلمت سناء الصغيرة فى حضنه بلغة فطرية ساحرة .. ثم هبت أنفاس متقدة من أعماق
الجحيم توالى بعدها الضربات .. وامتدت أنغام المنشد وآهات الذاكرين ومتى يؤمل
راحة ، وضاع الزمان ولم أفر ، والقضاء ورأى . وهذا المسدس المتوثب فى جيبى له شأن .
لابد أن ينتصر على الغدر والفساد . ولأول مرة سيطارد اللص الكلاب » .
وقد طارد اللص الكلاب حتى تقطعت منه الأنفاس ، فلم ينل منها مقتلا بل طاشت

رصاصات « المسدس المتوثب في جيبه » فتلطخت يدها بدماء الأبرياء ، وهبت من حوله كلاب أخرى - حقيقة هذه المرة هي كلاب البوليس - فتكاثرت عليه وطارده ثم أهدقت به وضيقته عليه الخناق حتى سقط صريعاً برصاص البوليس - هناك في قراقة باب النصر .

* * *

لقد عرفنا نجيب محفوظ في إنتاجه السابق كاتباً بانوراً مياً ينهج نهج كبار القصاصين الأوربيين في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن العشرين ، فيسهب في تفصيل موضوعه ، فلا يدع ركناً منه أو حاشية إلا وملأها بتفصيلات دقيقة مساهمة منه في « إكمال الصورة » ، وجعلها أقرب ماتكون للواقع ، ولكن هيات أن يصل الفنان يوماً إلى محاكاة الواقع بخدافيره وإن أسهب ودقق مافي وسعه ، وقد أدرك كتاب القصة في أوروبا هذه الحقيقة بعد قرابة قرنين من مولد هذا الفن في آدابهم ، فأعرضوا نهائياً عن المذهب الطبيعي في القصة - أي محاولة نقل الواقع بكل تفاصيله - وسلكوا بهذا الفن دروباً شائقة من التجديد والتجريب لم تكن تخطر لسابقهم على بال .

وقد درج كتاب القصة عندنا على اتباع المذهب الطبيعي منذ نشأة هذا الفن في العربية ، وليس هذا بمستغرب ورواد القصة الأوائل مازالوا أحياء بين ظهرانينا نتمنى لهم مديد العمر وغزير الإنتاج ، وقد برز في هذا الميدان ابن من أبنائهم وضعه الجميع على رأس الجيل الثاني من كتاب القصة هو نجيب محفوظ ، وقد اشتد ساعده حتى فاق عدداً من معلميه ، ولكنه برغم عبقرية القصصية الفذة لم يلحق بركب الرواية العالمية الحديثة التي تخلصت تماماً من المذهب الطبيعي وكثيراً ما تساءل المعجبون به فيما بينهم قائلين : ماذا بعد الثلاثية ؟

وفي الصيف الماضي تلاحقت أنفاسنا ونحن نرقب ركضه على صفحات أهرام الجمعة أسبوعاً بعد أسبوع في حلقات اللص والكلاب ، فإذا به بقفزة واحدة قد لحق الركب العالمي ، ووجد لنفسه مكاناً مرموقاً في صفوفه ، كقصاص حديث معاصريته حقا إلى النصف الثاني من القرن العشرين ، ويحذق استخدام الأدوات الفنية الجديدة التي تفرضها تلك الطفرة من التقدم التكنيكي الذي شمل جميع مجالات النشاط الإنساني وليس أقلها الأدب والفن .

واللص والكلاب تمثل حقا نقطة تحول في أسلوب نجيب محفوظ في معالجة فنه ، وقد استخدم فيها أرقى وأعقد الأدوات الفنية التي في متناول فنان الكلمة كالرمز والاستعارة

مثلاً . فلا يملك الناقد إلا أن يضعها في مستوى يعلو على أعمال الكاتب السابقة . ولعل التركيز الشديد أول سمة تلفت نظر القارئ لهذه الرواية ، فالكاتب قد طرح عنه ما قد يشتت انتباه القارئ من تفصيلات جزئية ، وهو يغوص إلى لب الموضوع ويسبر أعماقه بدلاً من أن يحيط بجواشيه البعيدة كدأبه قبل ذلك .

وسنقتصر اليوم على بيان أولى مقومات هذا التركيز من اختيار الكاتب لوسيلة السرد التي اتبعها في رواية القصة ، والزاوية التي يقف فيها تجاه الأحداث .

يستخدم نجيب محفوظ طريقة الراوى الذى يتحدث بضمير الغائب ولكنه يروى الأحداث من وجهة نظر الشخصية الرئيسية أو البطل إذا شئت ، وهو بهذا يضرب عصافورين بحجر واحد ، فيضمن قدراً كبيراً من الموضوعية يكفله السرد بضمير الغائب . وفى نفس الوقت ينقل القارئ إلى قلب الأحداث مباشرة ويكشف له عن عقل البطل ومشاعره فيحيهاها القارئ بدلاً من أن يسمع خبرها .

« قصد من توه المصعد فوقف بين قوم بدا فيهم غريب المنظر بيدلته الزرقاء وحنائه المطاط ، وزاد من غرابته نظرتة الحادة الجريئة وأنفه الأقى الطويل . ولمح بين الواقفين فتاة فلعن في سره نبوية وعليش وتوعدهما بالويل ... وما إن انتهى إلى طرقة الدور الرابع حتى مرق إلى حجرة السكرتير قبل أن يتمكن الساعى من اعتراضه ، وجد نفسه في حجرة كبيرة مستطيلة زجاجية الجدار المطل على الطريق . وليس بها موضع لجالس وسمع السكرتير وهو يؤكد لمتحدث في التليفون أن الأستاذ رءوف مجتمع برئيس التحرير وأنه لن يعود قبل ساعتين . شعر بأنه غريب حقاً ، لكنه وقف دون مبالاة ، يحملق في الوجوه بوقاحة كأنما يتحداهم .. وقدما كان يرمق أمثالهم بعين تود ذبحهم فما حال هؤلاء اليوم ؟ أما رءوف فلن يصفو له هنا . وما هذا المكان بالملتقى المناسب للأصدقاء القدامى .. ورءوف اليوم رجل عظيم فيما يبدو . عظيم جداً كهذه الحجرة . ولم يكن فيما مضى إلا محرراً بمجلة النذير ، مجلة متزوية بشارع محمد على ولكنها كانت صوتاً مدوياً للحرية . ترى كيف أنت اليوم يا رءوف ؟ هل تغير مثلك يا نبوية ؟ هل ينكرنى مثلك يا سناء ؟ ولكن بعداً لأفكار السوء . هو الصديق والأستاذ ، وسيف الحرية المسلول ، وسيظل كذلك رغم العظمة الخفية والمقالات الغريبة وسكرتاريته الرفيعة . وإذا كانت هذه القلعة لن تمكنى من عناقل فمن دفتر التليفون سأعرف مسكنك .. » ص ٣٤ - ٣٥ .

ويتضح لنا من هذا المثال كيف يستخدم الكاتب السرد بضمير الغائب ليعطينا صورة موضوعية محسوسة عن الشخصية ومظهرها وما يحيط بها في العالم الخارجى ، وبعد أن

يطمئن إلى تثبيت الصورة المحسوسة في أذهاننا ينتقل بنا انتقالا هينا إلى عقل البطل لنطلع على أفكاره بدون تدخل منه أو تقديم كأن يقول مثلا « ظن » أو « فكر » أو « قال » . وقد سبق أن وقف الكاتب هذا الموقف كراو في قصر الشوق وغيرها من قصصه السابقة ولكنه كان ينتقل بعد انتهاء المنظر إلى مكان آخر ليقص علينا خبر شخصيات أخرى في القصة .

أما في اللص والكلاب فهو دائما ملاصق للبطل لا يرى إلا ماترى عيناه ولا يعرف إلا مايعرفه سعيد مهران ، وهذه الزاوية تضيق بطبيعة الحال مدى بصره فلا نعرف شيئا عن رءوف علوان بعد أن يغادر اللص مسكنه ولا ندرى أين هربت نبوية ولا لماذا اختفت نور ، وكأنا الكاتب يفهمنا بوضوح أن موضوعنا ليس رءوفا ولا نبوية ولا نور ولكنه سعيد مهران ، ولا يهمننا الآخرون إلا بقدر تأثيرهم في وعيه .

وفي مقابل هذا التضيق في مدى البصر رأينا كيف يكشف لنا الكاتب عن عقل البطل ، فلا نكتفى بأن نرى بعينه بل نفكر بعقله أيضا ونحيا في خضم تيار الشعور عنده . وأفكار البطل وحواسه هي وسيلتنا في الوصول إلى البعيد في الزمان والبعيد في المكان ، فكأنما الكاتب قد ألزم نفسه بنوع جديد من قوانين الوحدة في العمل الفني ، ليست دون قوانين أرسطو صرامة وإن اختلفت عنها بما يتفق وفق الرواية الحديثة .

الأشياء والأحداث تثير في نفس سعيد مهران ذكريات من الماضي ، ومن خلال هذه الذكريات نعرف تاريخه وكل ما يهمننا عن علاقاته التي جعلت منه اليوم لصا أو بالأحرى لصا ذا فلسفة ، تتوق نفسه إلى الانتقام من أقرب الناس إليه لأنهم خانوه ، والكاتب يتيح لنا أن نعرف هذا الماضي على دفعات فكل لحظة منه تأتينا في حينها ، تبعا للقوانين السيكلوجية التي تحكم عملية المعاني ، فالذكرى الحامدة في زوايا النسيان يثيرها من مكنها ما يماثلها أو ما يضادها من معطيات الحواس .

« وغنى في صوت لا حلاوة فيه البخت والقسمة فين كما ضبطه أبوه وهو يغنى حزر فزر فلكم برحمة وقال له : أهذه أغنية مناسبة ونحن في الطريق إلى الشيخ المبارك ؟ وترنح الأب وسط الذكر ، غابت عيناه ، بع صوته ، تصبب عرقا . وجلس هو عند النخلة يشاهد صفي المريدين تحت ضوء الفانوس ويقضم دومة وينعم بسعادة عجيبة . وكان ذلك سابقا لتزول أول قطرة حارقة من شراب الحب . وأغمض الشيخ عينيه فكأنه نام . وألف هو المنظر والجو حتى البخور لم يعد يشمه .. وطرأت فكرة بأن العادة أساس الكسل والملل

والموت وهى المسئولة عما عانى من خيانة وجحود وضباع جهد العمر سدى . وتساءل ليوقظه ...» .

وهكذا يطلعنا الكاتب على الماضى من خلال الذكريات والماضى مائل دائما فى الحاضر ، وهما معا يتجهان إلى المستقبل ، والماضى موجود دائما بصورة رمزية فى القصة ، فهو المقابر التى تقف طول الوقت على مرمى بصر سعيد مهران ، يراها من خلال النافذة فى بيت نور ، ويسير بينها فى غدواته وروحاته ويلقى حتفه فى النهاية وهو معتصم بها ، ولعلها الشئ المؤكد الوحيد فى حياته بعد خروجه من السجن .

وكما يأتينا البعيد فى الزمان عن طريق ذكريات البطل ، يأتينا البعيد فى المكان عن طريق مدركات حواسه بطريقة ما ، أى من خلال ما يسمع هو أو ما يقرأ عما يحدث بعيدا عنه ، فالكاتب مثلا لا يصور الضجة التى يثيرها رصاص البطل الطائش إلا من خلال ما تكتبه الصحف ، وحتى ماتكتبه الصحف لا يأتينا بالنص ولكن من خلال وقفة فى نفس سعيد مهران وهو يقرأ الصحيفة « يا للعناوين الكبيرة السوداء . آلاف وآلاف يناقشون الساعة جرائمه .. وسئل رءوف علوان فقال ... » وتصله شذرات من حديث الناس عنه عن طريق نور وهو مختبئ فى بيتها .

– « ويتحدث عنك ناس كأنك عنتره ولكنهم لا يدرون عذابنا »

ص ١٢٦ ..

« سائق تاكسى ، دافع عنك بحجارة ولكنه قال إنك قتلت رجلا ضعيفا بريئا ... » .
ثم – « وفى العوامة التى سهرت فيها قال أحدهم عنك أنك منبه مسل فى الملل الراكد .. » ص ١٤٤ .

وهكذا نجيب محفوظ وحدة مضاعفة للعمل الفنى من خلال هذا التكنيك الجديد فى رواية القصة ، فإلى جانب وحدة الموضوع ووحدة زاوية النظر Perspicive نراه قد حقق نوعا جديدا من الوحدة فى المكان والزمان فالمكان الذى يوجد فيه البطل ، والزمان هو الزمن الحاضر الذى يحمل الماضى فى طياته ويتجه أبدا إلى المستقبل ، أى هو الديمومة التى تحدث عنها الفيلسوف الفرنسى برجسون والتى كان لمفهومها بالغ الأثر فى فن الرواية فى القرن العشرين .

عن كتاب « بين أدبين »

القاهرة ١٩٦٥

الواقعية الوجودية في « السمان والحريف »

رجاء النقاش

بعد أن أصدر نجيب محفوظ ثلاثيته « بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية » كنت من الذين يعتقدون أن نجيب محفوظ انتهى وأدى رسالته ، ولست أدري بالضبط من أين جاءني هذا الاعتقاد ، ولكنه على أى حال كان اعتقاداً يعيش في حياتنا الأدبية كما تعيش « الإشاعة القوية » .. بل مازال هناك من يقول بهذا الرأي إلى الآن . أما أنا فقد تغير هذا الاعتقاد في نفسى منذ أن بدأت أتابع إنتاج نجيب محفوظ بعد الثلاثية ، لقد أدركت أن شيئاً جديداً يولد في قلب هذا الفنان وعقله ، وأن هذا الشيء آخذ في الظهور يوماً بعد يوم في أدبه . ولم يكن هذا الشيء الجديد واضحاً أمامى عندما قرأت روايته « اللص والكلاب » ولكنه ازداد وضوحاً ودقة بعد أن قرأت روايته التالية « السمان والحريف » . لقد تطور نجيب محفوظ في أسلوبه وتطور في نظرته إلى الحياة وموقفه منها . ولم تعد الكلمات عنده تحمل معنى واحداً محددًا كما كان الأمر في إنتاجه القديم . بل أصبحت كلماته تعكس كثيراً من المعاني في النفس ، كأنها كلمات شعرية مليئة بالظلال والإيحاءات ، وذلك كله على عكس أسلوبه القديم الذى كان في معظمه أسلوباً تقريرياً خالياً - على التقريب - من روح الشعر .

على أنى أود أن أتناول هنا نقطة رئيسية في تطور نجيب محفوظ ، راجياً أن تكون مظاهر التطور الأخرى مجالاً للدراسات التالية .

هذه النقطة الرئيسية هي أن نجيب محفوظ قد انتقل من التزعة الطبيعية التي سيطرت على إنتاجه حتى الثلاثية إلى شيء جديد لا أجد اصطلاحاً نقدياً ينطبق عليه بدقة ، ولكننى سأسمح لنفسي بأن أسميه باسم « الواقعية الوجودية » وهذا التطور من الناحية الفنية قد حمل معه تطوراً آخر يسير إلى جانبه وينبع منه . فقد انتقل نجيب محفوظ من « المحلية » وبدأ بخطوات أولى في طريق المشكلة الإنسانية العامة وبعبارة أخرى بدأ يسير في طريق « التزعة العالمية » .

ولنقف قليلا لتأمل بوضوح أكثر معنى هذا التطور . فالمرحلة الأولى في أدب نجيب محفوظ - والتي انتهت بظهور الثلاثية - هي المرحلة التي التزم فيها نجيب الاتجاه الطبيعي ، كان نجيب - في هذه المرحلة - يرسم أبطاله رسما تفصيليا لا يترك كبيرة ولا صغيرة تتصل بهم دون أن يسجلها . كان يرسمهم من الخارج . ويكاد يحدد طول الشخص ووزنه وتركيبه العضوي الدقيق ، وهو بعد ذلك يرسمهم من الداخل فيحدد تركيبهم النفسي . كأنه في أحد المعامل الكيميائية يحلل المواد إلى أصولها الأولية ، ويحدد نسب العناصر المشتركة في تركيب هذه المواد .

وكان نجيب محفوظ بلا شك تلميذاً نابغا من تلاميذ المدرسة الطبيعية ، وهو يذكرنا بأدباء هذه المدرسة المعروفين مثل « فلوير » الذي قرأ في المكتبة الوطنية بباريس ألفي كتاب لكي يدرس البيئة الاجتماعية والجغرافية لأحد أعماله الروائية . ومثل « اميل زولا » الذي كان يحمل دفترا كبيرا يدون فيه ملاحظاته ، وكان يقضى أسابيع طويلة متجولا بين المحلات التجارية والمصانع المختلفة لكي يجد نماذج لقصصه ويجمع الحوادث لهذه القصص ومثل بلزاك الذي كان يستأجر أسرة كاملة بإيجار شهري ليعيش بينها ويدرس على الطبيعة البيئة والشخصيات التي رسمها في روايته « الأب جوريو » .

ونحن لا نعرف - حتى الآن - كيف كان نجيب محفوظ يختار أبطاله ، فليس لدينا أي معلومات واضحة عن هذا الجانب الهام من شخصية نجيب محفوظ الفنية ، لا نعرف إذا كان يستوحى نماذجه من أبطال واقعيين يعيش معهم حياة مباشرة ويعاشرهم معاشرة دقيقة ، أم أنه كان يستوحى صورة هذه النماذج من تجاربه وذاكرته حيث كان يجد البذور الأولى للشخصية ثم يبنى عليها من خياله الفني الخصب بعد ذلك ما يريد من تصورات مختلفة ، لا أحد يعرف بالضبط هل كان نجيب يحمل « دفتر » مثل زولا ، أو كان يقرأ كتباً عن بيئاته التي يصورها كما كان يفعل فلوير ، أو كان يستأجر أسرة مثلاً كان يفعل بلزاك . هذه كلها أشياء غامضة نرجو أن توضحها لنا أبحاث من هذا النوع في المستقبل ولكن الذي نعرفه بوضوح هو أن النتيجة التي وصل إليها نجيب محفوظ هي نفس النتيجة التي وصل إليها الطبيعيون .. فالشخصيات والبيئات التي صورها في مرحلته التي انتهت بالثلاثية نجد نجيب يلتزم في تصويرها أسلوب المدرسة الطبيعية التي تقوم على أساس من الدراسة الواسعة الدقيقة والمعرفة الشاملة بأدق التفاصيل .

هذا الأديب الطبيعي الذي يعنى بالتفاصيل كل هذه العناية « حمل عصاه ورحل » بعد الثلاثية ، وبدأ يسير في طريق يتعد عن أسلوبه الفني القديم .

ففي رواية « السمان والحريف » نجد شخصيات يرسمها نجيب محفوظ رسماً عابراً دون أن يهتم بالتفاصيل والجزيئات ، فزوجة عيسى بطل الرواية لا تستغرق من اهتمامه أكثر من بضع صفحات . ولو أن هذه الشخصية النسائية ، الثرية ، العاقر ، نصف المثقفة ، التي تزوجت أكثر من مرة .. لو أن هذه الشخصية وقعت في يد نجيب محفوظ أيام كان يكتب « زقاق المدق » أو « بداية ونهاية » لتفنن في عرضها وتقديمها ومتابعتها في كل تفاصيل حياتها اليومية الدقيقة وفي أحوالها النفسية المختلفة وطريقة اجتذابها للرجال وتعويض ما لديها من نقص ولكن نجيب في « السمان والحريف » وقد مر على هذه التفاصيل كلها مرة سريعاً بحيث أنك تخرج من الرواية وقد نسيت كل شيء عنها ، ما عدا أنها تمثل فرصة من فرص بطل الرواية للتغلب على أزمته .

وهكذا ينتقل نجيب من التزعة الطبيعية ويتعد عنها ، وهو في الوقت نفسه ينتقل من الاهتمام بالتفاصيل إلى الاهتمام بالمشاكل الكلية العامة . ويتحول من ذلك الفنان الذي كان همه أن يعطينا أدق صورة للبيئة المحلية التي نعيش فيها ، إلى فنان يعرض ويناقش مشكلة إنسانية عامة . تعنى البيئة المحلية كما تعنى البيئة الإنسانية كلها . وهذا هو ما أعنيه بانتقال نجيب محفوظ من المحلية إلى العالمية في الوقت الذي ترك فيه مذهب الطبيعيين وبدأ يبحث لنفسه عن عالم جديد مختلف .

فالمشكلة التي يعالجها في « السمان والحريف » لها شكلها المحلي الخاص .. ولكن هذا الشكل لا يعدو أن يكون طلاء خارجياً لمشكلة إنسانية عميقة تهز عصرنا كله ، تلك هي مشكلة الإحساس بالغربة أو عدم الانتماء أو الإحساس بأن الإنسان ضائع مطرود من هذا العالم .

إن الصورة المحلية للقصة هي « أزمة عيسى » الحزبي القديم الذي تلوث ولم يستطع أن يتلاءم مع العالم الجديد لأنه من « الجيل الزائل » ... ولكن هذه الصورة تخفي وراءها الجانب الشامل للإنساني العام .

فبطل القصة يعاني مأساة السقوط والخطيئة . لقد أخطأ فسقط ، كما أخطأ آدم وسقط من الجنة ، وأصبح عليه إن يلتمس طريقاً للخلاص من خطيئته ولو من خلال الألم والعذاب . إن بطل القصة قد أخطأ خطيئته الكبرى وفقد بساطته وطهارته ، وهو يقول عن نفسه وحزبه :

« كنا حزب المثل الأعلى ، حزب التضحية والفداء ، حزب النزاهة المطلقة ، حزب : كلا ثم كلا أمام المغريات والتهديدات .. فكيف أدركت روحنا الطاهرة الشيخوخة ، كيف

تدهورنا رويدا رويدا حتى فقدنا جميل مزايانا ؟ ها نحن نقرب أيدينا في الظلام ، يملأنا الشجن والشعور بالإثم فوا حسرتاه .

فالقصة في حقيقتها قصة الإنسان الذي أكل من التفاحة المحرمة ، قصة الإنسان الضائع الذي وقع في الخطيئة وأسلمته الخطيئة لعذاب كبير ، فقد خرج من جنته السعيدة التي ظنها دائمة أبدية خالدة .. خرج إلى حياة أخرى أصبح فيها منفيا زائدا عن الحاجة ، لا دور له .. يقول عيسى عن نفسه وعن زملائه :

« مع أى عمل ستخذه .. منظل بلا عمل ، لأننا بلا دور ، وهذا هو سر إحساننا بالنبي كالزائدة الدودية » .

ولذلك فهو يحلم بالهجرة ، إنه يريد أن يترك منفاه إلى عالم آخر . لعله يجد له دوراً في الحياة . لعله يتمنى إلى شيء ، وتطمئن روحه ، ويتخلص من « موت الأحياء » الذي هو أفظع ألف مرة من « موت الأموات » .. وهو يصارع نفسه بالحنين إلى الهجرة التي ترمز رمزاً قوياً إلى الرغبة في الخلاص من المأساة التي يعيش فيها :

« تمنى يوما لو كان للمصريين - كما لغيرهم - جالية في أمريكا الجنوبية ليهاجر إليها .. وقال ساخطاً إن المصريين زواحف لا طيور .. وراوده حلم بتغيير جذرى في حياته .. ولكنه لم يكن يفعل سوى العبث » .

هذه هي المأساة الوجودية التي يعيش فيها البطل ، أو هذا هو جوهرها : الغربة والضيايق والانفصال عن الواقع والرغبة في الهجرة من « هذا الواقع » الذي أصبح منقياً للإنسان .

على أن نجيب محفوظ لا يقف على سطح هذه المأساة الوجودية ، بل يندفع إلى أعماقها ويصورها تصويراً مثيراً في عدد آخر من المواقف .. على رأسها موقفان عنيفان يؤكدان المعنى الوجودى لهذه المأساة .

أما الموقف الأول فيتضح أمامنا عندما يصرخ البطل في داخله ، ومن خلال مرارة الشعور بالوحدة .. قائلاً لنفسه « ما أحوجنى إلى مسكن » .. إنه الشعور بالحاجة إلى « الانتماء » ، بالحاجة إلى التخلص من « العراء الروحى » ، هذا العراء القاسى الألم الذي يعانيه الإنسان عندما لا يكون له في الحياة فكرة أو هدف أو دور يقوم به عن وعى واقتناع .. عندما لا يكون متمسكاً إلى شيء ما .. عندما تصبح حياته مجرد انتظار للموت . ومن الحقائق ذات الدلالة العميقة أن الشعور بالحاجة إلى مسكن عند بطل « السمان والحريف » هو نفسه الشعور بالحاجة « إلى المسكن » عند بطل قصة « اللص والكلاب »

فيعسى بطل « السمان والحريف » وسعيد مهران بطل « اللص والكلاب » يبحثان عن مسكن ، ويشعران بأنها ضائعان حقاً مادام لا يجدان هذا المسكن .. ألا يوحى إلينا هذا الموقف إيجاء واضحاً بأن نجيب محفوظ إنما يرمز بالمسكن إلى حاجة الإنسان إلى هدف يطمئن إليه ، وقاعدة - في حياته الروحية - يستند عليها ، إن المسكن المفقود في الروايتين هو رمز الأزمة التي يعانيها الإنسان الوحيد .. اللامتمنى .

أما الموقف الآخر الذي يكشف لنا عن أزمة الإنسان في صورتها الجديدة كما يتصورها نجيب محفوظ فهو أن ابنة « عيسى » بطل « السمان والحريف » تنكره ولا تعرفه ، وهذه هي نفسها الأزمة التي عاشها من قبل سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » فابنته - أيضاً - تنكره ولا تعرفه - بل وتخاف منه .

ويمكننا أن نتأمل هذا الموقف المفرع طويلاً .. فما معنى هذه الصورة التي تلح على وجدان نجيب محفوظ .. صورة إنكار الابنة للأب ، ولماذا تكررت في روايتين متتابعتين ؟ . إن هذه الصورة - في اعتقادي - ترمز إلى شيء كبير يعيش في وجدان هذا الفنان .. إنها يمكن أن تدلنا على أن جانباً من مأساة الإنسان في نظر هذا الفنان هو أن الأسرة قد تفككت حتى أنكرت الابنة أباه .. وأن المأساة الإنسانية المعاصرة أشبه بالصورة الدينية ليوم القيامة . حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، إن الإنسان قد أصبح وحيداً ، لا يجد الدفء حتى في أسرته ، إنه منفى حتى من الأسرة ، كما نفى الإنسان الأول من جنته . وهذا المعنى الإنساني الكبير ليس هو المعنى الوحيد الذي تحتمله هذه الصورة المفرعة ، فهناك معنى آخر كثيراً ما نقرأه بين السطور في أعمال نجيب محفوظ الأخيرة ، بل إن هذا المعنى بالذات له جذور في أعماله الأولى ، ذلك هو أن التطور - رغم أنه حركة إنسانية - كثيراً ما يحمل في طريقه آلاماً عنيفة ، فإنكار الابنة للأب يمكن أن يكون تعبيراً عن آلام التطور ومآسيه . حيث ينكر الجديد القديم . وخاصة في تلك المراحل العنيفة للتغيير والتطور . والقرن العشرين من أبرز مراحل التغيير في تاريخ الإنسان ، بل يكاد نجيب محفوظ يعبر تعبيراً مباشراً عن هذا الجانب العنيف للتطور عندما يقول عن بطل السمان والحريف :

« أيقن الآن أنه قضى عليه أن يعاني التاريخ في إحدى لحظات عنفه حين ينسى وهو يشب وثبة خطيرة مخلوقاته التي يحملها فوق ظهره فلا يبالي أيها يبقى وأيها يختل توازنه فيهيى » .

هذه هي وثبة التاريخ .. وهي الوثبة التي يمكن أن تساهم في تفسير هذه الصورة التي

تعيش في وجدان نجيب محفوظ بعنف والتي صورها لنا في « اللص والكلاب » و « السمان والحريف » معاً وهي إنكار الإبنة لأبيها أو إنكار الجديد للقديم بعنف وقسوة .
ولا أعرف رمزاً أكثر عنفاً لمأساة الإنسان من هذا الرمز الذي يتجسد في صورة إنكار الإبنة لأبيها .

هكذا يرتفع نجيب محفوظ ليصور لنا مأساة إنسانية عامة تستمد جذورها من واقع مجتمعنا وظروفه . ولكنها تعلو بعد ذلك إلى مستوى الإنسان في كل مجتمع آخر... وفي هذه « المأساة الإنسانية » يقترب نجيب من التناول الوجودي لمأساة الإنسان دون أن يغرق في رمزية « الغريب » لألبير كامى مثلاً ، فهازال بين نجيب محفوظ وبين الواقع رباط قوى ، ومن هنا أعتقد أن تعبير « الواقعية الوجودية » ، هو أقرب تعبير لتصوير هذا الاتجاه عند نجيب محفوظ .

ومما يساعدنا على كشف هذا الاتجاه الوجودي عند نجيب محفوظ أيضاً أنه يستعمل التعبيرات الشائعة في الأدب الوجودي مثل « المتنى » و « العبث » والإحساس بأن الإنسان « زائد عن الحاجة في هذا العالم » وهو لا يستعملها كألفاظ عادية ، بل يستعملها بنفس العمق الذي نحسه في الأدب الوجودي الأصيل ..

على أننا نلاحظ أن نجيب محفوظ في أعماله الأخيرة يهتم بالتصوف .. ففي « اللص والكلاب » نجد الشيخ الجندى ، وفي السمان والحريف نجد « سمير » ، وكلاهما قد لجأ إلى التصوف كماوى روحى يجعل آلام الحياة ومشاكلها محتملة وسهلة ، ولم يكن نجيب من قبل يعنى بالتصوف كل هذه العناية ، مما يؤكد اتجاهه إلى الاهتمام بالمشاكل الإنسانية الكبرى . إنه يهتم بمشكلة « الإنسان والعالم » لا « الإنسان والمجتمع » فقط .
وفي السمان والحريف ربما لأول مرة في أدب نجيب محفوظ يلتقى البطل في النهاية مع صوت يدعو أن يتخلص من أزمته وورطته . وأن يحاول التغلب على جرحه وعجزه والوقوف على قدميه ، إنه صوت الأمل ، وصوت التقدم . ويحاول البطل في السطور الأخيرة أن يلحق بهذا الصوت الذى يعمل على بعثه من العدم ، وانتشاله من حفرة العجز واليأس .. ويبدو هذا الصوت كأنه حلم ، أو كأنه نوع من الإلهام الداخلى العميق .. وما كان نجيب من قبل يهتم بالأحلام وما كان يهتم بالإلهام الداخلى .

« قال عيسى للشاب المجهول :

- ألا ترى أن الدنيا كلها مملة ؟

- ليس عندى وقت للملل .

- ماذا تفعل إذن ؟.

- أعابت المتاعب التي ألفتها وأنظر إلى الأمام بوجه مبتسم رغم كل شيء حتى ظن بي البله .

- وما الذي يدعوك إلى الابتسام ؟.

فقال الشاب بلهجة أكثر جدية :

- أحلام عجيبة ، ما رأيك في أن نختار مكانا أنسب للحديث ؟.

فقال عيسى بسرعة :

- آسف الحق أني شربت كأسين ، وأرغب في الراحة .

فقال الآخر بأسف :

- أنت تود أن تجلس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول .

ولم يجب عيسى بكلمة فقام الآخر وهو يقول :

- أنت لا ترغب في حديثي فلا يجوز أن أزعجك أكثر من ذلك .

وتحول عنه ماضيا نحو المدينة .

وتابعه بعينه وهو يتبعد ، ياله من شاب غريب ؟.

ترى ماذا يفعل اليوم ؟؟ ولماذا ينظر إلى الأمام بوجه مبتسم ؟.

وظل يتابعه بعينه حتى بلغ آخر الميدان . لم يكن سيئ النية كما توهم ، ولم يقصده بسوء . فلم لم يشجعه على الحديث ؟ ألم يكن من الممكن أن يستعين به على مغالبة الملل في هذه الساعة من الليل ؟ وألم يكن من المحتمل أن يجرهما الحديث إلى شيء مشترك تطيب به السهرة ؟.

ورآه وهو يختفي متجها نحو شارع صفية زغلول .

وقال لنفسه أستطيع أن ألق به على شرط ألا أضيع ثانية في التردد .

وانتفض قائما في نشوة حماس مفاجئة . ومضى في طريق الشاب بخطى واسعة تاركا

وراء ظهره مجلسه الغارق في الوحدة والظلام .

ولعلنا نلاحظ في هذه الصورة التي يرسمها نجيب محفوظ معنى الجلوس في الظلام تحت

تمثال سعد زغلول ، فالبطل متمسك بالماضي متعلق به ، فهو وفدى في عالم لم يعد للوفد

فيه مكان ولا دور ، إن البطل يحن إلى الماضي حيث كان شيئا في الحياة وحيث كان له دور

وآمال وتطلعات ، إنه يحاول أن يتعلق بخيوط الماضي الرفيعة لعلها تعطيه من ذكرياتها بعض

الدفء وهو غارق في أزمنته . ولكنه في اللحظة الأخيرة ينتفض من مكانه ويحاول أن يتابع

الشاب المجهول ، وهذا الشاب هو مناضل يسارى .
هكذا يرتفع نجيب محفوظ من تصوير بيئة معينة إلى تصوير الإنسان من خلال هذه
البيئة ، من الجزئيات والتفاصيل إلى الأمور الكلية العامة ، من المحلية إلى الموضوعات
والقضايا العالمية ، من « الواقعية الطبيعية » إلى « الواقعية الوجودية » .
ونجيب محفوظ ينتقل إلى هذه المرحلة الجديدة وقد استعد لها استعداداً واضحاً فقد
أصبح أسلوبه مليئاً بالندى الشعري الحلو . بعد أن كان جافاً موضوعياً قاسياً . وأصبحت
كتابته ذات موسيقى داخلية تتسرب إلى روحك تسرباً عميقاً ، وتشعرك حقاً أن الفنان الذى
كان يتحدث عن الإنسان فى مصر فقط أصبح يتحدث عن الإنسان فى العالم .
عن كتاب « أدباء معاصرون »

القاهرة ١٩٦٨

ميرامار

إبراهيم فتحى

يقدم لنا « نجيب محفوظ » فى « ميرامار » قصة الخطوط الصغيرة المتعارضة الاتجاه وهى تلتقى فى بنسيون تمتلكه عجوز يونانية .

وفترة الانتقال لم يتم فيها بعد بناء البيت ، فالبنسيون يصلح إطارا مكانيا ذا فاعلية فى إبراز بعض ملامحها ، وليس رمزا خصبا للحياة الدنيا على إطلاقها ، حيث يلتقى الناس فيها زمنا على غير موعد ، ثم يمضى كل منهم إلى سبيله ، بل هو شاهد حى على أن الماضى ليس وهما من الأوهام ، لما يضمه من ذكريات تضرب فى التاريخ البعيد عند بعض نزلائه . لقد كان بنسيون العظماء والأغنياء ثم دالت دولته . إنه وصاحبته يمثلان عالما يتنمى إلى المقبرة والمتحف ، ولكنه ما يزال يتنفس ويتلکأ فى الذهاب ويسكنه الأحياء من الشيوخ والشباب .

١ - مدلولات جديدة للمكان والأشخاص :

وهذا الإطار المكاني الضيق يتسع فى مرونة ليضم نماذج مختلفة مما تحفل بها فترة الانتقال ، متعارضة المصالح والأفكار تدور بينها حرب دائمة رغم السلام الساخن الذى يرفرف على المكان . عوالم متناقضة تنام فى غرف متجاورة لتعطى صورة للحياة على الحدود ، وللذين يقطنون فى نفس الوقت قطرين متحاربين ، تيارات متناحرة بالروب دى شامبر والبيجاما بلا أسلاك شائكة تفصل بينها ، ولكل الشخصيات دلالات أكبر من الملابس التى ترتديها ، ولا يجب أن تفرغ من اللجوء إلى كلمة « رموز » فى تفسير الشخصيات ، فنجيب محفوظ يقول : « حين بدأت الأفكار والإحساس بها يشغلنى لم تعد البيئة هنا ولا الأشخاص ولا الأحداث مطلوبة لذاتها ، والشخصية صارت أقرب إلى الرمز أو النموذج ، والبيئة لم تعد تعرض بتفاصيلها بل صارت أشبه بالديكور الحديث ، والأحداث يعتمد فى اختيارها على بلورة الأفكار الرئيسية » .

والبنسيون يقع فى الإسكندرية فهل تهدف الرواية لأن تكون رباعية للإسكندرية

الحقيقية بواقعها الذى نعرفه ، ونعيش فيه ، مدينة مصرية حقا فى الستينيات ، فى مقابل رباعية الإسكندرية للكاتب الإنجليزى « لورنس دريل » والتى تموج بأنماط عجيبة من البشر لانهج بينها وجهها واحدا نتعاطف معه أو يعكس صورتنا الحقيقية ؟ لقد كان « دريل » يصور الإسكندرية المستقلة فى حلمها الأزرق كأنها إحدى الزواحف القديمة ، يغمرها الضوء البرونزى الذى تلقىه « البحيرة » . ولم تكن شوارعها عنده مقرا لتاريخ قومى أو إنسانى ، بل كانت تجسيدا لدرجات سلم بيولوجى تشكله نوازع القلب ... مباحج كليوباترا وتوهج إيمان هيباتيا تعيد تمثيلها من جديد طيور زاهية الريش ، أجناب يعيشون فى أرض أجنبية ويمارسون ألوانا من الحب الحديث . ولم تكن رباعيته رواية « عن » الإسكندرية . ورغم ما يفصل بين نجيب محفوظ و « دريل » من تباين كبير فى المنحى الفكرى والطريقة الفنية ، فإنه مثله لا يكتب روايته ميرامار عن الإسكندرية ، ولا يهدف إلى أن يحلو لنا وجهها الحقيقى . وهل كان ممكنا أن يبرز لنا ذلك الوجه والأحداث تنحصر فى بنسبون ميرامار وكازينو البجعة والبالا وملاهى شارع الكورنيش ؟ إنه لم يهدف إطلاقا إلى أن يضع قلب الإسكندرية « العاملين المنهمكين فى تصور الغد وإعادة خلق الواقع » فى مكان الصدارة من روايته ، فتزلاء البنسيون جميعا ليسوا من أبناء الإسكندرية ، وكثرتهم ليست من العاملين الذين يقصدون الإسكندرية للاستجمام ، بعد عناء المشاركة فى بناء البيت الجديد ، فأحداث القصة تدور كلها فى الإسكندرية أثناء الشهور التى تسبق الصيف . وهم رغم التعارض بينهم سكان هامش اجتماعى وسياسى ضحل يقذفه مركز جديد إلى الخارج ، ويصلح البنسيون لأن يكون قفصا « لسمان الخريف » والمضيضة فى هذا القفص ، عجوز هيلينية تصبغ شيخوختها بالذهب ، بلا أبناء نتيجة لعقم زوجها وعشاقها الكثيرين ، تؤمن بالحب وتذيقها الأغنيات العاطفية الحاملة ، وتقدم لكل نزيل يصطحب امرأة سريرا بأسعار لا تبارى ، وليست لها شروط إلا أن تكتب فى السجل فلان وحرمة ، تعلق إيمانها الدينى على السقوف العالية الموشاة بصورة الملائكة ويستقبل تمثال العذراء زوارها بمجرد أن تفتح الباب . وقد حولت شجاعته إلى ثروة حينما حولت البنسيون إلى مرقص للضباط الإنجليز والإسكندرية تضرب بالقنابل أثناء الحرب العالمية الثانية ودار الرقص فى ضوء الشموع . فهل من العدل أن تضيع ثروتها مع الاجراءات الاقتصادية فى عهد الثورة ؟ .. وماذا كانت النتيجة ؟ لقد أصبحت شوارع الإسكندرية قدرة بعد أن عادت إلى أهلها . أما هى فلا يفوتها أن توصى بغسل ملاءات السرير كل يوم بوحي ضميرها . ورسالتها الحقيقية كانت اقتناء الباشوات وعلية القوم أيام استرخائهم وفى

ساعات تبذلهم المجيدة . وأصبحت مهنتها الإضافية الآن المفاخرة بماضيها معهم . ولا تخلطها شجاعتها التقليدية في « خرائب حاضرها » فهي تصدر حركة ترقيات سريعة تضاعف بها ثروات بعض نزلاتها وتمنح أجدادهم ألقابا مجانية . ويضاف إلى فضائل ماريانا الكثيرة إحساسها المرهف بالواجب ، لن تتخلى عن « زهرة » خادماتها الجديدة الجميلة الهاربة من القرية التي يريد أهلها استعادتها مهددين . ويقترن بذلك الإحساس كراهية للزيف إما أن تظل « زهرة » شريفة وإما أن تعطى المتعة لحساب « ماريانا » فلا لعب من وراء ظهرها في الخفاء . وعلى الرغم من أن اللون الوردى لواقعها قد طغت عليه صفرة الهزال ، وأن المستقبل لا يحمل لها وعودا بشيء جميل ، فإنها تنظر إلى المسحة الارستقراطية الباهتة العالقة بجدران البنسيون المورقة ، وإلى ملاءات السرير ناصعة البياض وتقول في احتجاج : « يا أم الإله هل يرضيك أن يفرض على استقبال الصعاليك ؟ » . لقد أصبحت التجاعيد الجديدة فوق وجهها وروحها أكثر عددا من قطع الأثاث التي أضافتها ، ولم يدع أمامها الحاضر الجديد في فترة الانتقال إلا أن تقضى وقتا أطول في ذكريات فردوسها المفقود ، ذلك الفردوس الذى يشكل الجدران المتداعية لبيتها القديم ، بناء من القيم الأخلاقية وطرائق السلوك تعكس علاقات التطفل والاضمحلال .

وعلى نفس الضفة من الزمن الضائع ، وعلى كرسى وثير يستند إلى « حائط المبكى » يتربع « طلبة مرزوق » واحد من التزلاء ، لم يعد له مقام في الريف بعد أن أطاحت الثورة بفدائينه الألف والقاهرة تشعه بهوانه بعد أن كان وكيلا لوزارة الأوقاف عن أحد أحزاب السراى ، ففكر في عشيقته القديمة « ماريانا » التي فقدت زوجها الضابط البريطانى في ثورة ١٩ ، ومالها في الثورة الأخرى ، وجاء إلى البنسيون ليعزفا لحنا واحدا . إنه قطعة من القرون الوسطى أفلتت من بين الأصابع الضعيفة لثورة ١٩ ، يرى في طرف الحبل المشدود حول عنقه طيف « سعد زغلول » الذى بذر في رأيه « البذرة الخبيثة » التى نمت كالسرطان وقضت على عالمه وجعلت الحاضر مقبرة غير مريحة ، وهذه البذرة عنده هى تملق الجماهير وحينما ينظر إلى واقعنا بعين حيوان منقرض يقدم شهادته عن الفترة الثورية التى نعيشها في صورة حشرة . تند عن شيخوخة آفلة ، الماضى « المتسق المحكم المجيد » يرثى مصرعه في تعقيبه المحقق على أحداث الحاضر : « ما الذى يدعو أحدا إلى الالتصاق بالثورة ؟ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم » ، « أتعرف كم كان يكلفنى في الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والدهون وخلافه ؟ . وحوش يتعاركون على أسلابنا هاتفين نحيما الاشتراكية والتشوف . ما تحت بذلة الثورى إلا مولع بالترف . الجواسيس

وعملاء البوليس يتشرون كالوباء . أين أيام الديمقراطية أيام صدق وعبد الهادى ؟
الاشتراكية الحلقة أيام سيدنا عمر لأنه كان يمشى جائعا فى الأسواق . . وليس احتفاؤه
العظيم « بالعصر الذهبي » إلا احتجاجا على التطور والحاضر ورغبة وهمية فى منع الأرض
عن الدوران . إنه يحوس بين حثالة الأصوات ويتبادل معهم حديثا ممتعا حاملا ولاءه
السياسى فى خيلاء كما يحمل الطربوش الفاقع الذى يلبسه على رأسه ، وقد تحول إلى حزمة
بشرية من الغضون والعظام الناتئة والرغبات المستحيلة . فالاعتداء على ما له اعتداء على
كون الله وستة وحكمته . ومأساته الخاصة كارثة كونية . وهل يؤمن بشيء ؟ إنه كان يتعامل
مع معتقداته كما يتعامل مع رصيده المودع فى المصرف « يجمع فى قلبه بين الرسول والمندوب
السامى والموسيقى الراقصة كما يجمع بين طريقة السادة الدمرداشية ونشوة المشروبات
الروحية ، وقد ظل حتى الآن مؤمنا بالله فكيف لا يؤمن به وهو كما يقول بحرق فى
جحيمة ؟ .

والله قد عدل عن سياسة القوة ، سياسة الطوفان والرياح العاتية ، ويأمر أن ندعو إلى
سييله بالحسنى فلماذا يرغم هو على التنازل عن ثروته إرغاما ؟ فملكة السماء عنده مخفر
لحراسة مصالحه ، وقد أنابت عنها أمريكا للقيام بالمسؤولية المقدمة ، وهو جالس فى أرضه
الحراب تحت شجرة ذابلة لن تعطى ظلا منتظرا الخلاص الأمريكى ، مغازلا « زهرة » التى
ترفضه « ناولينى ياحلوه أسنانى بجوار دلائل الخيرات لألثم لحملك الشهى » ، مواصلا
عزف اللحن المشترك مع ماريانا ، فمأساتها فاصل كوميدى يؤديانه معا ويصران على أدائه
حتى النهاية . فى ليلة رأس السنة يعجزان عن ممارسة الحب ، هو فى حاجة إلى معجزة
لتحريره بعد أن تجردت أمامه ماريانا مومياء من شمع مذاب ، وانتابتها آلام الكلى بدلا من
تأوهات المتعة ، وأصبحا غير جديرين « بالصباحية المباركة » وانتهت كما تنتهى دائما كل
محاولتهما « الكحولية » لاسترداد الزمن الضائع .

وعلى الضفة المقابلة من القردوس المفقود نزيل ثان من العالم الآخر ، « عامر
وجدى » ، صحنى فى الثمانين يتذكر ويقرأ ويستسلم للنعاس ، اعتزل العمل وجاء إلى
البنسيون لأنه لا يعرف مكانا أفضل يذهب إليه . فهنا معقل تاريخى للكرياته ، وهى
ذكريات لاتعزف لحن ماريانا وطلبة مرزوق . فلم يكن عامر جزءا عضويا من النظام
القديم ، بل كان الوجه النضالى للثورة الأولى التى قتلت زوج ماريانا ، وجدلت الحبل
لرقبة طلبة مرزوق ، وثمة قطعة كبيرة من النعاس فى جانبي عينيه ، أثناء يقظته يرى من
خلالها الماضى والحاضر معا . كما لو كانا يحدثان فى نفس الوقت . كان سعد زغلول يقول

له : أنت قلب الأمة الخافق ، وقد خفق قلبه بصورة مثالية لثورة ١٩ ، أهدافها الكبيرة ومبادئها السامية ، وتضحيات جنودها ، كما خفق في أمل لانتصاراتها المحدودة ، وفي أسى عميق لارتطامها بالحدود والعقبات . إنه يمثل من « الوفد » و « ثورته العالمية الخالدة » كما يسميها ، جانب الأوهام المحلقة في السحب والعبارات الحماسية ذات الدوى الشعرى بعيدا عن المصالح الطبقية الأنانية والضيقة ، لم ير خلف شعارات الثورة المتجر الرأسمالي وأكياس أعيان الريف الممتلئة بالفضة واللبنات الأولى لبنك مصر . ولم يسمع إلا الهتاف بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ولم يسمع هتافا آخر : الوطنية هي « أعلى نسبة من الربح » . لقد عرف الجلال الذي يحيط بالثورة ، ولم يسقط في ابتذال اللهاث خلف المغام والوقوف بالثورة في منتصف الطريق وظل يعتبر المصير الإنساني مرتبطا بشعارات المقاومة ورائحة السجن والدم ، وعذاب النفوس التي طهرتها التضحيات الفادحة . إنه روح ثورة ١٩ معبأة في جلد متغضن يعلوه شعر أشيب . تلك الروح التي أزهرتها أيدي أبناء الثورة حينما أصبحوا يشاركون في السلطة القديمة وأسلاب السوق الجديدة . وبذلك أصبح عامر وجدى وحيدا مع تصوراته عن حقيقة الثورة منذ زمن بعيد ، محاصرا في مكان ضيق قذفه إليه زحف واقع اكتفى بتسجيل أهداف الثورة في مراسيم ومعااهدات شرف واستقلال ، « باللغتين الإنجليزية والعربية » . وظل قبل الثورة الثانية ينتظر في شيخوخته أمسية مضيئة تستند إلى مصباح أشعلته التضحيات ، وحرية تستند إلى أسرى معركتها .

وكما ناقشت روح الثورة قديما الوجود الاستعماري ، وتغيير الأوضاع السياسية بدأت تطرح المعتقدات الراسخة عن الكون متحجر النظام للمناقشة النقدية ، فقد استنفذ الأسلاف كل طاقات التصديق المطلق والإيمان بالقدر ، والتسليم بما هو كائن ولم يعد أمام الروح الجديدة إلا أن تبحث عن ثقب صغير تنفذ منه الإرادة البشرية ، ثقب صغير أطلق على نفسه أحيانا اسم « الشك المنهجي » ، وهو شك ظمآن إلى البقين على أسس مختلفة ، وعامر وجدى يعتبر الإيمان والشك مثل الليل والنهار لا ينفصلان فالحياة محبرة حقا ، ومن ذا الذي يزعم أنه عرف الإيمان ؟ فحينما نتحسس موضعنا في البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار ، وهو منذ مطلع القرن حائر حيرة شائكة ، لا تحل بحزب أو ثورة ، ويدعو دعاء لا يدرى به أحد ... إن تحل في قلبه مشكلة الإيمان وأن يسكب الله الشهد المصنفي على عناء الوجود . وقد طرد من الأزهر بتهمة الإلحاد الظالمة رعم إنه يعتبر نشأته الأزهرية تمكنه من أن يكون مأذونا شرعيا ، رسالته في الحياة أن يوفق بين إيمان الشرق والترعة النقدية عند الغرب في الحلال كما تحطم حبه على نفس الاتهام العنيد ألا في ذمة

الله ذكريات الأزهر ومجالس الغناء مع ألحان سيد درويش وسلامة حجازى وذكريات وجه لم يعد من الممكن استرجاع ملامحه أثار حبا مشبوبا .. حبا هبط على الدنيا قبل الأديان بألف سنة .

هو يقص علينا أنه ترك الوفد قبل الثورة ، ولاذ بقوقعة الحياذ الباردة بين التيارات المتصارعة فى ذلك الوقت ، ولم يفهم الشيوعيين وأبغض الإخوان المسلمين ، فكيف الخروج من اللا أدريّة العقيمة ، واليقين الفظ الخامل فى نفس الوقت ، والابتعاد عن مأزق دفعه إليه معاصروه ونزعة تجارية سوقية هجرت قيمها الثورية السابقة ، أو مأزق دفعته إليه نزعة مثالية مجنحة تفتقر إلى سند واقعى ؟ فهو لم يعرف العمل الثورى خارج الحماس العاطفى والرمز السياسى والطنين الشعرى .

لقد جاءت « ثورة يوليو » وامتصت خير ما فى التراث التاريخى وأنهت خبرته السياسية ، وبقيت الحيرة التى لاتذهب بها ثورة ، مشكلة الإيمان ، المشكلة الميتافيزيقية الخالدة عند نجيب محفوظ . إذن فماضيه الثورى الذى اندثر لا يشارك فى معركة الحاضر وان تعاطف معها ، وتحطم الحواجز بين ذكريات الماضى ومشاهد الحاضر فى عينيه يقيم - من بعض الوجوه - رابطة بين أهداف الحلقة الأولى من الثورة وبين استكمالها ومتابعتها فى الحلقة الحاضرة ، فى فترة الانتقال الحالية ، فهناك استمرار فعلى رغم الانقطاع ، الماضى الثورى ينصهر فى انتصارات الحاضر .. الشعارات القديمة فى بكارتها ونقائها تعلق على الأحداث المعاصرة ، مغتبطة باختراق الحدود التاريخية والاجتماعية التى لم تستطع الثورة اجتيازها . فإن أحلام الطبقة الوسطى فى ثورة ١٩ فى أكثر نسخها تألقا ، فى تعبيرها عن الوهم الغنائى الهادف إلى تحقيق الاستقلال التام والانطلاق المتدفق للفكر وخلجات العاطفة ، لم تفسح على خريطتها لمصر الحرة فى المستقبل مكانا للمدينة الفاضلة ، لحل المشكلة الاجتماعية ، ووقفت عند كابوسها المتعدد الألوان كذيل الطاووس ، عند ملكية دستورية ، وحرية للذئاب والحملان معا ، إلى آخر القائمة ، فنحن لاندوق طعم الغبار والديدان فى كلماته عن عصرنا .

وعامر وجدى رغم أنه يعبر عن سمات تاريخية نموذجية ، إلا أنه يحمل ملامحه النفسية الخاصة فى نفس الوقت ، ويحول وقائع التاريخ الشائخة القصية إلى لحظات مستأنسة ذات عطر شخصى فهو يحفر فى التاريخ الموضوعى كهفا مريحا من تفسيراته يعيش فيه ، وهو يبعث إلى الحياة أمواتا لا يسمح لهم أن يعيشوا إلا كما تخيلهم ، داخل « ألبوم » من الصور التذكارية ، يتكون سياقه الذى قد يكون متحلا من لحظات فريدة غارقة فى الجرى المعتاد

للأمور ، إنه يجعل تمثال سعد زغلول يودع كتلة الصخر التي نحت منها ليحيا حياة جديدة في مذكراته ، فهو يهبط من قاعدة تمثاله ، حاملا الكلمات الكبيرة المنقوشة على شاهد قبره ، ليصدر قرارا بتعيين عامر وجدى وحده مدى الحياة في منصب « قلب » أو « كلب » الأمة الخافق. فقد كان رحمه الله ينطق القاف كافا . وهو هنا لا ينطق القاف في « الخافق » بنفس الطريقة فهي لا تصنع خبرا يروى بطبيعة الحال - وتلك هي أولى الصور التي نطالع بها ذكرى سعد زغلول في مخيلة عامر وجدى صورة تجعل منه « عامر » فريدا رغم أن بعض زملائه القدامى من خصومه في الحزب الوطني كانوا كلما رأوه صاح صائحهم أهلا بكلب الأمة ، إنها تجعل منه كما يقول في أيام المجد والجهاد والبطولة عظيما له في الرجاء جانب يريده الأصدقاء وفي الخوف جانب يتجنبه الأعداء . ولكن الصورة لا تخلو من ظلال هزلية ، فاقطع تلك اللازمة أو النقيضة الصوتية في زعيم ثورته وخطيبها ، بكل ما تؤدي إليه من مفارقات ضاحكة ، ووضعها في المقدمة عند أول استرجاع لمجد عامر وجدى الغابر وعقب حديث ماريانا عن اضطرارها لاستقبال كل من هب ودب ، يثير السخرية وإن اختلط بها الإشفاق من وسام بطولة من عهد نوح معلق في تراخ فوق الأم مصر إنه الغليظ . فليست هناك على المستوى الشخصي رابطة حية بين ماضيه النضالي وواقع شيخوخته المستسلمة للنهاية في وحدة لا تؤنسها إلا الأحداث الصغيرة في بنسيون قواعد أوشكت على التقاعد . أن ذاكرته في بعض الأحيان تستيرها المشاهد الخارجية فتقدم لنا محاكاة هزلية للسياحة البطولية في التاريخ ، تقوم بها في إيماء صامت وقائع الحياة اليومية المبتذلة ، فحينما تقول القواعد عن ضحيتها المرتقبة « لن أتخلى عن واجبي إزاءها » ، يقفز سعد زغلول قائلا « لن أتخلى عن واجبي مادام في عرق ينبض ولتفعل القوة بنا ماتشاء » . فاللحظة التاريخية قد أفلتت من سياقها الذي يحيطها بهاتها الحقيقية وسقطت في سياق من السوق الباهتة .

وتبرز بعض اللحظات اللزجة في تناقض صارخ من اللحظات المليئة ، فحينما يهجر « زهرة » حبيبها المتسلق على مبادئ الثورة بعد أن تكون الشائعات قد رشحتها لفقدان شرفها يثب أمامنا من ذاكرة عامر وجدى رجل بلا وجه يقبض بشدة على قضبان قفص الاتهام ، وهو يستمع إلى النطق بالحكم ، وقف الكثيرون من أبطال الحركة الوطنية يهتفون نموت ويحيا الوطن ، ليصبح بأعلى صوته في المحكمة : يافرحتك في يادنف يافرحتك في يانعيمة يا ضباطي ، وهي أسماء تدل على طبيعة حاملها . وهناك في ملامحه النفسية اقتران لمستويات مختلفة من السلوك ، رفيعة وهابطة تعطي شخصيته « النموذجية » دقائق من

الحوية ، لمأساة حبه الذى ارتطم باتهام ظالم جلبه على رأسه اهتمامه بقضايا الفكر العليا ، يقابلها من الناحية الأخرى سعيه المشكور وراء « الملايات اللف » . بضاعتنا القومية ، وعزوفه عن الأجنيات . وحينما يتجاذب حديثا رائعا ناعما يملؤه حب طاهر مع « زهرة » تستدعى ذاكرته صورة له وهو يتسلم البضاعة ذات البرقع الأبيض من قوادة عجوز قائلا فى نفسه التى يمزقها الشك المنهجي : « سبحان الخلاق ذو النعم » واهتر الفؤاد فى أعماقه ، وقال « أتوكل على الله فخير البر عاجله » ولكن صورته لا يسلبها واقعيتها الإسهاب فى ذكر التفاصيل الواقعية المتعارضة ، فهو يتحدد بالتيار العام لحركة الحياة بكل تفصيلاتها ذات الدلالة فى عصره .

وهو تيار عاقته مبادئه عن أن يسبح فيه إلى النهاية ، كما يتحدد بالتيار العام لحركة الحياة بكل تفصيلاتها فى عصرنا ، وهو تيار تعجز شيخوخته عن أن - تخوض غماره . هناك ذكريات عواصفه الرعدية من البلاغة التى كان يهدف بها إلى إيقاظ الشعب ، فالشعوب عنده لاتستيقظ إلا بالكلمات ، ومواصلته الكتابة بأعلى صوته حتى لم يعد أحد يتبين كلماته ، تقابلها فكرته الخاصة عن زملاء المهنة اليوم : « اللوطيون الأنذال » الذين لاكرامة لإنسان عندهم مالم يكن لاعب كرة ، والذين يضعون آذانهم على ثقب المفاتيح ، وهم جميعا أعضاء عاملون فى المعرض الدائم للابتذال والإثارة السوقية ، إنه لايكف أبدا عن محاولة دائمة للمشى من جديد داخل الآثار التى تركتها أقدامه فى الماضى على أرض ضعيفة الذاكرة ، للعودة إلى الأيام الخوالى كما يعود اللسان متحسسا فجوة فى بعض الأضراس . وماذا بقى من « الوفد وثورته العالمية الخالدة » ؟ .

خلف طالح يمثله « رأفت أمين » ينوح على الشعب الذى مات فى رأيه مع الوفد ، ويحلوه النواح حينما تلعب برأسه الخمر ، أما فى محطات الاستفاقة فهو يشارك فى تنظيمات الثورة دون إيمان ، كما اشترك فى تنظيمات الوفد دون إيمان فهذه الوصولية تمكن « شعب الوفد » اليوم من أن يواصل كفاحه اللئلى مع الراقصات ولكن عامر وجدى لم يفرق تماما فى بحر النسيان الشاحب : إن جيله أدى واجبه ولو لم يؤده لما تحققت انتصارات اليوم . وأن جمع تاريخ أجيال الثورة فى كتاب بمثابة بعث له ... البعث الوحيد الذى يؤمن به . وهو فى النهاية يقدم لنا ونحن נוشتك على اليأس فى غمرة مشكلاتنا عبارة صافية مرتعشة بالعاطفة تمنحنا قوة دافعة لمواصلة السير : من يعرف الذين لا يصلحون له فقد عرف بطريقة مسخرة الصالح المنشود . ولكنه لا يستطيع أن يلعب دور تيار سياسى فى ساحة البنفسج رغم أنه يحقق بين حياتين ، إنه لم يعرف الماضى معرفة كاملة ولا يستطيع أن يتنبأ المستقبل .

فالماضى حينما يحاول سكان «ميرامار» اقتناصه يتحول إلى شيء متعدد الأوجه وحقيقته الواحدة تصبح حقائق متعارضة فلم يعد العالم القديم ممداً في توايت ثابتة من الكلمات ، إنه يستطيع أن يحيا ويستوعب اضافات جديدة ويتنفس في أضواء جديدة من الحاضر فيتأثر السياق ويتكثف ليتجمع من جديد في اطارات علينا أن نكد الذهن لتتباها . فسعد زغلول على سبيل المثال يعد رقما قديما في دفتر حسابات مهجور . ولكنه قائد الأمة عند عامر ، ومهرج يتملق الجماهير عند طلبة مرزوق . وصنم ضرب الثورة الحقيقية للشعب عند صوت آخر لم نتعرض له بعد ، أو حتى صانع فراغ لم يسهم بشيء . ولا يقف الأمر عند الماضى بل يتعداه إلى أداء الشهادة عن الحاضر ، وإلى توقع مستقبل يتشكل مهده في سحب حبل . فإن رواية عن فترة الانتقال يكتبها نجيب محفوظ لا بد أن تطرح مشكلة الزمن بصورة متعددة الجوانب ولايكفى عامر وجدى ليكون راويها ، ولا بد هنا من أن نقف عند مسألة الزمن .

٢ - مسألة الزمن :

والزمن لا يتجلى لنجيب محفوظ إلا في شكله التاريخى من خلال التجربة الاجتماعية الحية . ونحن نرى هنا زمن الحتمية التاريخية - وفقا لتفسيره الخاص في تدفقه الصارخ من الماضى إلى المستقبل في اتجاه محدد . ولكن ذلك الانسياب الخارجى للزمن وصليله المعدنى الصارخ تتشابك لحظاته المتعاقبة وترتطم وتتقاطع . ففى فترة الانتقال ينهار المفهوم الجامد الآلى عن الاستمرار والاتصال ، وتتحول بعض اللحظات الهامة إلى ملتقى طرق متشابكة تتجمع فى دوامة ... لها مركز ثابت رغم أى شيء ، وتترلق بعض اللحظات خارج السياق ، وتبدد دلالتها القديمة كما يبرز إيقاع التدفق الزمنى فى اختلاف سرعته بكل ما يشمله من نقاط تحول ومنعطقات وقمم موجات .

ولا تبدو لنا تلك الحركة فى الزمن إلا خلال لامصائر الإنسانية ، فالتطور الاجتماعى ينصهر فى الخصائص الإنسانية لشخصياته النموذجية ، فتمتج السمات النفسية الفردية لها بعمليات التطور الاجتماعى والفكرى الكبرى لا باعتبارها أوعية مناسبة فحسب ، بل خلال منطق يضع فى حسابه أحيانا ما تفترضه تلك العلاقة من تعقيد وتضارب . أى أننا نشاهد مقولات التغيير ، ومشكلة نسبية الزمن فيما يتعلق بالمناخ الاجتماعى والفكرى ، متجسدة فى طرائق للحياة الشخصية اليومية .

وهنا يلوح أمامنا وجه آخر للتقابل بين «ميرامار» ورباعية «دريل» فكلاهما يضع

في المقدمة مشكلة الزمن . فرباعية الاسكندرية محاولة غريبة مخففة لنقل نسبية الزمن من مجال العلم الرياضي وعلم الفيزياء عند اينشتين إلى مجال الرواية والواقع النفسى للأفراد . وهى كما يقول دريل عنها تصور « متصلا زمانيا » صنع من الكلمات ، متصل لا يضم زمنا يعاد استرجاعه ، ولكن زمنا متشرا في موجات أطلق سراحها لاثبات لها ولا مجرى محدد ويتخلل ذلك الزمن شخصياته الأربع كما تعبت الأصابع بأربع أوراق من اللعب يمر بينها محور مشترك في لعبة مبتكرة بلا قواعد ، فهو يهدى كل ورقة لريح من الرياح الأربع وهذا المتصل الزمانى النسبى ، في التقائه « بالمنحنى المكافئ » ، أى بالتغير المستمر في موقع الشخصية التى ترصد الأحداث وزاوية رؤيتها يعطينا حينما ينعكس في السرد الروائى - عددا من الصور لشيء واحد في نفس الوقت ويصل بين أبعاد ذلك الشيء المختلفة ليعطى الإحساس « بالتجسم » .

ولكنه ليس تجسم اللحم والعظم ، فإن « الآن » أو اللحظة الحاضرة حينما ترى من خلال ذلك المتصل النسبى المكون من زوايا رؤية شخصيات أربع ، تضمحل كشعاع خلال منشور وتفلت اللحظات المتعاقبة من مجراها هاربة كما لو كانت تسير على قضبان منفصلة . وهذا المنشور البشرى لاشكل له ، قاطع التحديد ، فالشخصيات الإنسانية المكونة له لا تلتقى بنفسها في نقطة واحدة . فهناك أحقاب تفصل الذات عن نفسها ، واليوم عن الآخر . زمن رغم غرابته الظاهرة يعكس بشكل حقيقى حركة عالم لم تعد فيه حقيقة ، بعجز عن مواصلة العيش تحت جلده القديم ، كما يعجز عن التخلي عن هذا الجلد ، عالم يهشم الشخصية الإنسانية تحت وطأة استمرار علاقته السيطرة والإذعان ويدفعها إلى الاغتراب عن نفسها وعن حركة العالم . وهو في النهاية الزمن عند شخصيات استكانت إلى هذا الاغتراب ، واعتبرته طبيعة مطلقة للعالم اكتشفتها حديثا .

ولايتفق ذلك المفهوم بطبيعة الحال مع تجربة الزمن وابعاده في « ميرامار » فالزمن الموضوعى ليس وهما بل هو عنصر درامى في الشخصيات والأحداث ، ويتفجر ذلك العنصر الدرامى أيضا داخل حدود الوعي الفردى وفي الحياة النفسية الخاصة . ولا نجد العمليات النفسية في تلقائيتها الحية متكررة للمنطق المنسق المختبئ خلف تجربة الزمن ، سواء في التطور الاجتماعى أو الفردى . فالعواصف التاريخية لمسيرة الزمن لا تتحول إلى نسيمات واهنة تشيع الاضطراب في موجات الانطباعات والخلجات النفسية للأفراد ، بل تهب الأعاصير مزعزعة دعائم راسخة ، طارحة للمناقشة القضايا الجوهرية للوضع الإنسانى . ويبدو هذا الخلاف بين الرباعية وبين ميرامار من ناحية تتابع خطوات الشخصية على

إيقاع الزمن في أوضح صورة عند نزيل ثالث هو حسنى علام . إنه يصلح لمواصلة الحياة في الروايتين ، فهو فلذة من فلذات أكباد العالم القديم تطأ الأرض داخل سيارة مجنونة السرعة . يمتلك مائة فدان على كف عفريت ، ولا يحمل شهادة ولا يمارس عملاً . وهو فوق ذلك شخصية لا تتقاطع مع نفسها في نقطة واحدة ، وكل همه أن ينسحب من الدوام . قذفت به طبقته إلى الماء والقارب يميل إلى الغرق ولا يحمل ولاء لشيء لا لطبقة أو وطن أو واجب . السرعة الإنسيابية تنعش القلب وتنفض عنه الحمول والملل وانفعالاته بالغة التبسيط يحيا بأفعال منعكسة تصدر عن مستوى أدنى من قشرة المخ ويمارس الحب الحديث . دمية فزيولوجية يسيل لعابها بنفس الطريقة لمؤثر خارجي واحد . أنامله المحمورة تتحسس لحما هامدا ، وتقبل شفاها كفاكهة أتى الذباب على رحيقها . فهو يمارس علاقات خاطفة مدفوعة الثمن مقدما ، لا يلتقي فيها إلا بوحده . نسخ مكررة من ممارسة قديمة . يحاول بتحرره من قيد الحب الواحد والزواج أن يعانق شيئا دائما التجدد ، نافورة من أفراح الجسد ، لها ألوان قوس قزح تغدق على حواس ظامئة ولكنه يشرب لحظات عمره على غير عطش ، تجربة واحدة ومذاق واحد يتكرر ويتكرر في تتابع خافى وراء تجدد أنواع المتع الحسية ، وجوه جديدة ولكنها جميعا كالجوارب القديمة أبلاها الاستعمال . « الكون قد مات في الحقيقة وما هذه الحركات إلا الانتفاضات الأخيرة للجنة قبل السكون الأبدى » حضور ملموس للدوار ، ولحمى ملل أجوف . وهو يشبه بعض شخصيات دريل ، في أنه أعطى وجهه للمرأة ، وللتطلع الأبله في أعين النساء والقبيلات بلا شهية كموت في أطواء الحياة ، كما يمارس مثلهم الرغبة في النجاة من العاصفة بإحكام إغلاق نوافذ السيارة : نحن هنا مخلوقان عاريان تماما متعانقان على قارعة الطريق . نخرج اللسان للعالم ومن عليها . مثل دارلى وكلبه أثناء الغارة الجوية من بعض الوجوه ولكن سرعته المجنونة ، سرعة لا تغادر مكانها فإحساسه مشلول مقيد إلى وتد واحد هناك سكون وتوقف مثبتان في عجلة السيارة المجنونة السرعة .

وزمنه النفسي نام فيه رقااص الساعة وتآكلت تروسها ، فالحاضر تنهاوى لحظاته كحائط يتداعى ويحس به داخله كأفعى التفت حول نفسها في كومة ثم ماتت . الثواني كالسنوات موت متلاحق يأخذ اسم الميلاد . وكما تهتف بعض شخصيات « دريل » ذات المزاج الفنى : أيها الأطفال اللامتمنون المستاءون اتحدوا .. إلى الأمام .. إلى البالوعة . يكاد حسنى علام أن يهتف : يا متمنى الأرض اتحدوا ، وارفعوا راية عصيانكم حيث ترفرف في أعلى ساريتها قطعة حريرية من الملابس الداخلية لامرأة ... إلى الأمام . إلى مراكز الاشعاع

الأصيلة ... بيوت القوادات متعددة الجنسيات ولكن هل جعله نجيب محفوظ يقلت من وضعه الاجتماعي ومن حركة التاريخ في فترة الانتقال ؟ إنه أحد التنويرات على لحن طبقته التي باعها التاريخ كالقدر والكارثة الطبيعية والعاصفة عند منعطف الطريق ، وهو قدر يستطيع أن يخترق زجاج السيارة المحكم الإغلاق ويزلزل عالمه الداخلي ، ويقم سورا لاسيل إلى عبوره بين الشفة والشفة . فعلى مقعد السيارة وداخل جلده كل ما يهرب منه ، فهو مثل طبقته يعيش الأيام ، التي تسبق مباشرة يوم القيامة ، وهي اللحظات التي تفصل بين فصل السكين والرقبة في رؤى العين المغمضة . كما يمارس مثلهم الطريقة التقليدية في الخروج على التقاليد . بعد أن يصرخ صراخا محموميا يجب أن يعود الزمن إلى الوراء وسيارته تنطلق إلى الأمام ولا يسترجع في ذاكرته من ذلك الوراء إلا أشواكا قاسية من مأساته الخاصة : إخفاقه في الدراسة ورفض ذات العيون الزرقاء له ، ولكن ذلك الوراء جزء عزيز على طبقته التي تخندق في الخطوط الأمامية ، فهي جناح مهيب من الماضي لم تزل به قدرة على الطيران . وما يزال لديها ماتفقده . إن أبناء طبقته المسلحين بالشهادات وخبرات العمل السياسي في الأحزاب السابقة ، يحاولون الإفلات من مصيرهم ، بالتسلل إلى شرايين الحاضر والالتفاف حول التطور . أما هو فيحاول أن يعبر العدم الذي يفرقه ليلتلع واقعه بمجازفات عديمة من اللذة والاستمتاع . ويشرب ويضاجع كتنفيذ عقوبة . فهو قد يش من الإفلات من قدره ويحاول الهرب من حكم بالإعدام يطارد طبقته فيلعب مع نفسه دور الجلاد رغم أنه يلبس ثياب « خليفتنا طيب الذكر هارون الرشيد » وليست مقاييسه إلا مقاييس طبقته الغارقة رغم تمرده ، ولا تستطيع حواسه أن تحلم إلا بصورتهم الفكرية التي كونوها عن النعيم الحى ، حواس مستعارة من شيخوخة آسفة رغم عريضة الشباب ، لاتذوق المتعة في حيوية الذين يجدون لها في كل مرة مذاقا طازجا نضرا . فذاته المتمردة الجامعة لاتفلت من المجال المغنطيسى الصارم للحمية التاريخية . إنه ليس إلا شخصية مجهدة تختنق في جو ملبد بأمال طبقته التي تواصل الاضمحلال ، ولكن صورته الخارجية اللامعة تجعل الكثيرين يعتبرون طريقة حياته هدفا رفيعا . فلديه فيلا وسيارة وامرأة دون تعب أو مشقة .

ونترك الحديث عن المقارنة بين ميرامار ورباعية الاسكندرية لنرى كيف يؤدي حسنى علام الشهادة عن فترة الانتقال . إن جانب المروية النائحة على الماضي لا يصلح لونا مفضلا لسيارته ولا لجدران سراى آل علام بطنطا بل جانب التعليق المرح الساخر على ما يطفو فوق السطح في الحاضر . فهو وأمثاله يحاصرون مأزق تاريخي لافكاك منه ولكنهم يصرون على

مواصلة البقاء بأساليبهم القديمة في واقع جديد ، ومن ثم يتضمن وضعهم مفارقة مضحكة نجد شيئا لها في مومياء تلبس ثوبا فوق الركبة . ولكن الأكذوبة المتحضرة تدافع عن نفسها باتهام كل ما في الحاضر من جديد بالزيف . ولما كانت فترة الانتقال لا بد أن تموج بأوضاع لم تأخذ شكلها المكتمل . وتتجارب لم تنجح ، وينادج لم تولد كاملة الأسنان فتستعير أنياب النماذج القديمة ، وبأنواع باليه من السلوك تتزيا بزي القيم الجديدة فما أسرع ما ينقض أصحابنا بالتعليق الساخر . ونحن نرى حسنى علام يسخر في أغلب الأحيان من الشعارات الجديدة بالصاقها بمواقف تتعارض معها أو لا علاقة لها بها ، وكأنه صاحب تكنيك خاص لا يجيد عنه في اختراع الدعاية السطحية . فحينما يتحول الاشتراكي الزائف عن « زهرة » الخادمة التي يحبها إلى المدرسة التي تسكن في الطابق الخامس يهتف حسنى علام : تحيا الثورة تحيا قوانين يوليو . وكان يريد قبل ذلك « عدالة التوزيع » بينه وبين الاشتراكي الزائف في الاستمتاع بزهرة وهو يسخر من قريبته الحمقاء التي تختار عريسها على ضوء « الميثاق » ومن الفتاة التي تريد أن تتزوجه ضاربة عرض الحائط بتعاليم الثورة عن « تحديد النسل » . وهو لا يعرف من القيم الروحية إلا أن الله غفور رحيم .

وذلك الحاضر الطافي فوق السطح الذي يحفل بالمفارقات ، والذي يضعه حسنى علام في مركز مجالة البصرى ، من مرصده ورأسه ماتزال فوق المال ، يتمثل في سرحان البحيرى التريل الرابع . إنه واحد من المواطنين الظرفاء الأعزاء الذين يخدمون في جهة ويعملون لحساب أخرى . يبدو كما لو كان التفسير المادى للثورة فهو عدو أعدائها ومن الموعودين ببركاتنا ، ويعتبر نفسه أحد الورثة الشرعيين لثورة الطبقات القديمة وطريقتها في الحياة ، حينما يحقق أهدافه ، ويصبح من أغنياء الاشتراكية . وهو يكن للطبقات القديمة عداا مالك الأفدنة القليلة لمالك الأفدنة الكثيرة التي تسد أمامه درجات الصعود ، واشتراكيته الزائفة تعبر عن الصراع الطبقي بين النبيذ القبرصى والجوفى ووكر ، بين المشاة وراكبي العربات ولكنه كغيره من الفقراء المتأنقين يرى في أغنياء الزمان القديم صورة متخيلة لمستقبله ويشقى من فكرة مصادرة الملكية ، فهو يحلم بنفسه مالكا عربية وفيلأ وامرأة فائخة ، فيعتذر لأفراد الطبقات القديمة عن قيام الثورة بأنها على أية حال أفضل من الشيوعية وذلك الشاب الذى جعل من الدفاع عن الفقراء عملا إضافيا مربحا ممتلئا بالحماس الجميل الذى يعد درسا للمتواكلين ، فتلك هى طريقته للمشاركة في بناء عالم جديد ، فهو يجمع « صفات » متعددة وكيل حسابات شركة الغزل ، وعضو مجلس الإدارة ، وعضو الوحدة الأساسية للاتحاد الاشتراكي . فوق أنه ممثل الثورة في مجالس السمر والمتعة حيث ينهال الثناء ويكثر

تبادل الإنخاب . وهو « يعتقد » أن كل ماسبق الثورة كان فراغا ، بل لقد نسي في زحمة نشاطه النضالى أنه كان وفديا في الزمن القديم ، وهو على استعداد لأن يقول إن وحدته الأساسية هي التي اخترعت الآلة البخارية أو بنت منارة الإسكندرية .

ورغم أنه يحلم بالحياة الهاي لايف ويملاً فيه بكلمات كبيرة ، إلا أن متاعة الفكرى بسيط بساطة مذهلة ، فلا يحمل منه بالفعل إلا شعارات فترة الانتقال الايديولوجية المتقشفة : « سميّط وبيض وجبنة » أريد أن أفيد وأن أستفيد وهو « براجماني » يحيا في الحاضر المستمر والمستقبل القريب ، الجنة هي المكان الذي ينعم فيه بالأمن والكرامة والنار هي ماليس كذلك ولنتقل إلى مرحلة ثورية جديدة مادام يأخذ بدل انتقال ، وليست شعاراته كلمات ضائعة في الهواء ، فهو يحاول دائما أن يجعل منها وسائل فعالة : فحينما يعلن أن اشتراكيتنا مؤمنة يترجم ذلك إلى واقع حتى : فلا بد أن يجتمع مع صديقه المهندس وسائق اللورى بعد أن اتفقوا على سرقة لورى غزل لبيعه في السوق السوداء ليقسموا على القرآن أولا . ويقول لزهرة بعد أن قرر إغواءها : هيا نتزوج كما كان يتزوج المسلمون الأوائل - الزواج الإسلامى الأصلى - أعلن بينى وبينك أننى أقبلك زوجة على سنة الله ورسوله . ولا يفوتنا أن ننوه بإيمانه بالتخطيط فهو يرسم مع صديقه المهندس خطة محكمة ، لا ارتجال فيها ، تخضع في حسابها كافة العوامل لسرقة الغزل بشكل منهجى أربع مرات في الشهر ، كخطوة تمهيدية للوصول إلى الفيلا والعربة والمرأة ، وهى أولويات عند تنفيذ مشروع الهاي لايف ونمر مسرعين على عزوفة عن استغلال عشيقته الراقصة استغلالا شائنا ، كما يفعل الآخرون مع عشيقاتهم ، فعند الحساب ستعادل الكفتان ما أعطاه وما أخذه عدا الهدايا والمجاملات التى كانت تنفحه بها في المناسبات ، والتي عجز لظروفه الخاصة عن ردها .

ويجب أن نقف عند ظروفه الخاصة حتى لايتحول إلى « كاريكاتير » لشريير من شرييرى السينما المصرية من جميع الوجوه ، فقد تنازل لأمه وإخوته عن إيراد ميراثه من الأرض البالغة أربعة أفدنة ، ولا يأتى على إخوته عام دراسى جديد إلا وتهبط على رأسه أزمة مالية تمر بغير سلام . فما العمل ونار .. هو آخر تعريف علمى للأسعار ؟ ولكن مسئوليته تقف عند الولاء للأسرة كحد أعلى ، وهو يلتزم بها التزاما حقيقيا يفرض عليه تضحيات مريرة . أما التضحية من أجل شيء أكبر فتستعصى على فهمه . فهو لا يهتم بالسياسة رغم اشتغاله بها كوسيلة للصعود ، ومال الدولة مال « سائب » لاصاحب له ويصغى في استجابة للقول بأننا لسنا أرايب معمل في تجربة البناء حتى نتحمل التضحية

فهي إلى الخطوات غير المشروعة ... وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد ... مرة ثانية بعد حسنى علام وعلى هدى مبادئه . وفي جنته المرتقبة من المتعة الخالصة ، والحياة الناعمة السهلة حية تسعى ، فتلك الجنة التي تستجيب في جانب منها لترعة حسية متوهجة ورثها عن نشأته الريفية يلقي عليها الظل المعتم جانبا آخر من نخيل الجنة وأسوارها ، لوائح التطلع الطبي ومواصفاته وطقوسه . ولقد كان يستروح لنسمات الخريف دسامة جنسية تلفحه ، ويملاً حواسه عبير « زهرة » . ويشبع في نفسه سرورا كالسائل العذب الذي يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوه من الأرض الخضراء ، ولكن بين لسانه والتدقيق يسقط الظل يشرب « الماركة » والسعر المرتفع بذنه المتطلع إلى المركز الاجتماعي المرموق قبل نشوة اللهب السائل في الزجاج ، وتسقط أو ترفع بينه وبين الصدر الناهد والوجنة الشهية البديهيات السخيفة ، لوائح مؤسسة الزواج وإجراءاتها وضرورة أن ترفعه درجة ، أو أن تكون صفقة مريحة على الأقل ، فلتشاركه الفيلا والعربة زوجة فاخرة لا يحبها ولا تحبه كعقوبة لرفضه حبسته التي لا تتوفر فيها الشروط اللائحة . ويسرى السم في ينابيع المتعة الحسية ، فعلاقات الدفع نقدا أو بالتقسيط المريح تجعل مثل هذه الدابة البورجوازية مغتربة عن أبسط أشواق الإنسان .

ولم تبقى بينه وبين جنته إلا ساعات ، حينما تعثرت أقدامنا بحشته ملقاه في الطريق العام ابتداء من الصفحات الأولى للرواية وبعد أن كدنا نوزع تهمة قتلة على الجميع - فثمة تناقضات حادة بينه وبين جميع الشخصيات المتنازعة على زهرة التي تستطيع أن تقوى على القتل - عرفنا في الصفحات الأخيرة أنه مات منتحرا . ولم تكن نهايته التراجيدية محاطة بالجلال الملائم ، فقد كانت أدواته بعد افتضاح أمر السرقة ، للوصول إلى العالم الآخر ، موسى حلاقة مستعملة وعارية ، فاته لسكره أن يعرف « ماركتها » . نهاية ليست فاخرة ، فلا طقوس أو إجراءات أو لوائح . ولا جدال في أن تلك الجنة التي سقطت قبل الأوان تشير إلى حتمية انهيار الواجهة الزائفة للاشتراكية ، فلا بد أن تقودها خطاها إلى شرك نصبته بيديها ، هو التعارض الصارخ بين مزاعمها « الثورية » وبين واقعها وأحلامها الجديدة وقيمها العتيقة .

ولكن هناك من يتحل لنفسه شرف الإجهاز على تلك الواجهة ، كائن لا يقل زيفا هو منصور باهى ، نزيل خامس أفلت من الذهاب إلى السجن ، بأن أعلن ارتداده عن

الماركسية ، ولكنه يعتبر نفسه مقضيا عليه بالسجن في الإسكندرية ومحس بالعفن يجرى مع الهواء ولعله يصدر أصلا من ذاته هو .

وقد أرغمه أخوه ، وهو من ضباط وزارة الداخلية على أن يهجر ما كان يعتقد أنه الديار ، وعلى الذى يرضى بذلك أن يوطن النفس على معايشة الأندال . وهذا الديار يتكون من ذكريات حميمة : أحلام لا بد أن تجعلها الرواية دموية : صراعات طبقية ، كتب وتجمعات ، ببيان من الأفكار راسخ الأساس . ولكنها لم تستطع أن تكون ذكريات انتصار ، فالأعداء القدامى لم يلقوا مصرعهم على أيدي ذلك الاتجاه نتيجة لانعزاله والماضى الذى ساد الطغاة والبغايا الفاتنات لم يفسح الطريق لحاضر يتفق مع الصور . التى كانت الماركسية قد حددت معالمها من قبل . ووقع الديار بين شقى الرحى : الصورة المتخيلة عن تحقيق الثورة والصورة الفعلية لتحقيقها . وعقد هو رغم أنه صلحا منفردا مع أفكار جديدة ... مع صورة هزلية لماركسية جديدة ، عطرت ذقنها الناعمة ، وأحكمت عقد الكرافة ، ولكنها صاحبة الصوت كأنها ابتلعت ضفدعة ، تهتف بعد أن شربت كوكتيلها المبتكر من الراكيا الصربية والعرقسوس المصرى : شددوا الحراسة حول قبر ماركس حتى لا ينهض ثم احتكرت لنفسها بعد ذلك امتياز توزيع تهمة الخيانة وتوصيل الطلبات للمنازل وأسهم منصور باهى بكتابة برنامج إذاعى عن الخيانة وتاريخها بعد أن قدم برنامجه عن أجيال من الثورة ، فهو وصى على التراث والغد ، ولعل تهمة الخيانة التى لا تكاد تستقر على سبائته الموجهة إلى الآخرين - وخصوصا بعد أن قبض على أصحابه زملاء الكفاح القديم تعبير عن طوفان يجتاحه من شعوره الذاتى بالخيانة يفيض على الآخرين بعد ذلك .

وتتفق الملامح النفسية لمنصور باهى مع خصائصه النموذجية كما نستخلصها من الرواية ، فهو منطو على نفسه ، يفكر دائما فيما هو كائن وما ينبغى أن يكون ويصطدم رأسه دائما بصورته المثالية التى يكونها عن نفسه وعن العالم . وينجم تردده عن شدة استغراقه فى ملاحظة خلجات نفسه كما يضع تفكيره التأملى الكسيح حاجزا بينه وبين الأشياء والأفعال التى ينصب عليها اهتمامه . فلا بد من السقوط فى المسافة الهائلة بين مشاعره النبيلة وبين ما تستطيع إرادته الخائرة أن تحقق ولاسيبيل أمامه إلا الثثرة بكلمات عالية الرنين عن القيم السامية كغطية للعجز عن حمل المسئولية الفعلية فى الكفاح لتغيير الواقع « إنه كائن تقوده إلى الهاوية فضائلة الرقيقة المنطوية على ذاتها ، كعجلة تدور حول نفسها ، ولا تؤدي به عواطفه المرفهة المستقرة تحت جلده إلا إلى مواقف موقية ،

وليست نزعته العاطفية الحاملة إلا الوجه الآخر للضعة والتدهور ، فهو يمارس نزوعا أنيقا رومانسيا مثقفا من العجز عن الرؤية والفعل والاتصال بالآخرين .

لذلك فهو مستغرق في إحساسه الخاص بالزمن ، في لحظة قتل الذات بالارتداد ، كأنه « مكبث » حديث ، لم يقتل أحدا ، ولم يلعب معه أحد دور الساحرات الملتحيات . لقد تضخمت تلك اللحظة وامتدت إلى مالا نهاية ، ولم تعد جزءا من تعاقب الزمن كأنها بئر بلا قاع . ويظل الخنجر معلقا أمام عينيه في لحظة لا تتغير مسحتها ، ولم تعد هناك طمأنينة فقد أغتالها بالارتداد ، وهو لا يكف عن صراع مدمر ، بينه وبين نفسه لفقده صورة خيالية عن ذاته أثيرة لديه ، فيرى فوق كل مقعد وفي صوان ملابسه وفي وجوه الآخرين الجثة الخرافية التي لطخ يده البضة بدمها . وفوق ذلك فإن تأنيب الضمير قادر على أن يلون تلك اللحظة بوجهه المتكرر ، بالغضب الأخلاقي في صد الذين يشبهون ما يرفضه في نفسه ، بالمحاولة الدون كيشوتية لإنقاذ الذين يعانون من أوضاع ينوح على نفسه من إصلاء جحيمها ، بالقاء الظن على هؤلاء الذين تبرز نصائبهم في عينيه بشاعة جوانب معينة من نفسه ، فلا شيء في العالم إلا أنانيته ذات الأقنعة المتعددة .

٣ - الارتداد والثورة والفردية :

ومن هو الذى يمثل التيار الذى ارتد عنه منصور باهى ؟ إنه أستاذه وصديقه وزوج حبيبته ، يلقى ظله بعيدا حتى يصل إلى البنسيون ، وهو دكتور في الاقتصاد ، أودعه نجيب محفوظ السجن ولكنه لم يحكم على شخصيته بمقتضى المادة رقم ٩٨ من قانون العقوبات . إنه يعبر عن الذين كانوا قبل الثورة صوتا في البرية مبشرا الخطاة بالهول الآتى : ونحن نجد هؤلاء المبشرين في أغلب الأحوال عند كاتبنا الكبير سجناء معتقلات جامدة ، بعيدين عن الواقع . لذلك لم يتغلغلوا إلى جذور حاضرتنا ولم يلمسوا حياته المتفجرة فلم يعرفوا المسيح حين جاء في ملابس رومانية . ويتردد صوت دكتور الاقتصاد في الرواية : ما قيمة المعبودات القديمة ، لقد طعن سعد زغلول الثورة الحقيقية وهى في مهدها . إن التناقضات القديمة الاجتماعية قد أزاحتها الثورة الحالية بتناقضات جديدة (من نفس النوع) ، هل نشاهد فيلما رأسماليا ؟ فلم يسمح له نجيب محفوظ أن يضع في مكتبته الضخمة كتابا واحدا عن الديالكتيك يجعله يدرك الفرق بين التناقضات الثانوية والرئيسية أو بين الخلق الفنى وإنتاج السلع بالجملة وهو يقاتل في فيتنام ويتلقى بصدوره الرصاص في إيران ، ويخوض معارك الصراع الفكرى في فرنسا ، ولكنه يفضل الطريق في

شوارع القاهرة يكره الزيف ، يزن الكلمات قبل أن ينطقها ، ويدخن غليونيه وهو يعالج هموما لاحصر لها ، ولكنه لا يشك في سعادته الزوجية رغم أن زوجته تمارس معه إخلاصا زائفا وتجب تلميذه . فاهتفوا ثلاثا للأهمية البروليتارية .

وأصبح لفخدى الزوجة دلالة سياسية بعد أن غيب السجن دكتور الاقتصاد ، فما أجمل أن يتوهم التلميذ المرتد أنه يشترك مع أستاذه في احتضان نفس المبادئ ونفس المرأة : أنت تتخلين عنه لا عن مبادئه . هل تندهور معا كالبورجوازيين ؟ لا ... مستهزنا التجربة ونخرج منها كالمعدن النقي أشد صلابة وتألقا فلا يجوز أن نذعن لرواسب غير صحيحة ... اتركى زوجك فالحياة لا تجود بنفسها إلا للأكفاء مثلى . ويواصل منصور باهى تحويل مبادئه القديمة إلى رطانة تبرر كل وضاعة ، ويتصرف في معركة ضد خصم غائب لاتدفع مبادئه الفراش ولا تشعل الموقد وهو خصم ينادى الزيف عن طبيعته فبمجرد أن تنفذ الشائعات إليه يمنح زوجته حريتها فقد عاقه حمل مسئولية الكون فوق كتفيه أن يحسن اختيار الزوجة فيما سبق من الزمان . ولكن منحه الزوجة حرية التصرف موقف لا بطولة فيه ، فالفضيحة تحاصره من ناحية ، وخشية « المذكورة » على نفسها الفتنة ، وإعسار الزوج أمام عدالة القضاء ترغمه على الانفصال إرغاما من ناحية أخرى . وهكذا يتعد عن المسرح مهزوما ، ممزق الروابط بأكثر الأشياء التصاقا بقلبه ، لا تؤنس منفاه إلا صورة عن الحقيقة لا علاقة لها بالحقيقة فلا مكان له عند نجيب محفوظ على الأرض . وفاجعته تثير إشفاقا يتضمن السخرية التي لايفلت منها زوج مخدوع . وهو بهذا المقياس لايعيش في زمن التاريخ الحى ، فليس باستطاعته في مرامار أن يتمثل ماضيا أو يتجاوب مع الوجه الثورى من حاضرا ليسهم في بناء المستقبل بل يعيش زمنا أسطوريا مصنوعا من الاتساق المنطقى بين مقولات مطلقة يشكل إطارا تجريديا ينهض بديلا للزمن والصورورة الفعلية .

ونعود إلى منصور باهى في هاويته المظلمة فهو يفتق من سحر الحب كأن هراوة صكت رأسه بمجرد أن يوضع أمام مسئوليته في الزواج ، ثم ينظر إلى وجه امرأة أخرى ، زهرة التي خدعت وهجرت بلا كبرياء ، فيعتقد أنه ينظر في مرآة .. لن تطيب له الحياة وهى حزينة . هل تقبله زوجا ؟ فليتزوجها في أقرب فرصة ولكنها تشكره فليس هناك طلب حتى ترفضه أو تقبله . وبعد ذلك ينظر إلى مؤخر رأس سرحان البحرى الاشتراكي الزائف الذى خدع زهرة فيرى فيه الجرعة السامة التى قد يتداوى بها . وكان قد بصق عليه قبل ذلك ، صارخا فى وجهه ووجه كل وغد وكل خائن ، وصحت نيته على القتل

وتبعه فلا حياة له إلا بقتله ثم قتله مرتين مرة كمشروع في خياله ومرة وهو ملقى جثة هامدة في المرة الأولى مستخدماً المقص وفي المرة الثانية ركلا بطرف الحذاء لأنه كان قد نسى أن يأخذ معه المقص !! فليس المرتد عن الماركسية بصوته الهادر وإرادته الخائرة ، برطانتة الثورية التبريرية ومواقفه الوضعية ، بخنجره الذى قتل به ماضيه ولا يفارق خياله ، وسلاحه الطريف الذى يعده لمصر خصومه وينساه دائماً قادراً على أن يضع حداً للواجهة الاشتراكية الزائفة .

ولكن هناك وجهها يقابل مافى التزلاء من شحوب وقتامة ، وجهها متألقاً نضراً ، زهرة التى جاءت إلى قفص سمان الخريف للعمل ، هاربة من الشقاء فى القرية إلى المدينة حيث النظافة والتعلم والأمل . ولم تعد فلاحاً بعد أن هجرت الأرض وبدأت تتعلم القراءة والكتابة ، وتهدف إلى أن تحترف الحياطة ، وحفظت أسماء أنواع الويسكى وهى تبتاعها للتزلاء من بقالة الهاى لايف أى أنها لاتستطيع أن تكون العاهرة الملفوفة بالعلم الأخضر . مثلاً « حميدة » فى زقاق المدق والذى استهوى نجيب محفوظ اعتبارها رمزاً لمصر فى تلك المرحلة القديمة بمحاسنها وقذارتها والعميل الذى باعها للإنجليز . إنها مصر الجديدة فى حياتها اليومية التلقائية تحمل من الماضى ميراثاً ثقيلاً ، ولكنها عقدت العزم على أن تحقق أهدافها وقد جاءت زهرة لتتنقل إلى شرايين البنسيون المتصلبة دمها الحار ، وقلعتها السرية الحصينة من الثقة بالنفس ، فهى تقف شاحخة كمعدن غير قابل للكسر ، يحيط بها عبير الريف الذى يوقظ الحواس كما تحيط بها الرغبات والأطماع .

ونحن نلاحظ أن جميع التزلاء يميلون إليها ، كل على طريقة ولكنها تصد طلبة مرزوق وحسنى علام كقطة متوحشة . فقد مضى عهد الباشوات ، وتعطى قلبها وذراعيها وشفتيها للاشتراكية الزائفة . ولكنها لاتفقد معه الشيء الذى لا يعوض فقد كانت تطمح إلى الزواج منه رغم الفارق الاجتماعى بينهما ، لأن الدنيا تغيرت وكلنا أبناء حواء وآدم ومن حقها أن تنظر إلى فوق ، ثم تبصق عليه بعد أن تكشفت حقيقته ، وتستجيب لابتسامة المرتد ولكنها لاتعتبر عواطفه إزاءها شيئاً أبعد من المجاملة ، فقلبه ليس بين جنبيه وحب الخائن نجس مثله . وهى بعد ذلك كله ترفض بائع جرائمه ميسور الحال ، ولا تعتبره كفءاً لها لانه يروض النساء بالحذاء وستعود معه إلى مثل حياة القرية التى هربت منها ... فلن ترجع إلى الوراء ولو رجع الأموات .

وهناك حب متبادل يربط بينها وبين عامر وجدى رغم رفضها للكثير من - نصائحه ، فزهرة استمرار حياته الآفلة ، تؤمن بالثورة بفطرتها ، وقد أحبت القرية مثله ، ولكنها

اتجهت أيضا إلى المدينة بآمالها ، ومثله رميت بتهمة باطلة . ورغم عثرات اليأس المشتركة فلن يبقى منها عندهما إلا ذكريات غامضة بلا معنى . ولكن الصوت القديم من ثورة الماضي يرجو أن تتجنب زهرة مصيره الذى تلوثه الوحدة والعزلة . فابن الحلال موجود فى مكان ما ، ولعله يتحين اللحظة السعيدة المناسبة للقدوم رغم أنها كادت تيأس من جنس الرجال فى عالمها الذى يسلك فيه الجميع كما لو كانوا لا يؤمنون بوجود الله . وفى مطلع العام الجديد بعد أن طردتها صاحبة البنسيون وأحاطت الظنون بإخفاقها فى الحب ، نجدها تستند إلى صمودها المغطى بالأشواك ، وتهجر سؤالها الممتلئ بالحيرة المرة ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله مادمت لا أستطيعه ؟ لتقول بثقة إنها ستحقق ماتريد فى غد أجمل من الحاضر ، ولن تنسى عامر وجدى وكثرة المبدول من الحب والتجربة : « ثقي من أن وقتك لم يضع سدى ، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود » . وهى تغادر البنسيون حيث الإيمان معلق على الجدران ، أو يملأ الأفواه وسط وثنين جشعين يتتحلون رسالة الأنبياء ومحتالين أيديولوجيين ، أو دمي محشوة بالتمرد الرخو .

ولكن هل نتركها هنا رمزا للحياة بفطرتها الحشنة الفظة الرهيبة ، مندفعة نحو تحقيق ما يكمن فيها من إمكانيات طالت سنوات اختناقها ، وأصبحت فى الأوضاع الجديدة قادرة على الإزدهار ؟ وهل نترك عامر وجدى يقول صلاة الختام متطلعا إلى السماء بعد أن صارت أقدر على أن تتلقى نور الرب ؟ .

إن « زهرة » باصرارها وصمودها تبهر فى مياه ضارية الموج دون بوصلة ولكنها مسالك مطروقة . فهى تكافح وحيدة منتهجة الطريق الفردى ، وفى نهاية سلم « التعليم » هدفها الأول . نرى مدرستها التى فتحت عينها على الحروف والكلمات لا تريد عن أن تكون صائدة زوج ، سوقية القيم ، وعن الدرجات العليا من سلم « العمل » ، تسمع تعليقا لانتين قائلة « لم تعد قديسة .. للعمل ظروفه القهرية كما تعلم » . وحينما تقول زهرة فى تحد وثقة : « فى كل خطوة أخطوها أجد من يعرض على عملا » نتذكر فى إشفاق ، إطرء « ماريانا » القوادة التى توشك على التقاعد ، لذكاء زهرة ومقدرتها الفائقة على العمل . كما لا يسعنا إلا الابتسام حينما ترى فى الحائكة المثقفة فى المدينة بمشروعها الفردى الصغير خلاصا ماديا ومعنويا ، يشكل هدفا مضيئا أمام الفلاحات الرازحات تحت نير علاقات الاستغلال القديمة ، ويمثل فى نفس الوقت وجهنا المتطلع إلى المستقبل . وهل نستطيع أن نرى فى الخلاص الفردى مهما يمتلئ الفرد بالنقاء والإرادة والحب بديلا لما

تتحقق به صحوة أرض عذراء تحت سواعد متآزرة من خصب وشعر ونبض ؟ فالخطوط المعجفاء التي يرسمها ذلك الخلاص بمعزل عن قدرة الكتل على الفاعلية التاريخية لابد أن تذهب هباء وتصبح جزءا من اللعنة القديمة ، لأنها لاتضرب جذورها في تيار الإسهام الجماعي الهادف إلى تغيير العالم ، والهادف إلى إهالة التراب على الهوة التي تفصل بين المثال والواقع . إن زهرة تشعل حريها الخاصة ضد العالم القديم مسلحة بإيمانها الراسخ بأنه عالم يلفظ آخر أنفاسه ، ولكنها لن تنحصر في معركتها ضد « الذين لا يصلحون لنا » بأن تتجنبهم وتتفادى طريقهم فإن الصالح المنشود ليس موضوعا للمعرفة فحسب ، وليس ابن الحلال القابع هناك عند ركن من أركان الطريق ينتظرنا وننتظره ، ولكنه الشيء الذي لم يولد داخلنا بعد ، ولم يكتمل تشكله حولنا ، والذي لن يرى النور إلا عبر المشاركة الواعية المنظمة في إعادة صياغة أنفسنا خلال تلك المشاركة . فزهرة إذن تجسد ما في حياتنا اليومية التلقائية من إصرار على اكتشاف الطريق ، إصرار يترك ضيق الأفق القروى وراءه ويتطلع للحياة الإنسانية الغنية ، ويكتوى بآلام التجارب المخففة . حماك الله يا زهرة وجنبك مصير عامر وجدى ! .

تقديم ميرامار :

ونخيل إلينا أننا نرى في « ميرامار » صورة لفترة الانتقال مهشمة الانعكاس فوق أمواج متصارعة ، في بنسيون يطل على البحر بعد أن رأيناها قبل ذلك عند نجيب محفوظ في عوامة سكرى تطفو فوق الماء ، وتلك الصورة تومئ إلى الملامح الحقيقية للفترة عن طريق مقابلتها ببعض الظلال الهائلة والانحناءات الضالة . وقد نستطيع أن نستخلص صورة جانبية للوجه - فنحن لانطمح في لوحة حائطية شاملة - ذات دلالة عميقة رغم ذلك ، فإن رفضنا لما في « البنسيون » من اختلال واضطراب يحدد اتزاننا واتساقا نترقبهما ، ويؤكد قبولنا حارا لمتابعة البحث عن الطريق .

وتشبه ميرامار « سفر تكوين » روائى يبدأ بأيام الخلق الأولى لواقعنا المعاصر لمصر المستقلة ، بثورة ١٩١٩ ، وينتهى « بالخروج » بخروج زهرة من البنسيون . ويقص سفر التكوين العصرى حكاية التيارات المتعاقبة سواء التي منحها التاريخ بركاته أو أهال عليها اللعنات ، وثمة شيطان أيضا : ففي كل مرة يطاح فيها برأس القيم الرجعية ، نجد من ينقذ جميعتها تحت إبطه ليظهر بها مرة ثانية مكتسبة ملامح جديدة . كما نجد وراء الأفق فروعاً محلية لجنة عدن بل وللبحيم فسفرنا الروائى يناقش العلاقة بين الإنسان والإنسان

قابل وهابيل منعكسة في العلاقة بين الإنسان والكون والله . هناك من يؤمن بالله لأنه يتمرغ في جحيمه بعد أن هبط من الفردوس المفقود وهناك من يؤرقه ظمأ ملتهب إلى الإيمان ، وهناك من يعاني الويل والثبور في نعيم حسي مخمور ، وهناك من يؤمن أن الجنة تحت أقدام طموحه المخلق ، ومن يعتقد أن الجحيم هو أن تؤمن وتعجز عن العمل وفقا لذلك الإيمان . وتتقاطع هذه الروافد ، ويتسرب بعضها ضائعا في الرمال ، وتلوح أمامنا بحيرة جميلة ، عدن عصرية لا يحرس شجرة الحياة فيها سيف ملتهب ، يقف الإنسان في مركزها ، وقد حقق بعمله الحرية والوعي يملؤه الحب ويشرق الله داخله . وكذلك الحال مع الكون نجومه وعواصفه ومسحبه وأمواجه ، أى المسرح الكبير الذى تدور داخله الدراما ، فالعلاقات به لاتصطبغ بالجو النفسى للشخصيات فحسب ، بل تتلون بالموقف الفكرى لتضيف بعدا جديدا إلى الأشواق الطوبائية التى نستقطرها مما بالرواية من إخفاق وضياح وغروب على هامش طريق التطور الاجتماعى والتقدم الفكرى والروحى ، الأشواق إلى عالم جديد يتحدد داخله الإنسان والطبيعة والله فى نقاء . إن الرواية تنتهى بآيات من سورة الرحمن ذات دلالة خاصة : « الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . إلا تطغوا فى الميزان ... فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، فيتأكد التطلع إلى حياة رغدة تعلو فيها الروح الإنسانية نفسها والعالم ، وتجمع بين القيم المتعالية والحسية فى تكامل متخيل . أى أننا لم نخرج فى مرامار من نطاق ، التساؤل حول المعانى الأساسية للحياة الإنسانية ، كما نجد فى المرحلة الجديدة من أدب نجيب محفوظ بعد الثلاثية ، ولم ندخل إلى مرحلة أخرى تصور المجتمع العامل والصراع الاجتماعى فى ميدانه الأصيل . وقد يمكن القول بأن التسلسل الروائى فى « مرامار » الذى يبدو للوهلة الأولى ممزق الأوصال بين قصص أربع مستقلة ، لايحقق تكامله إلا باعتباره حوارا متتابع الحلقات حول قضايا فكرية خلافية ، وبأن الأدوار وفقا لهذا التسلسل لاتوزع إلا بهدف تنمية هذا الحوار على مستويات مختلفة ، فتنحول الشخصية إلى عنصر من عناصر القضية الفكرية ، والمواقف إلى أمثلة توضيحية أو شواهد للتدليل ، وقد يستند ذلك القول إلى أن الرواية تفقد الكثير ، إذا أغفلنا العلاقة بين الوجوه والمواقف والأجواء من ناحية وبين الدلالات الرمزية الكامنة وراءها من ناحية أخرى . فالخيط الأساسى الذى يربط بين وقائع السرد العارية ، وهو موقف الجميع من « زهرة » لايستطيع أن يصل بين تاريخ

الرواية الأربعة بكل أعماقه وأبعاده ، ويصبح في حساب الرواية التقليدية ومقاييسها خيطا واهنا هزيلا .

ولكن « ميرمار » لا تخضع كل الخضوع لهذا التفسير وإن أمكن القول إنها ذات تخطيط درامى يشبه جدولا من جداول السكة الحديدية مغلق عند زاوية مهجورة داخل محطة فترة الانتقال ، جدول يتضمن أنواع القطاعات ودرجاتها ومساراتها الحتمية وتلافيا العرضى فى بعض الأحيان . ونحن نعرف أن « زهرة » لن تصل إلى هدفها عن طريق واحد منها سواء تلك التى جاءت بعد فوات الأوان أو التى تجاوزت الحد فى القدوم المبكر ، فكلها رموز فكرية - فى جانب من جوانبها - هياكل ذات سمات مستخلصة إحصائيا اندست فى إهاب شخصيات نموذجية صورت منعزلة عن حياتها الواقعية ، تمثل مختلف التيارات الجماعية المتعارضة الاتجاه فى تدفقها الفعلى بالموجات المتلاقية ، بالتفصيلات الفردية المتشابكة ولم يتضح منها فى جلاء إلا الجوهر اليبس لما تمثله من علاقات ، كقشة طافية على السطح ، وهذه القطارات تنطلق وفقا لمعادلة حسائية أطرافها مجموعة من الأخلاقيات التجريدية تكاد أن تكون مسلمات شكلية خالصة (مثل الموقف من الإيمان والشك والارتداد والخيانة والإخلاص) ، وتصورات عاطفية عن فكرة التقدم بوصفه قدرا متضمنا فى مجرد تعاقب السنوات يحمل معه وعودا بتحقيق العدل والكرامة ، وتأملات شعرية حول العمل والذات والآخرين واللجنة والجحيم .

والرواية على الرغم من ذلك حافلة بعناصر جامحة من حيوية السرد وإبراز الملامح النفسية تخرق هذا التخطيط الهامد ، وما أكثر ما مس التغلغل إلى أعماق القوى المؤثرة فى المصائر الفردية المنابع الشعرية الكامنة فى الشخصية بل إن نجيب محفوظ فى بعض الأحيان كان يقودنا فى براعة مذهلة من الأحداث الجزئية إلى الدلالات العميقة ، عن طريق كشف اللثام عن الدوافع المحتبئة وراء مظهر شخصياته - كما هو الحال مع منصور باهى على وجه التحديد - بمفاجأتهم أثناء المواقف الحاسمة التى يتخذون فيها قرارهم حينما يواجهون - كما يقول النقاد - اختيارا بين مسارات مختلفة وحينما يذعنون للهواتف الداخلية الكامنة ، ويتسع نطاق وعيمهم بالمأزق الذى يحاصرههم ، ويشرق عليهم وضوح مرير يبرز مايلتف حول جذور الوقائع الصغيرة والأفراد البسطاء من قضايا كبرى .

وإذا كنا نجد فى أغلب الأحوال تطابقا آليا بين الاتجاه العام سواء فيما يتعلق بالشخصيات أو تتابع الأحداث وبين الظواهر الجزئية أو الفردية أو المصير الخاص ، ونتج

عن ذلك أن بدت الكائنات البشرية معذبة داخل الهياكل الفولاذية الرمزية والنموزجية ، فإننا لا نعدم أن نجد هنا وهناك بعض السمات النموزجية والرمزية متفجرة خلال تراكم المشاعر والوقائع الفريدة في تنوعها وامتلائها بالتناقضات .

إننا نتطلب من « رواية » عن فترة الانتقال أن تقدم لنا شخصيات حية لا تستمد واقعيتها من البلاغات الرسمية ، ولا تعبر عن سطح الواقع الاجتماعي وتكشف عن علاقات وتناقضات تهد جذورها في تاريخه ، وتفتح على آفاق المستقبل ولكنها رغم تحددها دائما بالقوى الاجتماعية الحاسمة وصراعها المتبادل ، لا تتبع عنها ببساطة ولا تصدر بشكل مباشر ، ولا يمكن استخلاصها منها منطقيا ، فالتيارات التاريخية لا تستطيع أن تتطابق مع أية ملامح شخصية ، فلا بد أن تتضح العلاقة بين الفرد والخلية الاجتماعية التي أنجبته بكل ما فيها من تعقيد واختلاط . وهذا هو الذي يضع حدا فاصلا بين الوثيقة الروائية الفنية ، وبين سطحية الريبورتاج الصحفي رغم ألوانه الصارخة ، وبين شحوب الأرقام الإحصائية والمتوسطات الحسائية في المسح الاجتماعي . ولا جدال في أن نجيب محفوظ بمقدرته الفذة قد استطاع أن يقدم لنا رواية ممتعة عن تلك الفترة التي تشكل فجوة واضحة في إنتاجنا الأدبي رغم أنها قد لا تكون بين روائع كاتبنا الكبير الكثيرة . فهو قد أعطانا وعيا ينفذ إلى صميم مشكلاتنا ، وأوضح أن التطور الشخصي ليس شيئا فرديا فحسب بل يرتبط بالعلاقات الاجتماعية وصور الجذور الشخصية والنفسية للصراع الفكري والاجتماعي بكل ما لديه من صبر على الإنصات الطويل والإحاطة باللون الخاص للظاهرة ومعناها وتعدد جوانبها . كما حاول - دون نجاح في الكثير من الأحوال .. أن يفلت من الإطار المتحجر الذي يموه الحقيقة الفردية باسم الإخلاص للاتجاه العام ، ورسم لوحة لا تخلو من جمال ، للحياة الفكرية كما تتحقق بالفعل في واقع الحياة في رعوس الشخصيات . لا باعتبارها أيديولوجيات متماسكة منهجية بل خليطا داخله عمليات لا استواء فيها . ونجيب محفوظ يثبت هنا أن الفنان خالق ومكتشف وليس إحصائيا في مصلحة المسح الاجتماعي .

ولكننا قد نجد الشخصيات والأحداث العينية عاجزة عن أن تستوعب الدلالة الرمزية ، أو أن تمتص القضية الفلسفية وتذيبها في كيائها ، تاركة التخطيط الفكري قابلا للمناقشة خارج القصة وسياقها ، وبعض الشخصيات مرتعدة في هزالها العاري .

فنحن نجد عامر وجدى ملتحقا أكفان سعد زغلول منذ زمن بعيد ، لا يتذكر معرفة أو شيئا حسنا يمت إلى السنوات الطويلة التي تلت وفاته وسبقت الثورة . وانعزل عن

حركة الكفاح الشعبي التي إن لم تستطع الإطاحة بالنظام القديم فقد أسهمت بنصيب في زعزعة أركانه ، ولم يحاول أن يفهم أى تيار جديد ، كما يرفض الليبرالية القديمة ، بما حققته من ضمانات ومنافذ للتعبير وحقوقاً للتنظيم السياسى انتزعتها على ضآلتها انتزاعاً . وكانت الأشعة الأولى التي اخترقت الظلمات ، وهى لاشك تراث نضالى شعبى ، كان من المفروض أن عامر وجدى عاش عواصف تكوينه ، ويعرف ماله وما عليه ، وما يجب متابعته منه وتطويره ، وما يجب محوه وتجاوزه ، وإلا يضع حرية الرجعيين مع ما استطاع الشعب أن يصنعه من أسلحة لتقويضها في كفة واحدة ، كفة الحريات البالية . إن ذلك قد يلقي الظل على صلاحيته لأن يكون رمزاً حقيقياً لنضال أصيل ، وهو كفرد على المستوى الواقعى لا وظيفة درامية له تتفق مع طول الصفحات التي يتمدد عليها ، فليس إلا متفرجاً امتلاً بحكمة دب فيها العطب منذ زمن طويل ، وهى حكمة تركز على قيم تجريدية يتنفسها في هواء مخلخل ، ويدلى بها على هيئة تصريحات ، رغم أن منطق السرد الروائى يحرضنا على أن نتعاطف معها ، وقد لا تكون أشواقه الفكرية في الربط بين الحسى والمتعالى إلا حساء للمعدمين لا يشبع فهمنا إلى الانتقال مما نعرفه إلى ما لم نعرفه بعد ، بل يتركنا في صخب دائم لا نتذوق إلا حيرتنا أمام الصحف الحاوية التي يولع نجيب محفوظ بتقديمها وهى بكلماته نفسها « الأشياء التي لا يمكن تفسيرها ... والموت العنصر المحير واللامعقول ... ونحن لا نبرح نراه واقفاً أمامنا يسد طريق الرؤية » . وعامر وجدى بنصائحه المستمرة إلى زهرة بألا تواصل طريقها الوعر يشبه ذلك الرجل الذي صنع ملابسه من أوراق الجرائد القديمة ، ويأكل سطورها ، في أليس في بلاد العجائب . والذي ينصح الصغيرة بأن تشتري تذكرة إياب كلما توقف القطار رغم إيمانه بأن كل تقدم لا بد ألا يتناقض مع فكرة العدالة . وعامر وجدى في النهاية يعقد صلحاً بين القارئ والمرتد عن الماركسية ، حتى لا نعامل اليسار معاملة اليمين ، فهو يعلق على عجز منصور باهى عن التمتع بمستقبله اللامع كأنه بريق ثلاثين قطعة من الفضة ، وعلى مروره بالعقوبة الطفيفة بعد اعترافه بجريمته الوهمية كأنها مطهر ، وعلى اقترابه من تاريخنا وواقعنا متجسدين في عامر وزهرة بعد ابتعاده عن مبادئه وذبولها : إنه فتى رائع ولكنه يعاني داء خفيفاً وعليه أن يبرأ منه ، دون أن تكون هناك أرض واقعية يقف عليها هذا التعليق ، وما يتضمن من أحكام ، قفزت فوق المواقف الروائية والملاحم الشخصية .. وكذلك الحال مع زهرة ، فهل هى أول فلاحه في أدب نجيب محفوظ ، ومن ثم فهى فاتحة مرحلة جديدة لرموز وجهنا المشرق ؟ إنها ليست فلاحه تناضل بين صفوف

الفلاحين لتحقيق أهدافها الخاصة في أحضان تطور طبقتها ونضجها واكتسابها الوعي والتنظيم وتحقيقها للحياة الغنية ولم تنتقل إلى المدينة بوصفها عاملة يرتفع مستواها المادى والفكرى كجزء من حركة عامة . تستوعب نضال المثات من أمثالها بل تعيد قصة قديمة ، قصة وجهنا المعتم ، وفيها يصعد الفرد متسلقا رباط حذائه ويواجهه الآخرون بعداء لا اسم له . وهى كفرد على المستوى الواقعى تطرح لغزا يصعب حله ، فإن كل ما يحيط بها منذ ميلادها فى القرية ، كل عوامل تشكيل شخصيتها ، من يتم واستغلال أوثق أقربائها لها ، وعجزها أن تجد سندا وانعزالها الكامل عن العالم حتى لا تجد خلاصها إلا عند قوادة يونانية ، ثم تعرضها الدائم للاعتداء - يجعل إيمانها المطلق بإمكان تحقيق أحلامها ، ومقاومتها التى لاتفتر ، وكبرياءها القائمة على إدراكها لمنطق العصر فضائل جاهزة معلبة تلحق باسمها فى شهادته الميلاد .

وإذا انتقلنا إلى الماركسى الغائب عن الوقائع وجدنا أستاذنا فى الاقتصاد يهب حياته لقضية لا يفهم شيئا عن إيجديتها ، فإن جهله المتراعى الأطراف بأبسط مبادئ الماركسية لا يضارعه إلا انكماشه الخافق بعيدا عن التاريخ الفعلى للحركة التى ينتمى إليها ، لكنه لم يأخذ الكاميرا التى يحملها معه دائما تعبيرا عن واقعته ذات الجانب الواحد وصوره الذهنية الثابتة الميتة إلى اجتماع اللجنة الطلبة والعمال ، أو إلى مذبحه كوبرى عباس أو إلى بورسعيد . وهو يجموده المغلق ليس نقيضا للمرتد ، فنطقه فى الحياة الفعلية يصطدم بحركة التاريخ ويتحطم اتساقه وتتبدد مقدماته ولا يبقى منها شيء ، وما أسرع ما يتحول دكتور الاقتصاد بعقائديه الجامدة إلى ارتداد شديد « المرونة » ، انطلاقا من خيانة العقائدية الجامدة للتجربة الحية وهى النبع الحقيقى لكل المبادئ .

وهل رأينا من طريق اللا انتماء المرفوض عند حسنى علام ، وهو الذى يواجه محاولات الانتماء المتعددة التى ترخر بها الرواية ، إلا إنه لايدع ثوبا نسائيا يمر دون أن يحاول كدفعة أولى أن يرفعه بعينه المحمورتين ؟ .

ولكن ميرامار تضم إلى ذلك التخطيط الذى تحدده أفكار جافة تحمل فيها الكلمات سيوفا فى مبارزات لغوية ، وتصول وتجول فى ميدان القضايا الخلافية ، رغم كونها جيادا عرجاء فى حمل الدلالات الروائية ، اتجاهها عكسيا ينجح فى أن يعتصر ما فى الصراع الاجتماعى من عناصر درامية وشعرية وأن يجعل المعنى الرمزى يتفرق فى السرد والعلاقات المتبادلة بين الشخصيات ، وأن تضيف الحيوية الفكرية أعماقا إلى الحدث والفعل والبناء .

وهنا نقف عند البناء الفني للرواية ، فهل يمكن القول إن استخدام رواة أربعة هو مجرد تجربة أسلوبية يختبر بها نجيب محفوظ أرضه الأدبية الجديدة في عودته إلى تصوير الحياة الاجتماعية الجديدة . وأنه ليس في الحقيقة إلا شكلا خارجيا فحسب للرواية يحاول أن يصوغ أفكارها الجوهرية ، وهى التوازي والتصادم المتصل بين الواقع الاجتماعى الخارجى والوجدان الداخلى للنفس البشرية ؟.

قد لا يصح هذا القول إذا اعتبرنا الرواية لا تستهدف الوقوف عند تقديم وصف تفصيلي للمعركة الاجتماعية ، ولا تستهدف تحليلا للقوى المتصارعة ، ولا رسم لوحة للأفق الإنسانى المحيم فوق أطراف مختلفة (لوحة تعكس أحداث الحياة اليومية الصغيرة التى تلتحم بالاتجاه الشامل) ، بل إذا اعتبرنا الرواية تستهدف عن طريق أوركسترا متعددة الأصوات أن تبرز زاوية محددة من حاضرنآ ، هى العلاقة بين عناصر الاستمرار والاتصال من ناحية أخرى ، هى تشابك الحيوط التاريخية وتقاطعها فى نسيج حياتنا ، هى الرابطة بين ماض يحيا فى الحاضر ولا يقل عنه فاعلية ومستقبل يقفز من إسار اللحظة الراهنة ولم يتشكل بعد .

ومن ثم فإننا نرى كل جزء فى القصص التى تبدو منفصلة مرتبطا بالأجزاء المقبلة فى القصص الأخرى ويكتسب منها كيانه ومعناه ، فكل النغمات المتقابلة تعمق اللحن الرئيسى أو تصب فيه وهى جميعا تتضافر فى تصميم عالم متكامل له دلالة محكمة التماسك ، وتوحى بمحور مشترك ، ويؤدى تعدد الزوايا إلى بؤرة محددة أى إلى تصور للواقع وانفعال به واستجابة لأحداثه أكثر ثراء مما تستطيعه أية شخصية واحدة . إن كل شخصية تتفاعل شهادتها الخاصة فى الإطار العام لصورة الواقع الكلية ويطل شىء مشترك من وراء تعدد الملامح والتجارب سر واحد تفضى به أعماق مختلفة ، كل منها بطريقته الخاصة ، لتصل إلى صدق أكثر اكتمالا من أنصاف الحقائق التى يعيشها شاهد العيان .

وفوق ذلك فنحن لسنا بإزاء عملية « مونتاج » توحد بين قطع متناثرة تمثل نماذج متباينة ، ولا يجمعها إلا البنسيون ، لأحداث الواقع . إن عامر وجدى يرى فى زهرة ونضارتها مرآة لما كان كفاحه وتطلعه فى الماضى يعدان به كما يرى منصور باهى نفسه منعكسة فى زهرة ، باعتبارها الحياة تطلعه بفطرتها الحشنة وإمكانياتها المجردة ، بصمودها الصلب المغطى بالأشواك بآمالها الخبيثة فى قوقعة مسمومة الأطراف ... أجل إنه ينظر فى مرآة . وعامر وجدى عند منصور باهى هو أعظم الحاضرين فنة وأحقهم بالتقدير

والحب ، وكذلك منصور باهى بالنسبة إلى عامر وجدى فهو الذى يهبه البحث حينما يجمع برنامجه عن أجيال من الثورة بين دفتى كتاب ، أما حسنى علام وعدم انتمائه فهو صورة بغیضة لمستقبل الالتزام بالقيم التجارية كما نجده عند سرحان البحیرى ، تلك القيم المتبدلة التى لفظها عامر وجدى من البداية ولم يستطع منصور باهى أن يجعل منها قوتا لسعادته . إنها شخصیات قد اختيرت بحيث يمكن أن نستخلص من مواجهتها بعضها البعض معنى موحدا ، يمكن وراء تنوعات حياتها المنفصلة .

لقد وضع عامر وجدى نصب عينیه « سعدا » فى شیخوخته يتحدى النفى والموت ، وضحى بحياته الشخصية والعائلية من أجل مبادئه ، ويسترجع فى أسى ذكريات مناضل عرف السجن والتعذيب ثم ترك المعركة إلى صفوف أعدائها لأن ابنته أعز عليه من الدنيا والآخرة . أما حسنى علام فلا يعرف معنى المسئولية الشخصية والعائلية فى تعارضها مع المسئولية السياسية ، كما يحاول منصور باهى أن يفلت بجلده هاربا بنفسه من حمل مسئولية ما يعتقد ، محاولا الوقوف بالتزامه عند سعادته الشخصية والعائلية . وتومئ تلك المقابلة بين النماذج المختلفة إلى تصور لتركيب تجديد يحدد العلاقة بين مستويات الالتزام ، وهو تصور تبرزه الرواية كسؤال ملح فما حقق أحد من النماذج شيئا من أهدافه الخاصة أو العامة بل دفعت جميعا فريسة لإخفاق مرير ، فعامر وجدى قد عجز التيار السياسى الذى ينتمى إليه أن يعيد تشكيل الماضى وفقا لأهدافه ، كما عجز التيار الذى ينتمى إليه منصور باهى أن يعيد تشكيل الحاضر ، ويتطفل حسنى علام على ماضى مندر ويتشبث فى ضياع بما بقى منه ، ويتسلق سرحان البحیرى على سطح الحاضر محاولا - دون جدوى - الوصول به إلى ما بقى من الماضى المندر ، وتبرز « زهرة » كمحاولة جديدة لإلقاء السؤال عن الالتزام بقيمة محددة للحياة إلقاء سليما من خلال نقي الإجابات القديمة ، واستيعاب ما يمكن أن يكون صالحا بين عناصرها . وقد أصبح السؤال كما تطرحه زهرة أكثر بساطة فالمشكلة السياسية فقدت أشواكها بعد أن أعلنت الرواية النتيجة الحتمية للصراع ، باعتبارها لقاء بين العناية الإلهية ومنطق التطور الكامن فى مجرد تعاقب السنوات (!!) .

لذلك لم يكن من المصادفات أن الرواية لا يقوم بناؤها على التسلسل التاريخى للوقائع ، فلمشاهد لا ينبج تعاقبها إضافة جديدة ، لا يقتصر فى سردها على تلك التى تسهم فى دفع حدث رئيسى إلى الأمام ، بل إن هناك تدخلا متعمدا لإشاعة الاضطراب فى اتجاه الزمن وتتابعه ، وإخفاء العلاقات السببية وراء تدفق قد يبدو عرضيا لتيارات

الشعور وارتطامات الواقع ، فبناء « ميرامار » يقترب مما يسميه نقاد السينما « بالتوليف المتوازي » (اللغة السينمائية - ترجمة سعد مكاوى) وهو يقوم على تنمية عدة أحداث فى نفس الوقت ، بإدخال شرائح من كل منها فى سياق الآخر ، بهدف إظهار ما تتضمنه مواجهتها من دلالة ، نلاحظها من زوايا متعددة وكل رواية من الروايات الأربع تنطوى على افتقار للاتزان ، ومناطق للظل ، وفجوات فاعرة الفم تستند على حلقات معينة عند الرواة الآخرين تضيئها وتحقق لها الاكتمال . ولم يعد تتابع الرواة قاصرا على أن يضيف جديدا إلى تنمية الأحداث بل يعمل أيضا على ابتعاث صدمة شعورية نتيجة للمقابلة بين عالمين وموقفين ، أو بين اللقطات ، المتناظرة عند الرواة ، وهى التى تقوم بما يشبه التوزيع الموسيقى للواقع . فوحدة الرواية تتحقق من خلال بناء يشبه « الهارمونى » الموسيقى قائم على التوافق والتعاضد بين إيقاعات المشاهد المختلفة ، وعلى أصداؤها الانفعالية أكثر مما يقوم على الاعتبارات التقليدية .

ولكن هذه الاعتبارات التقليدية لا يمكن إغفالها رغم ذلك فهناك وحدة خارجية مفروضة بين الأجزاء الأربعة نلمسها فى الإبراز الصارخ لحبكة تكاد أن تقترب من حبكة الروايات البوليسية . فنذ البداية نصطدم بحثة الاشتراكى الزائف وسؤال عن قاتله ، وسؤال آخر هل أخذ شرف زهرة معه إلى القبر ، وفى النهاية نجد أقدامنا مترلقة فى مصادفة سعيدة نستطيع أن نتلمس تبريرا عقليا لمغزى وقوعها ولكن من الصعب أن نصل إلى تفسير واقعى لها ، فإن منصور باهى يقوم بالفعل بقتل سرحان البحرى بعد لحظة من انتحاره ، ولا تدعنا الرواية نعرف ذلك إلا فى النهاية بعد شماته وتفجع ، ولا جدال فى أنه ليس هناك ما يمنع السمات النفسية للشخصيات فى ميرامار من أن تكون تروسا فى آلة الحبكة الغليظة ، وإن تكن لم ترد فى الواقع على أن تكون حيلة فنية لرفع الأثر الدرامى وشحنه بالتوتر ، أسهم فى خلقها أن عامر وجدى ضن علينا بتقديم مذكرته دفعة واحدة ، وأخفى الجزء الأخير وراء ظهره حتى فرغ الرواة الآخرون .

ولكن نجيب محفوظ لا يضمن علينا أبدا بأدبه العظيم الذى يلعب دورا كبيرا فى تشكيل وعينا الإنسانى وصقله ، وفى شق قنوات جديدة للإبداع الفنى .

عن كتاب « العالم الروائى عند نجيب محفوظ »

القاهرة ١٩٧٨

الاستاتيكية والديناميكية

- ١ -

بحي حقي

رأيت من الفصول السابقة - فيما أرجو - أن المذهب الذي أعتقه في النقد بحكم الطبع والمزاج لا يقتصر على تقييم الأثر طبقاً لأصول النقد الحديث ، بل يأخذ بها ثم يجاوزها إلى تبين ما في الأثر من دلالة اجتماعية ، فإذا فرغ من ذلك نقب من خلال الأثر عن خفايا ملامح المؤلف الدالة على تكوينه الفني لا الذاتي ، فالذي كسبه الإنسانية هو الفرد الإنسان الفنان لا الكتاب وحده .

وقد تقول إن هذا العمل هو متعة ذهنية صرف أشبه شيء بالتحليل النفسي أو المغامرات البوليسية ، وإنه بالتالي خارج عن نطاق النقد الأدبي ، ولكني أزعـم أنه كبير الفائدة في تذوق الأثر الفني والتنبه لأسراره ، بل إلى معاني ألفاظه وفهمها على الوجه الصحيح .

وقد تبين لي من البحث عن ملامح المؤلف من خلال الأثر أن الفنانين ينقسمون من حيث المزاج - فيما أزعـم - إلى نمطين رئيسيين تجدهما في جميع المذاهب : النمط الديناميكي الذي تعكس أعماله وهج معركة ، والنمط الاستاتيكي الناجي من خوض المعارك ، عدته التأمل بلا انفعال أو ثورة ، فهو يضع حجراً على حجر بصبر ، كأنه مهندس معماري .

وسأمضي الآن إلى وصف هذين النمطين وتحديد معالمها وخصائصها مجرد وصف ، فأنا لا أقصد ولا أحب تفضيل نمط على نمط فكلاهما قادر على الوصول من طريقه إلى حد الكمال في التعبير الفني . وليست ضربة لازب أن يكون الانضمام إلى نمط هو إملاء مزاج المؤلف ، بل قد يكون من إملاء الموضوع الذي يعالجه - ولهذا لا يمتنع تحول الفنان الواحد من نمط إلى نمط فنجيب محفوظ في اللص والكلاب ديناميكي بعد أن كان في أعماله السابقة من النمط الاستاتيكي .

ونجيب محفوظ - حفظه الله لنا - أصلح شاهد على الفروق بين خصائص النمطين .. فنحن نجد الاثنين عنده ، وهو في النمطين قد بلغ حد الكمال في التعبير الفني . ثم إن

أعماله معروفة للقراء ، وهو فوق ذلك صديق عزيز منا وعلينا ، فما أسهل الكلام حين يمتزج التقدير والاحترام بالإعزاز والحب المنبعث من صميم القلب .
تعال معي إذن نر وصف النمط الاستاتيكي كما يبدو في روائع نجيب محفوظ قبل « اللص والكلاب » .

نلاحظ أولاً أن عناوين القصص كلها هي أسماء لأماكن في خريطة القاهرة : زقاق المدق ، خان الخليلي ، بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية ، هي عناوين معمارية ، كائنات جامدة هي الأخرى في وضع استاتيكي ، كائنات باردة توحى لنا بأنها تكره الانفعال ، فما بالناس بالثورة ، وأن الاهتمام أرضي لا سماوي ، وتوحى لنا أيضاً أننا مقبلون على عمل يشبه عمل المهندس المعماري ، ستبنى القصة طوبة على طوبة ، وطوبة فوق طوبة ، وكل طوبة مساوية الحجم والوزن لأختها السابقة واللاحقة ، تأخذ عين النصيب الذي يأخذه غيرها في حساب الزمن هو نتيجة قسمة عدد يمثل المدة التي استغرقها البناء كله على رقم يحصى كل طوبة دخلت فيه . فهذا المعماري الاستاتيكي هادئ الأعصاب ، إنه لا يسرع في « التنبؤ » . لأنه بلغ الدور الأخير وأوشك على النهاية ، لأن الدور الأخير عنده كالبدروم ، جزء من البناء يشبه كل جزء آخر فيه ، ليس لمكان في البناء أن يوحى له بأن يتعجل ، أو بأن يتمهل ، فهو من باب أولى عاجز عن القفز ، أي التحول فجأة في محاولة لكسر الرتابة ، من موضع إلى موضع أبعد ، يخشى لو فعل أن ينهار البناء كله . هنا جوار طبيعي لا امتزاج كيميائي ، الالتحام هنا هو مجرد تماثل وتلاصق وتتابع ، والنمو لا يشبه انفجار بركان . ينبثق أول الأمر عمود ، يتحول إلى شكل يشبه نبات الفطر ، ثم تلاعب كما شاء له الهوى في رسم أشكال عجيبة . مهولة ، بل هو نمو يشبه نمو سلالة الخلية الواحدة بالانقسام التتابعي .

البناء متين متماسك ، أسسه غائرة في الأرض ، مستندة إلى علم وفهم ودراية ، بناء لا يجر منه الماء ، لا مكان فيه للخلل في النسبة والأبعاد ، إنه من صنع « معلم أوسطى في الكار » وحين يتفصل عن الكون يخيل إليك أن خلخته هي في الأزل هكذا .. لا سدود ولا تعب ولا أستار بين النظرة الأولى وأقصى قدرة لهذا البناء على الإفصاح عن جماله وصدقه ، وعق ضغطه على الأرض مقدرا بالثقل الواقع على وحدة هي الستيمتر . كل هذا داخل في حساب المهندس المعماري .

ونلاحظ ثانياً أن القصة منقسمة إلى فصول هي الأخرى متساوية في الحجم . الانتقال من فصل إلى فصل يكاد لا يخضع لضغط يحىء من حوادث القصة ، بل هو

وليد تقسيمات يهيم بها الشكل المعماري طلبا للموازنة في شغل الحيز . تستطيع قصص كثيرة من هذا النمط لنجيب محفوظ أن تحذف الفواصل بين الفصول دون أن تخسر شيئا من قيمتها الفنية ، هي موضوعة لإراحة عين القارئ وأنفاسه لا لشيء آخر ، هي في الحقيقة علامات على طول الزمن ، تشبه الساعة التي تدق كلما انقضت ستون دقيقة . فالواصل بين الفصول هي دقائق هذه الساعة ، وكنت أحب أن أقدم عجيبة ، هي أن أحسب الزمن الذي استغرقته حوادث القصة ثم أقسمه على حجم القصة في الكتاب ، ونجمل إلى أنني لو فعلت ذلك لثبت إن هذا الزمن موزع بالتساوي لا بين كل فصل وفصل بل بين كل صحيفة وأخرى ، فقد قلت لك إن النمط الاستاتيكي لا يجب القفز . وبذلك نستطيع مثلا أن نقول إن الفصل الواحد في « خان الخليلي » يمثل شهرا ونصف شهر ، وفي « زقاق المدق » ستة أشهر وهكذا .

والكلام السابق يوحى لنا بأننا إزاء « نتيجة حائط » نترع منها اليوم ورقة مماثلة في الحجم والشكل لورقة الأمس والغد . ومن هنا يأتي دور الملاحظة الثالثة .

فلاحظ ثالثا أن القصة في هذا النمط الاستاتيكي هي امتداد طولى في الزمن ، نصحب الأبطال من نقطة بداية ثم نسير معهم كما يسير الزمن بهم - وكما لا قفز إلى الأمام - لا قفز إلى الوراء ، فليس في هذه القصص شيء من لفتات « اللص والكلاب » للماضي ، أو كما يقول هواة السينما « فلاش باك »

إذا صح هذا المنطق فلا بد أن هذه القصص خالية أيضا من الأحلام - على خلاف « اللص والكلاب » أيضا - لأن الحلم هو قفز إما إلى الأمام أو إلى الخلف ، إلى المستقبل أو الماضي . إنني أكتب هذه المقالات من وحي شعور متخلف في أعماق النفس ، إنها أبعد ما تكون عن الدراسة الجامعية التي تكثر فيها المصطلحات وتقدم لكل ادعاء دليلا ، بل أكثر من دليل . لهذا أرجو حين أقول إن قصص العهد الاستاتيكي لنجيب محفوظ خالية من الأحلام أن يصححني قارئ فيذكر لي مثلا يكذب ادعائي ، إذا فعل سأكون له من الشاكرين . إنني أكتب هذه الفصول بعد مضي زمن غير قصير من قراءتي لهذه القصص ، فلا يسلم رأيي من الخطأ ، وأعترف أنه كان الأولى بي أن أقرأها من جديد لأثبت مما أريد أن أقوله .

وقد بلغت قدرة نجيب محفوظ الحارقة على المتابعة الزمنية ذروتها في الثلاثية لأنها لم تقتصر على الفرد ، بل شملت سلالة جيلا بعد جيل . إنها قصة عظيمة تشبه نهراً عظيماً نركبه من منبعه إلى مصبه .

والملاحظة الرابعة مترتبة حتماً على الظواهر الشكلية السابقة ، أو قل على الخصائص السابقة . فما دام الشكل هندسياً ، وسير الزمن طولياً من بداية إلى نهاية ، فلا مفر من العناية الفائقة بالتفاصيل الصغيرة ، لأنها هي « المونة » التي تلصق الطوبة بالطوبة . وأغلب الذين قرأوا لنجيب محفوظ أو كتبوا عنه وهو في هذا النمط الاستاتيكي لم يفهم الانتباه لهذه العناية بالتفاصيل الصغيرة . إنه لا يجد بأساً إذا وصف وصول شخص إلى المحطة أن يقول - على مهل - إنه نزل من القطار إلى الرضيف فتقدم إليه شيال حمل حقيبته وسار إلى باب المحطة فنقده أجره واستقل « تاكسي » كان واقفاً أمام الباب (أعتقد أن هذه الفقرة وردت بهذا النص في إحدى قصصه لا أذكرها الآن) . أعترف أن هذه التفاصيل تغيظني في بعض الأحيان وإن كنت لا أغفل عن أن هذا الغيظ هو عين الجهل والحماقة . فالواقع أنك لن تستطيع حذف هذه التفاصيل الدقيقة من القصة كما لا تستطيع أن تحذف طوبة تعتمد عليها طوبة أخرى في البناء . ليس هذا بعيب ، بل هو خاصة من خصائص النمط الاستاتيكي الذي لا يستطيع بدونها أن يؤدي رسالته أو أن يبلغ حد الكمال في التعبير الفني كما بلغه نجيب محفوظ ، فالتفاصيل الدقيقة هي خير أساس ملتحم أشد الالتحام بالزمن الذي يسير طولاً ، بكراهة القفز ، بتحريم الأحلام ، بل أكاد أقول برغبة المؤلف في الاختفاء . إنه يدفع في وجوهنا ليصدنا عن رؤيته بكل شيء يقدر عليه وتملكه يده . إن هذه التفاصيل الدقيقة هي من قبيل التلويع بخرقه من القماش أمام عيني المستمع لمنعه من النظر لمحدثه .

ولا أستطيع إن أقول أن سبب هذه التفاصيل الدقيقة راجع إلى انعدام القلق ، فلا قيام لعمل أدبي أصيل إلا على قدر ما من القلق الفني - و الفرق بين الانفعال أو الثورة التي يكرهها النمط الاستاتيكي وبين هذا القلق الفني الذي لا غنى عنه - ولكن هذا النمط الاستاتيكي بسبب خضوعه لسحر الأشكال المعمارية الهندسية التي تتطلب التؤدة والانتظام في الخطو ، والصبر على وضع طوبة فوق طوبة تنشأ له قدرة فائقة على هضم هذا القلق الفني أو على تكييله ، فيكون أشبه شيء بالإشارة غير المباشرة في الديكورات الحديثة ، إنها تأتي من بعيد ، موزعة لا تتركز على مكان دون مكان ، إنها تشمل العمل الأدبي ولكن لا ترهقه ، فأنت معذور إذا لم تستلفت أو تغشى بصرك أو ترج أعصابك . ومن دلائل القدرة البالغة حد الإعجاز أنه رغم استغراقه في النمط الاستاتيكي وتفاصيله الدقيقة لا بد أن تورثك قراءة القصة شعوراً غامضاً لذيذاً بما تبطنه سرا وخفية من قلق فني . إنه كرجع الصدى لا يصل إلى سمعك إلا هينا رخياً من بعيد وإلا أثر تمام

القصة وارتدادها عنك إلى الوراء فلا تبقى لك منها إلا شبهة ضئيلة من عطرها الذكى ..
والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة صفة شائعة بين الناشئين لأنهم يحسبون أن الأمانة الفنية
مطابقة للأمانة الأخلاقية . فمن الأمانة الأخلاقية إذا وصفت لى حجرة دخلتها أن لا
تترك فيها شيئاً كبيراً أو صغيراً إلا قيدته وذكرته ، إنهم أمناء على عهدة يخشون أن يفرزها
مراقب حسابات ، فلا بد من أن تسجل فى الدفاتر بالتمام والكمال . ويتصور المؤلف
المسرعى الناشئ أنه من الأمانة أيضاً إذا أدخل خادماً بفنجان قهوة لضيف أن يدخله
مرة أخرى ليأخذ الفنجان الفارغ .. فهذا هو المنطق وهذا هو الحادث فى الحياة ؟ ولعل
من أصدق علامات النضج هو تخلص المؤلف من أمانته الأخلاقية ليخلص لأمانته الفنية
وحدها .

وهذا الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة عند نجيب محفوظ - أمام القصة وأستاذها الأكبر -
هى أيضاً وليدة الأمانة ، ولكنها أمانة من نوع آخر تتمثل فى أرقى ما يبلغه الفهم والبصر
والحس بأسرار صنعته وفنه - فهذه التفاصيل الدقيقة هى كما رأيت عنصر ملتحم أشد
الاتحام ببقية عناصر النمط الاستاتيكي الذى قامت عليه أعماله السابقة « اللص
والكلاب » .

- ٢ -

إن ميلى إلى مطالعة وجه المؤلف من خلال الأثر (بعد أن أفرغ من تقييم حرفيته طبقاً
لأصول النقد الحديث ومن البحث عن دلالاته الاجتماعية) جعلنى أحس أن الفنانين
ينقسمون من حيث المزاج - بصفة عامة - إلى نمطين رئيسين : نمط يحىء عمله وليد
الترعة إلى التأمل الطويل بلا انفعال وأسميته تجاوزا « الاستاتيكي » .
ونمط يصدر عمله عن توهج نفسى مكتسب من خوض معركة لها ثلاثة أوجه ،
واسميته - تجاوزا أيضاً « الديناميكي » .

ثم مضيت فى البحث عن خصائص النمطين ، وبدأت بالاستاتيكي ، ووجدت أن
خير تطبيق للرأى الذى أزعمه أن أتناول بالفحص أعمال الصديق العزيز الأستاذ الكبير
نجيب محفوظ قبل « اللص والكلاب » لأنها خير مثال فى نظرى للنمط الاستاتيكي
فتكشفت لى عن خصائص هيامه بالتركيب المعمارى الذى فسرت به دلالة أسماء رواياته :
« خان الخليلي ، زقاق المدق ، بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية » . وتماثل فصوله

في الحجم . وتبين أيضا أن العناية بالتفاصيل الدقيقة ليس إطنابا يستحق اللوم ، بل هي من مستلزمات هذا النمط الذي يسير في السرد مع الزمن خطوة خطوة ، ومن البداية إلى النهاية ، فلا عودة للوراء ، ولا قفز إلى الأمام ، ولا أحلام ..
وها أنا أمضي فأتقصي بقية الخصائص وأبدأها بالازدواجية .

الازدواجية

قد رأيت أن السرد في النمط الاستاتيكي عند نجيب محفوظ يساير الزمن خطوة خطوة ، ومن بداية إلى نهاية ، وهذه المصاحبة لم تقتصر في يده القوية البارعة على فرد واحد بل امتدت فشملت أسرة هذا الفرد بأكملها ، وهي تنمو وتتفرع جيلا بعد جيل ، لا عجب أن وصف النقاد عمله بأنه « مسح اجتماعي » ولكن هذه المصاحبة الزمنية المنتظمة المتصلة ، وإقامة الاعتماد في تحليل الشخصيات على وسائل من أبرزها تتابع الحوادث في خط طول ، كل هذا أتاح للعمل أن يتقبل - دون أن يتأذى - ظاهرة لصيقة بالنمط الاستاتيكي عند نجيب محفوظ أسميها بالازدواجية .

فنجيب يريد مثلا أن يصف لنا خلق الأب عبد الجواد في الثلاثية ، فيحكى لنا قصة مخادنته لواحدة شهيرة من « العوالم » المغنيات ، ويطلعنا في تفاصيل عديدة على صورة دقيقة للدخيلة نفسه وعجائب طبعه ، فيحس القارئ أنه تتبع وفهم السيد عبد الجواد حق الفهم من هذه الناحية ، إنه ليس في حاجة إلى مزيد .

فإذا بنا نرى نجيب بعد قليل - بحكم التبع الزمني وحده - يجعل عبد الجواد يهجر هذه العالة وينتقل إلى « عالة » ثانية هي نسخة مكررة للأولى . ولا أقصد بالتكرار طبعاً مطابقة الشبه أو الصفات الجسدية أو الخلقية بين الاثنتين ، بل أقصد به تكرار الدلالة ، فهي واحدة ، فليس في « العالة » الثانية شيء ينبئ عن تحول مزاج عبد الجواد ونظرته إلى جمال المرأة من طراز إلى طراز بسبب تقدم العمر مثلاً ، فمن الناس من يعكس ويحب في الكبر الصغيرة إنما هو مع الثانية عين الرجل مع الأولى ، رجل يحب أن يتره نفسه - كما تقول العامة - وأن يذيع له صيت بأنه إمام في مجالس اللهو والغرام ، وفي خفة الدم والفكاهة وإدخال السرور على جلسائه ، مع أريحية وكبرياء واعتداد بالنفس ، وأن يشتر عنه أيضاً أن قدرته على اصطياذ النساء لا حد لها ، أي أنه في كلمة واحدة « سبع البرمة » (وأعترف أنني لا أعرف معنى البرمة هذه فهل من يدلني عليه ؟) وكل هذا قد

عرفناه بالكمال والتمام من المغامرة الأولى ، فأنت قد تتوهم أن قصد الرواية هو أن تحكى لنا لا من هو عبد الجواد فحسب ، بل كل الذى جرى له فى حياته أيضا ، فهى أشبه بالسيرة .

والدليل عندى على الازدواجية أننى ما زال أذكر عبد الجواد بوضوح فى مجلس لهوه ، رغم أننى قرأت الرواية منذ زمن غير قليل ، ولكنى نسيت كل النسيان وجه العالمة الثانية ، بل نسيت كل النسيان أيضا السبب الذى من أجله هجر الأولى للثانية ، وليس هذا بغريب لأن وصف عبد الجواد جاء فى أكثره وليد المصاحبة الزمنية على خط طولى ، يقوم على تتبع الحوادث .

والسؤال هو : هل تمت صورة عبد الجواد بمجرد تقديم المغامرة الأولى ؟ وهل هذا التمام يكفى القارئ أن يتوقع أو يتصور - دون أن يحكى له نجيب - أن هذا الرجل لا يستغرب من طبعه أن ينتقل من « عالمة » إلى أخرى ! .

إن النظرة السطحية الأولى سترد بالإيجاب ، ولكنى عكفت على تأمل هذه الظاهرة فلما أدخلتها فى نطاق النمط الاستاتيكي تبينت لى حقيقتها وصححت لى رأيى الأول كما سترى فيما بعد .

ومن النظرة السطحية أيضا إن نقول أن الازدواجية تظهر مرة أخرى فى سيرة الابن الأكبر يس الذى نقل الجانب الحسى عن أبيه . يصفه لنا نجيب وهو يحاول الاعتداء على خادمة ، ويطلعنا كذلك فى تفاصيل عديدة على صورة دقيقة للدخيلة نفسه وعجائب طبعه ، فإذا بنجيب وبحكم التبع الزمنى وحده يجعله يحاول الاعتداء مرة أخرى على خادمة ثانية . ولا بد للنظرة السطحية أن توجه عين الأسئلة التى وجهتها إزاء ازدواجية الأب : عن شبح القارئ وتمام الوصف وتوقع الذى حدث فيما بعد دون أن يروى لنا ..

وكان النسيان عندى منسجبا هذه المرة على صورة الخادمتين لأن القصد لم يكن رسم صورة دقيقة لها أو أن يكون لها دور فعال فى الرواية ، بل هما مجرد تكتين لتيان غلبة الحس عند يس على بقية جوانبه .

وكنت أميل إلى المداعبة وأسأل ، لو عاش يس بيننا فى عصرنا هذا الذى يتبدل فيه الخدم علينا ليزداد « حلوان » المخدم - هل كانت ستحكى لنا الرواية مغامراته مع كل خادمة ، مع ثلاث ؟ مع أربع ؟ مع خمس ؟ .

بإذن ما هو الحد الحتمى الذى يجب الوقوف عنده ، ولا بد من استعمال كلمة

« الحتمية » هنا لأن العمل الفني كما نفهمه اليوم هو قبل كل شيء خاضع كل الخضوع للحتمية لا في الاقتصار على اختيار الحادثة ذات الدلالة فحسب ، بل في اختيار اللفظ الواحد لمعنى واحد . لم يعد هناك مجال للتكرار ، ولا للسجع اللفظي أو الذهني أو الوصفي .

ليس بيننا أديب يعرف أصول فنه مثل نجيب ، من أجل هذا الفن وحده دخل كلية الآداب ودرس الفلسفة وعلم الجمال ، وأطلع اطلاع القاهم الفاحص الواعي على غرر الأدب العالمي ، بل دخل معهد الموسيقى الشرقية وأجلس « القانون » على ركبتيه ولبس « الكستبان » في سباتيه ، وأشهد أني لم أحدثه في مشكلة فنية إلا هداى إلى الصواب ، وإلى المراجع ، وتتبع لى المسألة من جذور أم أمها ، وأجل صفة فيه أن علمه أكثر بكثير جدا من كلامه ، ولو كتب كما يتكلم لكان أيضا إماما لا يبارى في الأدب الفكاهي ، ولو شاء أن يضع على الورق ما يقوله شفاها لأصدقائه وجلسائه في ندواته لكان إمام هذا الجيل في النقد أيضا - ولعلك قرأت تحليله البارع وتفسيره الذكي لمسرحية « لعبة النهاية » .

فهو - إذ نعود للأزدواجية - سيد من يعلم أن الفن ليس تصويرا فوتوغرافيا ، وليس زخرفة من نوع الأرابيسك .. فلماذا إذن ظهرت الازدواجية التي قد تشبه للنظرة السطحية - كما حدث في أول الأمر - بالتصوير الفوتوغرافي ؟ إن في أدبه مسائل غامضة غير قليلة تحتاج إلى دراسة حتى تتضح على وجهها الصحيح ، ومن بينها التزامه - وهو أمام الواقعية - لكتابة الحوار بالفصحى ، وسأتكلم عنها فيما بعد ، ومن أجل الجواب على السؤال الذي يبحث عن علة ظهور الازدواجية والتزام الفصحى في الحوار أكتب هذه الفصول لتبين حقيقة صنعة نجيب وحقيقة سرها القائم على منطق سليم مستمد من شروط النمط الاستاتيكي وخصائصه .

وقد بينت من قبل - حين استعنت بهذا النمط الاستاتيكي في التفسير - أن التفاصيل الدقيقة عند نجيب ليست من قبيل الإطناب المردول بل هي من مستلزمات هذا النمط وخصائصه ، هي « المونة » التي تلصق الطوبة بالطوبة ، والطوبة فوق الطوبة ، وقلت إن هذا النمط قادر هو أيضا على بلوغ حد الكمال في التعبير الفني ، بدليل أن نجيب بلغ هذا الحد ، بل تجاوزه إلى سماوات أعلى في ثلاثيته ، ولن يتأتى لهذا النمط أن يبلغ هذا الحد إلا بفضل اجتماع كل خصائصه التي أبحث عنها لأبينها ، وأفهم سرها وعملها .

فالكمال الفني مرتبط باجتماع هذه الخصائص كلها ، وتفاعل بعضها وتساندها

ببعض ، ومن الخطأ الجسم أن تفرز خاصية واحدة وتركز الضوء عليها - كما يفعل النظر السطحي - لأنها حينئذ تبدو في صورة كاذبة مضللة ، الانفراد هنا شلل ، أما الحركة فتأتى عند الاجتماع .

وهذه الخصائص بمثابة قيود الشعر من حيث التزام الوزن والقافية . وقد يظن الواهم أول الأمر أنها أغلال تحد من قدرة الشاعر وحرية وتجبره على قول الذى لا يريد لأن القافية تريده ، فالقافية تحكم - كما تقول العامة - ولكن من له أدنى بصر بالشعر وطبيعته يدرك أن حرية الشاعر لا تتأتى له على أكمل وجه إلا وهو يعمل داخل هذه القيود - وهذا القول قد يبدو من المتناقضات ولكنه من أعجب حقائق الفن . وأحب أن يتبته لهذه المسألة كل الذين يتكلمون عن الشعر الحديث . فيخطئ كل الخطأ من يظن أن الازدواجية عند نجيب هي سجع وصنى . كلا ، إنها من الخصائص اللصيقة التى لا بد منها للنمط الاستاتيكي من أجل أن يجد اتزان له ليبلغ حد الكمال فى التعبير الفنى .

فهذا النمط قائم على التأمل . إن عين المؤلف عين جاسوس يتتبع أبطاله خطوة خطوة تلاحقهم أينما ذهبوا . ونجيب فى الثلاثية لا يرسم « منياتور » منمنمة ، توضع فى إطار صغير ، أو صورة خاطفة لموقف إنسانى ، بل يرسم لوحة عريضة جدا ، لا يعرف الأدب العربى كله عملا يماثلها فى الاتساع .

خمس وخمسون شخصية على الأقل تمر أمامك فى طابور استعراضى - ثم تنقسم وتتداخل والأيدى متماسكة حتى خيل إليك أنها يد واحدة . تشكيلات عديدة لاتنفك تتبدل وهى تنمو ، كأنك تطل من خلال ميكروسكوب على نهاويل حركة لكائنات حية دقيقة لا ينقطع اضطرابها .

فإذا أدخلنا الازدواجية ضمن هذا الإطار وأخضعناها لإحكام حبك النسيج على منوال التأمل والصبر ، والبناء المعمارى ، ومسايرة الزمن طولا خطوة خطوة ، وجدت أنها تقوم بدور لا غنى عنه لاتزان العمل الفنى ونطق ملاحه الصادقة .

- ٣ -

اللذة الحسية هى ولادة حاجة الجسد فى المطالبة بجميع حقوقه ونيله لها ، وهى عنده فى المحل الأول ، وتندرج فيها الغريزة الجنسية ، وشهوة الطعام والشراب ، وقد تشمل لمس الحرير وشم العطور .

واللذة العقلية هي ولادة اتقاد الإدراك الذهني ، وتبلغ ذروتها حين ينجح صاحبها في اكتساب منطق يؤمن بسلامته ، فيعينه على الفهم ، وحل المعميات والألغاز ، وقهر المتناقضات . وتلازم هذا المنطق قدرة على الخيال . وصاحب هذه اللذة يهيم بالفلسفة ومسائل العلم ومشاكل المجتمع وتعارض القوانين ، ويجد في تأملها وفهمها وحل عقدها لذة لا تعلو عليها لذة أخرى .

واللذة الروحية نجدها في مجال العواطف ، تتدرج تنازليا من شطحات المتصوفين ، إلى الحب العذري ، إلى تلك المرتبة الرفيعة التي يبلغها في بعض الأحيان الحب الكامل بين الجنسين ، إلى الشفقة والحنو على الضعفاء وعلى الحيوان الأبيكم .

وقد تشابه اللذة الفعلية واللذة الروحية في قدرتهما على الحدس الذي يصدق حكمه . هذه هي الدروب الثلاثة التي ينقسم عليها الناس . فيهم من يجمع بينها كلها ، أو بين اثنتين ، وفيهم من ينفرد بواحدة يعلى قدرها على غيرها ، إما عن إرادة أو عن عجز . وأفضفض أحيانا وأقول لمن يأنس لى من جلسالى - رجالا ونساء - إن الحب بين الجنسين - كما يفهمه الإنسان المتحضر في العصر الحديث - هو الذى يتحقق فيه شبع الجسد والروح والتصور العقلى المقترن بالخيال . ونحن في مصر نشكو من غلبة اللذة الحسية ، وربما يكمن في تخلصها أسباب أكثر الشقاق بين الزوجين أما الطبقات الراقية حضارة عنا فتستطيع أن تقرن اللذة الحسية باللذة الروحية . ولكن قليلا منا - فيما أظن - هو القادر على الجمع بين المقومات الثلاثة ، لأن اللذة الناتجة من التصور العقلى المقترن بالخيال في الحب هي علامة نضج حضارى وثقافة رفيعة .

ولا خلاف في أن اللذة الجنسية في صورتها الفجة هي أحط اللذات ، فلا فرق فيها بين الإنسان والحيوان .

فما الذى نتظره من القصصى وهو يصف لنا الحياة ؟ نتظر بطبيعة الحال أن لا يضع هذه اللذات الثلاث على مستوى واحد ، لا لأن المساواة منافية للحق ، أو للأخلاق ، أو للذوق السليم ، بل يكفى - مادما في عالم الفن - أن نقول إنها منافية للجمال . هذا مع أن الأدب قد عرف كثيرا من القصصيين الذين عنوا باللذة الحسية وتمجيدها ، ولكنك إذا دقت النظر وجدتهم لا يقصدون الصورة الفجة لهذه اللذة . بل قصدوا أمرين : الأول - هو إرجاع هذه اللذة الحسية إلى منابعها الأصلية الأولى التى تنعكس فيها رغبة الإنسان في التجدد وقدرة الطبيعة على هذا التجدد ، فالجسد في أغلب الأحوال رمز للأرض . إن خيال هؤلاء المؤلفين مفتون بالخلقة الأولى حين كان

السائد على البشر والكون مفاهيم واحدة ، إنها الحلقة البكر التى لم تتلوث بعد . والثانى - هو الثورة على القيود والأغلال المصطنعة الزائفة المناقفة التى قيدت هذه اللذة فأفسدتها وكتبته وردت الإنسان مسخا يستحق الرثاء ومصابا بالعقد عاجزا عن التمتع بحياته ، يخاف من الانطلاق . هذا هو سبب إعجاب الأوروبيين بالزنج وحسداهم لهم فى رقصهم وغنائهم وتجردهم التام من كل حياء كاذب فى العرى والغريزة الجنسية . ونسأل بعد هذه المقدمة ، ماذا كان موقف نجيب فى ثلاثيته من هذه اللذات الثلاث ؟ لأن هذا المؤلف هو من المسائل الغامضة المحيرة فى أدبه .

إن النظرة السطحية الأولى قد تتوهم أنه يسوى بينها ، بل قد تتوهم أن اللذة الحسية هى الأعلى مقاما ، ولكن الحقيقة لا تتجلى إلا إذا عالجت هذه المسألة داخل إطار النمط الاستاتيكي الذى التزمته الثلاثية . وإنى أفرد هذا الفصل لبحث هذه الظاهرة التى أسميها « الاستوائية » عند نجيب ، ولأننى هذا الوهم الناجم من النظرة السطحية الأولى .

الاستوائية

واضح أن غرض نجيب من ثلاثيته أن يقوم بعمل يشبه المسح الاجتماعى ، فهو لا يقتصر على سيرة فرد ، بل يتبع من بداية إلى نهاية ، وفى مصاحبة زمنية طويلة ، منتظمة متصلة - سيرة الأسرة كلها وهى تنقسم جيلا بعد جيل إلى فروع عديدة . والسؤال الأول يتعلق بحرية الفنان . فهل لنا أم ليس لنا الحق فى أن نسأل لماذا اختار نجيب الدخول إلى هذا الميدان الفسح من بين أبوابه كلها الباب المكتوب فوقه « باب اللذة الحسية » . فالسيد عبد الجواد - عماد الرواية - هو مثل حى يجسم هذه اللذة ، إنه أورثها أيضا أبنة الأكبر يس بصورة سافرة ، ولأبنة الأصغر بصورة مستترة . وكان لا مفر أن يدور فى فلكه نماذج بشرية كثيرة هى أيضا صورة مجسمة للذة الحسية ، ويسقط ظلهم على الرواية كلها حتى يجيل للقارئ أنه يثقل كاهلها ويثقل كاهل نجيب نفسه وهو ماض إلى عمله الجليل ، وأعنى به هذا المسح الاجتماعى الذى يضم أيضا ثورة سنة ١٩١٩ . إن النسب بين المظاهر والعلل والأسباب والنتائج وحوادث الرواية قد خضعت لهذا الظل حتى يقال إنه كاد يطغى عليها ويفسد صدقها ويصبح نوعا من الفروض الجدلية لا من الممكن والمحتمل وقوعه عمليا فى نظر الفن .

والجواب على هذا السؤال لا نزاع فيه . إن حرية الفنان ينبغى أن تظل مطلقة ، لا

يغلها قيد ، فأولا لولا دخول نجيب من هذا الباب لما قامت الثلاثية ، ولكتب نجيب قصة أخرى مختلفة تمام الاختلاف ، وثانيا لأن المؤلف مقود بخبراته وتجاربه ، إنه يحدثنا عن الشيء الذى يعرفه ، لا الذى يتوهمه ، وإن كانت قدرة نجيب أو خبرته بالأوساط التى يتحدث عنها والتى ظل يتأملها بعين النسر بلا انفعال سنين طويلة تفرض عليه الدخول من هذا الباب فلا يحق لنا أن نعترض عليه .

ولكن النظرة السطحية الأولى كانت ترجو منه أن يحقق لنا شيئين : الأول أن لا يقدم لنا اللذة الحسية فى صورتها الفجة ، بل أن يرفعها ويفلسفها كما فعل الكتاب الذين حدثتك عنهم ، وإذا لم يشأ أن يفعل هذا ، فعلى الأقل لا يترك القارئ العادى يتوهم أن اللذات الثلاث هى عنده فى مرتبة استوائية ، قد يقول معترض إنه رسم فى « فهمى » صورة قريبة من اللذة العقلية ، ورسم فى « كمال » صورة قريبة من اللذة الروحية الساترة للذة الحسية ، وإن القارئ هو المكلف حيثئذ بأن يوازن بين هذه اللذات الثلاث ويستخرج ما يشاء من العبر ، ولكن القارئ العادى من حقه أن ينتظر من نجيب أن يعينه ولو قليلا على هذا الانتباه - لا بالحكم والمواعظ - لا بالتدخل المباشر والعياذ بالله - بل بشيء من المقابلة غير المقصودة بين الأضداد ومواجهتها بعضها لبعض ، أو التفريق غير المقصود أيضا بين النتائج بحيث تكون كل نتيجة هى الجزء الحق لكل لذة من الثلاث . وهذا القارئ معذور إذا حكم من التلاوة السطحية الأولى أن نجيب لم يفعل ذلك ، ومعذور بالتالى أن يتوهم هذه الاستوائية التى حدثتك عنها .

إن الجزء الأكبر مقدمة الرواية غارق فى اللذة الحسية ، وكان لابد فى عرضها واستخدام دلالتها من اللجوء إلى ألفاظ وجمل تعبر تعبيرا مباشرا وبدون كناية عن هذه اللذة الحسية ، والتنبيه لهذه الألفاظ والجمل متوقف على درجة حساسية كل قارئ ، فأنا واثق أن كثيرا من القراء لم يتبهاوها .

والشئ الثانى الذى كان القارئ ينتظره من نجيب - فى حكم النظرة السطحية الأولى - هو أن الخط الأفقى الذى سارت عليه الرواية ، وهو وليد التأمل بلا انفعال والمصاحبة الزمنية الطولية المتصلة المنتظمة ، كان ينبغى أن يقف عند موضع لينقلب فورا إلى خط رأسى يكون بمثابة المحور الذى يجب أن تدور عليه الرواية ، إن لم يكن كلها فعلى الأقل الجانب الذى تضمنه هذا الموقف ، وأعنى به تلك اللحظة الرهيبة التى رضى فيها السيد عبد الجواد أن تكون عشيقته الراقصة العالمة زوجة لابنه ثم سيدة داره . لا مجال للمراوغة فى أن هذا الموقف هو الدمامة بعينها - والجمال ينفر بطبيعة الحال من هذه

الدمامة إذا جاء بها المؤلف « على بلاطة » أو لو عالجها على نفس المستوى الذى يعالج بها الجمال أو اللذات الأخرى التى تعلو ولا تهبط من قدر الإنسان .

وقد يقول معترض ، ألم تذكر أنت بنفسك غلبة اللذة الحسية عندنا ؟ فما الذى فعله نجيب أكثر من تقديم هذه الحقيقة فى الشكل القصصى ؟ ولكنى أرد عليه بأن الفن ليس نقلا فوتوغرافيا ، ونجيب سيد من يعلم هذا ، بل إنه فى المحل الأول محدد للقيم الجمالية سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر .

إن الثلاثية تذكرنا فى تقسيمها للأبناء بين اللذات الثلاث برواية « الأخوة كرامازوف » لدستوفسكى . لقد ابتكر دستوفسكى هيكل روايته من عصارة قلبه وذهنه ، استمدادا من بيئته وتاريخ أمته ، من خصائص أمته ومزاجها ، وعلى بعد آلاف من الأميال وبعد عشرات من السنين ابتكر نجيب محفوظ هيكل روايته من عصارة قلبه وذهنه ، استمدادا من بيئته وتاريخ أمته ، من خصائص أمته ومزاجها ، لا شأن له برواية دستوفسكى ولا أثر لها عليه ، ولكن تشييد الهيكل فى روسيا وفى مصر اقتضى فى كل من الروايتين أن تسلك طريقا يسمح للمؤلف بعرض الفروق بين أبطاله . فكان ديمترى عند دستوفسكى هو - بغير عمد - ياسين إلى حد ما ، وكان كمال هو اليوشا الذى يعيش فى قصر الشوق ، وتكاد صورة الأب أن تكون متطابقة هنا وهناك فى اللذة الحسية ، وإن كان السيد عبد الجواد شخصية محببة إلى الناس ، والأب عند دستوفسكى شخصية بغیضة كريهة . ولكن انظر ماذا فعل دستوفسكى لديمترى ، إنه جعل سقوطه من أثر استغراقه فى اللذة الحسية مأساة إنسانية تهتز لها القلوب .

ولكن من الحق أن نغمض أعيننا عن وجود الدمامة . من حق الأدب الواقعى أن يتناولها ، وقد سبق للرومانتيكية أن انتهت لها ، وخيل للناس أنها مجدتها ، ومحدثنا ألكسندر دوماس الابن أنه كان فى المدرسة الثانوية يغیظ هو وزملاؤه أستاذهم الشيخ الجليل الذى يدرس لهم الأدب الكلاسى بقولهم له ، أيا أستاذ ! الجميل هذه الأيام هو الدميم . ولكن الرومانتيكية فى الحقيقة وصلت للدمامة عن طريق هيامها بالخيال وتجواله فى سراديب الإنسان وكهوفه للكشف عن مخبآته ، إن لهفتها على وصف الدمامة هى لهفة المكشف الذى تقع عينه أول مرة على منظر لم يسبق لأحد أن رآه أو لم يشأ أحد أن يراه ، وكانت النظرة لا تخلو أحيانا كثيرة من رثاء ، إن الدمامة عند الرومانتيكى هى تشويه يثير الرغبة فى معرفة سببه وسره وسماع أنيه ، أو عقدة تنازل المتأمل وتحداه أن يحلها . لقد انتفع كثير من مرضى النفوس بهذه الرخصة فدلخوا على مؤلفاتهم قبح نفوسهم

المتعفة ، ولكن الذنب ذنبهم لا ذنب الرومانتيكية أو المذهب الواقعي الذي ورث نظرتها للدمامة وأضاف إليها أيضا النظرة التفسيرية التحليلية - أو النظرة المداعبة التي تميل إلى تخفيف وقع الدمامة بالفكاهة .

وكان لابد في معالجة الدمامة في موقف السيد عبد الجواد أن تكون محورا رئيسيا تدور عليه الرواية ، أو الجانب الذي يضم هذه الدمامة بحيث يمهّد لها نجيب منذ أول الرواية ويجعلنا نحس بوسائله الفنية أننا مقدمون عليها ، فإذا قابلناها وجها لوجه خلق فينا بوسائله الفنية أيضا هذا الاشمئزاز الذي ينبغي أن يكون هو الجزء الحق لهذه الدمامة . ولكن نجيب لم يعدل عن الخط الأفقي ، أى أنه لم يعدل عن الاستوائية .

- ٤ -

انقسام الفنانين إلى نمطين اثنين - استاتيكي وديناميكي - لماذا ومن أين جئت بهذين الوصفين غير المؤلفين في النقد الأدبي ؟ .

هذا سؤال أوجهة لنفسى . وأجابتى عليه بسيطة ليس فيها ذرة واحدة من الفلسفة وزعم المزايم ، إنها إجابة قارئ يحب بطبعه أن يبحث عن الإنسان في الفنان من وراء الأثر ، وأن يحاول تفسير إحساسه بهذا الإنسان . وقد خيل إلى بعد رحلة العمر أنني وقفت دائما بازاء نوعين لا ثالث لهما ..

النوع الأول : فنان تحس من أثره أنه يخوض معركة ، معركة مع أطماع النفس كالمتنبى والشريف الرضى - معركة مع مشكلة وقد تكون لغوية ، مثل المعرى في لزومياته ، معركة في ميدان القيم الروحية - الصراع بين الإيمان والكفر ، بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة ، مثل دستوفسكى ، معركة من أجل الوصول إلى كمال التعبير الفني وقهر المادة المستعصية التي يعمل بها الفنان - سواء أكانت الحجر أم الأنغام أم الألوان أم الألفاظ - مثل بيتهوفن وميخائيل أنجيلو وذى الرمة . إننى أحس من آثار هذا التفركله بوهج هو نتيجة انتقاد الانفعال ، انفعال قد يصل إلى درجة العذاب المضنى للروح ، هؤلاء هم المعذبون في الفن ، يعملون وكأنما العرق يتصبب من جباههم ، أعصابهم متوترة ، والإرهاق يوشك أن يجعل وجوههم تنطق بالعبوس والتجهم .

والنوع الثانى : فنان نجا من هذا الانفعال ، أما بفضل إلهام يهبط عليه من حيث لا

يدرى - مثل موزار ، وإما بفضل سيطرة عقلية عدتها التأمل لا الانفعال ، إنها تفضل
وهي تخطو أن تشمر عن ساقها لثلا تعلق ملابسها بالأشواك ، ثم تلوذ بالمرتفعات لتنظر
من بعيد وإلى أسفل ، إنها قد تزدري الانفعال وتراه علامة على أن صاحبه لم يهتد بعد
إلى نفسه .. إنه صنف لا يحب أن يخلق في السماء ، وتكفيه متعة الأرض . هكذا أنشأ
أبو تمام لنفسه في أحضان اللغة معملا كيميائيا ، يحد كل متعة في أن يشق في اللفظ
والمعنى من الشعرة شعرتين .

- بهذا الانشقاق تولد وتنفذ مباحجه . وهكذا عاش ترجيف على حافة الأعاصير لا
داخلها ، حتى في علاقاته الجنسية فضل على الزواج ومتاعبه أن يعيش عشيقا لزوجته
صديق يتحمل هو مسئولية البيت وتربية العيال ووجع الدماغ .

فالفصل هو الفرق في الانفعال أو النجاة منه . وهذا التقسيم يظهر في جميع
المدارس والمذاهب الأدبية لأن مرده هو طبع الإنسان الذي لازمه منذ مولده . ولم يكن
قصدي أن أفضل نوعا على نوع ، بل ذكرت أكثر من مرة فيما سبق أن كلا منهما قادر ،
في حدود إمكانياته وخصائصه ، على بلوغ درجة الكمال في التعبير الفني . ورأيت أن
أفضل وصف أطلقه على النوعين هو الديناميكية والاستاتيكية .

ولكن هذا الكلام لا نفع فيه إذا لم يؤد إلى منهج نستطيع أن نحدد به خصائص كل
نوع من النوعين ، الخصائص اللصيقة به ، الدالة عليه ، فإنها هي وحدها التي تعطينا
التعليل الشامل الذي تندرج تحته كل الجزئيات فتكشف عن سرها وينجلي الغموض
الذي يحيطها إذا تناولنا كل جزئية على حدة .

فلما أردت أن أنتقل من النظرية إلى التطبيق ، فضلت أن أتمثل بالأستاذ نجيب
محفوظ لأنه معروف لدى القراء ، ولأنه - لحسن الحظ - انتقل من نمط إلى نمط . وكان
ينبغي لي أن أبدأ « باللص والكلاب » لأنها في نظري أروع مثال للنمط الديناميكي .
ولكني رأيت أن خصائص هذا النمط في هذه القصة لن تبين بجلاء إلا إذا قارنتها بأعماله
السابقة التي يمكن وصفها بأنها هي الأخرى مثل فذ في وضوحه للنمط الاستاتيكي ،
فبدأت بها وجعلت ألف وأدور حول خصائص هذا النمط المعتمد على التأمل ، الهائم
بالشكل المعماري ، بالتبع الزمني على خط أفقي ، لأقصر إلى الأمام أو إلى الوراء ، لا
أحلام .

فلما فعلت ذلك تكشفت أمامي دعائم أقيم عليها تعليل بعض الظواهر التي قد تخطئ
النظرة السطحية في فهمها إذا تناولتها مفتة مجزأة ، واستبان - كما أرجو فيما رأيت - لماذا

وجدنا في هذه الأعمال ميلا إلى التفاصيل الثانوية الدقيقة ، وإلى التقسيم الهندسي للفصول ، وإلى الازدواجية أى تكرار التجربة ، وإلى الاستوائية أى الوقوف موقف الحياد إزاء المثل التى يعتنقها أبطاله . فلولا درجتها في نمط الاستاتيكي وتفسيرها به لحيل كما قلت للنظرة السطحية أنها عيوب في حين أنها خصائص لهذا النمط ، هى التى تعينه ولا تعوقه على بلوغ حد الكمال في التعبير الفنى داخل نطاق إمكانيات هذا النمط ووسائله . والدليل على ذلك سيأتى بعد أن أفرغ من آخر هذه الخصائص ، أعنى لماذا يكتب نجيب حوار قصصه الواقعية بالفصحى لا بالعامية .

فهذه المسألة إذا عولجت وهى منفردة وفى حكم الجزئية المنفصلة قد تبدو للنظرة السطحية محيرة أشد الحيرة . فليس بين كتابنا من يقارب نجيب في فهمه الناقد للنظريات الأدبية وفى تطبيقه لها فى أعماله ، فكان من المنتظر من إمام الواقعية فى الأدب الحديث أن يكتب الحوار بالعامية ، فهذا شرط من شروط هذه المدرسة الواقعية ، لأن الحوار عنصر هام في تحديد الشخصية وأبعادها ومدى ثقافتها .. فيقولون ليس من الصديق ولا من الواقع أن يتكلم الجاهل كالعالم ، وابن البلد كخريج الأزهر ، وستخفق إخفاقا شديداً إذا نقبت في كلام نجيب محفوظ عن تحليل يرضيك : انظر مثلاً حديثه مع الأستاذ فؤاد دواره في كتاب « عشرة أدباء يتحدثون » فقد سأله :

- يقول الأديب الإنجليزي دزموند ستوارت في مقال نشر له بمجلة « المجلة » أن الترامك للفصحى في كتابة الحوار مغل بمطلب الواقعية الذى يطمح فيه القراء الأجانب ولا يؤدي وظيفته الفنية في الرواية - وقرأت على لسانك مرة أن اللغة العامية مرض سيتخلص منه الشعب حين يرتقى .

فأجاب نجيب :

- فيما يتعلق بدزموند ستوارت أعترف أنني لم أفهم اعتراضه مع أنى قد أفهمه إذا جاء من أديب عربى ، فالمفروض أن النص يترجم بما فيه من سرد وحوار إلى لغة إنجليزية واحدة - أما أنى اعتبر العامية مرضاً فهذا صحيح ، وهو مرض أساسه عدم الدراسة ألخ ألخ .

وقد ظلم نجيب دزموند ستوارت لأن الناقد الإنجليزي تكلم عن النص العربى لا عن ترجمته إلى الإنجليزية ، إنه مستشرق يقرأ العربية ، فهو يطالب نجيب أن يكتب الحوار بالعامية في النص العربى سواء ترجم هذا النص أو لم يترجم ، لأن كتابة الحوار بالعامية من أهم مطالب المدرسة الواقعية في نظر هذا الناقد .

وأنت ترى كذلك أن نجيب لم يفند بكلمة واحدة كذب الادعاء بأن الحوار العامي مخل بمطلب الواقعية ، وكنا نريد منه إجابة صريحة على هذا السؤال فيقول هل هو مخل أو غير مخل .

هذه المسألة المحيرة تتكشف على حقيقتها هي الأخرى في نظري إذا فسرناها بأنها من مستلزمات النمط الاستاتيكي ، فهذا النمط ناجح - كما رأيت - من الانفعال ، وهو لا يجب أن يدخل في صراع مع مشكلة التعبير ، والانفعال - أو القلق إن شئت - هو الذي يولد الإحساس بأن الفصحى غير مطابقة للصدق الذي يتطلبه المذهب الواقعي . فنظرة النمط الاستاتيكي نظرة بانورامية ، من عل إلى أسفل ، ومن بعيد ، بحيث لا ترى التشابك بالأيدى بين اللفظ الفصيح والعامي في محاولة كل منهما زحزحة الآخر للحلول محله حين يحىء دور الحوار . إن السيطرة العقلية في هذا النمط هي التي تدرى أن ينشأ من الصراع بين اللفظين انفعال أو قلق . فلو كتب نجيب حوار الثلاثية بالعامية لتفككت أوصال النمط الاستاتيكي الذي تقوم عليه ولأصبح هذا الحوار العامي عيباً في الرواية . لقد تحدثت عن هذه المسألة بعقلية أنصار المذهب الواقعي وطبقاً لمطالبهم وشروطهم ، فهم المسئولون عن هذا التناقض بين المذهب والتطبيق في الثلاثية وغيرها من أعمال نجيب السابقة .

ولك أن تعترض وتقول لي ، لو صح منطقك هذا لفضى بأن يكتب نجيب حوار « للص والكلاب » بالعامية لا بالفصحى كما فعل - وأظنك تشهد أن قيمتها قد زادت ولم تقل بكتابة هذا الحوار بالفصحى - وسأتولى الإجابة على هذا الاعتراض عندما يحىء دور الكلام عنها في موضعه .

* * *

أعود وأقول إنني حاولت وصف النمط الاستاتيكي عند نجيب وتقييمه ، وذكرت أكثر من مرة أنه قادر في حدود إمكانياته على بلوغ حد الكمال في التعبير الفني ، والدليل على ذلك أن نجيب نجح في خلق المجاورة الوجدانية بيتنا وبين أبطاله . وقد بلغت هذه المجاورة عندي ذروتها في موقفين : الأول : خروج الزوجة مطرودة من بيتها لهفوة بسيطة لا تستحق مثل هذه القسوة البليغة ثم ذهابها إلى أمها الضريرة ووصف اللقاء بين المسكيتين . والموقف الثاني سير كمال وراء نعش وهو لا يدري أنه يضم جثمان حبيته . وأعترف أنني أحسست في الموقفين بغصة في حلق وسخونة الدمع في عيني ، وما كان بكائتي إلا رثاء لكل المظلومين وجميع التعساء .

ترتيب الكلام كان يقتضيني بعد أن فرغت من وصف النمط الاستاتيكي عند نجيب محفوظ أن أمضى فأتبع خصائصه عند أبي تمام وترجيف وبقية أضرابها ، ثم أنتقل إلى النمط الديناميكي بادئا من جديد بنجيب محفوظ في « اللص والكلاب » لأنها مثل فذ لهذا النمط ، ولكني رأيت الكلام عن نجيب يحسن به أن لا ينقطع ، ليستقل به بحث متصل ، وحتى تراد المقارنة بين النمطين عنده وضوحا ، ولذلك سأعدل عن المضي في تتبع خصائص النمط الاستاتيكي لأقفز إلى التحدث عن الديناميكية في اللص والكلاب .

قرأنا لنجيب بعد الثلاثية روايته « أولاد حارتنا » وهي تأتي في اعتقادي في قمة الأعمال التي سبقي له ويخلد بفضلها اسمه ، فقد حقق بها ما عجز عنه غيره من الكتاب . حقق الأمل الذي كنا نتطلع إليه ، وهو ارتفاع الأدب عندنا إلى النظرة الشاملة والتفسير الفلسفي الموحد للبشرية جمعاء ووضع تاريخ الإنسان كله في بوتقة واحدة ، فيعلو عما ألفناه إلى حد التخمّة في الأدب الواقعي من وصف نفث من حياة أفراد في نطاق دلالات جزئية أو مؤقتة مرتبطة بزمان له أحكامه الذاتية وبمكان محدود لا يتكرر .

حقا إننا نستطيع أن نصل إلى هذا المستوى عن طريق المحلية إذا علت بما هو عارض نسبي إلى ما هو باق ومطلق ، وهذا نوع نهضمه أكثرية القراء لأنها تجدد في الإطار المحلي ما يغنيها عن تأمل الدلالة المحتفية وراءه .

ولا نجد قبل « أولاد حارتنا » رواية يرتفع فيها الأدب إلى مثل هذه النظرة الشاملة وهذا التفسير الفلسفي الموحد للبشرية جمعاء ، لذلك كان فهمها على حقيقتها وإدراك رموزها يتطلبان من القارئ حسا مرهفا وثقافة رفيعة . إنها لم تحظ من النقد بما تستحقه من العناية .

ومع ذلك فلم يحس عامة الناس بأنهم بإزاء وجه جديد لنجيب محفوظ علقت نظرتهم بالحوادث وحدها ومنهم من ظن أنها رواية واقعية بسبب جريانها في أحياء معروفة في القاهرة . فلما صدرت بعدها « اللص والكلاب » أحس الجميع - حتى القارئ غير المشتغل بالأدب والنقد - أن نجيب قد حدث له شيء يشبه « الميتامورفوز » أي أنه تحول من خلقة إلى خلقة - وترجمة هذا القول عندي أنه انتقل من النمط الاستاتيكي الذي شرحته لك سابقا إلى النمط الديناميكي الذي سأحدثك عنه .

أول خصائص النمط الديناميكي أنه وليد انفعال متقد . ويحسن بي أن أترث هنا قليلا لأحدث عن حقيقة هذا الانفعال ومعنى خضوع المؤلف له . وقد نقل إلينا كثير من الكتاب لحسن الحظ تجاربهم في هذا الصدد ، فقالوا إن فكرة القصة قد تنبثق في ذهن المؤلف فجأة - أو هكذا تبدو ، وأن كانت في أحيان كثيرة خلاصة لتفكير طويل في خفية من الوعي - ثم ما تكاد تنبثق حتى تصبح مثل الجذوة المشتعلة التي تحرق أعصاب المؤلف وتستأثر بكل انتباهه وتكاد تهز روحه وجسده هزا عنيفا . ويسير على من يخالط مثل هذا المؤلف في تلك اللحظات أن يدرك ما يحدث له من رؤية قلقة واضطراب حركته وعدم استقراره وقلة صبره ، وغياب ذهنه ، ويظل المؤلف على هذا الحال من الانفعال إلى أن تتم الفكرة في ذهنه ، وتشكل وراء سحب من الغمام والضباب صورتها النهائية وأبعادها الحقيقية ونسبها الصادقة وواقعها الخاص بها الذي سيحل محل واقع الحياة ، يحس أن خلقها قد كملت وأن ولادتها قد تمت .

ويحذرك هؤلاء المؤلفون إذا كنت من الكتاب وحدث لك ما حدث لهم أن تجلس من فورك وأنت ماتزال في حدة انفعالك لتكتب روايتك ، وأن تصب هذا الانفعال كما هو على الورق ، هذا هو عمل الغشيم ، لن يخرج من يده عمل صالح . بل ينصحونك أن لا تبدأ الكتابة إلا وأنت خاضع لسلطان ذهن بارد كل البرود ، ملم بكل دقائق هذا الانفعال وأسبابه وأغراضه ، ولكنه متحرر مترفع عن كل هذا ، لأن عمل المؤلف حين يبدأ يكتب هو في الحقيقة إزاحة الضباب والغيوم ستارا بعد ستار ، حتى يصل إلى الصورة الكاملة التي كانت روحه تحبسها وتحبس كمالها دون أن تبين كل معالمها وملاحمها ، الانفعال باق ولكنه منضبط ، ويحدث فصام في شخصية المؤلف فكأنه رجلان ، واحد منفعل وآخر هادئ يروى عنه .

والغريب أن بعض الكتاب يحس حينئذ أن اللغة تصبح كأنها مخلوق حي واع ، فيما يكاد يظهر على الورق لفظ حتى تراه يستأذن في الانصراف لشعوره بأنه ليس في محله ، أو بأنه مبهم ، ليستدعي إليك لفظا أصدق منه ، وهذا يستدعي لفظا ثالثا أشد صدقا وهكذا دواليك حتى تفر اللغة ذاتها بأنها بلغت الدرجة التي ترضاها لك من الصديق والوضوح وأن تراكيها وتراثها القديم قد أوحى لكل بكل ما عندها . وهذا الدور نستطيع أن نسميه بدور الصنعة فلا فن بدون صنعة .

فالألفاظ في النمط الديناميكي ليست مفلوطة العيار ، بل مقدرة بحكمة ، مختارة بوعي ، ليطابق جرسها موضعه من النغمة الجزئية وفي اللحن العام للأثر الأدبي . ولكنك

مع ذلك تحس أن هذه الألفاظ تشع بجمارة شديدة .
وكان من حسن حظي أن شهدت انفعال نجيب محفوظ بفكرة رواية « اللص والكلاب » وإن كنت لم أعرف ذلك إلا فيما بعد ، ففى أيام حوادث محمود أمين سليمان .
وهو سعيد مهران فى « اللص والكلاب » كنت ونجيب جارين فى مصلحة الفنون ونخرج معا ، فكنت أسأله أحيانا ماذا تقرأ هذه الأيام وماذا يشغلك ، فكان يضحك فى وجهى ، يقول لى - لا شغل ولا تفكير إلا فى محمود أمين سليمان . وكنت فى تلك الفترة إذا دخلت عليه مكتبه وجدته يذرعه حية وذهابا ، فكأنى أوقظه من غيبوبة أو أردته من عالم مجهول إلى عالمنا ، لو انطلق مدفع بجواره لما أحس به ، يلباه معقودتان وراء ظهره ، رأسه مرتفع مائل للوراء ، وأفهم من صوته أن ريقه جاف ، لو نقرت على جسده لرن رنين قوس المنجد ، بين الحين والحين يرفع يده إلى جبهته ويمسحها ، كأنه يزيل عرقا أو يهدئ حرارتها ، ينحيل للنظرة الأولى أن وجهه صارم متجهم مأزوم ، ولكنه فى الحقيقة وجه رجل مستغرق فى تفكير عميق مستحوذ عليه . طبعاً لم يخبرنى نجيب حينئذ أنه يؤلف « اللص والكلاب » فالمؤلفون يكرهون عادة الإفصاح عن الفكرة وهى ما تزال فى دور التخمير ، بل يقول أنذريه جيد إنه إذا فعل ذلك أحيانا وجد الفكرة فى غاية البواخة والتفاهة حتى لتحذثه نفسه بالعدول عن كتابتها . ما أشبهها بأغانينا حين ينشدها المطرب بدون تحت مصاحب له .. هى دائما غاية البواخة والتفاهة .

نعم ، بعد أن وصل نجيب لذروة الانفعال وحس الصورة الكاملة التى ولدت فى أعماق أعماق روحه ، هدأ وأسلم نفسه لحكم الذهن البارد وحده ، الذهن المتحرر من الانفعال المترفع عنه ، ليحسن بناء عناصر الشكل الفنى لروايته والتنسيق بينها .
ولعلك تذكر أننى قلت لك سابقا إن الأثر الديناميكى هو الذى يوحى بأن مؤلفه يخوض معركة ، معركة مع أطماع النفس ، أو معركة من أجل الوصول إلى الكمال الفنى وقهر المادة المستعصية التى يعمل بها الفنان - الحجر أو الألوان أو الأنغام أو الألفاظ ، وأخيرا معركة فى ميدان القيم الروحية ، أعنى الصراع بين الخير والشر والحق والباطل .
وأنا مؤمن أن نجيب لا يخوض معركة مع أطماع النفس ، تلك المعركة التى نخس بها فى شعر المتنبي والشريف الرضى . فى حديثه مع فؤاد دواره المنشور فى كتابه « عشرة أدباء يتحدثون » يقول إن مطعمه الأوحى فى الحياة هو أن يتفرغ للإنتاج الفنى . بل تأملت كل الألم وتحسرت أشد التحسر حين فهمت من كلامه أنه بعد هذا الإنتاج

الضخم الذى كان يكفى عشر معشاره لكاتب غربي أن يصبح من كبار الأغنياء .
فهمت أنه لايزال مهموما بفكرة الاستقرار المالى ومواجهة المستقبل بثقة واطمئنان .
لاشك أن هذا الكلام قد بدر منه على غير إرادة فى ساعة حلا فيها الحديث وصفا الجو
فأنس إلى محدثه فكشف له فى لحظة خاطفة طرف ستار عن نفسه . لأنه فى مجالسه مع
أخلص أصدقائه لا يتحدث أبدا عن المال ومطالب الرزق ، بل أستطيع أن أشهد لك
أنه من أجل صداقاته - وهى غريزة عنده لأنها ترجع إلى عهد الصبا - قد ضحى
ويضحى إلى اليوم بحقوقه المالية ، فالحياء والرقه والقناعة والاعتزاز بالصدقة تشل عند
نجيب كل جري له وراء حقوقه .

ومنذ اليوم الذى قصد فيه أن يكون مؤلفا روائيا أخلص وجهه للفن ، تاركا كل
مطلب آخر دبر أذنه ووراء ظهره ، إنما جعل همه الأوحد أن يجمع فى يده كل الوسائل
التي تعينه على الإجابة . من أجل فنه دخل كلية الآداب ودرس الموسيقى . من أجل فنه
ألزم نفسه أن يلم إلماما كاملا مستندا إلى دراسة شاملة مستفيضة للإنتاج الأوروبي سواء فى
الفلسفة أو الأدب أو النقد ، واشتغل موظفا فى الحكومة ، فقنع بكل منصب - ولو
ضئيلا - شغله . ليس فى نجيب ذرة واحدة من طبائع الموظفين ، ليس فى حياته كلها سعى
وراء درجة أو علاوة أو افتتان ببريق السلطة أو أهبة المنصب ، ولا تستغرب إذا قلت لك
إنه - مع ذلك - موظف مثالى ، لم يحدث له أن تأخر عن الوصول إلى مكتبه دقيقة
واحدة بعد دقة الساعة معلنة الثامنة صباحا . كان هذا دأبه حتى وهو يشغل المنصب
الرفيع كمدير عام لمؤسسة دعم السينما . إنه يفعل ذلك لأنه حريص على أداء واجبه وأن
يكون قدوة لغيره - بل - وهذه هى الحقيقة - أن يبعد عن نفسه وجع الدماغ ليفرغ إلى
فنه . وكنت أغتاض منه أشد الغيظ وأنا فى مصلحة الفنون حين كان يقف إذا وقفت
ولا يجلس إلا إذا جلست فأقول له معاتبا ، متى تفرض هذه السيرة وهذا التزم وتعاملنى
معاملة الأصدقاء . لم أفلح فى زحزحته عن مسلكه ولو قيد أنملة . وظل هذا دأبه معى
حتى فى ندواته الخاصة فى سطح مقهى الأوبرا - ما أكاد أصل حتى يقف ويترك لى
مقعده ويتخلى لى عن الحديث . ولم أدفع مرة ثم المشروب من جيبى . كنت أتمنى أن
يهفو هفوة واحدة لأحس أن الكلفة بيننا قد سقطت وبخاصة وهو يرانى أفضى إليه بكل
أسرارى ، وإذا جلست معه هشتت له وتركت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير
محتشم . لو كان مكانه موظف آخر ملأ الدنيا صراخا ونعيقا وشكوى واحتجاجا حين
انتقل من منصب المدير العام لمؤسسة دعم السينما إلى منصب ليس لاسمه هذا الدوى ،

منصب الخبير الذى « يستشار » ولا يأمر .. أما نجيب فقد فرح أشد الفرح كأنه كسب « لوترية » أو رأى ليلة القدر ، وقبل يده ظهرها لبطن .. لأنه لا يريد إلا أن يتفرغ لفنه ، أما كل هذه المظاهر التافهة فإنه يتركها لغيره من المشغولين بأطماع الدنيا ، الهاممين بمجد المناصب الرفيعة .

وحين تؤرخ لنجيب محفوظ فينبغى أن تفسر على هذا الضوء لماذا قبل أحيانا أن يكتب اسمه على سيناريو من تأليفه ثم امتدت له يد المنتج بالتعديل والتحوير طبقا للمفهوم السخيف للسبينا عنده . فعل نجيب هذا ليضمن لنفسه أولا وقبل كل شىء أن يتفرغ للأدب الرفيع وهو هادئ النفس خالى البال .

وحين ندرس « اللص والكلاب » سنلاحظ أنه أيضا لا يخوض معركة مع الكمال الفنى وقهر المادة المستعصية ، بل كانت معركته فى ميدان القيم الروحية .

- ٦ -

« اللص والكلاب » أنموذج عبقرى فذ لهذا النمط الذى أسميته تجاوزا بالنمط الديناميكى لأنه وليد الانفعال ، جاوز به نجيب محفوظ حد الكمال فى التعبير الفنى ، كما جاوزه أيضا عن طريق نمطه السابق الذى أسميته من قبيل المقابلة بين الأضداد بالنمط الاستاتيكي ، وكانت الثلاثية هى أنموذجه العبقرى الفذ هى الأخرى .

و « اللص والكلاب » تكشف عن خصائص هذا النمط الديناميكى ما هى . على نقىض خصائص النمط الاستاتيكي كما عرضتها عليك فيما سبق .

العنوان = الانفعال

الانفعال باد فى العنوان . إنه متدلج فى أول كلمة يطالعها القارئ . خرجنا هنا عن استخدام أسماء أحياء ومساكن جامدة توحى بالبناء المعمارى ولا تتم عن الموضوع ، أما فى « اللص والكلاب » فتحس من العنوان ذاته أنك مهيا لخوض صراع عنيف ، وتجد فيه خلاصة رموز العمل كلها ، فورا كل كلمة من الكلمتين أكثر من معنى واحد محتمل .

الشكل والمضمون

ليس هناك فرق أكبر من الفرق بين حجم « اللص والكلاب » وحجم الثلاثية . إنك تضع الأولى في جيبك ، ولابد لك من حمل الثانية في حقيبة سفر . والحجم الصغير هو الذى أغرى بعض النقاد - وكنت أنا بينهم - على المسارعة إلى القول بأنها قصة قصيرة مطولة ، وفضل أنور المعداوى حين التفت إلى تعدد شخصياتها وتشابك خيوط أقدارها أن يصفها بأنها رواية قصيرة من هذا النوع المسمى « بالنوفيل » أو « النوفيليت » ، والسبب في اختلاف الحجمين لا يرجع فحسب إلى أن الثلاثية مرتبطة بطبيعة الحال بما قصدت إليه من وصف شخصيات جملة - بلغت نحو من ٥٥ شخصية - في منشئها ونموها وتطورها على مدار حقبة طويلة من الزمن ، وأن عمود « اللص والكلاب » هو اعتصار حادثة صغيرة محددة بأيام قليلة لاستخراج ما يكمن فيها من دلالات عميقة كبيرة ، بل يرجع السبب قبل كل شيء - فيما أعتقد - إلى أن « اللص والكلاب » هى وليدة الانفعال . وأثره المستهلك له هو شدة التوهج لا تنقل عمره بين إنقاذ بطيء متصل وذبول مستمهل ، هيات للمنفعل أن « يلت ويعجن » ليس هنا أقل اهتمام بالتفاصيل الدقيقة بل تكاد تكون كلها محذوفة . هنا تحرر من الخضوع لمنطق ترقب الحوادث في السرد بعضها إثر بعض ، ليس هنا مصاحبة زمنية في خط أفقى متصل من أول نقطة في البداية إلى آخر نقطة في نهاية النهاية يمشى القارئ معها الهوينى ، لا يمتنع عليه أن يترث بين الحين والحين (سواء وصل إلى آخر الفصل أم لم يصل) ثم يعاود السير فلا يضيره هذا التوقف .

أما في « اللص والكلاب » فأنت مع مؤلف منفعل ، إذا أمسك بيده المؤرقة يدك فمحال أن لا يسرى إليك انفعاله ، وأن لا ينفذ إلى أعماق قلبك ، محال أن تتخلى عنه إلا بعد أن تفرغ من خطف مشواره ، التريث ممتنع ، إنه يجرى بك فتلهث ، لا تشكو من اللهثان بل تطلب منه المزيد فأنت تعلم أنك بعد الوصول ستحس بهذا الحذر اللذيذ الذى يعقب إسقاط كل عواطفك على العمل الذى قادتك ، أنت مع مؤلف لا يجرى فحسب ، بل يقفز أيضا ، يقفز بك من الحاضر فيقفز إما من الماضى إلى المستقبل ، وإما من المستقبل إلى الماضى . أنت لا تملك إلا أن تستسلم له في متعة لذيدة وهو يجمع لك بين رؤية اليقظة ورؤية المنام ، صدق الدلالة فيهما واحد ، فلا مجال لك لأن تنتبه أنك تنتقل من عالم إلى عالم ، بل تخيل إليك أن الحلم هو الحقيقة ، وأن الحقيقة هى مجرد

حلم . هذه هي قدرة الأعمال الرمزية البارعة على خط الزمن ومجالات الشعور في عجينة واحدة .

وقد سبق لي في مجلة « المجلة » أن عبرت عن إعجابي الشديد بقدرة نجيب الفائقة وحسن توفيقه في اختيار الموقع الذي ينقطع فيه حديث الحاضر لتنتقل إلى حيث الماضي . فالزمن ليس خيطاً واحداً ينسلك عليه الحاضر أو الماضي ، بل هو عدة خيوط تجرى معا في صف واحد ، تتقابل وتتشابك ثم تنفك وتتباعد لتعود مرة أخرى إلى الالتقاء وهكذا دواليك . كما تحدثت في المقال ذاته - فيما أذكر - عن براعته الفذة في اختيار أداة الإيصال التي تناسب الموقع ، فهو يتنقل بإحكام من السرد إلى فتات من الحوار إلى المنولوج الداخلي فلا تحس بفضل هذا الإحكام إلا أن الحديث كله من معين واحد . لا فرق بين ضمير الغائب وضمير المتكلم . هذا هو خداع الفن الذي لا يظهر به إلا صدقه ويتجلى جماله وتم رسالته .

ومع أنني قرأت « اللص والكلاب » بانتباه شديد إلا أنني أحسست بعد الفراغ منها أنني لم أستوعبها ، وأنتى في حاجة لأن أقرأها مرة أخرى وأنا أمشي وحدى أترث كما أشاء عند كل نبضة من نبضاتها لأستمع بها دون أن يحرنى نجيب وهو يجري ويقفز ، على حين أنني بعد الفراغ من الثلاثية لم أجدني قادرا على قراءتها من جديد إلا إذا أردت أن أتمتع مرة أخرى بمفاجأة كمال لنفسه إبان أزمتة الروحية ، فهي أنشودة شعرية فلسفية عميقة بلغ بها نجيب قمة الغنائية وقمة المأساة ، أو إذا أردت أن أكتب بحثا عن الأغنية في عصر الثلاثية فإنها تتضمن منها ذخيرة غنية لعل كثيرا من الناس لم يتنبهوا إليها .

وليس السبب في عزوفي عن القراءة الثانية للثلاثية هو طولها فحسب بل لأنني أيضا أجد فيها تقاربا في الوزن بين الحادثة ودلالاتها ، إنه اعتدال يقاس بضبط مؤلف متأمل صبور غير منفعل . ليس في الثلاثية فائض يهرب من بين يديك في القراءة الأولى ، أما في « اللص والكلاب » فالدلالة أضخم بكثير من الحادثة ، الحادثة مجرد نكتة يتخذها نجيب لعرض فلسفته ونظريته للحياة ، للكشف عن التباين والاختلاف بين القيم في ذاتها وفي حكم الناس ، عن الصراع بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين المؤقت والإبدى ، عن التضاد بين النية والعمل ، والوجه والقناع ، عن الصراع بين الفرد وذاته وبينه وبين المجتمع ، عن الفروق بين لغة أهل الدنيا ولغة أهل الآخرة .

قد نجد في الثلاثية تفصيلا للتفصيل ، أما في « اللص والكلاب » فلا نجد إلا خلاصة الخلاصة ، الأقوال المقتضبة التي ينطق بها الشيخ على جنيدى وكأنها نبوءات

«أوراكل» في معبد إغريق ، هي خلاصة لأطنان من كتب التصوف ، وتلك الصور القليلة العابرة التي بدت لنا فيها «نور» هي خلاصة لحياة بائعة هوى من ساعة انزلاقها إلى ساعة تحطمها ، الشيخ على الجنيدى ونور هما القطبان اللذان يتخبط سعيد مهران بين جذبيهما . وهذا التلخيص هو الذى يجعلك قادرا على أن ترسم فى ذهنك للتصوف وبائعة الهوى فى « اللص والكلاب » صورة لا تقل ، بل قد تزيد وضوحا ، عن صورة إحدى الشخصيات الرئيسية فى الثلاثية رغم أن نجيب قد وصفها لك بتفصيل شديد .

وليس التلخيص فى « اللص والكلاب » وقفا على وصف الشخصيات ، بل يشمل أيضا وصف الأماكن ، كالقهوة ومترل نور ، إنها هى الأخرى بسبب هذا التلخيص أشد وضوحا للقارئ مما لو عمد المؤلف إلى رسمها بدقة وتفصيل .

لن نخرج أدبنا القصصى عن رتابته وسطحيته إلا إذا ارتكز على مثل هذا التلخيص الذى تفيض بفضلله الدلالة فيه على الحادثة . فهذا الفائض هو المجال الذى تتجلى فيه للمؤلف نظرة فلسفية ترفع الحدوتة إلى مقام التعبير الفنى المخلف لأثر صادق وعميق . وقد أحسن نجيب حين اقتبس للمعالجة حادثة روتها الصحف ، مبقيا على ما يهيم فيها من ملامح ظاهرية ، وقد يُخيل للمتسرع أن هذا الاقتباس قيد يقلل من فضل المؤلف ويغل يديه ويخضعه لتسلسل مفروض عليه من الخارج ، ولكن العكس هو الصحيح ، فإن التجاء المؤلف إلى هذا القيد هو نجاة له من الاضطرار إلى فبركة حادثة وهمية ، ليستبقى كل قوته وحرته وانطلاقه للمعالجة الفنية والكشف عن الدلالة . وقد بما قال جوته « الفن هو وضع نبيذ قديم فى قنينات جديدة » هذا القيد الذى يجعل حياتنا الواقعة تزداد غنى حتى تبصر الدلالة التى قد لا نراها من وراء الحادثة .

اللفة

فى النمط الاستاتيكي تحتفظ الألفاظ فى أغلب الأحوال بهيئتها وحدودها التى نجدها عليها فى القاموس - ولأن نظرة المؤلف الصبور المتأمل غير المنفعل مصوبة من عل فقد قلت احتمالات الصراع بين الألفاظ وساغ استعمال الفصحى فى الحوار بدل العامية فى الثلاثية مع أنها من المذهب الواقعى .

أما فى النمط الديناميكي - بشهادة « اللص والكلاب » - فإنك نحس - بسبب انفعال المؤلف - أن الألفاظ قد انصهرت هى الأخرى فى بوتقة ، فأصبحت الصلة

بعيدة بينها وبين هيئتها في القاموس ، اكتسبت شحنات وأطيافا عديدة لم تكن نظن أنها قادرة عليها - ألفاظ مجنحة منطلقة استشرت من جمودها ومهاجمها ، قامت تنفض عنها التراب ليدب فيها عنقوان الحياة - لا عجب أن تلاقى منها الضدان لأول مرة في عمرها ، وإن كثر التشبيه البارع في « اللص والكلاب » . وجمع هذا التشبيه بين المعنويات والماديات - وتمثيل شهادة رجل مستهام ومتهم بكثرة اعتماده في الوصف على التشبيه إذا قال لك إن « اللص والكلاب » قد بلغت فيه قمة لم ترق إليها قصة أخرى - حتى ولا قصة « السمان والحريف » التي كتبها نجيب نفسه بعد « اللص والكلاب » . وإذا انصهرت الألفاظ في بوتقة واحدة تضاءلت الفروق بين العامية والفصحى - ليست العبرة هنا باللفظ ، بل بشحناته - ومن أجل هذا ساغ أيضا في « اللص والكلاب » استعمال الفصحى بدل العامية في الحوار . ظاهرة واحدة نجدها في كل أعمال نجيب محفوظ ولكننا نصل إليها من طريقين مختلفين كل الاختلاف كما رأيت . إنني واثق أن « اللص والكلاب » هي أصلح قصة عندنا للترجمة إلى اللغات الأجنبية . إنها ستهمز القارئ الأجنبي هزها لنا نحن في مصر .

فرغت جعيتي - أو كادت - من الكلام عن نجيب محفوظ ، ولعلني لم أتحير لكل موضع ما يستحقه من إجمال أو تفصيل . كل الذي أعلمه أنني قلت بإخلاص ما عندي ، وأجرى على الله .

وسأعاود البحث على مهل في فرصة أخرى أرجو أن تكون قريبة .

عن كتاب « عطر الأحباب » بيروت ١٩٧١

الشكل الروائي من « اللص والكلاب » إلى « ميرamar »

د . لطيفة الزيات

فرضت « اللص والكلاب » العديد من الأسئلة على الناقد بمجرد ظهورها . وقد وجد الناقد نفسه إزاء شكل جديد للتعبير ، يتبناه الكاتب لأول مرة . وتأتى عليه أن يتوقف عند هذا الشكل الجديد بالدراسة والتحليل والتعليق ، وأن يربط بينه وبين المعنى العام للرواية . وأن يوضح إلى أى مدى يجسم هذا الشكل المعنى العام ويخدمه ويدعمه . وكان عليه فوق هذا وذاك أن يتساءل عن مدى الأهمية التى يمثلها للكاتب ، هذا الشكل الجديد ، أهو مجرد ضرورة فنية عابرة تفرضها مادة معينة عابرة ، أم هو شىء أكثر من هذا ؟ أم مجرد منطلق لوسيلة جديدة من وسائل التعبير أم هو التجسيم الدرامى لرؤية جديدة للحقيقة ، وقد تكاملت فى هذا الشكل . وكان من المستحيل إذ ذاك - وقبل أن تستكمل المرحلة الفنية التى بدأت مع اللص والكلاب أبعادها - التوصل إلى إجابة شافية-على هذه الأسئلة ..

وكان من السمات التى استرعت انتباهى إبان ظهور الرواية النسيج .الذى نتلقى بمقتضاه الحدث من وعى الشخصية مباشرة ، والذى تتصالح بمقتضاه الحقيقة الداخلية للشخصية مع الحقيقة الخارجية . وقد تقبلت هذا الأسلوب إذ ذاك كضرورة فنية اقتضتها مادة تتطلب تجسيدا لتحكم الماضى فى الحاضر ، لا يتوفر إلا باستخدام أسلوب يتبع وعى الشخصية ، بما يترتب عليه هذا التبع من تداعى المستويات الزمانية والمكانية . ولكنى أدرك الآن وقد اتضحت أبعاد المرحلة الجديدة ، وتكاملت أو كادت ، أن هذا الأسلوب أكثر من مجرد ضرورة فنية عابرة فرضتها مادة معينة عابرة على الكاتب .

وكان البناء الفنى أيضا ، بدلالاته الرمزية الموحية ، يشكل جانبا هاما من الجوانب الجديدة التى توقفت عندها فى « اللص والكلاب » . وقد تقبلته إذ ذاك بدوره كضرورة فنية يخدم بها الكاتب مادة تفرض هذا اللون البناء ، الذى يبدأ بلحظة أشبه ما تكون بلحظة الميلاد ، وهى لحظة خروج الشخصية من السجن « الذى يرمز غالبا إلى الرحم » وينتهى بلحظة الموت ، ويضم ما بين البداية والنهاية رحلة الشخصية وهى تتعرف على

الحقائق الأساسية في الحياة على الصعيدين الاجتماعي والميتافيزيقي ، ورحلة الشخصية وهي تصارع لإيجاد معنى للحياة من خلال الخلل الذي يتحكم في الكون على الصعيدين الاجتماعي والميتافيزيقي . ولكني أدرك الآن أن بناء « اللص والكلاب » كان أكثر من ضرورة فنية عابرة . فسنلقى في الروايات اللاحقة لـ « اللص والكلاب » نفس الشكل يتكرر بطريقة أو بأخرى ، وبصورة أو بأخرى ، وهو يظهر سافرا أحيانا ، ويتخفى أحيانا أخرى ، ويتلون من رواية إلى رواية وفقا للمستلزمات الفنية التي تفرضها المادة . ولكن هذا التلون لا يفقده بحال جوهرة الذي يبقى دائما وأبدا نفس الجوهر ، والذي يجعلنا ندرك أن هذا الشكل المعين يمثل بالنسبة للكاتب شيئا أكثر من مجرد ضرورة فنية ، أو وسيلة من وسائل التعبير .

وقد لا نحتاج إلى تدليل حول التشابه القائم في الشكل بين « الطريق » و « الشحات » من جهة وبين « اللص والكلاب » من جهة أخرى . فالشبه أقوى من أن يغيب عن القارئ . وإذا بدأنا بالأسلوب وجدنا نفس الإطار باختلافات تملأها طبيعة المادة . ففي الروايات الثلاث نتلقى الحدث من وعي الشخصية مباشرة أو من زاوية قريبة أشد القرب من وعي الشخصية . والحقيقة الذاتية تقف على نفس المرتبة من الأهمية مع الحقيقة الموضوعية ، والحقيقة الداخلية مع الخارجية ، والحلم مع الواقع . وفي الروايات الثلاث تتداعى المستويات الزمانية والمكانية داخل وعي الشخصية الرئيسية وتشابه وتتناقض في نفس اللحظة الروائية ، مؤدية إلى إغناء الحقيقة الواحدة بوجوهها المتعددة ، وإلى تكثيف وتعميق درامي للتجربة . وإذا تجاوزنا التشابه إلى الاختلاف وقارنا بين نسيج « اللص والكلاب » من جهة ونسيج « الشحات » من جهة أخرى ، لوجدنا المادة تتيح للكاتب في الرواية الأخيرة استخدام الأسلوب القائم على وصف مجرى الشعور إلى آخر درجات استخدامه ، بينما المادة في « اللص والكلاب » لا تتيح له مثل هذه الحرية . فالحدث الخارجي في « اللص والكلاب » يحتل من الأهمية ما يحتله الحدث الداخلي ، والحقيقة الخارجية تتوازن مع الحقيقة الداخلية ، بينما هي تندحر أو تكاد في الشحات ، متيحة للكاتب حرية الحركة بلا قيود في وعي الشخصية .

والبناء الروائي يتشابه بدوره في الروايات الثلاث . بحيث نتلقى نفس إطار البناء باختلاف من رواية إلى أخرى . فالحدث الذي نتلقاه من وعي الشخصية الرئيسية ينطوي في « الطريق » و « الشحات » ، مثلما ينطوي في « اللص والكلاب » ، على رحلة بحث عن المعنى لها بدايتها الحاسمة المحددة ، ونهايتها الحاسمة المحددة ، « فالطريق » تبدأ وصابر

يولد من جديد لحظة يكشف بنوته للرحيمى ، وتنتهى وهو يواجه حكم الإعدام . وما بين البداية والنهاية تستوعب الرحلة المادية والمعنوية معا مهمة البحث عن الرحيمى أو المعنى . والإخفاق فى التوصل إلى الرحيمى أو المعنى . و « الشحات » تبدأ و « عمر » الحمزاوى يتوقف ليراجع حياته ، وكلمة عابرة يلقيها موكل من موكله تنبهه إلى حتمية الموت المادى الذى ينتظره ، دون أن يحقق المعنى . ولحظة التوقف هذه التى تنفجر منها رحلة « عمر » للبحث عن المعنى أشبه ماتكون بلحظة بعث معنوى . وكما تبدأ رحلة « عمر » عند نقطة حاسمة تنتهى إلى نقطة حاسمة . فمن خلال الإخفاق فى إيجاد المعنى ، أو اليقين بلا دليل ، فى الحب فالجنس فالتصوف ، يضطر « عمر » إلى العودة إلى واقع الحياة أو إلى النقطة التى بدأ منها رحلته ، وقد أصبح الآن نصف مجنون . ورحلة الشخصية فى كل من الروايتين تستوعب من البداية إلى النهاية ، كما تستوعب فى « اللص والكلاب » . التعرف على الحقائق الأساسية ، وعلى ألوان القهر الاجتماعى والميتافيزيقى ، ومحاولة الإنسان لإيجاد المعنى فى عالم يتحكم فيه الخلل والقصور على الصعيدين الاجتماعى والميتافيزيقى . ومن ثم فالشكل الذى نتلقاه فى الروايات الثلاث ، هو نفس الشكل سواء فيما يتصل بأسس الأسلوب أو البناء . وما يصدق على هذه الروايات الثلاث يصدق على : « السمان والخريف » و « ثروة فوق النيل » و « ميرamar » إذ يتوفر فيها نفس الشكل الذى يميز روايات هذه المرحلة ، ويتأتى على أن أتوقف هنا بعض الشيء لأوضح ما قد يحتاج إلى توضيح . فقد تصيب شبهة التعميم والتعسف الأحكام التى أصدرها هنا ، لأن المساحة تتسع لنتائج خلصت بها من دراسة للنصوص دون المقدمات التى بنيت عليها هذه النتائج . وقد تتفاقم هذه الشبهة نتيجة للحكم الذى أصدرته لتوى عن الشكل الذى تنطوى عليه كل من رواية « السمان والخريف » و « الثروة » و « ميرamar » ، لأن الشكل يتخفى فى كل بطريقة أو بأخرى ، ولا يشف عن جوهر حقيقته إلا للدارس . وقد لا يعفىنى من هذه الشبهة أن أقول : إن ما قد خلصت إليه من أحكام فى هذا المقال إنما هو نتاج للدراسة عن نجيب محفوظ أرجو أن ترى النور . وأيا كان الوضع يتحتم على أن أتصدى للتدليل فى الحدود المتاحة لى لكى أخرج بالنتائج التى أريد أن أخرج بها من هذا المقال .

و « السمان والخريف » و « ثروة فوق النيل » و « ميرamar » تنطوى على نفس الشكل ، والأسلوب ، والبناء فيها ليس سوى تنويعات على نفس الأسس ، وإذا بدأنا بالأسلوب وجدنا أن من السهل ، أن تدرج هذه الروايات الثلاث فى أسلوب المرحلة

التي بدأت « باللص والكلاب » ، وإن تفاوتت طبيعة الأسلوب من رواية إلى أخرى .
ففي الثروة نتلقى الحدث من وعي « أنيس زكى » مثلما نتلقاه من وعي « عمر » الحمزاوي
في الشحات ، مع توفر الاختلاف في الأسلوب الذي تفرضه طبيعة المادة في كل من
الروائتين . فمن وعي عمر الحمزاوي نتلقى خلفية القهر الاجتماعي والميتافيزيقي التي تجعل
مأساته هو الفردية ، في ظل زمانه ومكانه ، مأساة حتمية . أما من وعي « أنيس زكى »
فنحن نتلقى خلفية القهر الاجتماعي والميتافيزيقي التي تجعل مأساة الإنسان على إطلاقه
حتمية ، لا في زمان ومكان محدد فحسب ، بل في الزمان والمكان الروائي المحدد وفي كل
زمان ومكان أيضا . ولذلك تختلف القاعدة التي يعتمد عليها الأسلوب مابين
« الشحات » و « الثروة » ، بالرغم من أننا نتلقى الحدث في كل من الروائتين من وعي
الشخصية الرئيسية . ففي « الشحات » يعتمد الكاتب اعتمادا كبيرا على المونتاج أو النقلات
الزمانية والمكانية ، بحيث يصبح هذا الاعتماد هو السمة الأساسية أو القاعدة الرئيسية
للأسلوب ، والمادة تساعد في هذا الاتجاه ، لأن القصة قصة فرد واحد ، ولأن
الأحداث الخارجية محدودة ، ورهينة الأهمية بمدى ما تؤثر في وعي الشخصية الرئيسية ،
وبمدى ما تشكل من تشابه أو تضاد أو تنويعات على ما يضطرم في هذا الوعي . أما في
الثروة ، فالكاتب لا يملك أن يستخدم المونتاج بمثل هذه الحرية ، ولا يملك أن يجعل
منه القاعدة التي يستند عليها الأسلوب ، بالرغم من أننا نتلقى الحدث من وعي « أنيس
زكى » . والكاتب لا يملك أن يفعل هذا لا لمجرد أن الرواية تمتد إلى تصوير العديد من
الناس كشخصيات في استقلال عن الشخصية الرئيسية التي ترقب الأحداث دون أن
تصنعها والتي تقوم بدور الشاهد الصامت ، بل لأن الشاهد الصامت لا يسجل ما يقع
في اللحظة الروائية لمجموعة من الناس من الطبقة الوسطى في زمان ومكان معين
فحسب ، بل يستثير أيضا من المستويات التاريخية زمانيا ومكانيا ما من شأنه أن يدرج
مأساته هو الشخصية ، ومأساة هؤلاء الناس في المأساة الإنسانية عامة ، وما من شأنه أن
يرجع مأساة الإنسان عامة إلى جذورها في القهر الاجتماعي والميتافيزيقي وفي الاختلال
الاجتماعي والميتافيزيقي . وبالرغم من الاختلاف في الأسلوب الذي يجعل « الشحات »
تعتمد اعتمادا كليا على المونتاج ويحد من إمكانية استخدام المونتاج على نطاق كلي في
« الثروة » ، فنحن نجد أنفسنا إزاء نفس نوعية الأسلوب الذي تكتسب بمقتضاه الحقيقة
الداخلية نفس الأهمية التي تكتسبها الحقيقة الخارجية ، والذي يتداخل بمقتضاه الحلم

والواقع ، وتشابه بمقتضاه المستويات الزمانية والمكانية وتعارض في وعى الشخصية التي نتلق منها الحدث .

وإذا انتقلنا من الأسلوب إلى البناء ، لوجدنا نفس التشابه مع توفر الاختلاف . « فالثرثرة » تبدأ هي الأخرى من نقطة بداية محددة وتنتهى إلى نهاية محددة ، وهي تنطوى على أكثر من رحلة على المستوى المعنوى والمادى ، تتضمن كل منها أكثر من اكتشاف . فنحن إزاء الرحلة الليلية التي يقلع فيها رواد العوامة من خلال المخدرات ، ورحلة « أنيس زكى » المسطول الأبدى عبر التاريخ ، ورحلة « سمارة بهجت » فتاة المبادئ والطبقة الوسطى ، والرحلة المادية التي تجسم هذه الرحلات جميعا . والتي تنتهى بمصرع إنسان بسيط تحت عجلات السيارة . والرواية تبدأ و « أنيس زكى » يفصل من عمله نتيجة لإدمانه للمخدرات ، والصلة الوحيدة المتبقية بينه وبين واقع الحياة اليومية تنقطع ، ولا شئ يتبقى له إلا الملجأ المادى والمعنوى الوحيد الذى يستعين به على الحياة . وهذا الملجأ هو عالم العوامة والمخدرات والهروب ، حيث يعيش ويدير ليالى الأنس للأصدقاء ، وتنتهى الرواية وعالم العوامة قد تحطم ، ولم يبق « لأنيس زكى » ثمة ملجأ من الحياة ، لا مادية ولا معنوية ، وما بين البداية والنهاية تستطيل رحلة المسطول الأبدى لا عبر الحاضر فحسب ، بل عبر الكثير من مستويات التاريخ ، وسؤال الإنسان الدائب على لسانه ، لم كان هذا ؟ وما معنى كل هذا ؟ ولم الإختلال والقهر فى المجتمع والسكون ؟ ولم يتحتم على بدايات الإنسان المنتصرة أن تنتهى إلى نهايات منكسرة ؟ ونفس السؤال الذى يقطر المعاناة عند « أنيس زكى » يتحول إلى قطعة لبان يلوكها المثقفون من رواد العوامة وهم يثرثرون . ورحلة « سمارة بهجت » هي رحلة الإنسان الذى يبدأ البدايات المنتصرة وينتهى بالنهايات المنكسرة . و « سمارة بهجت » فتاة المبادئ والطبقة الوسطى والنظرة السطحية إلى الناس والأشياء تبدأ رحلة اكتشاف الواقع ومن خلال الواقع اكتشاف الذات ، وتنتهى فى العوامة . وهي تهبط على العوامة منتصرة ، كما يهبط الإنسان على سطح القمر ، مؤمنة إيماناً لا يتزعزع باختلافها عن رواد العوامة ، وبقدراتها الفردية على إحداث التغير ، وعلى انتزاع هؤلاء الناس أو بعضهم من عالمهم الهروبى إلى عالم الواقع ، وجاهلة كل الجهل بالعوامل الحقيقية التى تتحكم فى هذا الواقع ، وتصيره على ما صار عليه . وهي تخرج من العوامة وقد انتهت الحدث وقد تغيرت دون أن تغير أحدا ، وقد أدركت الحدود الضيقة التى تحد قدراتها الفردية والتى تحد قدرات الطبقة الوسطى التى تنتمى إليها ، أو الطبقة الهابطة كما تسميها . وهي تخرج

من العوامة وقد تعلمت ما لم تكن تعلم عن واقع الحياة الذى تحتك به احتكاكا حقيقيا ربما للمرة الأولى ، وعن القوى التى تتحكم فى هذا الواقع وتفرض عليه الاختلال فرضا . والرحلة المادية التى تتطوى عليها هذه الرواية ، والتى يشترك فيها رواد العوامة جميعا من مثقفى الطبقة الوسطى تستوعب هذه الرحلات جميعا ، وتحمل دلالة ذات مغزى على جانب كبير من الأهمية . فالجميع يخرجون فى نزهة بسيارة تنتهى بمقتل إنسان ريفى بسيط تحت عجلات السيارة . وبعد عدة مشاحنات بين رواد العوامة من المثقفين تدور حول ضرورة تحمل مسئولية قتل الإنسان البسيط من عدمها ، تنتهى بتدمير عالم العوامة ، يتم الاتفاق بين الجميع من رواد العوامة الفائقين منهم والمسطولين المبدئين منهم وغير المبدئين على التنصل من مسئولية قتل الإنسان البسيط ، وعلى التكتم على جريمة القتل والتستر على القاتل أو مجموعة القتلة . وهكذا ينتهى الإنسان البسيط ، الذى تقتله دائما وأبدا ثروة المثقفين ، وهكذا يهدر دمه ، ويتنصل دائما وأبدا من جريمة قتله المثقفون . ولا أحد يفلت من هذه الرحلة القاتلة إلا « عم عبده » بواب العوامة ، والفلاح القادم من الأرياف ، ربما مثلما لا يفلت أحد فى « ميرامار » إلا « زهرة » الفلاحة الكادحة القادمة من الأرياف . وربما كان « عم عبده » يكتسب فى « الثروة » من الأبعاد الأسطورية مالا تكتسبه « زهرة » فى « ميرامار » ، وربما كان هو إنسان الدلتا القديم الذى خلق بإصراره ، الحياة من عدم من قديم الزمان ، وربما لم تكن زهرة كذلك ، فهى مجرد خادمة ريفية بالرغم مما يذهب إليه بعض النقاد من أنها ترمز إلى مصر ، وما أسهل ما يجعل بعض النقاد هذه الشخصية أو تلك ترمز إلى مصر . وعلى كل فلست هنا فى معرض التدليل على فساد هذه الدعوى ، وإنما ما يهمنى فى المقام الأول هو إبراز الانتماء الطبقي لكل من « عم عبده » فى « الثروة » ، و « زهرة » فى « ميرامار » ، فكل منهما فلاح ينتمى للطبقات الكادحة ، ولا ينتمى للطبقة الوسطى التى يسميها نجيب محفوظ بالطبقة الهابطة أو الهالكة .

وقبل أن أعرض « لميرامار » ، فى محاولة لإدراجها فى إطار الشكل المميز لهذه المرحلة يتحيز على أن أعرض « للسمان والحريف » ، وأن أوضح العلاقة الوثيقة التى تربط بين هاتين الروايتين ، فهما تعالجان نفس التيمة من حيث هما تسجلان وطأة التغير الاجتماعى على مجموعة من الناس ، وترددان فى نفس الوقت الأصدقاء الميتافيزيقية التى تتردد فى هذه المرحلة . وإن كنت أميل إلى الاعتقاد أن التيمة فى « السمان والحريف » لم تلق تجسيدها الدرامى إلا فى « ميرامار » ، مع الأخذ فى الاعتبار المدة الزمانية التى تفصل بين

الروائتين ، والتغيرات في الأحداث التي طرأت في هذه المدة الزمانية ، والتي سببت تغيرا ملحوظا في رؤية المؤلف للأشياء .

ومن المفروض في « السمان والحريف » أن نلمس وطأة التغير الاجتماعي على مجموعة من الناس خلال مدة زمانية طويلة تزيد على السنوات الأربع . وبعض أفراد هذه المجموعة أشياء ونقائض للشخصية الرئيسية ، وهي شخصية « عيسى الدباغ » ، والبعض الآخر لا يقف موقف التشابه ولا التناقض من هذه الشخصية . . والتغير الاجتماعي يمس تلك المجموعة من الناس بأشكال مختلفة أحيانا ، ومتشابهة أحيانا أخرى ، فالبعض يتسلق الموجة الثورية ، والبعض يقف في حيرة كحيرة « عيسى الدباغ » ، والبعض يلجأ إلى التصوف . ونحن نتلقى الحدث في « السمان والحريف » من زاوية قريبة أشد القرب من وعي الشخصية الرئيسية ، ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة التي نتلقى بها الحدث من وعي الشخصية في « اللص والكلاب » على وجه المثال . فالأسلوب هنا لا يعتمد على المنولوج غير المباشر الذي يتيح نقلات زمانية ومكانية ، بل هو وصف لجرى الشعور أشبه مايكون بالسرد التقليدي . والكاتب يطرق وعي الشخصية ويحجم عن اقتحامه ، ربما نتيجة لإدراكه أن عالم الروائي أوسع من أن تستوعبه شخصية واحدة . غير أن هذا الإحجام لا يفيد في كثير . فطول المدة الزمانية التي يعرض لها الكاتب واحتشادها بالأحداث من ٥٢ إلى ٥٦ ، ووطأتها على العديد من الأشخاص أكبر من أن يتسع لها وعي شخصية واحدة ، سواء دخلنا وعي هذه الشخصية ، أم اكفينا بوصف هذا الوعي من الخارج .

ووعي « عيسى الدباغ » الداخلي يتشكل بالعالم الخارجي حوله ، يتأثر به ولا يؤثر فيه . ويبقى في النهاية منعزلا عاجزا بحالته الفردية المحددة عن تجسيد أبعاد هذا العالم الخارجي المتعدد الزوايا . ومن ثم فنحن نلمس وطأة التغير الاجتماعي على « عيسى الدباغ » ولا نلمسه على بقية الشخصيات ، التي نرقبها من الخارج تماما كما يرقبها « عيسى الدباغ » ! . وهذا هو السبب الذي يجعلنا نخرج من هذه الرواية التي تتشابه باختلاف عن بقية الروايات ، بشعور بأن شيئا ما لم يكتمل . وربما كان إدراك نجيب محفوظ لهذه الحقيقة ، سواء عن وعي أو بلا وعي ، هو الذي جعله يتبع وطأة التغير الاجتماعي على مجموعة من الناس بطريقة مختلفة تمام الاختلاف في « ميرamar » . فالمدة الزمانية تقصر في « ميرamar » ، والحدث يتكثف في مكان واحد تتجمع فيه شخصيات ممثلة لقطاعات طبقية في المجتمع . ونحن لا نتلقى الحدث من وعي شخصية واحدة ، بل من وعي أربع

شخصيات اختيرت بعناية فائقة ، كالشخصيات الصانعة للحدث « البحري ومنصور باهى » والمثلة للجذور والمسببات التى تجعل التهلكة المادية « للبحري » ، والمعنوية « لباهى » مبررة « عامر وجدى وحسنى علام » .

ورغم ميل الأسلوب هنا إلى الناحية التقليدية التى تتأى به عن الصفة المميزة لأسلوب هذه المرحلة ، فالبناء ينحرف فى إطار الشكل المميز أو فى إطار الرحلة .

ورحلة « عيسى الدباغ » سواء على المستوى المادى أو المستوى المعنوى واضحة للغاية . و « عيسى » ، بعد أن اقتلعه التغير من وظيفته ، وحرمه خطيته ، يقطع ماديا ومعنويا فى رحلة يبحث فيها عن المعنى من خلال الانتماء إلى شىء ما ، ليس هو بالماضى الذى يكفر به إبان الحدث ، ولا الحاضر الذى يحاول ويعجز عن الإيمان به ، ولا بالزوجة العقيم التى ارتبط بها إبان الحدث ارتباطا قائما على المنفعة المادية ، والتى انفصل عنها بعد أن تم له الانسلاخ عن ماض ملوث وحاضر ملوث . وربما تجسد الانتماء الذى يسعى إليه « عيسى الدباغ » على المستوى الخاص ، فى امرأة الشارع التى تجاوزت القهر الاجتماعى ، وتحولت من مومس إلى أم ترعى بنتا من صلبه ، وعلى المستوى العام ، فى الماضى البعيد البرىء من التلوث كما يتوهمه « عيسى » متمثلا فى سعد زغلول ، أو المستقبل البرىء من التلوث متمثلا فى الشاب الذى لا يزال رغم التغير يمسك بورده الحمرء . وتنتهى « السمان والحريف » وهدف الرحلة لم يتحقق ، و « عيسى » يسعى إلى الأم ربرى ، وهى ترفضه ، ويسعى خلف الشاب الذى يحمل الورد الحمرء ، ولا ندري على وجه التحديد مدى قدرته على اللحاق به . ولكننا مع ظهور ثرثرة فوق النيل نشكك فى قدرة عيسى الدباغ الذى يتنمى إلى الطبقة الهابطة على اللحاق بالشاب الذى يحمل الورد الحمرء ومع ظهور « ميرامار » و « منصور باهى » فى نطاق « ميرامار » نبدأ فى التشكك فى جدوى هذا اللحاق . فنجيب محفوظ ينفذ يديه فى « الثرثرة » وفى « ميرامار » من الطبقات الهابطة . والأمل مازال موجودا ، ولكنه موجود فى المقام الأول خارج هذه الطبقات وبالتحديد بين أفراد الطبقات الكادحة . وربما يفسر هذا لِمَ لم يفلت من جحيم ميرامار إلا « زهرة » الفلاحة العاملة . ويقودنى هذا بالضرورة إلى الحديث عن « ميرامار » كرحلة نجيب الدائبة فى هذه المرحلة لاكتشاف الواقع من حوله ، وكأسلوب نجيب محفوظ الدائب فى هذه المرحلة لتقييم هذا الواقع .

وكل شخصية فى « ميرامار » تقلع فى رحلة ، تتوقف إبانها لفترة قد تقصر وقد تطول بحيث تستوعب العمر ، فى بنسيون ميرامار . وهذا البنسيون أشبه مايكون بطبقة من

طبقات جحيم دانتى ، تنطوى للإنسان إما على التدمير وإما على التطهير ، على الموت أو على البعث ، على النهاية أو على البداية . وجحيم نجيب محفوظ هو الماضى بكل تراثه المدمر الثقيل ، بكل قيوده ومعوقاته وأوزاره التى تتحكم فى عنصره ، وتحد من قدرته على الحركة . وبنسيون مرامار أو الجحيم ، هو التجسيد الحى لماضى تحكم فيه الاستعمار فى تحالف مع الاحتكار الأجنبى والإقطاع المصرى . وماريانا صاحبة البنسيون زوجة سابقة لضابط إنجليزى من قوات الاحتلال ، ولاحتكارى أجنبى وعشيقة سابقة لإقطاعى مصرى هو طلبة مرزوق ، وصديقة سابقة ولاحقة لضابط المباحث والأخ الأكبر لمنصور باهى . وكل من شخصيات مرامار يتجس ل فترة فى هذه البؤرة .

ورحلة « عامر وجدى » الصحفي القديم ، والمناضل الثورى القديم ، والمتشكك القديم الذى يفقد الإيمان الدينى ويصارع ليستعيده ، هى رحلة الموت . ومن ثم فالقهر الذى يعانى منه قهر ميتافيزيقي واجتماعى معا . وقد جاء إلى البنسيون أو إلى الماضى ليموت حيث يعرفه أحد . فما من أحد يعرفه فى الحاضر ، وما من أحد يعرفه من الماضى ، سوى « ماريانا » ، التى ترمز لكل مايمقته وهو المناضل الثورى القديم .

والبنسيون بالنسبة إليه هو الجحيم . ولكن الجحيم الذى يعرفنا ونعرفه ، خير من الجنة التى تجهلنا ونجهلها . وأن يسقطنا التغير فلا يتعرف علينا أحد شىء قاس ، وأن يسقطنا الزمن فنموت ، دون أن يعرفنا أحد شىء أشد قسوة . والتغير الاجتماعى قد أسقط عامر وجدى وكل مايمثله ، وكأن لم يكن . والزمن قد أسلمه أو كاد ، إلى الموت دون أن يشهد أحد أنه عاش ، سوى ماريانا التى عاصرت . ويبدأ الحدث وينتهى وعامر وجدى ينتظر الموت فى البنسيون ، يرقب الأحداث دون أن يصنعها . وإن كان بمعنى أو آخر قد صنعها منذ زمن طويل . فكل من منصور باهى وسرحان البحرى وحسنى علام وريث وامتداد لهذا الرجل الذى لم يحسم أبدا الصراع الدائر فى ذاته . بين الشك واليقين ، وبين العقيدة والفعل . أو الفكر والفعل ، والذى لم يخرج أبدا بعقيدة مانعة شاملة تتعرض لكل ألوان القهر الاجتماعى وتملك القدرة على تجاوزها ، والذى أمسك دائما وأبدا العصاة من الوسط ، وعرف وتقبل التنازلات والحلول الوسط ، وخرج من الحياة بالعمى ، وبمغامرات نسائية عابرة ، وبورثة يتسمون بنفس العمى .

وطلبة منصور الأقطاعى المصرى الذى أمت الثورة أرضه يقطع إلى البنسيون فى رحلة معنوية من المفروض أن تنتهى برحلة مادية إلى الكويت . وهو يحاول أثناء الرحلة المعنوية ويفشل ، فى إحياء الماضى من عدم . فمحاولاته لتجديد الحلف القديم أو علاقاته برفيقته

« ماريانا » ، زوجة المستعمر والرأسمالى الأجنبى ، محاولات تبوء بالفشل .
ورحلة حسنى علام هى فى النهاية رحلة تدمير للذات ، وهى رحلة لا تكتمل أبعادها إلا بتوقفه فى بنسيون مرامار . وحسنى علام صاحب المائة فدان ، يأتى للإسكندرية ليبدأ مشروعاً تجارياً ويخرج من البنسيون وقد تعرف على صفية الراقصة .. وتمخض المشروع عن ماخور يجسد هلاكه المعنوى . والثورة لاتمس أملاك حسنى علام فهو من أصحاب المائة فدان ، ولكنها تصيبه بتغيير القيم الاجتماعية ، مما يجعل قريبة له ترفض الارتباط به بالزواج لأنه لا يحمل شهادة علمية . ونتيجة لهذا الرفض يندفع حسنى علام فى رحلة للإتسلاخ عن ماضيه وأسرته وطبقته ومجتمعه ووطنه عن طريق الانغماس فى الجسد ، وعن طريق السرعة الجنونية بالسيارة ، تلك السرعة المشيرة إلى الهلاك المادى المنتظر ، والموحية بالهلاك النفسى المؤكد . وينتهى الحادث وقد تكاملت رحلة حسنى علام لتدمير الذات .

ويكتسب توقف « سرحان البحيرى » فى بنسيون مرامار دلالة من حيث توقيت هذا التوقف . فهو ينحس فى البنسيون ، أو فى ثورة الماضى ، فى نفس اللحظة الروائية التى يحسم فيها الصراع الدائر فى نفسه لصالح خيانة كل قيمة إنسانية فى حياته ، سواء على المستوى العام أو الخاص . وهو يدخل البنسيون عاقدا العزم على خيانة الشركة التى يعمل فيها ، والاشتراكية التى يتشلق بها ، وعلى الاستيلاء على أموال الشعب وعلى « زهرة » الفتاة الريفية معا . وتشهد فترة التوقف فى البنسيون إيغال سرحان البحيرى فى الخيانة على المستويين الخاص والعام ، كما تشهد أيضا نهاية رحلة الخيانة بالانتحار عندما يتكشف أمر السرقة . وبذلك تتكامل رحلة سرحان البحيرى فى ثورة الماضى متجاوزة مرحلة التدمير المعنوية إلى مرحلة التدمير المادية .

ويشهد البنسيون مصرع « منصور باهى » المعنوى كما يشهد مصرع « سرحان البحيرى » المادى . وتوقف منصور باهى فى البنسيون ، وبالتالي فى ثورة الماضى ، يسجل بداية النهاية بالنسبة إليه . فهذا التوقف ينطوى على انصياع للقهر الاجتماعى سواء على المستوى الأسرى أو على المستوى العام ، وهو بهذا التوقف يسجل تخليه عن القضية التى يعمل من أجلها ، والعقيدة التى يؤمن بها . ويبدأ طريق الانفصال بين الفكر والفعل أو طريق الجحيم كما يسميه ، حين يتوفر للإنسان الإيمان ويفتقد القدرة على العمل بما يؤمن به . وكما يشهد النسيون إيغال سرحان البحيرى فى رحلة الخيانة يشهد إيغال منصور باهى أيضا فى رحلة خيانة من نوع آخر ، والتمزق ما بين الرغبة فى الفعل ، وانعدام القدرة على

الفعل يدفعه إلى التخلي لا عن عقيدته فحسب ، بل عن المرأة التي يحبها ، والتي يهجرها بعد أن يسلبها من أستاذه وصديقه ، ويدفعه إلى حالة أشبه ماتكون بالجنون يختلط فيها الواقع بالحلم ، ويتوهم في ظلها أنه قتل سرحان البحيري أو بالأحرى قتل القوى المتسببة في خيانتة لذاته .

ولا يتبقى إلا رحلة زهرة أو المنفية الوحيدة في البنسيون كما يقول عنها منصور باهى . والتغير في القيم الذى صاحب التغير الاجتماعى هو الذى يقتلع زهرة من قريتها ويلقى بها في براثن الماضى ، وهى تطلع في رحلة إلى المستقبل . فزهرة ترفض أن تتزوج رجلا طاعنا في السن ، وتهرب إلى الإسكندرية لتفلت من هذا المصير ، وتنحسب في الجحيم فترة ، لتنصهر وتتطهر وتخرج منه أقوى مما دخلت . ورحلة زهرة هى الرحلة الوحيدة التى تنتهى بالنجاح ، وإن انطوت على إخفاق ظاهرى . فأحدا ما لن يملك أن يقهر زهرة بعد أن مرت بمرحلة التطهير بنجاح .

* * *

وأرجو أن أكون قد نجحت إلى حد ما ، وفى حدود المساحة المتاحة لى فى التدليل على أن ميرامار ليست سوى تنويع على نفس أسس البناء التى تكمن فى روايات هذه الفترة ، ذلك البناء الذى يتضمن رحلة لها بداية حاسمة محددة ونهاية حاسمة محددة ، ويضم ما بين البداية والنهاية ، تعرف الإنسان على بعض الحقائق الأساسية فى الحياة . وعلى قبل أن أنتهى من الرواية أن أعرج على الأسلوب .

ونحن نتلقى الحدث فى ميرامار من وعى أربع شخصيات هى على التوالى عامر وجدى وحسنى علام وسرحان البحيري ومنصور باهى . غير أن الحدث فى مجموعة يبدأ وينتهى من وعى عامر وجدى ، ربما لأن هذا الوعى هو القادر على أن يمنحنا الخلفية المتكاملة المدعومة للحدث ، سواء على الصعيد الاجتماعى أو الميتافيزيقى . والقهر الذى يعانى منه عامر وجدى وهو يواجه حتمية الموت ليس قهرا ميتافيزيقيا فحسب ، بل هو قهر اجتماعى أيضا . وهذا القهر الاجتماعى ليس قهراً يقتصر على فترة التغير الاجتماعى التى أسقطته ، بل هو يمتد أيضا ليعطى القهر الاجتماعى الذى تعرضت له مصر بداية من ثورة ١٩١٩ . ورؤية عامر وجدى للحقيقة لاتمنحنا الخلفية التى تدعم الحدث ، بل تقوم إلى جانب ذلك بمعادلة وتقييم وجهة نظر كل من حسنى علام وسرحان البحيري ومنصور باهى ، الذى يهتل كل منهم امتدادا لعامر وجدى فى اتجاه مختلف . وكل هذه الاعتبارات تفرض

مستلزمات خاصة تجعل الأسلوب يتشابه في هذه الرواية مع الأسلوب المميز لأسلوب المرحلة مع اختلاف رئيسي .

فنحن نتلقى الحدث من وعي كل شخصية من هذه الشخصيات كما نتلقاه من وعي الشخصية في « اللص والكلاب » أو « الشحات » ، ولكن باختلاف ، والكاتب يعتمد هنا على المونتاج أو النقلات الزمانية والمكانية المتعارضة والمتشابهة كقاعدة للسرد الروائي ، كما يفعل في « الشحات » ، ولكن في اختلاف .

وبينا يكتمل التشابه في تتبع مجرى الشعور لعمر الحمزاوي في « الشحات » ، ولمنصور باهي في « ميرامار » ، حيث تتداعى الفواصل بين المستويات الزمانية والمكانية ، وبين الحقيقة الداخلية والخارجية ، والحلم والحقيقة الموضوعية ، والوهم والواقع ، يختلف الأمر في تتبع الكاتب لوعي بقية الشخصيات ، وخاصة في تتبعه لوعي عامر وجدى . ورغم استخدام الكاتب للمستويات الزمانية والمكانية ولانتقاله بين هذه المستويات الماضية والحاضرة ، فلماضى هنا لا يستثار كما يستثار في روايات مجرى الشعور ، بحيث تتداعى الفواصل بين المستويات ، وتتداخل الحقيقة الذاتية والموضوعية وتختلط في الوعي ، بل يستثار الماضى كذكريات ، أو كملحظات قائمة بذاتها ، يتيح استخدام المونتاج تجميعها في بانوراما تشكل خلفية الحدث . وطبيعة المادة هي التي تملئ هنا الخروج عن أسلوب روايات مجرى الشعور إلى أسلوب أميل إلى أسلوب السرد التقليدي . فلماضى هنا يشكل الخلفية الموضوعية التي تغنى الحدث بالمبررات ، وهذا الوضع يحتم تتبع هذا الماضى كحقيقة موضوعية مستقلة بذاتها ، لا كجزء لا يتجزأ من وعي الشخصية ، أو من عالم الشخصية الداخلى . ومن ثم فالتشابه قائم في الأسلوب وإن اعتراه الاختلاف . والاختلاف لا ينأى بالأسلوب بحال نأيا كاملا عن الأسلوب السائد في هذه المرحلة .

وإذا سلمنا بأن الشكل يتكرر بصورة أو أخرى في كل روايات هذه المرحلة بداية من « اللص والكلاب » ، وانتهاء « بميرامار » ترتب على هذا التسليم ، بالضرورة ، أكثر من نتيجة . فالشكل هنا لم يعد مجرد ضرورة فنية عابرة تخدم مادة عابرة ، ولا هو وسيلة تعبيرية حديثة يساير بها الكاتب الوسائل التعبيرية الحديثة ، بل هو شيء أكثر حيوية ، وأكثر أهمية بالنسبة للكاتب ، فهو ليس بشكل ، ولكنه الشكل الذى يحسد دراميا رؤية الكاتب للحقيقة في المرحلة التي نحن بصدددها ، وهو ليس بمجرد إطار ، ولكنه الإطار الذى يصالح بين أطراف الصراع العميق الذى تتطوى عليه هذه الرؤية .

وقد صرح نجيب محفوظ أكثر من مرة بأن شخصية « كمال » في « الثلاثية » إنما هي التصوير الفني لشخصيته في الواقع . وأنا أعتقد أن الأعمال الفنية للكاتب يكمل بعضها البعض وتلقى الضوء على بعضها البعض ، وإن كنت لا أميل عادة إلى تفسير أعمال الكاتب بالرجوع إلى تاريخ حياته ، وإلى التطورات النفسية العميقة التي يمر بها خلال هذه الحياة . وبالرغم من ذلك فأنا لا أملك سوى أن أرجع التناقضات الرئيسية في روايات المرحلة التي تبدأ « باللص والكلاب » ، إلى بذورها في تناقضات شخصية كمال في « الثلاثية » ، وسوى أن أرى في الشكل الجديد الشكل الذي يحسم رؤية « كمال » للحقيقة ، وهي تتطور ، وهي تتغير ، وهي تستكمل أبعادها المنطقية . وهي تحمل إلى أقصى نهايات تحملها هذه الأبعاد المنطقية ، وسوى أن أرى في الإطار الجديد الإطار الذي يصالح بين أطراف الصراع العميق الذي تنطوي عليه هذه الرؤية .

وكمال في « قصر الشوق » يتمزق بين الدين والعلم (ص ٣٧١) ، وينصب نفسه ندا يقاضى الحساب القوى المسئولة عن اختلال الكون (ص ٤١٢) . والاختلال في المجتمع يؤرقه بمدى ما يؤرقه الاختلال في الكون . وهو في « السكرية » يتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين وفي الصباح يضطرم قواده بالثورة على الإنجليز وفي الليل تدعوه الأخوة العامة المعذبة - أخوته لبني الإنسان - للتعاذل أمام لغز القضاء . (ص ٤٤) وهو نتيجة لمرده على القوى المسئولة عن الاختلال في الكون يتنكر لقيمها ويفقد إيمانه بالحقيقة كحقيقة يقينية ، ويتساءل في « السكرية » : ما الحقيقة ؟ ما القيم ؟ ما أي شيء ؟ إني أحيانا أشعر بتأنيب ضميري لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر (ص ١٢٦) . والحتمية التي تنبع نتيجة للوراثة وللبيئة ولتختلف العوامل الاجتماعية تشغل باله بمدى ما تشغل باله المصادفة التي يردّها إلى الاختلال في الكون (قصر الشوق ص ٤٠٢) . ولأن كمال يواجه كل هذه التناقضات فهو يتمزق بين الرغبة في الموت والرغبة في الحياة (قصر الشوق ص ٣٨٦) ، وبين : وهج الغريزة ونسمة التصوف (السكرية ص ١٣١) . وإلى جانب هذه التناقضات الرئيسية نجد عند « كمال » في « الثلاثية » تناقضات أخرى فرعية كالتناقض بين الفن والعلم ، والقلب والعقل ، والإيمان الحدسي والإيمان العقلي .

وقد جسدت « أولاد حارتنا » رؤية كمال للحقيقة من حيث المحتوى أو المضمون ، وإن لم توفق في تجسيد هذه الرؤية تجسيدا فنيا يتوفر له الشكل الذي يحتوي هذه الرؤية ويعكسها ويكشف ويعلق على طبيعتها . ولذلك « فأولاد حارتنا » تمنحنا بصورتها الختام

المزيد من البصيرة بالتناقضات التي تنطوى عليها رؤية الكاتب للحقيقة . ولست في مجال التعرض لرؤية الكاتب للحقيقة في اكتماها في « أولاد حارتنا » ، ولكنى سأكتفى هنا بالإشارة إشارة عابرة إلى بعض التناقضات الرئيسية التي تنطوى عليها هذه الرؤية . فرفض « الجبلاوى » يقوم جنبا إلى جنب مع تشوق عميق إلى التوصل للجبلاوى . وأهل حارتنا لا يكفون يستترلون اللعنات على الجبلاوى ، ولا يكفون في ذات الوقت عن الاستغاثه به لنجدتهم ، وهم يقتلون الجبلاوى في أنفسهم ويسعون إلى إحيائه ، والندم يعترهم لأنهم قتلوه . وهم لا يكفون بمقاضاته الحساب ، بل يسعون بعد قتله أن يكونوه . والقتل وفقا لهم هو الوجه الآخر من وجوه الخلق . والتناقضات الموجودة بصورة فرعية عند كمال في الثلاثية ، تصبح الأساس الرئيسى الذى يبنى عليه الحدث الروائى في « أولاد حارتنا » . وإن لم تلق الشكل الذى يمنحها التجسيم الدرامى كما قلت . والتناقضات هنا تحمل إلى مدى أوسع ، ولكنها لا تبلغ آخر مداها المنطقى إلا في المرحلة التى تبدأ مع « اللص والكلاب » . فواجهة الاختلال فى الكون يؤدى بالضرورة إلى التساؤل عن ماهية هذا الكون وعن ماهية القيم التى تتحكم فيه . وتنصيب الإنسان نفسه ندا للقوى التى تتحكم فى الكون يؤدى بالضرورة إلى تضخم عالمه الذاتى ، وبالتالي إلى اهتزاز الحقيقة الموضوعية ثم إلى التشكك أصلا فى يقينية الحقيقة الموضوعية .. وهذا ماسنلقاه فى المرحلة التى تبدأ مع اللص والكلاب .

وسنلقى فيما نلقى فى روايات هذه المرحلة أطراف الصراع العميق التى تنطوى عليها رؤية الكاتب للحقيقة . الصراع بين العلم والغيبيات ، بين العقائد المكتسبة والموروثة ، بين العنصر الاجتماعى والميتافيزيقى ، بين الحقيقة الختمية العلمية كعامل يتحكم فى المجتمع ، وبين القدرية كعامل يجسد الخلل فى الكون والمجتمع ، بين العقل والحدس ، بين العلم والفن ، بين المنهج العقلانى والمنهج الحدسى ، بين تصور كل هذه العناصر كتناقض وبين تصورهما كأشياء ، بين تقبل كل هذه العناصر كحقائق موضوعية ، وبين التشكك أصلا فيما تواضعنا على تسميته بالحقيقة الموضوعية ، بين العالم الخارجى للإنسان وعالمه الداخلى ، بين الواقع من ناحية ، والحلم والوهم من ناحية أخرى ، بين تقبل الحياة ورفضها ، بين الإقبال والإحجام ، بين الفكر والفعل ، بين الإرادة وتنفيذ الإرادة ، بين الرغبة فى الانتماء والعزوف عن الانتماء ، بين التشوق إلى إيجاد معنى للحياة ، سواء أكان هذا المعنى ينبع من أساس اجتماعى أو ميتافيزيقى ، وبين اليأس من إيجاد معنى للحياة ، ينبع من التشكك أحيانا فى ماهية الوجود ذاته . وسنلقى فى روايات

هذه المرحلة أطراف الصراع هذه وقد التقت أخيرا بالأسلوب الذى يجسدها دراميا ، وبالبناء الذى يجسدها دراميا ، وبالشكل الذى يصلح بين التناقض التى تنطوى عليها . فالأسلوب الذى استحدثه نجيب محفوظ مع اللص والكلاب يحطم الفاصل بين الحقيقة الداخلية للشخصية وبين الحقيقة الخارجية لها ، بين الوهم وبين الواقع ، بين الحلم والحقيقة الموضوعية ، بين حقيقة الشخصية وحقيقة غيرها من الشخصيات ، فى تفاوت يختلف من رواية إلى أخرى ، وجانب منها يغلب الآخر أو يعادله ، يصلح بين طرفى التناقض فى رؤية الكاتب ، لا فى رؤية الشخصية الرئيسية ، ومحسم الصراع الذى تنطوى عليه رؤية الكاتب ، لا رؤية الشخصية ، فصراع الشخصية لا يحسم أبدا فى روايات هذه المرحلة إلا بالموت .

وبالبناء الروائى الذى استحدثه نجيب محفوظ فى اللص والكلاب يتشكل فى شكل رحلة من رواية إلى أخرى ، ولكنه يقوم دائما على نفس الأسس ، نفس الإطار الواسع الذى يعادل حقيقة الشخصية الرئيسية ، بحقيقة أو حقائق تشابه حقيقة الشخصية أو تناقضها ، مستخلصا أكثر من وجه لنفس الحقيقة ، ومصالحا للتناقضات الأساسية التى تتحكم فى رؤية الكاتب للحقيقة . ونحن نلتقى بالببناء الروائى الذى يستوعب ماهو أكثر من رؤية الشخصية للحقيقة ، حدمية كانت أو علمية ، أو مبنية على التمزق بين الحدس والعلم كما هو غالبا ، ويستوعب ماهو أكثر من مسعى الشخصية اجتماعيا كان أم ميتافيزيقيا ناجحا كان أم فاشلا ، وهو فى أغلب الأمر فاشل ، ويستوعب ماهو أكثر من اكتشافات الشخصية وهى تصطدم بالتغيرات الأساسية فى المجتمع وبالاختلال الأساسى فى المجتمع والكون . وهو يستوعب أكثر من كل هذا ، حين يقيم ويعادل حقائق الشخصية بحقائق مناقضة لحقائق الشخصية ، مصالحا بين التناقض ، موحيا بأنها أشباه أحيانا ، ومبرزا للأوجه المتعددة للحقيقة الواحدة .

وأنا أكتب هذا الكلام ورحلة نجيب محفوظ قد اكتملت فى هذا الاتجاه أو كادت ، وهو قد تخفف ما بين اللص والكلاب وميرamar عن الكثير ، والإطار الروائى الذى اتسع له طيلة هذه الرحلة قد بدأ يضيق . وهو يبحث الآن جادا عن إطار جديد ، يفرضه رؤية للأشياء قد تغيرت فى مسار الرحلة وتجددت ، ورؤية للأشياء عانت اهتزازا عنيفا مع أحداث يونيو سنة ١٩٦٧ .

عن مجلة « الهلال »

عدد فبراير ١٩٧٠

قصصه القصيرة

د . شكرى عباد

عاد الأستاذ نجيب محفوظ إلى كتابة القصة القصيرة فكان آخر ما قرأناه له قصتين : واحدة بعنوان « موعد » والأخرى بعنوان « الجامع فى الدرب » نشرتا فى أهرام الجمعة فى شهرى فبراير ومارس . وقد جرب نجيب محفوظ القصة القصيرة فى أول عهده بالإنتاج الأدبى حين كان ينشر فى مجلة « الرواية » بين سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ، قصصه القصيرة التى ضمنها مجموعته « همس الجنون » فيما بعد . ولعل هذه التجارب الأولى هى التى دعت نجيب محفوظ إلى العكوف على فن الرواية الطويلة بدلا من القصة القصيرة هذه السنين الطويلة ، حتى أخرج لنا رواياته الكبيرة عن القاهرة القديمة وتوجهها بثلاثية « بين القصرين » . فالأستاذ نجيب محفوظ أديب دارس لا يكفى على الموهبة وحدها ولا يتنقل بين فنون الأدب إلا عن إدراك عميق لخصائص كل فن ، ولا بد أنه لاحظ - بفطرته أو بدراسته - أن تجاربه الأولى فى القصة القصيرة تكشف عن اتجاه أصيل إلى ما يمكننا أن نسميه « رسم الحياة » ، وأن هذا الاتجاه إنما يجد إطاره الفنى الحقيقى فى الرواية الطويلة ، فكانت أعماله الروائية بعد ذلك أمثلة ممتازة للبناء الروائى الكبير الذى يأسر القارئ ويستولى عليه ويجعله يعيش فى جوه ، واستطاع نجيب محفوظ فى هذه الأعمال الكبيرة أن يكتب سجلا ضخما لحيته وعصره ، على طريقة الكتاب الواقعيين . وهاقد عاد الأستاذ نجيب محفوظ إلى القصة القصيرة .

فى هذه العودة نجد جهد الكاتب الكبير الذى لا يزال يكتشف دائما زوايا جديدة من نفسه ، فيتلمس بقدراته المرنة الخلاقة وسائل جديدة للتعبير . فالقصة القصيرة ، حين يعود إليها نجيب اليوم ، هى بالنسبة إليه وسيلة جديدة للتعبير . فقد انتهت قصصه القصيرة الأولى عند مرحلة معينة من مراحل نضجه ، أما هذه المرحلة الجديدة فإن كاتبنا يدخلها مزودا بتجارب فنية ضخمة ، فله لغته الفنية المتميزة ، وأسلوبه فى الحوار ، وطريقته فى رسم الشخصيات ، ولديه ، فوق ذلك كله ، القدرة الفنية الكبرى التى تحول هذه الخصائص كلها إلى أدوات فنية طيبة ، مع أنها قد تصبح أوزارا تقيد حركة

الكاتب وتلف عمله ، وأعنى بهذه القدرة الفنية الكبرى ، المرونة التى سبق أن أشرت إليها ، وهى التى تساعد الكاتب على الابتكار ، وترشده لا إلى ما يجب عمله فحسب ، بل إلى ما لا يجب عمله أيضا ، وقد يكون هذا أهم للفنان .

والنظر الدقيق المستأنى إلى قصتي « موعد » و « الجامع فى الدرب » على ضوء هذه المعايير ، يكشف عن مستويين متباعدين فى التحقيق :

قصة « موعد » تبدأ بخواطر زوجة شابة :

« أسعد ما فى اليوم هو هذا الوقت من الليل . انتهت متاعب الواجبات ، استقر كل شيء فى موضعه على أحسن حال ، حتى المطبخ بات أنيقا نظيفا كأنه معروض للبيع ، الخادم أوت إلى غرفتها لتنام ، لم تبق إلا جلسة مريحة طويلة يبهجها الحب العائلى ، حول الراديو المردد لشتى المسرات . ولولو الصغيرة لا تنام ، لا تود أن تنام ، ولا أن تكف عن اللعب والشقاوة : ولكن هذا السيد ، هذا الزوج السعيد ، ما باله . لولو الصغيرة لاتدع لها فرصة للتفكير . إنها ترمى بنفسها عليها بلا نذير ، ليرتطم الرأس بالرأس ، أو تشب الأظافر الصغيرة بالخد أو الرقبة ، وكافة المساحيق لا تتجح فى إخفاء هذه الأظافر الصغيرة ، بنت لم تجاوز الثالثة ولكنها عفريتة بكل معنى الكلمة ، وكانت هى جديرة بأن تكون أسعد الناس لولا ما يبدو على الأب من تغير حقيقى . وها هو غارق فى المقعد الكبير مطروح الرأس إلى الوراء ، ينظر إلى السقف تارة ، وتارة إلى الراديو من فوق الزجاجاة الذهبية السائل القائمة على ترايزة أمامه . معهم كأنه ليس معهم » .

وتُطوّر القصة فى حوار بين الزوجين : الزوجة تحاول أن تعرف ماذا غير زوجها ، ما الذى يجعله يجلس بينها فى هذه الأيام لاهيا عنها عاكفا على نفسه وعلى زجاجة الخمر التى أمامه ، ما الذى يجعله يقرأ كتب الأرواح . وهو يتهرب من الجواب ، وينقلنا الحوار فى سر إلى أفكار الزوج هذه المرة . إن هذه الأفكار تدور كلها حول الموت . وفكرة الموت تعرض مغلفة فى كثير من الاستعارات والكنايات :

« ويظل محملا فى الظلام وخلايا رأسه تحترق بالأفكار المحمومة ، وهيات أن يدري أحد شيئا عن أحاديث الظلام ، عن رعب الظلام ، عن التفكير فى الهاوية التى ليس لها قرار . فى الظلام تطمس معالم كل شيء ، إلا الموت . الموت وحده يرى بلا ضوء ، وهو كالظلام لا شيء يؤخره عن ميعاده . وإذا جال بالخطاير فقد كل شيء معناه وقيمته وحقيقته » .

ونخرج مع الزوج إلى قهوة « متاتيا » ، فاليوم أحد ، ودكان الأدوات الكهربائية

الذى يملكه مغلق . وفي القهوة يستقبل أخاه القادم من الريف ، ونعرف من حوارهما أنه ضرب له موعدا في هذه القهوة ليطلعه على سره .

لقد أراد بطلنا ، صاحب محل الأدوات الكهربائية ، أن يؤمن على حياته ، فرفض طلبه ، وذهب إلى عدد كبير من الأطباء ، واقتنع بعد هذه الاستشارات أنه ميت بعد أشهر قليلة . وقد ضرب هذا الموعد لأخيه كى يطلعه على الأمر ويوصيه أن يرعى دكانه وزوجته وبسته .

ويحاول الأخ بإيمانه الرينى الراسخ أن يشكك بطلنا في مزاعم الأطباء ، وأن يقنعه بالسفر إلى القرية للاستجمام ، وزيارة شيخ هناك ذى كرامات . فيوافق بطلنا بأدب ، ولكن دون اقتناع .

ويصر الأخ الرينى على العودة من فوره ، ولكن له مشاوير يريد قضاءها وحده قبل السفر . فيفترقان على باب القهوة . وبينما يكون بطلنا مستقلا عربة في طريقه إلى منزله ، تتوقف السيارة لحظة عند زحام أمام الأزبكية . ويطل صاحبنا قليلا - فقد عرف أنها حادثة - ولكنه يحفل من إمعان النظر ، فتمضى به السيارة ، بينما نسمع مساح أحذية ينظر إلى الجثة الممددة أمام سيارة الأوتوبيس ويقول :

- أنا رأيت هذا الشيخ منذ نصف ساعة فقط ، كان يجلس في قهوة متاتيا مع واحد أفندى ..

هذه قصة قصيرة ناجحة بغير شك . ففيها الوحدة الكاملة ، والاقتصاد في التكوين الذى يخفى وراءه ثروة من المعانى . وهى ليست علامة استفهام كبيرة أمام لغز الموت فحسب : فعلامة الاستفهام هذه لا تبرز إلا بفضل التناقض الواضح بين الأخوين : بورجوازي تورقه فكرة الموت ويتلهى عنها بالخمير ويحلم بحياة صاخبة قبل أن يميته المقدور ، ورينى عميق الإيمان بالقدر ، لا يفزعه كلام الأطباء ولكن يهز الأسطورية الراقدة في أعماق نفسه توهج الشرر من منجعة التزام حين تخرج عن سلوكها الكهربائى . ومع ذلك فالتناقض ليس إلا جانبا من هذه العلاقة التى تتصورها بين الأخوين ، فهناك بجانب هذا التناقض تشابه فى النفسية كشابهها الجسمى ، تشابه قوامه موقف الإنسان المتخبط أمام القدر ، والنهاية غير المتوقعة تأتى لتؤكد هذا المعنى .

ومع ذلك فإن القارئ يحتاج أن يفك خيوط القصة فى ذهنه ويعيد ربطها بشيء من التعديل حتى يخرج من القصة بجوهرها الممتاز . فالقسم الأول من القصة وهو خواطر الزوجة والحوار الذى يدور بينها وبين الزوج لا يخدم بناء القصة كثيرا ، بل هو أشبه

بالفرش العريض الذى أتقنه نجيب محفوظ فى رواياته الطويلة ، ونجح فيه هناك نجاحا كبيرا لأن الرواية كما قلنا رسم للحياة ، أو بناء لعالم ينقلنا الكاتب إليه رويدا رويدا ، ولكنه فى القصة القصيرة تشتت لانتباه القارئ . وبعد هذا الفرش العريض يركز الكاتب موضوعه فجأة ، ويركزه بشكل مباشر معتمدا على خواطر البطل ، مستعينا بالصناعة البيانية عن الصناعة البنائية . والعرض المباشر للأفكار التى يتناولها الكاتب يحتمل فى الرواية الطويلة ، أيضا ، ما لا يحتمل فى القصة القصيرة . وأنا أقصد هنا بالطبع تلك الأفكار التى هى موضوع الكاتب ، لا أفكار الكاتب نفسه ، فليس يخطر ببال أحد أن ينسب إلى نجيب محفوظ سذاجة عرض أفكاره هو فى شيء من قصصه الطويل أو القصير .

* * *

أما قصة « الجامع فى الدرب » فهى تجربة جديدة ، ضخمة ، فى القصة القصيرة . ونجيب محفوظ يبدو فيها فى قمة عنفوانه . فهنا أصبح فن القصة القصيرة فى يده فنا مطواعا ، يخضع لضربات أزميله ويعطى من الأشكال الجديدة بقدر ما يقبل الكاتب نفسه من حدود القصة القصيرة وإمكاناتها . وإذا كنت قد استطعت أن ألخص قصة « موعد » ، بل إذا كان عرضى لتسلسل حوادث هذه القصة تمهيدا ضروريا لنقدتها ، فإننى لا أستطيع أن أتناول قصة « الجامع فى الدرب » بهذه الطريقة دون أن تتحطم القصة فى يدي . قصة « الجامع فى الدرب » قصة كاملة « التكنيك » ولذلك لا يمكن عرضها عرضا سليما إلا بوصف هذا « التكنيك » . والعنوان يعطى الأساس الأول للتكنيك وهو المكان . فهنا جامع على رأس درب من دروب الفجور فى العهد البائد ، ومجاور لدرب آخر يأوى إليه البلطجية وتجار الموبقات . والأساس الثانى للتكنيك ، وهو الابتكار الرائع لنجيب محفوظ ، هو طريقة تعاقب اللوحات بين الجامع والدرب . ففى الجامع الشيخ عبد ربه لم يزل متضرجا ضيق الصدر مذ عين إماما لهذا الجامع ، وعلى مقربة منه عم حسنين بائع عصير القصب الذى يبدو للشيخ عبد ربه أنه الرجل الصالح الوحيد أو الرجل العادى الوحيد فى الدرب كله . والشيخ عبد ربه مواجه بامتحان قاس لفهميره ، فقد أمر أن تكون خطبة الجمعة فى تأييد « ولى الأمر » وهو الملك السابق والمهجوم على معارضيه السياسيين الذين يسمون « الدجالين ومثرى الشغب » .

وفى الدرب أيضا أزمة . « فشلضم » البرمجى المعروف قد صمم على قتل عشيق « نبوية » حتى يظل سلطانه مستبدا على الحى بأكمله ، وقد دبر الحطة مع أعوانه . وقتل

شلفم الفتاة وعشيقها ، وألقى الشيخ عبد ربه الخطبة كما أمر . وأثارت الخطبة سخط الناس المجتمعين للصلاة ، وسبق بعضهم إلى السجن ، بينما أثارت جريمة شلفم حقدا ممترجا بالرهبة في نفوس الحاططات المسكينات . والمشهد الأوسط من مشاهد القصة يجرى في أحد تلك البيوت وقت صلاة الجمعة ، بين الفتاة المسكينة « سمارة » وزبون جديد . الرجل يسمع كلام الخطيب ، ويصفه بالنفاق ، ثم يلاحظ صورة سعد زغلول في أحد جوانب الحجرة فيقول : « سمارة وطنية وشيخ منافق » . فتجيبه متهددة « يا بنجته ، بكلمتين يربح الذهب ، ونحن لا نستحق قرشا إلا بعرض جسمنا كله » . ويقول : « ثمة رجال محترمون لا يختلفون عنك في شيء ولكن من يجد الشجاعة ليقول ذلك ؟ » فتقول : « وقاتل نبوية معروف للجميع ولكن من يجد الشجاعة ليشهد بذلك ؟ » . والمشهد الأخير في وقت صلاة الفجر . لقد انطلقت صفارات الإنذار ولم يجد أهل الدرب مكانا يلجأون إليه غير الجامع . ويفزع الشيخ عبد ربه ويقول ويكرر : « لم يجمعهم الله في مكان واحد إلا لأمر ! » وينفلت من الجامع رغم معارضة المؤذن والخادم ويصيح : « اتبعاني قبل أن تهلكا » وتتطلق صفارة الأمان بعد لحظات ، وتبدو طلائع الصباح في مثل حلاوة النجاة ، « لكن الشيخ عبد ربه لم يعثر على جثته إلا عند الشروق » .

في هذه القصة أعطى نجيب محفوظ فن القصة القصيرة كل ما يستحقه . فالأسلوب صلب قاطع كالماس ، وليس في القصة كلها جملة واحدة لا تشبه الحجر في العقد ، والصورة البيانية قد ذابت ذوبانا تاما في الحركة الدافقة ، وطريقة تتابع المشاهد لا تعتمد على الترتيب الزمني بقدر ماتعمد على المنطق الفني ، منطق التضاد والتشابه بين ما يجرى في الجامع وما يجرى في الدرب . ثم تأتي الخاتمة بإثارتها الأسطورية الملهمة إلى هلاك العصاة . ولكن السخرية الخفية التي لا تفوت نجيب محفوظ هي أن الذي يهلك هنا هو من يحاول النجاة ، من يظن في نفسه الطهارة . ولاشك أن نجيب محفوظ قد أفاد في هذه القصة من « المونتاج » السينمائي بقدر ما أفاد من ثقافته الأدبية ، واستطاع بمرونة مواهبه الخلاقة أن يقدم عملا فنيا سيذكر ، على صغره ، بين شوامخ أعماله .

عن كتاب « تجارب في الأدب والنقد »

القاهرة ١٩٦٧

٢٠١

في دنيا الله

صلاح عبد الصبور

ما أكثر الذين يحبون نجيب محفوظ ، ويكلفون بأدبه ، والكثرة الكاثرة منهم تحب نجيب محفوظ الروائي ، ولعلها فوجئت به كاتب أقصوصة ، حين عاد إلى هذا اللون التعبيري ، بعد انقطاع عنه طويل ، منذ ظهرت مجموعته الأولى « همس الجنون » ، وقد تلقت الحياة الأدبية عندئذ هذا الساج الجديد للكاتب المرموق متحفزة ، وحين نشرت القصة الأولى كانت مدار النقاش بين أصحابي ويني ، وأظنها كانت مدار النقاش في كل بيئة أدبية ذلك اليوم ، ثم توالى أقاصيص نجيب محفوظ ، وبدأ له أن يجمعها في كتاب ، فكان هذا الكتاب الجديد ، وهو الكتاب السادس عشر ، للكاتب الذي جاوز الخمسين بأشهر ، وهو دليل حياة خصبة منتجة ، تنشر الخير في أرجاء حياتنا الأدبية ، بشتى ألوانه ومختلف نفحاته .

والحياة الأدبية مازالت تتوقف عن إصدار كلمتها في القصة القصيرة عند نجيب محفوظ ، ولعل مرجع هذا التوقف هو أن الكلمة الأخيرة لم تقل بعد في تحديد معنى القصة القصيرة ، فما لاشك فيه أنها تختلف اختلافاً بيناً ، بين موباسان وتشيكوف ، وهما أعظم أعلامها ، وبين بعض الكتاب المحدثين مثل همنجواي ووليم مارديان ووليم فوكنر وسومرست موم وسارتر وغيرهم ..

فالبعض يرى أن الأقصوصة فن قصير النفس ، يجب ألا تمتد إلى عشرات الصفحات ، وإلا أصبحت رواية قصيرة . ولعل هؤلاء لا يدركون أن كثيراً من قصص تشيكوف قد امتدت لتشمل عشرات الصفحات ، مثل قصة « عنبر رقم ٦ » وقصة « الجرادة » وغيرهما ، كما أن بعض قصص موباسان القصيرة أيضاً قد تطول ، ولكن ليس إلى هذا الحد .

هذا بينا نجد أقاصيص همنجواي لا تكاد تتعدى صفحات إحداها أصابع اليد الواحدة ، ونجد المجموعة الأولى لوليم سارويان (الشبان الشجعان على الأرجوحة الطائرة) وهي من ألمع مجموعات ، وقد احتوت في صفحاتها المائتين خمسا وعشرين

قصة ، ونجد كاتباً أمريكياً محترماً مثل (جون أوهارا) يكتب الأقصوصة في صفحة ونصف صفحة ، وتردحم الصحف الآن بالأقاصيص التي تقرأها في خمس دقائق ، والتي كثيراً ما تحمل أبوابها هذا الشعار كنوع من التحلية والترغيب .

والذين يصرون على أن القصة القصيرة يجب أن تكون قصيرة النفس لا يفجؤهم قط أن تحتاج عليهم بأقاصيص تشيكوف وموباسان الطويلة ، ولا بمشكلاتها مثل (المعطف) لجوجول أو (الموتى) لجيمس جويس ، فيزعمون لك أن هذه الأعمال الأدبية ليست أقاصيص ، بل هي روايات قصيرة ، أو هي بمنزلة بين المترلن ، وهم لا يجرؤون على تسميتها (رواية) فحسب ، بعد أن حددت روايات القرن التاسع عشر مدلول الرواية ، حين كتب تولستوى (الحرب والسلام) واسعة كالسهب الروسية مليئة بالأشخاص والأحداث عميقة بالتاريخ ، وكتب دوستوفسكى (كارامازوف) و(الأبله) وكتب ديكتز ويلزاك مطولاتهما ، وأتبعها (بروست) في القرن العشرين بمطولته العظيمة وجيمس جويس بمطولته المحيرة .

مسألة الحجم إذن لا تلقى تحديداً للقصة القصيرة ، فلنبحث عن تحديد آخر . بعض النقاد يقولون إن القصة القصيرة هي التي تلقى اهتمامها أساساً إلى شخصية واحدة أو حدث واحد ، فهي تتناول قطاعاً عرضياً من الحياة ، لا قطاعاً طويلاً ، كما تصنع الرواية ، وإذا كانت الرواية أقرب التحديدات إلى الصحة ، وإن لم يكن صحيحاً صحة مطلقة . فإن مطولة دوستوفسكى (الأبله) لا تتناول أساساً إلا شخصية واحدة هي شخصية الأمير ميشكين ، ولا تعرض للآخرين إلا من خلاله . إذن لابد من الشرط الثاني وهو تحقق القطاع العرضي ، والتقاط الموقف المكثف الغني ، الخصب بالدلالات . وثمة فارق آخر بين الرواية والقصة القصيرة ينبع تلقائياً من هذا التحديد ، وهو فارق (الإيقاع) ، والإيقاع قد نستطيع أن نسن له القوانين في الموسيقى والشعر والرسم ، ولكن من العسير أن نسن له قانوناً في النثر ، بل هو عندئذ يدرك بالإحساس والنوق . وإيقاع القصة القصيرة أسرع من إيقاع الرواية ، فالموقف الروائي له إيقاعه الهادئ المتمهل ، بينما يتميز الموقف (الأقصوصي) بالسرعة ، ونثر اللمسة الدالة والكلمة الموحية .

ولعل هذا التخير في اللفظ ، والانتباه للأداء ، حتى يتحقق الإيقاع السريع ، هو ما جعل كثيرين من النقاد يعقلون المقارنات بين القصة القصيرة والقصيدة الشعرية ، فكلاهما يقوم اللفظ فيه بدوره الكامل ، وتصبح كل كلمة زائدة عبثاً على الفن ثقيلًا . ونحن كقراء قد صنعنا أذواقنا في تلقى القصة القصيرة ومهمتها من خلال الكتاب ،

ولعل أول صانع لذوقنا في تلقى القصة القصيرة كان هو الكاتب الراحل محمود تيمور ، ومحمود تيمور تلميذ مخلص لموباسان ، والتلميذ يتلقى عن أستاذه محاسنه ومعانيه ، وقد تلقى تيمور عن موباسان أن ينهى القصة بمفاجأة تكون هي بمثابة (لحظة التنوير) التي تحدث عنها النقاد الكلاسيكيون وزاد فيها وأعاد مدرسو الأدب بالمراسلة . ومعظمنا لاشك يذكر قصة (القلادة) لموباسان ، وكيف انتهت بهذه المفاجأة (يا الله يا عزيزتى .. لقد كانت القلادة من المعدن ، وقد أنفقت سنوات من حياتك في سبيل لاشيء) . وتلك النهاية هي الأسلوب المحبب لموباسان ولتلامذته في الشرق والغرب من محمود تيمور إلى سومرست موم ، وحين قرأ بعض كتابنا الأدب الفرنسى المتمارض فتنوا به ، وولدت قصص محمود كامل المحامى ، ولكنها لم تكد تستقر ، لأن أثر تشيكوف العظيم اكتسح كل ماعداه .

بدأ أثر تشيكوف العظيم فى يوسف إدريس ، وليوسف إدريس ولع بتطويع اللغة وقهرها ، وله أسلوبه الخاص الذى يحاول فيه أن يصبغ بالعامية لغة القصة ، ولكن يوسف إدريس فنان قادر ، وليس كل مقلديه فى مثل قدرته ، ولذلك فقد شاعت الركافة اللغوية إلى حد منفر بين كتاب القصة القصيرة ، وكادت هذه الركافة أن تصبح أسلوباً معترفاً به .

ولعل أسلوب نجيب محفوظ الفصيح فضلاً عن ذلك الاختلاط فى مفهوم القصة القصيرة ، الذى أوضحته من قبل كانا هما أهم سببين لتوقف الحياة الأدبية عن إصدار كلماتها فى أقاصيص نجيب محفوظ .

إن تطور نجيب محفوظ من متابعة الأحداث إلى متابعة الأشخاص هو سبب عودته إلى القصة القصيرة ، وفى حديث أخير لنجيب محفوظ مع غالى شكرى ، نشر فى مجلة (حوار) قال نجيب محفوظ إنه لم يعد يشغل بظواهر الوجود بقدر ما هو مشغول بالوجود ذاته .

وقد كان نجيب محفوظ فى رواياته : (القاهرة الجديدة ، خان الخليلي ، زقاق المدق ، الثلاثية ، السراب ، بداية ونهاية) بعيداً بعداً بيناً عن مشكلة الوجود المجرد ، كان الذى يعنيه فى هذه الروايات هو (الوجود فى زمن) . وكان عندئذ يتبع أشخاصه العديدين ، والثلاثية بالمناسبة ليس فيها بطل ، وكذلك زقاق المدق وخان الخليلي وبداية ونهاية إلى حد بعيد .

ويتبع الوجود فى زمن يعنى دراسة أحوال الشخصيات وتطوراتها ومصائرهما ، ولكنه

لا يعنى دراسة سبب وجودها المجرد أو سبب موتها المجرد .

وقد قال لى نجيب محفوظ ذات مرة منذ سنوات ، وبعد الثلاثية بالتحديد ، إنه لم يعد يعرف كيف سيكتب ، بعد أن تغيرت صورة الحياة الاجتماعية ، فلقد تحدث نجيب عن الطبقة الوسطى القاهرية ما وسعه الحديث ، ومجدها وبكاها حين ارتفعت وانخفضت ، ودرس ارتباطاتها السياسية وبناءها النفسى وسلوكها الأخلاقى ، ووصف طموحها العظيم وفضائلها العظيمة وخستها العظيمة أيضاً ، والآن ، حين لم يعد للطبقة الوسطى هذا الأثر الضخم فى المجتمع ، أحس نجيب بالحيرة .

هذان العاملان .. نضج نجيب حين وجد نفسه مشغولاً بالتفكير فى الوجود ذاته ، وهو قلة نضج كل فنان عظيم ، حين يجد نفسه يفكر فى الجوهر وراء الظواهر والعلة وراء العلولات ، وإحساسه أنه قد انتهى من استقطار الطبقة الوسطى وتسجيل أبعادها ، هذا العاملان هما اللذان دفعا للعودة إلى القصة القصيرة .

وهنا يضطر نجيب محفوظ إلى استخدام أدوات لم يستخدمها من قبل فى رواياته ، يضطر إلى استخدام الرمز والتجريد ، واللامعقول فى بعض الأحيان .

ومن هنا كانت المشكلة التى شغلت نجيب محفوظ فى معظم قصصه القصيرة التى نشرت فى هذه المجموعة ، هى مشكلة (الموت) ، وتبعها مشكلة أخرى هى مشكلة (الإيمان) .

ومن البديهي عندئذ أن نجيب محفوظ قد عاد إلى القصة القصيرة بعد أن استوى له أسلوب فى السرد والحوار الأدبى ، وفى تناول الشخصيات ، ومن هنا فإن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ لا أستاذ لها إلا نجيب نفسه .

الموت ...

يخطئ الذين يظنون أن التفكير فى الموت لون من الميتافيزيقا ، فإن الموت هو أكثر الأشياء (واقعية) فى حياة الإنسان ، وتوأم الموت هو المفاجأة . وفى رواية بداية ونهاية ترتفع الستار عن موت الأب ، وتسدل على موت الفتاة ، والموت فى الثلاثية زائر دؤوب .

ولكن كل هذا الموت عند نجيب كان موتاً مسجلاً بحياد ، يستجيب له الكاتب كجزء من الأحداث أو خيط من النسيج الروائى ، ولكن ماذا يكون موقف الكاتب منه لو استله من نسيجه الروائى ، ونظر إليه كموت مستقل ، موت فى ذاته .

فى مجموعة (دنيا الله) أربع عشرة قصة ، منها سبع قصص تتحدث عن الموت ،

قصة (جوار الله) تتحدث عن سيدة عجوز ، تموت ويقتسم ورثتها ميراثها ويتنازعونه قبل أن تسلم الروح ، وقصة (الجامع في الدرب) تتحدث عن نجاة البغايا حين احتمين بالجامع ، وموت شيخ الجامع ، وقصة (توعد) تتحدث عن نجاة الأخ المريض وموت الأخ الصحيح البدن . وقصة (قاتل) تتحدث عن جريمة قتل يدفع إليها متشرد مأجور ، فيقتل رجلاً لا يعرفه ولم تسبق له معاملته ، بكل قوة وجارحة ، وقصة (ضد مجهول) وسنعود إليها بعد قليل ، تتحدث عن موتى كثيرين يموتون دون أن يدري أحد من قاتلهم ولماذا قتلهم ، وفي آخر الأمر يموت ضابط المباحث الكفاء الذي يبحث عن المجرم المجهول بنفس الميته . وقصة (الجبار) ينجو فيها القاتل ويعترف البرئ ، وقصة (حادثة) يموت فيها مجهول في طريق ، وهو في أوج سعادته .

ولنعد الآن إلى قصة (ضد مجهول) ، ولعل لا أفسدها بالاختصار .

في حي العباسية ، وقف ضابط المباحث الكفاء المشهود له بالمهارة والمقدرة ، أمام الجريمة يحاول أن يتلمس خيطاً يقوده إلى المجرم فلم يستطع ، فلا أثر هناك لمقاومة كأن القتل قد استسلم لقاتله ، قاتل (كأنه نسمة هواء لطيفة أو شعاع من الشمس) ، وهو لم يسرق شيئاً ، ولم يمد يده إلى حافظة نقود ، بل لقد اكتفى بأن يأخذ الروح ويمضي بها . والقتيل مدرس بالمعاش ، ولا أعداء له ، وشعر الضابط بالهزيمة ، فأغرقها في قراءة الشعر الصوفي الذي يكلف به ، وقيدت الجريمة (ضد مجهول) .

وبعد شهر قتل لواء قديم من رجال الجيش بنفس الطريقة ، ومضت الاجراءات بلا فائدة ، فالجريمة موجودة بلا شك بدليل وجود جثة الضحية ، ولكن كأنها ترتكب بلا مجرم ، بل لعل المجرم موجود ، ولعله أقرب إلينا مما نتصور .

واهتر الرأي العام ثم يهتز وبخاصة بعد أن وقعت الجريمة الثالثة ، وكان ضحيتها شابة في الثلاثين ، كانت مريضة بالتيفود منذ عشرة أيام ، وتوقع لها ذووها الموت بالمرض ، ولكن المجرم المجهول كان أقرب إليها من المرض .

ثم عثر الجنود بعدها بشهر على جثة متسول عريان ، وقد قتلت بنفس الطريقة ، ثم سقط جسم من ترام بعدها بأيام ، وتبين أنه مقتول بنفس الطريقة ، وضج الناس وهاجوا ، وأحس ضابط المباحث بالهزيمة المرة تجاه ذلك المجرم الذي يقتل ولا يترك وراءه أثراً (كان يتجول في الحي كالمجنون ، يتفقد الشرطة والمخبرين ، ويتفحص الوجوه والأماكن ، ويمضي في يأس تام ، ويناجي بأسه طويلاً ، وهزيمته المرة ، ويود لو يقدم عنقه إلى المجرم شرط أن يعفى الناس من حبله الجهنمي . وزار مستشفى الولادة حيث ترقد

زوجته ، جلس إلى جانب فراشها قليلا وهو يرنو إليها وإلى الوليد ، مفتر الثغر عن ابتسامة ، ابتسامة لأول مرة منذ عهد غير قصير ، ثم لثم جبينها وذهب ، عاد إلى الدنيا التي يود ألا يراه فيها أحد ، ووجد ما يشبه الدوار ، الحياة التي يقضى عليها حبل مجهول فتصبح لاشيء لكنها شيء بلا ريب وشيء مثير . الحب والشعر والوليد ، الآمال التي لا حد لها . أهنك خطأ يجب أن يصلح ومتى يصلح ؟ .

وتقرر نقل الضابط من القسم إلى الأرياف جزاء له على فشله ، ولكن المأمور يدخل على مكتبه ، فيجده مقتولاً بنفس الطريقة .. حتى عدو الموت مات بنفس الطريقة . ويأمر المأمور بكتان الخبر عن الصحف ، فإن الخبر إذا اختفى من الصحف ، ولم يعد الناس يتحدثون عنه ، فكأنه اختفى من الدنيا . إن سر الرهبة هو أن الناس تتحدث كثيراً ، ويعد المأمور رجاله ونفسه أنهم جميعاً لن يكفوا عن البحث .

هذه القصة هي مفتاح نظرة نجيب إلى الموت ، فمن البديهي أن القتل في هذه القصة قتل تجريدي ، وأن هذا القاتل لا يدخل من باب ، ولا يقفز من شباك ، ولا يمد يداً إلى ضحية ، ولكنه (الموت) العادي الذي تصادفه كل لحظة ، والذي نحمله في دمائنا وأعصابنا كل وقت ، وهو أقرب إلينا مما نتصور ، ولكننا لانحسن به إلا عندما نواجهه أو نتكلم عنه . وليست حكاية الحب والحق التي يسوقها المؤلف إلا نوعاً من الإيهام بالواقعية ، يلجأ إليه الكاتب لإحكام الرمز وتقويته .

فالكاتب إذن لا يريدنا أن نجهد عقولنا في البحث وراء قاتل ، ولكنه يريد أن يقول لنا إن الموت ، حتى الموت في الفراش ، أو موت المفاجأة في الترام . أو السكتة القلبية التي تصيب موظفاً في مكتبه إثر خيبة مريرة أو فشل كبير ، كل هذه الألوان من الموت ، هي في الواقع قتل .

من القاتل : إن القاتل هو نفسه الذي يهب المولود للمرأة الحامل ، إنه القدر ، ولو تجردنا من منطق الحياة ، ومن التسليم الأبله الذي تعودنا الحياة عليه ، وتلقيه في نفوسنا لأدركنا بشاعة هذا الموت القدرى . الذي تقيد فيه الواقعة في دفتر الحياة تحت خاتمة (ضد مجهول) .

والقاتل الفرد يختار ضحيته ، وبينه وبينها دائماً عداوة أو صداقة .. أى علاقة ، ولكن هذا المجهول لا يختار .. إن ضحاياه يختلفون من اللواء المتقاعد إلى الشابة المريضة إلى الطفل الصغير إلى السكران الضائع .

ورغم ذلك فالحياة تمضي .. رجل يموت وامرأة تلد ، وبالحكمة ينطق المأمور حين

يقول إن كتمان الخبر عن الناس معناه اختفاء الموت ..

نعم ! هكذا يريد الكاتب أن يقول لنا .. إنه يريد أن يقول لنا .. إن الوسيلة الوحيدة للتغلب على الموت هي تجاهله ، فلن ينفع في مواجهته ضابط المباحث لذكى ولا الطبيب البارع ولا العالم العلامة ، كلهم مستخر رقابهم يوماً ما بجبل غير مرئى ، لا أحد يرى الحبل ، ولكن كلاً منا يرى أثره على الرقاب .

هذه النظرة إلى الموت هي التي تتكرر بعض ملامحها في القصص الأخرى ، فقصّة (جوار الله) تتحدث عن عادية الموت وابتذاله حتى كأنه بسيطة من بسائط الحياة ، وخيط رخيص من خيوط الوجود الرخيص ، وقصة (الجامع في الدرب) تلقى في روعنا أن الموت عشوائى وكذلك قصة (توعد) ، وقصة (قاتل) تتحدث عن الموت كعمل غير مبرر ، وقد يكون إزهاق الروح لأسباب واهية لا تكاد يسيغها عقل ، وكأن القدر يعبث مازحاً .

ولكن إذا كانت الحياة والشعر والحب والأطفال ، كل ذلك يعيش على فوهة الخطر إلى هذا الحد ، إذا كانت هذه الأشياء الإنسانية العظيمة تقع ضحية صريعة لهذه الخطبات العشوائية فما العلاج إذن ؟ ..

العلاج هو .. الزعبلأوى ..

والزعبلأوى عنوان قصة لنجيب محفوظ في هذه المجموعة ، وهو الذى سيعدل حال الدنيا كما ورد في الأغنية الشعبية (الدنيا ما لها يا زعبلأوى .. شقلبوا حالها وخلوها ماوى) .. وهو ولى صادق من أولياء الله ، وراوى القصة يحدثنا أن الأيام حين جرت صادفته أدواء كثيرة ، وكان يجد لكل داء دواء بلا عناء وبنفقات في حدود الإمكان ، حتى أصابه الداء الذى لا دواء له عند أحد ، وسدت في وجهه السبل وطوقه اليأس فقرر أن يبحث عن الشيخ الزعبلأوى ، ويشكو إليه داءه ، ويطلب منه الشفاء .

ماهو الداء الذى لا دواء له عند أحد ..؟ ليس هو داء في الجسم أو العضل ولكنه داء في النفس .. لعله الافتقار لليقين ووجع القلب من الملل وانعدام المعنى الذى تكاشفنا به الحياة .

وبدأ الراوى في البحث عن الشيخ الزعبلأوى ، سمع من أبيه منذ سنوات طوال أنه عرف الشيخ الزعبلأوى في بيت الشيخ قمر المحامى الشرعى بخان جعفر ، فقصد بيت الشيخ قمر ، فإذا بالشيخ قمر قد انتقل إلى ميدان الأزهار ، وإذا بالشيخ قمر قد انقطعت الأسباب بين الزعبلأوى وبينه منذ الزمان الأول ، وأصبح الشيخ قمر يرتدى البدة

العصرية ، ويدخن السيجار وأفتاه الشيخ قر بأن الزعبلأوى كان يقيم بربع البرجاوى بالأزهر. وانتقل الراوى إلى ربع البرجاوى وسأل عن الشيخ الزعبلأوى أصحاب الدكاكين دون جدوى ، ثم ما لبث أن قصد شيخ الحارة ، ونصحه شيخ الحارة أن يبحث عن الزعبلأوى فى حلقات الذكر والمساجد والزوايا ، ثم ما لبث كواء بلدى أن نصحه أن يقصد حسنين الخطاط بأى الغلام ، فقد كان صديقاً للزعبلأوى .

كان الخطاط ينقش على لوحة فضية اسم الله ، وأحس الخطاط بقدومه قبل أن يراه ، إذن لقد اقترب من الزعبلأوى ، كان الخطاط يعيش على ذكريات جمال وجه الزعبلأوى وذوقه ، وقد عاشه حيناً كأنه كان يرسمه فيما يرسم ، ولكن الزعبلأوى قد انقطع عنه من زمن ، ومن العسير أن يعرف مكانه ، ونصحه الخطاط أن يقصد إليه فى بيت الشيخ جاد الموسيقىار بالتبكية ، وحين قصد الراوى إلى منزل الشيخ جاد ، وسأله عن الزعبلأوى قال الشيخ جاد : « لقد زارنى منذ مدة ، قد يحضر الآن وقد لا أراه حتى الموت » ! .

إن الزعبلأوى هو الذى يوحى للشيخ جاد بأجمل ألحانه .. كلما غلب الفتور الملحن أو استعصى عليه الإلهام لكاه مداعباً فى صدره وضاحكه ، فجاش قلبه بالنغم ، ولكنه الآن - الزعبلأوى - لا يستقر فى مكان ، لأن الدنيا تغيرت وبعد أن كان الزعبلأوى يحظى بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل .

وفارق الراوى الشيخ جاد إلى حانة النجمة ، حيث سمع أن الزعبلأوى يتردد إليها ليرى صديقه الحاج ونس الدمنهورى .

كان الحاج ونس يجلس فى حانة النجمة سكران ، ويشترط فى من يجلس معه أن يسكر مثله ، ولا يسمح فى مجلسه أن يتصل بينه وبين أحد كلام ان لم يكن سكران مثله ، وإلا خلا المجلس من اللياقة ، وتعذر فيه التفاهم .

وسكر الراوى مع ونس ، وجلسا ينتظران الزعبلأوى ، ولكن أين هو؟ إن الحاج ونس يسهر للقائه ويسكر ، ولكنه لا يقدم عليه حيناً يريد ، قد يزوره أياماً متوالية ، وقد ينقطع عنه مشهوراً وأياماً . وقد مرت النشوة بالراوى ، وأغنى ونام ، وكان جوعان نوم ، وفى أثناء نومه جاء الزعبلأوى ومضى ، ولم يره الراوى ، وقال له الحاج ونس معزياً مواصياً .. ياخسارة ، كان يجلس على هذا الكرسي إلى جانبك ، وكان يتغزل طيلة الوقت بعقد من الياسمين حول عنقه أهدها إليه أحد المحبين .

وغادر الراوى الحانة ، وهو يترنج ، ويهتف عند كل منعطف (يازعبلأوى) .

وما أبعد أعماق هذه القصة وأروعها ، وأحفلها بالدلالات الخصبة ، فهي لون فريد من الأداء الفنى يكاد يختصر تجربة الصوفية كلها فى البحث عن يقين .
يظل الزعبلأوى طوال القصة مخلوقاً بين الحقيقة والوهم ، فالذين رأوه رأوه لماماً كأنه خاطر على البال ، وآه الشيخ قر فى الزمان الأول حين كان القلب نظيفاً والنفس خفيفة قادرة على التحليق ، وآه الشيخ جاد فى ساعات التجلى والإلهام ، وآه حسنين الخطاط وهو ينقش لوحاته ، وآه الحاج ونس فى حالة الوجد الشديد ، فى حانة النجمة .

والشيخ الزعبلأوى لا يزو بمواعيد ولا ينجىء من يطلبه ، إنه يهبط إليك من المحل الأرفع ، وكما يقول الصوفيون (الأحوال مواهب والمقامات مكاسب) وقد تستطيع أن تصل إلى مقام الصالحين بكثرة الصلاة وطول الذكر والتسبيح ، ولكنك لا تستطيع أن تصل إلى حالة الوجد إلا إذا أراد لك الله .

وحين تصل إلى حالة (الوجد) تستطيع أن تجد التوافق الضائع بينك وبين نفسك ، ولعل عدم التوافق هو الداء الذى كان يشكو منه الراوى ، وهو قد وجد التوافق حين سكر مع الشيخ ونس ونام ، وجد التوافق فى الحلم (توافق عجيب بينى وبين نفسى ، وبيننا وبين الدنيا ، فكل شىء حيث ينبغي أن يكون بلا تنافر أو إساءة أو شذوذ ، وليس فى الدنيا داع واحد للكلام أو الحركة ، ونشوة طرب يضج بها الكون) .

هل كانت الخمر التى يسكر بها الشيخ ونس هى الخمرة ، أو لعلها المدامة التى يسكر بها العاشقون من قبل أن يخلق الكرم ، ولماذا لا بد أن تسكر مثله قبل أن يتصل بينه وبينك حديث .. ذلك هو شرط الرفقة فى الطريق عند الصوفية .

والذين يحبون الشيخ الزعبلأوى هم أهل الفن وأهل الوجد .. أهل الفن يرونه فى وحيهم وأنغامهم وحفظهم ، وأهل الوجد يسمرون معه ويسكرون بنخمير اليقين والسعادة ، وكذلك هو الطريق إلى الإيمان بأى شىء .. بالله .. بالقدر .. بالحياة .. خطواته هى الفن والوجد .

ونجيب محفوظ يتجلى فى هذه القصة كمشروع لطريق النجاة : اسكر بالحلب والوجد لتستلقى فوق هضبة الياسمين ، نل اليقين ولو فى الأحلام ، إن الإنسان جائع نوم ، ولن ينام إلا إذا سكر بالحلب ، فالدنيا أبشع من أن تطاق ، بموتها وأمراضها وسفاهات ناصها ، وخلاصنا الوحيد هو (زعبلأوى) أو على الأقل البحث عن زعبلأوى .
ذلك هو الوجود فى نظر نجيب محفوظ ، وعظمة الفنان هى أن يعطينا فلسفته ،

ولعل رغبة نجيب في إعطائنا فلسفته من خلال مواقف وجودية لأشخاص هي التي دفعته إلى العودة لأسلوب القصة القصيرة ، متدرجاً من اللص والكلاب والسمان والخريف . ونجيب في هذه الأقاصيص يكتسب بعداً جديداً ، لعله ينضاف بعد ذلك إلى الأبعاد التي تميز بها في رواياته مثل الاتساع في الحدث ، وبانورامية الشخصيات .. وفي اعتقادي - أخيراً - أن القصة القصيرة عند نجيب ، استعداداً لوثبة روائية أبعد ، وهي بهذا المعنى وحدة (اسكتشات) أو رسوم تخطيطية ، هي رسوم تخطيطية بالمعنى الفكري لا بالمعنى الفني ، لأن نضجها الفني لا يتحدث عنه إلا ياكبار .

عن كتاب « حتى نقهر الموت »

بيروت ١٩٦٦

جدارية هائلة

فاروق عبد القادر

حدث هذا في حوارى الغورية ، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر : جمع الجوار في السكن والصحبة في المقهى بين أصدقاء ثلاثة : يزيد المصرى ، الذى جاء القاهرة بعد أن هلك أهله أثناء اجتياح الحملة الفرنسية للإسكندرية ، وعطا المراكبى ، الذى يعمل في دكان يملكه رجل مغربى ، زوجه ابنته وأورثه الدكان ، والشيخ القليوبى ، المدرس بالأزهر.. « وشهد الرجال نابليون بونابرت على جواده وهو يسير على رأس جنوده أمام المشهد الحسينى ، وعاصروا تقلبات حملته ، وخاصة ثورتى القاهرة.. وعاصروا بعد ذلك ولاية محمد على ومذبحة المماليك ، والثورة التى أحدثها الوالى في البلد وأهله.. » ، وفي أوقات متقاربة ، تزوج الأصدقاء الثلاثة وأنجبوا البنين والبنات .

هكذا تبدأ ثلاث « شجرات عائلة » - بالمعنى المحدد للكلمة ، حتى يمكنك أن ترسمها باللون الأزرق ، ويروح نجيب محفوظ - بدأه المألوف - يتابع الفروع والأغصان ، الأبناء والأحفاد (ومن الأحفاد من لا يزالون يعيشون بيننا في مصر أو خارجها) . وهكذا أيضا ترسم أمامنا جدارية هائلة من الشخصيات والأحداث ، في عدد قليل من الصفحات ، لا يكاد يتجاوز المائتين ، كل شخصية تضيف لمسة هنا أو أخرى هناك ، والرواى متمعن في حياته الظاهر ، يرتب الشخصيات حسب حروف الهجاء ، ولا ينسى - هذا الموظف العتيق - أن يكتب الأسماء ثلاثية - وأحياناً رباعية ! - حتى تكتسب شهاداتها الصدق والصحة ، ويقف بها عند رقم سيتكرر كثيراً ، وستكون له آثاره على الجيلين الثالث والرابع : سبعة وستين . وعليك - بعد أن خلط لك الأوراق - أن تعيد ترتيبها في سياق تتابعها الزمنى . ثم أن تسأل السؤال الأساسى : وأين يجنبى الرواى الماكر ؟ .

● ويحدث التمايز المحتوم منذ بداية البداية : أثناء جولات الغلامين الشقيقين داود وعزيز - ابنى يزيد المصرى - في حوارى الغورية ، ينقض عليهما جنود الوالى محمد على . أدركوا الأول وفر الثانى ، وأرسل داود إلى المدارس ثم إلى باريس حيث درس الطب ،

ورجع من بعثه طبيياً ، سرعان ما حصل على الباشوية وأصبح من رجال العصر ، على حين بقى شقيقه - الذى نجا من هذا المصير - ناظراً لسيل بين القصرين . وتأسس فى العائلة الواحدة فرعان ، أحدهما يتميز بالثراء والنفوذ والعلم ويسكن السرايات فى الأحياء الراقية ، والثانى يضطرب فيما يضطرب فيه أوساط الناس . بقيت بين الفرعين روابط المودة والقرى ، لكن الوجدان الطبقي راسخ تحت السطح الساكن ، ما أسرع ما يفصح عن وجهه الجهم المتعالى كالجدار .

ولئن كان هذا الفرع قد صعد بالعلم والثراء ، فثمة من صعد بالثراء وحده : بعد موت امرأته الأولى ، تزوج عطا المراكبى من أرملة ثرية . وبسرعة مذهلة صعد من طبقة لطيفة .. بنى السرايا الضخمة فى ميدان خيرت ، وأبتاع عزبة فى بنى سويف « والحق أن الثروة كشف عن مواهبه الكامنة وقوة شخصيته ، كما هتكت حرصه وشحه وجشعه اللانهاى إلى الثراء ، وبخلاف الظنون فرض سيطرته الكاملة على امرأته والمتعاملين معه ، حتى شبهه الشيخ القليوبى بالوالى الذى جاء مصر جندياً بسيطاً ، ثم تعلق فوق هامة امبراطورية مترامية ، بل كانت نهاية امبراطورية بنى سويف خيراً من نهاية الوالى ألف مرة ... » ، وفى ذريته كذلك اجتمع الفقر والثراء ، فابنته من زوجته الأولى وأبناؤها انطلقاً أملهم فى أن يرثوا شيئاً من ثروته المترامية ، وآلت كلها إلى ابنه من الزوجة الثرية . وتمتد خطوط الفروع وتشابك ، ما بين الغورية وبيت القاضي وبين السرايات وميدان خيرت ، جمعت بين الأبناء علاقات القرى والتزاور ، وقامت بين فتيان وفتيات منهم علاقات حب اتسمت بما اتسم به الحب فى ذلك الزمان ، أقل القليل منها انتهى إلى التحقق ، وأكثرها حالت الطبقيّة دون تحقيقها ، ومن خلال هذه العلاقات ترسم أمامنا صورة متكاملة للأوضاع الاجتماعية والطبقية فى القرنين التاسع عشر والعشرين - فعدد ليس قليلاً من شخصيات هذا العمل لا يزالون يعيشون فى قلب الحاضر منهم بعض سادته ، الذين أفادوا من « انفتاح السادات » حتى بلغوا قمة القمة ، ولعل أبرز ما كشفت عنه تلك العلاقات أن الفروع الأرستقراطية قد لانتانح فى أن تهب بعض فتياتها للأبناء الناهين من الفروع الأخرى ، لكنها - أبداً - لا تزوج أبناءها من فتياتهم ، حدث هذا فى جيلين متتابعين ! .

● على أن أهم الملامح فى هذه الجدارية الرائعة يمثلها خطان يسيران معاً ، جنباً لجنب : الموقف من أحداث التاريخ المصرى فى أهم لحظات تحوله من ناحية ، ثم انتقال التراث الشفاهى الغبى من جيل لجيل ، من الناحية الأخرى :

إن أهم لحظات التاريخ المصري تحدد سلوك الشخصيات ، من حيث هي كذلك ، ومن حيث هي دلالات لمواقف طبقية محدودة إزاء الأحداث . يسرى هذا على الثورة العرابية مثلاً : إن عطا المراكبي - الصاعد بقوة وسرعة نحو القمة - قد حدد موقفه منها بوضوح قاطع : « لم تغز الثورة العرابية وجدانه من مدخل وطني ، ولكن من زاوية أملاكه وأمواله ، فلما صعدت موجتها حتى ظن لها النصر المبين أعلن تأييده لها ، وتبرع بشيء من المال طاوياً آلامه في صدره ، ولما تكالبت عليها القوى المعادية ولاح فشلها في الأفق أعلن ولاءه للخديو... » ، ولما شعر الرجل بأنه يمضي نحو النهاية التي لامهزب منها ، قدم لابنه خلاصة تجربته ، ودستور طبقته التي قامت أسسها ورسخت دعائمها : « اعتل العربة وطنك .. وحذار من الخطب والشعر » !

لا عجب إذن أن أعلن ابنه ووريثه القوى عقب ثورة ١٩١٩ - انحيازه للملك لا لسعد ولا لعدلى ، وقال بأفصح بيان : « لقد انتهت اللعبة ، فلا تتصور أن الإنجليز سيغادرون مصر ولا تتصور أن مصر تستطيع أن تعيش بغير الإنجليز... » ، لا عجب - مرة ثانية ، فنحن إزاء كاتب يؤمن بالوراثة ودورها إيماناً كبيراً ، ويتابع - بصبر غريب - انتقال ملامح الجدات والأمهات للحفيدات والبنات - أن كان من أبنائه ضابط شرطة اشتهر في عهود الانقلابات السياسية بالعنف الشديد في مواجهة المتظاهرين ، وكان هذا العنف خير تركية له عند القصر والإنجليز ولا عجب - مرة أخيرة - أن يرتحل أبناء هذا الضابط الثلاثة بعد موت عبد الناصر : اثنان إلى أميركا والثالث إلى السعودية .

على الجانب الآخر ، تحمس الشيخ معاوية القليوبى للثورة العرابية « ومال إلى تيارها وأيدها بالقلب واللسان ، ولما فشلت الثورة واحتل الإنجليز مصر ، قبض عليه فيمن قبض عليهم ، وقدم للمحاكمة ، فقضت عليه بالسجن خمسة أعوام... » . صحيح أن الشيخ خرج من سجنه ليجد نفسه غريباً في دنيا غريبة ، ولم يجد عيناً تنظر إليه بعطف ، لكن الصحيح كذلك أنه ذاب في قلب التاريخ وتحلل نسيجه ، وأصبح في الضمير الشعبي بطلاً ، يضاف في هذا الوجدان إلى عنتره والهلالي وآل البيت .

إنما من أحفاد الشيخ معاوية سيتألق شباب وطنيون في ثورة ١٩١٩ ، ونجوم من ضباط تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، وشهداء في المعارك التي تلت قيامها حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ .

عن هذا الخط يمكنك القول إن نجيب محفوظ قدّم لونا من التاريخ الفنى لأهم نقاط التحول في تاريخ مصر المعاصر ، من مجيء الحملة الفرنسية حتى مصرع السادات ،

تاريخ لاترويه وقائع جافة ، بل نسيجه شخصيات من لحم ودم ووراثه واكتساب وتعليم ومصالح ، عاشت متأثرة بهذه النقاط الفاصلة ، تصوغ حياتها في ضوء نتائجها ، وهي تدرى أو لاتدرى . في هذا التاريخ لا يبدو الرواى المتظاهر بالحياة محايداً ، لكنه يهب أفضل المصائر لهؤلاء الذين انحازوا للثورة الوطنية في تجلياتها المتتالية ، وأسوأ المصائر - خارج أرض مصر غالباً للأجيال الجديدة التى طحنها هـ حزيران (يونيو) وتهاوى الأحلام - لمن اختاروا الوقوف على الجانب الآخر من الخندق ، آية كشف الرواى عن وجهه الحقيقى يتمثل فى تأريخه لثورة ١٩١٩ وزعيمها ، هذا الكشف يحدث من وراء أقنعة متعددة للشخصيات التى عاصرتها ، ولعل أصدق الكلمات وأقربها إليه : « بلغ قمة انفعاله فى ثورة ١٩١٩ ، وعشق زعيمها ، واشترك فى إضراب الموظفين ، وحافظ على ولائه للزعيم رغم انشقاق أهله العظام عليه ، وتابع خليفة الزعيم - مصطفى النحاس - بكل وجدانه ، ووزع الشربات يوم عقد المعاهدة ، وأيد الزعيم بقلبه ضد الملك الجديد ... الخ » .

يبقى الوجه الحقيقى لهذا الرواى ، دائماً ، يحوم حول تمثال سعد زغلول ! .
● الخط الثانى يبدأ من ذات البداية : وُلدت جليلة فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وتزوجت الشيخ معاوية الذى كان قد بدأ حياته مدرساً فى الأزهر الشريف ، وقد عرفت بأنها « موسوعة فى الغيبات والكرامات والطب الشعبى ، وكأنما أخذت من كل ملة بطرف ، بدءاً من العصر الفرعونى ، ومروراً بالعصور الوسطى ، وحاول الشيخ معاوية ما استطاع أن يلقنها أصول دينها ، ولكنه من خلال المعاصرة الطويلة أخذ منها أكثر مما أعطاها .. » ، وقد عمّرت جليلة حتى تجاوزت المائة بعشرة أعوام ، عاصرت فيها فترة من حكم محمد على ، وعهود إبراهيم وسعيد وإسماعيل وتوفيق والثورة العرابية وثورة ١٩١٩ ، ولم يرسب فى أعماقها زمن كالثورة العرابية التى اعتبرت زوجها من أهم رجالها ، وما أكثر ما روت من بطولاته وسجنه لأحفادها ، وذهب بها الخيال فى ذلك كل مذهب .. » .

من بين أبنائها وبناتها ورثتها راضية ، هى التى تمثلت تراثها ورعته وأضافت إليه ، هى الأم والجلدة المؤسسة ، وتكاد أن تكون أكثر الشخصيات حظاً من عناية الكاتب : « إن ما تلقته عن أبيها الشيخ لا يقاس بما تلقته عن أمها من الغيبات والخوارق وسير الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعفاريت ، والأرواح الساكنة فى القطط والطيور والزواحف ، والأحلام وتأويلها ، وقراءة الطالع ، والطب الشعبى ، وبركات الأديرة والقديسين والقديسات .. » ،

هى الوجدان الشعبى الحافل بكل الموروث ، وهى التى انطبعت على صفحتها أهم الأحداث : الثورة العراقية وثورة ١٩١٩ ، « وسجلت فى قاموسها الخالد ولياً جديداً اسمه سعد زغلول .. » ، ومثل أمها عمرت راضية حتى جاوزت المائة ، وفى أثناء ذلك تحول الأبناء إلى أسروشب أحفاد جدد .. « وسمعت بولى آخر اسمه مصطفى النحاس ، وأخيراً آخر الأولياء الذين عاصرتهم جمال عبد الناصر الذى رفع أحفاداً لها حتى السماء ، وخفض أعزة منهم إلى الحضيض أو السجن ، فراوحت بين الدعاء له ، والدعاء عليه ! » .

من أبناء راضية وبناتها كان قاسم آخر العنقود ، وكان أخلص المستمعين لأمه ، وأصدق التابعين لها فى أحلامها وجولاتها الروحية بين الجوامع والأضرحة ، « وكلما جمع به الخيال وجد عندها الأذن الصاغية والقلب المصدّق .. » ، منذ صباه تطلع نحو بنات الأسرة الجميلات بشهوة مستوفرة قبل أوانها ، مع تدين مبكر وصلاة وصيام ، فتعذب دائماً بين الحب والعبادة ، وسقط ذات يوم مغشياً عليه ، قال الطيب إنه صرع خفيف ، لكنه تطور ليصبح « اتصالاً بأهل الغيب .. » وهجر قاسم المدرسة باستهانة ، وراح فى الحوارى ، أو يطوف بيوت إخوته وأخواته وأقاربه ، وفى كل موقع يتناول المشروبات وينثر كلماته الغامضة تنبؤاً عن المستقبل كما يترأى له .. وتنجى الحوادث مصدقة لنبوءاته حتى عرف بينهم بالشيخ . ومن شيخ إلى ولّى « كأنه خلق للولاية .. بدل بملابسه الافرنجية الجلباب والعباءة والعمامة وأطلق لحيته وقسم وقته بين استقبال زواره - الذين يحملون إليه الرزق الوفير - والعبادة ، حتى أمه - الأستاذة العريقة - أصبحت من تلامذته ومريديه ، وتزوج واحدة من بنات أعمامه وهو فى الثلاثين وأنجب ابناً واحداً » .

هذا خط ينسحب ويتلاشى مع خطوط الضياء والعلم ، ليس عبثاً إذن أن يكون هذا الابن الوحيد - وقد أسماه أبوه النقشبندى ! - كامل الصحة والذكاء ، تخرج مهندساً فى عام النكسة ، وأرسل فى بعثة إلى ألمانيا الغربية قبيل السبعينيات ، وكانت حال البلد قد أرهقت صحته النفسية فقرّر الهجرة ، فالتحق بعمل فى مصنع للصلب بعد حصوله على الدكتوراه ، وتزوج من ألمانية ، واستقر هناك بصفة نهائية ، « حزنّت أمه لذلك أما قاسم فلم يكن يحزن لشيء ! .. » .

● وقارئ نجيب محفوظ يعرف أنه لا يخلو من قسوة - وهل خلت منها الحياة ؟ - ، وقد يتذكر مصائر بعض شخصياته النسائية بوجه خاص ، على رأسهن عندى عائشة زهرة « بين القصرين ، الجميلة المفتحة للحب ، وما كانت فيه من تزامن . ونفيسة التى

جدلت خيوط صنعتها من الدمامة والشبق واليأس والتطلع في « بداية ونهاية » ، أضيف إليها هنا شخصيات عديدة : صديقة ، الجميلة المنتحرة في « عز الشباب واليأس والألم » ، وبدرية التي سقطت ضحية للصرع إبان تفتحها كالوردة ، وجميلة التي فقدت أسرتها كلها « بقضاء لا راد له » ، وحيية التي ترملت وهي دون العشرين ، ثم فهيمة ، الجميلة الثرية خريجة « الميردى ديه » التي يحاكى مصيرها مصير عائشة ، إن لم تفقها تعاسة والتي فقدت ذريتها بعد أن اكتمل لها الشباب والأمل ..

وقد لا تملك - مثلى - أن تحبس هذا السؤال : لماذا يحتفظ نجيب بهذه المصائر التعسة لبطلاته الجميلات المفتحات للحب والحياة ؟ لماذا يجعل في انتظارهن دائما الشكل والترمل ، الموت والجنون ، وفي أخف الحالات العقم والعنوسة ؟.

● لا فن بغير شغل وصنعة ، وهنا شغل وصنعة : « حديث الصباح والمساء » إضافة ثمينة لقلب عالم نجيب محفوظ هي تمت بصلة واضحة إلى الثلاثية والباقي من الزمن ساعة وملحمة الحرافيش ، من حيث هي رواية أجيال وتمت من ناحية أخرى بصلة واضحة إلى « ميرامار » و« المرايا » من حيث هي رواية شخصيات . أتمن ما فيها تفاصيل تلك الجدارية الهائلة ، والتي تجد فيها - كلما أمعنت النظر - اللون الواحد ، في درجاته كلها . يشغل مكانه مع بقية الألوان ، لا يتجاوز حيزه المحدد له في إحكام هندسى دقيق .

● أى صباح وأى مساء ؟.

صباح التاريخ المصرى الحديث ومساؤه ؟ صباح الميلاد ومساء الموت ؟ ليست هناك كلمة واحدة أخفيت بحلق بين المربعات البيض والسود ..

حديث الصباح والمساء ، هو حديث الحياة الممتلى بتناقضاتها التى لاتنى تتفاعل ملقية بحركة التاريخ إلى أمام ، كلما أسفر مساء عن صباح ، وأفضى صباح إلى مساء .

عن « الأفق » - قبرص

٢٥ يونيو ١٩٨٧

صباح الورد

د . غالى شكرى

يدعوها صاحبها « مجموعة » لمجرد اشتغالها على « أم أحمد » مستقلة عن « صباح الورد » ، وكلتاها مستقلتان عن « أسعد الله مساءك » . ولكنى سأحاول هنا أن أقدم اجتهاداً مغايراً أراها بمقتضاه « ثلاثية » على نحو جديد .

إنها تنتمى من حيث البناء إلى تلك المرحلة التى بدأها نجيب محفوظ فى الستينات ، ومن حيث الموضوع تقترب كثيراً من « الماضى » الذى حفرت أعماله الأولى حتى ثلاثية « بين القصرين » . ولكنها ليست كالثلاثية القديمة مقسمة إلى ثلاث روايات تفضى إحداها إلى الأخرى فيما يشبه الحتمية .

صحيح أن الثلاثيتين تتشابهان فى أطروحة الزمان والمكان والإنسان . ولكنها يختلفان فى تجسيم هذا الثالوث نفسه ، لأن المقصود فى « صباح الورد » هو أن الانتقال من زمان إلى آخر ، يتضمن انتقالاً موازياً للمكان والإنسان . لذلك فهى ثلاثية « أجيال » كالثلاثية القديمة ، ولكن الراوى فى الظل أو فى الضوء يكاد يكون شاهداً على فكرة « الانتقال » بحد ذاتها .

ماذا يفعل الزمن بالدنيا ؟ هذا هو السؤال المحورى على طول « صباح الورد » وعرضها .

والدنيا هى مصر التى يمسك الكاتب بأطرافها ويضعها فى مكانين أثيرين لديه هما حى الجمالية الشهير وحى العباسية الذى لا يقل شهرة .

وتبدو مصر بين هذين المكانين فى زمانين يؤرخان للراوى - الكاتب . وبالطبع ، فليس الراوى دائماً أو بالضرورة هو الكاتب ، بل لعل العكس تماماً هو الأغلب . ولكنتا فى « أم أحمد » و « صباح الورد » نكتشف تطابقاً مثيراً بين ذكريات نجيب محفوظ الحقيقية وبين ما جاء فى هذين القسمين ، ولا أقول القصتين . ربما كان التغير الوحيد فى أسماء الأشخاص .

وهو أمر قريب مما فعله الكاتب فى « ميرamar » . أشخاصها حقيقيون وإن تغيرت

أسماءهم وبعض سماتهم . وكان الكاتب يفضل كتابة سيرته الذاتية على هذا النحو الذى يعفيه من الحرج .

غير أننا يجب أن نلاحظ أن « المريا » كانت لها بؤرة محددة هي هزيمة ١٩٦٧ . هذا هو الموت التاريخى الضخم الذى يتخذ منه الكاتب عدسة يصور بها الشخصيات والفكر والسلوك . وفى « صباح الورد » نجد هذه البؤرة أيضاً ، وهي « الانفتاح » مروراً بالناصرية .

والبناء فى الحالىن ، وفى بقية الحالات التى نجدها مبعثرة فى أعمال نجيب محفوظ الأخيرة ، هو العودة إلى الماضى . العودة وليس الاستحضار الحلمى أو الكابوسى أو التذكرى . إنها العودة إلى الماضى قصداً مقصوداً بهدف البحث عن الجذور . وليست هي الهدف بحد ذاتها . وهنا فرق أصيل بين ثلاثية « صباح الورد » وثلاثية « بين القصرين » . ففى الثلاثية الجديدة نتوجه إلى الماضى لنربط بينه وبين الحاضر فنسأل ما إذا كان ذلك الماضى هو جذر هذا الحاضر حقاً ، أم أن المصائر والأقدار لا تشكل على هذا النحو الميكانيكى ، فهناك تريض دائماً « المفاجآت » و « المصادفات » وغيرها من الظواهر التى تنفى حتمية النمو الجبرى للبذرة على هذا النحو المحدد سلفاً دون ذاك . فى جميع الأحوال ، فإننا أمام ثلاثية لها مواصفات تغاير - أكرر ذلك - مواصفات الثلاثية العتيقة (التى لم تكن فى الأصل سوى رواية واحدة اعتذر الناشر عن طبعها فى مجلد واحد لضخامة حجمها ، وتدخل صديق آخر الأمر فاقترح تقسيمها على النحو الذى عرفت به) .

إننا هنا فى المقطوعة الأولى المسماة « أم أحمد » فى قلب « الزمن القديم » و « الحى العتيق » . هكذا يقترن الزمان بالمكان من بداية الرواية . ولذلك فإن العين التى ترصد ، هي عين الطفولة . أى أننا برقعة راوٍ واحد مختلف أطوار العمر ، وقد اقترن كل طور بزمان ومكان معينين . ومن ثم فأسلوب الرؤية وطريقة الحضور تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان اختلاف درجة الإبصار التى تطورت عند الراوى من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة .

وهو حين يختار « أم أحمد » فليس فقط لأنها وكالة أنباء الحى العتيق ، وإنما لأنه « الطفل » الذى يرى أول ما يرى هذه المرأة من خارج أفراد الأسرة . والكاتب يقول صراحة « لم يبق من حياته الحافلة إلا ماتعبه الطفولة » . ماذا يرى إذن من خلال « أم أحمد » ؟ .

يرى بعينه كبار التجار القادمين من الصعيد أو من القدس وقد أصبحوا من البكوات . ولكن أم أحمد تقول عن أحدهم « كان أبوه يسرح بالبن على باب الكرم ، وفتح دكانا صغيرا في الخرنفش ، وقامت الحرب فأمر الله بالثراء ولا راد لأمره » . وتقول عن آخر بل تقسم « إنها رأت أباه المرداني الكبير يتجول في الحارة أقبلت » . هذا هو الماضي ، فماذا يكون حاضر « الذرية » التي أقبلت من صلب هؤلاء ؟ .

ثورة يوليو كان لها نصيب موفور في تحديد الأقدار والمصائر ، فقد فرضت الحراسة على البعض وسجنت البعض الآخر ، ورحل قائدها فتغيرت البوصلة أو انقلبت . هكذا انفجر شريان في مخ على بك البنان في الستينيات ، وهكذا أيضا أصبح ابنه محمد من وحوش الانفتاح في السبعينيات .

أما عباس بك المرداني الذي أصابته رصاصة طائشة ، فقد استطاع ابنه أن يعمل في المحابر والقوادة إبان المرحلة السابقة فتكونت لديه ثروة ساعدته لأن يقفز « إلى درجات خيالية من الثراء » في ظل الانفتاح .

وكان الانتقال من حال إلى حال انتقالاً من حيّ الجمالية إلى حيّ العباسية ومن العصر الملكي إلى العصر الثوري ، كما أن الانتقال من العباسية إلى الأحياء الجديدة أو القديمة الراقية ، الأكثر رقياً ، كان انتقالاً من العصر الثوري إلى عهد الانفتاح .

وإذا كانت مقطوعة « أم أحمد » نظرة سريعة شاملة لحيّ الجمالية أساساً بالرغم من زيارات أم أحمد المتقطعة للعباسية ومن كونها قد عمّرت حتى الثمانينيات - فإن « صباح الورد » أكبر الأقسام وأطولها تتناول بالتفصيل مجموعة محددة من العائلات التي سكنت شارع الرضوان القديم القائم في الزمن القديم بين شارعى العباسية وبين الجنان . وكان الشارعان يقسمان العباسية إلى شرقية للأغنياء وغربية للمتوسطين . ويكرر نجيب محفوظ ما سبق تأكيده في جزء « أم أحمد » حول الحد الفاصل المفقود بين الحقيقة والوهم فيقول « رب كذبة أصدق من حقيقة » و « لاشك أن بعض الأساطير تتفوق على الوقائع بصدقها وجمالها » . وهما عبارتان يصوغان الإطار الفنى الذى اختاره الكاتب لهذه « الذكريات » . و « صباح الورد » هى تفصيل ما جاء في الجزء الأول . ولكنه التفصيل الخبرى الشديد الاختصار . أى أن نجيب محفوظ ، بعين الشباب ، اكتفى بالملامح التى توجز المرحلة الجديدة ، الوسطى . وهى مراحل الازدواجية الثقافية والتبلور الطبقي . وسنلاحظ صراعاً مريراً بين الاحتفاظ بحيّ الجمالية فى القلب واللباق بالعباسية الشرقية فى العقل . وهو صراع بين مجموعتين من القيم : الأولى هى القيم الدينية وشبه الدينية ،

والأخرى هي القيم الأوروبية ، وأساساً الفرنسية .

وسنلاحظ أن عثمان بن جمال بك إسماعيل ، هو نموذج التحول العنيف إلى التفرنس ثقافة وعادات وتقاليده « ولاسمة مغزى لا يغيب » . ولكن هذا الفتى الذى يكبر فيسافر في بعثة إلى فرنسا ينتهى به القمار إلى السجن الفرنسى ، فالموت . هذه « نهاية » علينا أن نجتمعها مع بقية الدلالات . فهناك حسين الجمحى الذى عاد من أوروبا دكتوراً في الزراعة فاكشف أن والده الشرس الجبار قد اغتيل في وضح النهار . وأمضى الابن عمره يفكر بالانتقام . وحين أقبلت هزيمة ١٩٦٧ كان في مقدمة السعداء . وفي الانفتاح أصبح من أغنى الأغنياء ، ولكنه يفكر في « هجرة بلا رجعة » . أما سامح شكرى فهو لم يكن ممن يعتبرون الحضارة الغربية حضارة غريبة عنا ، وهى لم تسم بأسم خاص إلا بسبب البيئة التى نشأت فيها ، ولكنها في الواقع الثمرة الأخيرة في شجرة الحضارات الإنسانية التى أسهم البشر جميعاً في غرسها . وهو رأى يقترب من آراء عزت ورأفت ابني حسن قيسون ، وأحدهما قال ذات مرة « أعداؤنا ليسوا الإنجليز والملك فقط ولكن الجهل أيضاً والخرافات » .

إلا إن ابن سامح نفسه - شكرى على اسم جدّه - هو الذى انطوى تدريجياً على ذاته ، وانضم إلى إحدى الجماعات الإسلامية . حيثئذ يسلم الأب « إنه جيل يعانى من ذكريات الهزيمة والغلاء والمستقبل المسدود » .

وسنضيف إلى بقية النماذج - الدلالات ، من رأى في ثورة يوليو « إنجازات اجتماعية رائعة » ، ومن هرب أمواله إلى الخارج « بمعاونة بعض أصدقائه من اليهود » وأضحى يردد إنه إذا كان لابد من جيش يحكمنا فالأفضل أن يحكمنا جيش متحضر (يقصد الاحتلال) ، حتى انتهى ذات يوم إلى الصراحة الكاملة « يقولون إننا نرتمى باختيارنا في حضن الاستعمار الأمريكى فاللهم بارك خطانا » .

هذه إذن « الصورة المفصلة » للقطعة العامة التى التقطناها بعلمة أم أحمد . الانتقال من حى إلى آخر هو انتقال الثروة والزمان والمكان والبشر من حال إلى حال . متابعة سريعة لما آلت إليه المصائر في إطار الصراع من أجل هوية حضارية أصيلة ومعاصرة في آن . ولكنها الهوية المضطربة ، لأن القوام الاجتماعى الآخذ في التبلور عشية الثورة لم يتبلور قط ، بل تعرض لهزات عنيفة في ظل الثورة وفي ظل الانفتاح معاً . ومن واقع هذه السيولة الاجتماعية المائعة ، نشأت ظواهر يصعب القول إنها نبات طبيعى في شجرة ممتدة الجنور .

نجيب محفوظ يأخذ بيدنا إلى الجذور ، ويعود إلى الفروع ، لنكتشف معاً أن التغيرات ليست حتمية . وإذا كان هناك قانون اجتماعي شامل فهو « الفوضى الخفيفة » . لذلك نصل إلى الجزء الثالث وإذا بالكاتب يختار لنا نموذجاً واحداً مكبراً . وهو النموذج الوحيد الذي يروى قصته بنفسه ، فليس هناك راوٍ . ولكن هذا الذي يروى حكايته يتمي إلى عصر الكهولة ، فيتكامل الانتقال الزمني من الطفولة إلى الشباب والرجولة ثم إلى الكهولة أخيراً . عندئذ يحتاج الفنان ، ونحن معه ، إلى عدسة مكبرة . ومقطوعة « أسعد الله مساءك » تكاد أن تكون بكاملها حواراً مع الآخر ومع النفس . ولايتوانى نجيب محفوظ عن تذكيرنا بالأصل الاجتماعي الذي اطلعنا على بعضه في القسمين السابقين ، « إن جدي اليه كان فطاطريا في شارع الشيخ قر » . يجب ألا ننسى بقية الأصول ، حتى ندرك أن مصدر الألقاب والثراء كان دوما السرقة أو الغش أو الاختلاس أو الحروب .

بطل « أسعد الله مساءك » انكشفت له العورة الاجتماعية بموت أبيه ، فلم يعد يستطيع أن يتزوج من « ملك » حبيبته التي انتظرت طويلاً . ولكن الأم والأختين العانستين لا يسمحن لمثله بمغامرة الزواج . هكذا يولى الشباب أدبارهم وهو أعزب . أما الحبيبة فتتزوج وتنجب ابنين هما - الآن - في السعودية . كلاهما أصبح كهلاً ، وكلاهما وحيد . وإذا كانت الوحدة تغري بالعودة المستحيلة إلى الماضي ، فهل تسمح الكهولة ؟ يجب نجيب محفوظ نعم . ولكنه يقولها بمرارة وحزن كبير من خلال الحوار المستمر مع النفس والآخر .

وهكذا تتكامل ثلاثية « صباح الورد » التي يراها صاحبها ثلاث قصص مستقلة عن بعضها البعض ، أما أنا فأراها وأدعو القارئ لأن يراها مثلي ثلاثية من نوع جديد . ثلاث مقطوعات تجسد « الانتقال » من زمن إلى آخر ومن مكان إلى مكان ومن جيل إلى جيل . وليست الأصول دائماً هي مصدر الجديد ، ولا النايغ تنتهي إلى مصاب معروفة سلفاً . وإنما هناك « الهوية » الوطنية ، القومية ، المضارية هي محور الصراع الخفي بين الطبقات والأجيال . هذه الهوية التي تبللت في الزمن الناصري وبلغت ذروة الاضطراب في عهد الانفتاح .

نقاد نجيب محفوظ

- ١ -

جابر عصفور

لا أظن أدبيا عربيا - في عصرنا الحاضر - شغل عقلنا الأدبي مثما شغله نجيب محفوظ ، إن عالمه القصصى - بمستوياته المتعددة ، وعلاقاته المعقدة ، ورموزه المرواغة - يثير جدلا لا يفيض ، وي طرح مشكلات لا تُحَدُّ ، ويغذى جهداً نقدياً لا يتوقف في الكشف عن عناصر هذا العالم . وبقدر ما يظلّ هذا العالم حمّالاً للمعنى ، مولداً للدلالة ، فإنه يثير عمليات لا تتوقف في التحليل والتفسير والشرح . . وقد تتعارض هذه العمليات أو تتشابه على المستوى الإجرائى ، وقد تختلف أو تتفق من حيث الغاية أو المنظور ، لكنها تمثل - في النهاية - وضعاً معقداً من التفاسير والشروح والتأويلات ، أغنى وضعاً ينطوى على التعقد والتنوع والغنى ، مثما ينطوى على التضارب والتعارض والتناقض .

لقد تحدث لويس عوض - ذات مرة - عن « كورس النقاد » الذى ينطلق كلما أصدر نجيب محفوظ عملاً جديداً ، فتندفع أنهار الأحاديث والمقالات تترى فى الصحف والمجلات ، وعلى موجات الإذاعة ، وقال لويس عوض : « ما عرفت كاتباً من الكتاب ظل مغموراً مغبوناً مهملاً عامة حياته الأدبية دون سبب معلوم ، ثم تفتحت أمامه كل سبل المجد دفعة واحدة فى السنوات الخمس الأخيرة دون سبب معلوم أيضاً ، مثل نجيب محفوظ . وما عرفت كاتباً رضى عنه اليمين والوسط واليسار ، ورضى عنه القديم والحديث ومن هم بين بين ، مثل نجيب محفوظ ، فنجيب محفوظ قد غدا فى بلادنا مؤسسة أدبية أو فنية مستقرة ، تشبه تلك المؤسسات الكثيرة التى تقرأ عنها ولعلك لاتعرف ما يجرى بداخلها ، وهى مع ذلك قائمة وشاحخة ، وربما جاء السياح ، أو جىء بهم ، ليتفقدوها فيما يتفقدون من معالم نهضتنا الحديثة ، والأغرب من هذا أن هذه المؤسسة التى هى نجيب محفوظ ليست بالمؤسسة الحكومية التى تستمد قوتها من الاعتراف الرسمى فحسب

بل هي مؤسسة شعبية أيضا ، يتحدث عنها الناس بمحض الاختيار في القهوة وفي البيت وفي نوادي المتأدين البسطاء»^(١) . ولقد قال لويس عوض ما قال في مارس ١٩٦٢ ، أي منذ حوالي عشرين عاما ، فماذا يمكن أن يقال بعد هذه السنوات ؟ إن الكتابة ظلت مستمرة ، وظل الإعجاب قائما . وإن زاحم هذا الإعجاب أصوات معارضة فقد تزايدت حدة الإعجاب نفسها وتكاثفت طوال هذه السنوات . وها نحن - الآن - نجد أمامنا أكثر من اثني عشر كتابا مطبوعا باللغة العربية - وحدها - عن نجيب محفوظ وحده ، ناهيك عن عدد هائل من الكتب الأخرى التي تتعرض للقصة العربية ، أو الأدب العربي في عمومها ، كما نجد أكثر من عدد خاص لمجلات عالية الصوت واسعة الانتشار ، ومجموعة لا يستهان بها من رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات ، ومقالات متناثرة - لم تجمع في كتب - يصعب حصرها . (ولماذا لانضيف ومجموعة من المسرحيات والتمثيلات الإذاعية والتلفزيونية المعدة عن روايات نجيب محفوظ ، أو قصصه القصيرة ، تقدم أكثر من منظور في تفسير نفس الكاتب ، ناهيك عن كتاب عن « نجيب محفوظ على الشاشة » ، وكتاب كامل لنفس المؤلف - هاشم النحاس - عن « يوميات فيلم » مأخوذ عن رواية « القاهرة الجديدة » . وإذا تجاوزنا ما هو مكتوب باللغات الأجنبية ، أو ما هو مترجم عنها - وما أكثره ، بل ما أجدره باهتمام مستقل - وحصرنا اهتمامنا فيما هو مكتوب بالعربية وحدها ، وجدنا - على المستوى الكيفي والكمي معا - وضعنا نقديا فريدا . لم يتكرر مع قاص عربي في العصر الحديث .

نرى هل يرجع هذا الوضع الفريد إلى لون من النظرة الواحدة التي لا ترى في الرواية سوى نجيب محفوظ ، وفي المسرح سوى توفيق الحكيم ، وفي القصة القصيرة سوى يوسف إدريس ؟ قد يكون هذا سببا ، لكنه سبب جزئي تماما ، فما كتب عن توفيق الحكيم ، أو عن يوسف إدريس ، أو عنهما معا ، لا يصل إلى ما كتب عن نجيب محفوظ من حيث الكم أو الكيف . وقد يقال إن عالم نجيب محفوظ قد أصبح سهلا « موطأ الاكتاف » ، خاصة بعد كثرة ما كتب عنه ، وهو وضع يغري الكثيرين بالكتابة عنه ، ومواصلة السير في طريق ممهد . ولكن لماذا كثرت الكتابة عن عالم نجيب محفوظ أصلا ؟ وهل أصبح سهلا حقا ؟ إن كثرة الكتابة قد لا تزيد الغامض وضوحا ، بل لعلها - على عكس ما يتصور - تزيد الواضح غموضا ، ذلك لأن كل كتابة جديدة - وأعني كل

(١) لويس عوض ، دراسات في النقد والأدب ، الأنجلو ، القاهرة ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦

« قراءة » جديدة حقا - بقدر ما تفك بعض مغالق النص ، وتفرض بعض مستويات الالتباس في شفراته ، تلفت الانتباه إلى مغالق أخرى ، وتوهم إلى التباسات مختلفة ، فتدفع إلى كتابة جديدة ، وعلى نحو يظل معه عالم نجيب محفوظ - برغم كثرة ما كتب عنه - في حاجة إلى مزيد من الكشف ، وبالتالي المزيد من الكتابة والقراءة . وقد يقال إن السبب في هذا الوضع الفريد الذي يحتله عالم نجيب محفوظ يرجع إلى غموضه . ولكن ماذا عن شعر أدونيس مثلا ؟ أليس « مفرد بصيغة الجمع » أغمض من أشد قصص نجيب محفوظ غموضا ، أعنى تلك القصص التي وصفت - ذات مرة - بأنها « أحاج وألغاز » ؟ فهل كتب عن « أدونيس » عشر ما كتب عن نجيب محفوظ ؟

وقد يقال إن عالم نجيب محفوظ عالم بالغ الغنى في تعقد مستوياته وتغير محاوره ، إذ يجمع بين القصص التاريخي والقصص الواقعي ، ويضم الرمز الجزئي الذي يتخلل النغمة السائدة لعمل واقعي مع الرمز الكلي الذي تتعدد دلالاته - عندما يسيطر على الرواية - فيفضي إلى أكثر من تفسير ، أو تتوحد دلالاته فيصبح الرمز تمثيلا خالصا Allegor يضاف إلى ذلك ما يقال من أن هذا العالم يضم بين جنباته مختلف المدارس والاتجاهات ، من واقعية نقدية إلى واقعية وجودية إلى واقعية اشتراكية ، ناهيك عن الطبيعية والسيرالية والعبث . وكل ماشئت من أسماء وأوصاف ، وكأن العالم الروائي لنجيب محفوظ « متحف » لكل ما عرفته القصة من مذاهب واتجاهات ، و« معمل اختبار » لكل ما عرفه النقد من مناهج واتجاهات ، وابتداء من « التاريخية » وانتهاء بـ « البنيوية » .

وقد يقال - لو تجاوزنا هذا الجانب الشامل - إن أبطال عالم نجيب محفوظ يمثلون قطاعات المجتمع المصري وشخصياته - في تطورها وتغيرها - منذ ثورة ١٩١٩ حتى عصر الانفتاح ، وإن هؤلاء الأبطال يعكسون سعيا إلى الأفضل ، ورغبة في الخلاص من الماضي ، وإن احتجاجهم الحار المتحمس ، الحاد بلا هوادة في كثير من الأحيان . إنما يعكس الجراءة في محاولة الوصول إلى الجذور ، والإخلاص في الكشف عن السبب الحقيقي لمأساة المجتمع المصري . وكأن هؤلاء الأبطال - عندما يجتمعون في عالم روائي واحد - يقدمون للمجتمع مرآة خلاقة ، فيرى فيها المجتمع صورته الحقيقية ، فيرى فيها « المستقبل الواعد وراء نماذج الحاضر المتغير والماضي المسرع إلى المغيب »^(٢) .

وقد يقال - كنوع من التخصيص للتبرير السابق - إن عالم نجيب محفوظ يعكس

(٢) علي الراعي . دراسات في الرواية المصرية ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٥٤ .

الظروف المتناقضة والمعقدة ، والتأثيرات الاجتماعية والتقاليد التاريخية ، التي ساهمت كلها في تحديد نفسية أبناء « البرجوازية الصغيرة »^(٣) ، وصنعت أزمة طلائعها في الانتماء ، وبالتالي تذبذبها وتناقضها في حل قضيتي « الحرية » و « العدل » ، دون أن تتخلى هذه الطلائع عن حلم « الثورة الأبدية » . وما أكثر الاستشهاد - في هذا المجال - بعبارات كمال عبد الجواد (السكرية) التي تقول : « إني أومن بالحياة وبالناس وأرى نفسي ملزماً باتباع مثلهم العليا مادمت أعتقد أنها الحق ، إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب . كما أرى نفسي ملزماً بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة ، وهذا هو معنى الثورة الأبدية » . وما أكثر التوحيد بين كمال عبد الجواد ونجيب محفوظ ، وهو توحيد يفرض - صراحة أو ضمناً - إلى الحديث عن نجيب محفوظ ، باعتباره من فاق أقرانه « وعياً بحقيقة الظروف الحضارية والتاريخية ، وبطبيعة القوى الاجتماعية وصراعاتها وحركتها التطورية في المجتمع المصري »^(٤) .

وقد يقال - من حيث تجديد المحتوى الفكري - إن عالم نجيب محفوظ ينطوى على « رؤية » وسطية ، ونحن أمة وسط - وقد يقال - في هذا الاتجاه - إن عالمه ينطوى على « توليفة » فكرية ، يمكن أن تتجذب إليها كل طوائف الفكر المتصارعة في الوطن العربي . ومن الممكن - في هذا الاتجاه - أن نسترجع مايقوله « جعفر الراوى » في « قلب الليل » عن مشروعه الفكري الذي يقوم على أسس ثلاثة : أساس فلسفي ، ومذهب اجتماعي ، وأسلوب في الحكم ، بحيث يصبح المشروع قاعدة لنظام سياسي « هو الوريث الشرعي للإسلام والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية »^(٥) . إن مثل هذا المشروع - لو كان حقاً هو ما يشير إليه عالم نجيب محفوظ - قد يجعل منه الكاتب الذي « رضى عنه اليمين والوسط واليسار ، ورضى عنه القديم والحديث ومن هم بين بين » - كما يقول لويس عوض ، إذ يعطى المشروع كل طائفة بعض ما تهوى ، فيغريها بقبول العالم الروائي ، والإعجاب به ، لعلها توجهه - شيئاً فشيئاً - إلى مواقعها . على أن مثل هذا التبرير - لو

(٣) تبدأ أولى التجليلات اللاحقة لعنصر « البرجوازية الصغيرة » في نقد نجيب محفوظ - عام ١٩٥٤ - ما بين مجلة « الرسالة الجديدة » وجريدة « المصري » - مع عبد العظيم أنيس (فيما بعد « في الثقافة المصرية » - ١٩٥٥) وعبد مندر (فيما بعد « قضايا جديدة في أدبنا الحديث » - ١٩٥٨) ليصبح هذا العنصر - بعد سنوات - الأساس الكامل لأعمال كاملة (مثل غلى شكرى « المتنى » ١٩٦٤) .

(٤) صبرى حافظ ، الاتجاه الروائي الجديد عند نجيب محفوظ ، الآداب ، نوفمبر ١٩٦٣ ، ص ١٩ .

(٥) نجيب محفوظ ، قلب الليل ، مكتبة مصر - القاهرة ، ص ١٣١ .

صحّ - يضع مهاداً للدوافع المتعارضة والمتضادة وراء مداخل النقاد إلى عالم نجيب محفوظ ، ويبرز محاولات بعضهم - المتكررة - في السيطرة على هذا العالم ، أو اقتناصه في « أنظومه » أو « أنظومات » فكرية محددة . ورغم ما في هذا التبرير من إغراء براق إلا أنه يحتزل عالم نجيب محفوظ ويحوّله إلى « وثيقة فكرية » من ناحية ، ويشير السؤال عن صحة هذا الإعجاب المجمع عليه بين طوائف « اليمين والوسط واليسار » من ناحية أخرى .

إن استجابات النقاد لعالم نجيب محفوظ استجابات بالغة التنافر ، وأقرب وصف إلى تشخيصها - الأولى - هو « الفوضى » التي يجتمع فيها كل شيء ، ويجوز فيها أى شيء . ويزيد من حدة هذه « الفوضى » أن استجابة الناقد الواحد تتراوح - غير مرة - بين نقيضين لا يجتمعان . وهنا يمكن أن نعود إلى لويس عوض - مرة أخرى - لنراه يقول : « نجيب محفوظ عندى كاتب من أولئك الكتاب القلائل في تاريخ الأدب في الشرق والغرب . كلما قرأته غلى الدم في عروفي ووددت لو أتي أصكه صكاً شديداً ، ونجيب محفوظ في الوقت نفسه هو عندى كاتب من أولئك الكتاب القلائل في تاريخ الأدب في الشرق والغرب كلما قرأته عشت زمناً بين أمجاد الإنسان ، وقالت نفسى : ليس فن بعد هذا الفن ، ولا مرتقى فوق هذه القمم الشاهقة »^(٦) . إن استجابة الناقد - في هذا السياق - استجابة واضحة التناقض بين طرفيها ، إذ تنطوى على الإيجاب والسلب معاً ، مثلاً تنطوى على الإعجاب والنفور .

ترى هل يرتفع نجيب محفوظ إلى مصاف الكتاب العظام - عند لويس عوض - لأنه يشبع بعض تصورات الناقد القيمة عن الفن ، أو يرضى مثله الجمالية المتميزة ؟ وهل ينحدر نجيب محفوظ فيستحق « الصك » - وما أثقل الكلمة ! - لأنه أخل بهذه التصورات ، وأحبط الإشاعات التي يتوقعها الناقد ؟ إن الأمر ممكن . ولكن الأکثر أهمية أن نلاحظ أن عالم الكاتب الواحد لا يمثل - لدى الناقد الواحد - مثلاً متجانساً لاستجابة متحدة ، بل مصداً واحداً لاستجابات متناقضة ، يتخبط معها الناقد بين نقيضين ، في تذبذب لا يرم ، أشبه - في مستوى من مستوياته - بتذبذب « صابر » بين « إلهام » و « كريمة » في « الطريق » ، أو - في مستوى آخر - بتذبذب « كمال عبد الجواد » بين قريبه « أحمد شوكت » و « عبد المنعم شوكت » في « السكرية » . ولكن أيا

(٦) لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

كان هذا التذبذب فهو مظهر مهم لا يفارق نقاد نجيب محفوظ في رحلة بحثهم عن معنى لعالم نجيب محفوظ الروائي ، أو معنى فيه - على السواء .

إن « الطريق » إلى « عالم » نجيب محفوظ ليس واحداً في كل حال ، ولا تظله - دائماً - عبارات الإعجاب والود ، فما أكثر العراك واللجاج ، وما أكثر النفور من وعثاء هذا الطريق ، وما أكثر التشكيك في جدوى الرحلة ، بل لن يخلو الأمر من لعنات تصب في غير موضع . ومع ذلك فالطريق يغري العابرين ، ويجذب - أكثر فأكثر - الباحثين عن المعنى ، فتتحول وعورته إلى اختبار لا بد منه للوصول إلى حقيقة هذا العالم المراوغ مراوغة حقيقية « زعبلأوى » و « الجبلأوى » و « سيد الرحيمي » ، ولا عجب لو تدخل « المناخ السياسي » - في أثناء الرحلة - وساهم في توجيهها بالإيجاب مرة والسلب مرات . وطبعي - والأمر كذلك - أن يزدحم هذا الطريق إلى حقيقة عالم نجيب محفوظ ، ويختلط فيه الخابل بالتابل ، فيجتمع الباحثون عن متعة الرحلة ذاتها مع الباحثين عن « رؤيا » تخلق بهم إلى المطلق المتعالي في نهاية « الطريق » أو عن « رؤية » تقودهم إلى « موقف » من الحياة ، أو المجتمع ، أو الواقع . ومع ذلك كله ، أو بسبب ذلك كله ، لن يخلو الأمر - في هذا الطريق - من بعض الفضوليين وعشاق الزحام . لكن هذا الزحام كله لن يشكل - قط - « كورس نقاد » - لو عدنا إلى تشبيهات لويس عوض . إن « كورس النقاد » - إن وجد أصلاً - يخضع لتوجيه موحد يحكم الأداء والإنشاد ، لتصدر عن « الكورس » أصوات متجاوبة . ولن نجد مثل هذا التجاوب عند نقاد نجيب محفوظ . إن صوت محمد مندور - مثلاً - لن ينسجم مع صوت عبد العظيم أنيس ، وإن تحدث كلاهما عن « البرجوازية الصغيرة » أو « البرجوازية الصغيرة » ، فالتعاطف مائل في موقف مندور من هذه الطبقة التي « تحتفظ بالكثير من أسى الفضائل الإنسانية ، التي يأتي في قتها تقديس الأسرة والتضحية في سبيلها »^(٧) ، والريبة في التذبذب والإيمان بغميب الدور القيادي ماثلان في موقف عبد العظيم أنيس . ويقدر ما يتمتع مندور من مقولات جوستاف لانسون يتمتع عبد العظيم أنيس من مقولات مغايرة يختلط فيها كريستوفر كودويل بروجيه جاوردى^(٨) . يضاف إلى

(٧) محمد مندور ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٨) كشف كمال يوسف - ولا أدري من هو ، ولعله من الأسماء الرمزية - عن بعض جوانب تأثر عبد العظيم أنيس بروجيه جاوردى في مقال بالغ الأهمية بعنوان « نقادنا الواقعيون غير واقعيين » الرسالة الجديدة ٢٧ يونيو ١٩٥٦ ، ص ١٤ ، ١٧) أما كريستوفر كودويل فتأثيره مهم - بكتبه الثلاثة عن « الوهم والواقع » و « دراسات في ثقافة =

ذلك أن صوت مندور لن ينسجم - تماما - مع لويس عوض ، وإن اقترب منه هونا . وكلا الصوتين لن يتوافقا - بسهولة - مع صوت يحيى حتى الباحث عن الإنسان في الفنان من وراء الأثر ، والذي يحاول تفسير إحساسه بهذا الفنان الذي يكشفه . ولن تنسجم هذا الأصوات مع محمود أمين العالم (وما أبعد الفارق بين درجات صوته « في الثقافة المصرية » - ١٩٥٥ - أو في مقدمة « الأنفار » أو « قصص واقعية » أو تذليل « ألوان من القصة المصرية » - ١٩٥٦ - وبين درجات نفس الصوت في « تأملات في عالم نجيب محفوظ » - ١٩٧٠) . وما أبعد هذه الأصوات - مجتمعة - عن صوت سيد قطب (أول من كتب عن نجيب محفوظ ، ولقت إليه الأنظار - بل دخل بسبب « كفاح طيبة » في معركة مع صلاح ذهني - في مجلة « الرسالة » - ٤٤ ، ٤٥ ، ١٩٤٦) . أو صوت أحمد عباس صالح (وثوابته ومتغيراته لافتة فيما كتبه عن « السراب » - في « الأدب المصري » - ١٩٥٠ - وما كتبه عن نجيب محفوظ - عموما - في « الشعب » - ١٩٥٩ - و « الكاتب » ١٩٦٦) وما أبعد الفرق بين مفهوم أنور المعداوي (ثاني من عرف بنجيب محفوظ تعريفا لافتا) عن « الأداء النفسي » ومفهوم رشاد رشدي عن « المعادل الموضوعي » وما أبعد رشاد رشدي - بدوره - عن لطيفة الزيات - (ومن المفارقات اللافتة أن تترجم الثانية أول مجموعة متكاملة إلى العربية لـ ت . س . إليوت ، لكنها تبني مقولات لوكاش في التحليل ، بينما لا يكف الأول عن الحديث عن « المعادل الموضوعي » لكنه ينسأه عند التطبيق) . ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الأسماء أسماء أخرى لنقاد في مصر ، لكن الأسماء بالغة الكثرة ، بحيث يجيل للمرء معها أنه لم يوجد ناقد لم يكتب عن نجيب محفوظ في مصر^(٩) . وإذا وسعنا الدائرة لتشمل الوطن العربي زادت الأصوات تنافرا ، واختفى « الكورس » تماما ، وتحول « الطريق » إلى عالم نجيب محفوظ كما تتحول الكائنات فيصبح « حكاية بلا بداية ولا نهاية » . ونواجه - باختصار - هذا الوضع المعقد من التفسيرات والشروح والتأويلات ، وهو وضع ينطوي - كما أشرت - على مفارقات لافتة منذ البداية . فيتسم بالتعدد والتنوع والغنى ، مثلما يتسم بالتضارب والتعارض والتناقض .

= متية ، و « مزيد من الدراسات في ثقافة متية » (بالإنجليزية) في الكتابات الواقعية العربية الباكورة ، ولعل لا أبالغ لو قلت إن بصائته واضحة في كتاب لويس عوض « في الأدب الإنجليزي » (١٩٥٠) .

(٩) من الأمانة أن أشير إلى إفادني من السيلوجرافيا القيمة التي نشرها الزميل أحمد إبراهيم الهواري عن « مصادر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر » - دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

ومها يكن من أمر هذا الوضع المعقد فإنه يقدم «حالة نموذجية» لدراس «الهرمنيوطيقا الأدبية»، مثلما يقدم مادة غنية لألوان مغايرة من الدرى النقدى، وأغنى ما يطلق عليه اسم «نقد النقد» حيناً، أو يطلق عليه اسم «ما بعد النقد» حيناً آخر.

وإذا كانت «الهرمنيوطيقا» ترادف - فى عمومها - «نظرية القواعد التى تحكم التأويل»، فتحكم تفسير نص بعينه من النصوص، أو مجموعة من العلامات يمكن النظر إليها باعتبارها نصاً^(١٠) فإن «الهرمنيوطيقا الأدبية» هى نظرية القواعد التى تحكم عملية فك شفرة العمل الأدبى، باعتبارها عملية تبدأ من المعنى الظاهر للنص (أو «المعنى الأول» - بلغة عبد القاهر الجرجانى) لتنتهى إلى المعنى الباطن (أو الكامن، أو الضمنى، أو «المعنى الثانى» - بلغة عبد القاهر الجرجانى أيضاً) أو باعتبارها - فى فهم آخرها - عملية تحليل المستويات المتصارعة فى «النص الأدبى»، بهدف الوصول إلى «النظام» الذى يحكم بنيته، مما يفضى - بالضرورة - إلى مناقشة الوسائل الإجرائية للتحليل، وما يصحبها من مقولات مفسرة أو شارحة، وما يوجهها من مفاهيم قبلية، لدى الناقد، وعن «النص المقروء» وعلاقته بالناقد «القارئ».

أما «نقد النقد» أو «ما بعد النقد»^(١١) Metacritism - إذا شئنا الدقة - فإنه

(١٠) أنظر -

R. Palmer, Hermeneutics, Northwestern Univ. Press, 1969, p: 43.

(١١) يمكن القول إن مصطلح ما بعد النقد مصطلح مستعار من «المنطق الرمزى» عبر «علم اللغة»، ذلك لأن «ما بعد النقد» هو عملية مراجعة تشبه - فى جذورها - العملية التى تراجع بها نفسها اللغة باستخدام كلماتها، أو العملية التى تجعلنا نتحدث باللغة العربية - مثلاً - عن اللغة العربية ذاتها. وذلك هو مفهوم «ما بعد اللغة» الذى يقول عنه باكوسن مليل: «إن جانباً من إسهام المنطق الرمزى فى علم اللغة مرتبط بتأكيد التمايز بين لغة الموضوع Object Language وما بعد اللغة Metlanguage وكما يذهب كارناب فإننا نحتاج إلى ما بعد اللغة كى نتحدث عن لغة أى موضوع. إن نفس الحصيلة اللغوية يمكن أن تستخدم فى هذين المستويين من اللغة. ولهذا يمكن أن نتحدث بالإنجليزية (كما بعد لغة) عن الإنجليزية (كلغة موضوع) ففسر الكلمات والجمل الإنجليزية بواسطة مفردات اللغة الإنجليزية، فى دورة حول المعنى وإعادة لصياغته. ومن الواضح أن هذه العمليات التى يسميها المناطقة بالعمليات المابعد لغوية ليست من خلقهم، لقد أثبتوا أنها لا تقتصر على مجال العلم فحسب، بل تمتد لتصبح جانباً متكاملًا من أنشطتنا اللغوية المعتادة. إذ غالباً ما يقوم المشتركون فى الحوار بمراجعة بعضهم البعض للتأكد من أنهم يستعملون نفس الشفرة اللغوية.»

انظر

P. Jakobson, and M. Halle, Fundamentals of Language, The Hague, Mouton 1975, = P: 81.

متصل بالهرمنيوطيقا ، وإن تميز عنها ، إذ أنه بمثابة دائرة المراجعة في النشاط المرتبط بالأدب . وإذا كان هذا النشاط يقوم - في جانبه الأول - على العمل الأدبي ، باعتباره « قولاً » يشير - أو لا يشير - إلى الواقع الفعلي ، ويقول - أو لا يقول - شيئاً عنه ، فإن هذا النشاط يكمله - في جانبه الثاني - قول الناقد (النقد) الذي يشير إلى العمل الأدبي مباشرة ، ويُصدر « أقوالاً » عنه . ويتم هذا النشاط - من ناحية ثالثة - « ما بعد النقد » ، وهو قول آخر عن النقد ، يدور حول مراجعة « القول النقدي » ذاته ، وفحصه ، وأغنى مراجعة مصطلحات النقد ، وبنية المنطقية ، ومبادئه الأساسية وفرضياته التفسيرية ، وأدواته الإجرائية .

إن نقد نجيب محفوظ - من حيث تعقده وتضاربه - يطرح حالة نموذجية للدراسة الهرمنيوطيقية ولمراجعات ما بعد النقد ، ذلك لأنه نقد ينطوي على صراع واضح بين التفسير والتأويلات من ناحية ، فيثير مشكل القواعد التي تحكم تفسير نصوص نجيب محفوظ وتوجه تأويلاتها ، كما أنه نقد ينطوي على تضارب لافت في « الأقوال » من ناحية ثانية ، فيدفع إلى مراجعة هذه الأقوال ، واختبار سلامة توصيلها .

لنقل - لمزيد من التوضيح - إن نصوص نجيب محفوظ (أعماله القصصية) تقول - بطريقتها الخاصة - شيئاً ما عن عالم ما ، تصدر عنه لتعود إليه . عندئذ يأتي الناقد ليتحدث عن هذه النصوص ويتكلم عنها ، أي « يقول » شيئاً عن « قولها » . وقد يردها ناقد إلى عالم بعينه ، ويردها ثانياً إلى عالم مغاير ، ويتعالى بها ثالثاً عن أي عالم ، فيخلقها على ذاتها ، نافياً أي إشارة منها إلى خارجها . كل هؤلاء النقاد - في النهاية - يقولون أشياء عن « قول » هذه النصوص ، فالمغايرة بينهم مغايرة بين « أقوال » متعددة

= وما بعد النقد - من الزاوية الأخيرة التي يطرحها باكوس - وثيق الصلة بمفهوم « ما بعد اللغة » ، فكلاهما عملية إعادة لمعنى باستخدام نفس الحصيصة - اللغوية (في حالة اللغة) والنقدية (في حالة النقد) . وكلاهما « قول » يراجع « قولاً » للتأكد من صحة عمل الجهاز اللغوي أو النقدي ، وللتأكد من سلامة توصيل الموضوع في كلا القولين .

وإذا أضفنا إلى هذا محاولة بعض الهرمنيوطيقيين المعاصرين تأسيس الهرمنيوطيقا على نموذج مأخوذ من علم اللغة (انظر مثلاً الفصل الأول .

P. Ricoeur, The Conflict of Interpretations; Essays in Hermeneutics, Edited by Don Ihde, Northwestern Univ. Press 1974.

أدركنا أن « ما بعد النقد » يلتقي مع الهرمنيوطيقا على أساس من :
* استعارة النموذج اللغوي الذي يتخلل كليهما على السواء .

عن « قول » واحد . ومادما دخلنا في إطار المغايرة والتعدد فقد دخلنا في إطار التنافر بين « أقوال » عن نفس القول ، مما يستلزم المراجعة .

والمراجعة - هنا - تقوم - في جانب منها - على التأمل الذي قد يكشف أنظمة تحته تحول هذا التنافر ، الذي قد يتأني على الفهم ، إلى شيء قابل للفهم . والمراجعة - هنا - تقوم - في جانب آخر - على تأمل علاقات كل نظام على حدة ، واكتشاف عناصره ، مثلما تقوم على تأمل تقاربه أو تباعده عن غيره من الأنظمة . وتقوم المراجعة - في جانب ثالث - على مدى ملاحظة قرب هذه الأنظمة التي تنتمي إليها الأقوال النقدية أو بعدها عن نصوص نجيب محفوظ ذاتها ، ولكن هذه المراجعة الأخيرة لا يمكن أن تتم إلا إذا تعاملنا مع نصوص نجيب محفوظ نفسها باعتبارها نظاما آخر مستقلا عن الأنظمة النقدية . وقد تلمح هذه المراجعة - منذ الوهلة الأولى - أن الكلمة الواحدة في القول النقدي - وأقصد المصطلح - تعني دالتين مختلفتين تماما ، بحيث لا يمكن فهم أى منها في ذاتها دون ردها إلى سياقها ، وبالتالي ملاحظة أن الكلمة الواحدة - أو المصطلح الواحد - يمكن أن تتحول إلى عنصرين متضادين من عناصر نظامين مختلفين .

قد يأتي ناقد - مثل إدوار الخراط - ويحدثنا قائلا : إن « فن نجيب محفوظ ليس أساسا بالفن الواقعي » وإن شخصياته - وبخاصة الأجداد والآباء والأمهات - هي « أنماط رئيسية ثابتة من الأنماط الإنسانية الكبرى » ، لأنها « تتجاوز كل مدارات الواقع »^(١٢) وقد يؤكد لنا ناقد آخر - مثل محمود أمين العالم - أن فن نجيب محفوظ - على العكس من ذلك - مشدود إلى هذه المدارات الواقعية أكثر مما نتصور ، وأن شخصياته تمثل « الأنماط الاجتماعية الناضجة »^(١٣) ، حيث تمتزج السمات النفسية الفردية بعمليات التطور الاجتماعي والفكري . عندئذ نجد أنفسنا إزاء وضع من التعارض في « الأقوال » النقدية عن نفس « القول » الأدبي . وعلينا أن نتأمل - أولا - المصطلح ، حيث نلاحظ أن كلا الناقلين يستخدم « النمط » ليدل به على شيء مغاير للآخر تماما . (ومن المهم أن نلاحظ أن كليهما يستخدم نفس المصطلح مقرونا بـ « النموذج » باعتبارهما مترادفين في غير مرة) .

إن « النمط » - عند محمود أمين العالم - يرجعنا إلى مفهوم الـ وهو مفهوم تأسيسى

(١٢) إدوار الخراط ، عالم نجيب محفوظ ، مجلة المجلة ، يناير ١٩٦٣ ، ص ٢٧ .

(١٣) محمود أمين العالم ، تأملات في عالم نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ ص

في سياق النقد « الواقعي »^(١٤) على عكس ما يدل عليه مفهوم النمط عند إدوار الخراط - الذي يتحول إلى مفهوم تأسيسى معارض في سياق النقد « الأسطوري » ، حيث يلعب المصطلح Archetype دوراً بالغ الأهمية ، فيما يتعلق بسعى هذا النقد وراء تجليات متغيرة لصور إنسانية كلية ، هي أقرب إلى الرموز المطمورة في اللاشعور البشرى الجمعى^(١٥) . ومن الممكن أن نرد الصراع الذى ينطوى عليه التعارض بين الدالتين المتغيرتين ، فى داخل نفس المصطلح ، إلى الصراع الذى ينشأ بين النظامين اللذين يودى المصطلح فى كل منهما دوراً مغايراً . ومن الممكن أن نرد هذا التعارض - إذا شئنا التبسيط الساذج - إلى عدم دقة استخدام المصطلح ، فتقول إن الناقد يترجمان كلمتين أجنبيتين بكلمة واحدة لسوء الحظ . لكننا - فى الحالين - ندرك الحاجة إلى وجود دائرة للمراجعة ، نفتقد لها فى نشاطنا النقدي ، وهى دائرة مابعد النقد والهرمنيوطيقا على السواء .

(١٤) يبدأ التاريخ الاصطلاحي للنمط - فى النقد « الواقعي » - مع ما كتبه إنجلز مارجريت هاركيس - فى ١٨٨٨ - قائلاً : « إن الواقعية - فيما أرى - تتضمن إلى جانب صدق التفاصيل صدق تقديم شخصية نمطية فى ظروف نمطية ، typical circumstances »

انظر .

Terry Eagleton, *Marxism and Literary Criticism* Univ. of California Press 1976, p. 46.

ويتر المصطلح بنقاد الواقعية حتى يصل إلى ذروة اكتماله - كمفهوم تأسيسى - فى كتابات جورج لوكاش ، ويظل كذلك حتى يهتز اهتزاز واضحاً مع هجوم برخت - بدعم من وولتر بنيامين - (مدرسة فرانكفورت) على لوكاش .

(١٥) ال - أو « النموذج الأول » ، و « المثال » - كما يترجمه مجدى وهبة (معجم مصطلحات الأدب ، مكتبة لبنان ١٩٧٤ ، ص ٢٩) يرجع القهقرى إلى مدرسة كمبردج للأثنوبولوجيا المقارنة والمدرسة السيكولوجية التى ترعها س . ج . يونج الذى يحدد المصطلح قائلاً : « إن الصورة الأولية ، أو النموذج الأول ، هى هيئة ... أو عملية ، تتكرر فى التاريخ عندما يتجلى الوهم تجليات حرة . ولذلك فهى هيئة أسطورية . وإذا أخضعنا أمثال هذه النماذج الأول إلى الفحص الدقيق اكتشفنا فيها نتائج صاغتها تجارب نمطية . لا تعد لأسلافنا . إنها البقية الروحية لتجارب لا تحصى من نفس « النمط » . وواضح أن « النماذج الأول » التى يتحدث عنها يونج ليست من صنع الفرد بل من صنع الأسلاف ، وأنها تورث باعتبارها عناصر محددة سلفاً لتجربة الفرد . راجع :

m. Bodkin *Archetypal Patterns in Poetry*, Oxford Univ. Press, London 1968, p. 8.

ويقدر ما يصل هذا النقد بين « الرمز » و « النموذج الأول » فإنه يميز بين « الرمز » و « التمثيل » ، ويصل « الرمز » بالأسطورة من حيث أن الرمز يتدمج فى « النموذج الأول » ، ليحبر عن صورة غريزية كونية مختلفة ، أو عن أنساق =

وإذا تجاوزنا « المصطلح » إلى الحكم القيمي الموجب الذى ينطوى عليه تحقق « النمط » بدلالته المتعارضتين عند نجيب محفوظ كنص ، أمكن لنا أن نطرح مجموعة من الأسئلة عن الكيفية التى تجاوز بها فن نجيب محفوظ - عند إدوار الخراط - « مدارات الواقع » ، وعن الكيفية التى التصق بها نفس الفن - عند العالم - بهذه المدارات ، وبالتالي عن إيجاب القيمة فى الحالة الأولى وإيجابها - فى نفس الوقت - فى الحالة الثانية . (ولاشك أن انقلاب وجهى التصور القيمي للمصطلح سيؤدى إلى تنق القيمة ذاتها عند كلا الناقلين ، بمعنى أن محوود العالم المتمسك بمقولات علم الجبال الماركسى ، لن يقبل فنا يتباعد عن مدارات الواقع ليغوص فى رموز اللاشعور الجمعى الشعائرية ، فذلك « تغريب » للواقع و « انحمار » عن « الواقعية » . كما أن إدوار الخراط سوف ينظر شذراً - لو صح فهمى له كناقذ - إلى أى فن يلتصق بالواقع ، دون أن يشبع - عنده - التوق إلى « الميتاواقعية ») .

إن مثل هذه الأسئلة تقودنا - بداية - إلى العناصر المكونة لنظامين مغايرين للأقوال النقدية عند كلا الناقلين ، ففتح السيل - أمامنا - إلى اختبار هذين النظامين فى مستواياتهما التطبيقية ، مما يجعلنا نراجع الشواهد التى دعم بها كلا الناقلين الحركة المتعاكسة لنفس الفن حول « ومدارات الواقع » . ويقدر ما نتعرض - فى هذا المجال - لسلامة البناء المنطقى لمبادئ الناقلين نختبر تماسك هذه المبادئ من حيث قدرتها على التجانس فى نظام يفسر كل العناصر - أو أغلب العناصر - فى نصوص نجيب محفوظ . وهكذا نختبر مفهوم إدوار الخراط عن « النمط » الذى يحمل بعض مقولات يونج وفريزر ونورثروب فراى ، ونختبر مفهوم محمود العالم عن النمط الذى تتراكب فيه أفكار تبدأ من إنجلز لتنتهى بجورج لوكاش عن « الانعكاس » ، وذلك لئلا نرى إلى أى مدى أحكم المفهوم عند كل منهما إحكاما يصلح معه لأن يكون أداة نقدية حاسمة . وعندئذ نطرح أسئلة أخرى من قبيل : هل يصلح النمط كأداة نقدية عامة ، أم يقتصر نجاحه على بعض الأعمال دون بعضها ؟ ولماذا يكون وجود « النمط » - أصلاً - سبباً فى الحكم بالقيمة ؟ وهل يقتصر الأمر - عندئذ - على النمط وحده أم لابد أن تتحقق معه العناصر الأخرى

== من السلوك الإنسانى تكشف حالات اعتقاد بدائى . ولراجعة نماذج متنوعة لتطبيق هذا النقد ، راجع :

J. B. Yickery (ed.) Myth and Literature, Univ of Nebraska Press 1966.

وما ترجمه جبرا إبراهيم جبرا بعنوان « الأسطورة والرمز » ، بغداد ١٩٧٣

المكونة لنظام الناقد ؟ ويمكن أن نضيف أسئلة أخرى عن العلة التي جعلت إدوار الحراط يدرك - في نفس القول - شيئاً مغايراً لما أدركه محمود العالم ؟ وإذا كان كلاهما يعول على النقد-الأوربي ، فلماذا يختار العالم - أساساً - مفاهيم النقد « الواقعي » ويختار إدوار الحراط مفاهيم النقد « الأسطوري » ؟ هل يرجع الأمر إلى اختلاف المزاج ، أو التكوين الثقافي ، أو المنظور الاجتماعي ، وبالتالي الوضع والموقف الطبقين عند الناقلين ؟ وإذا تركنا الناقلين وعدنا إلى علاقة « أقوالها » بنصوص نجيب محفوظ نفسها ، فمن الممكن أن نتساءل : هل يرتد التعارض الكامن بين طرفي النمط - كعنصر تكويني - إلى نظامي الناقلين أم أن نظام القول الأدبي نفسه - نصوص نجيب محفوظ - هو الذي يغذى مثل هذا التعارض في القول النقدي ويشجع عليه ؟ ومع ذلك فأى القولين الناقلين أقرب إلى القول الأدبي أو النص ؟.

وإذا تجاوزنا هذا كله إلى ملاحظة أن « قول » إدوار الحراط يعد صوتاً خافتاً ، شبه متوحد ، في الستينيات ، فإننا لابد أن نسأل عن المبرر الذي جعل صوت « القول » - عند إدوار - رغم تطويره له وإلحاحه عليه « ولندكر - مثلاً - دراسته اللافتة عن « ما وراء الواقعية » - في أعمال يحيى الطاهر عبد الله - بطقوسها الأسطورية وعمود الجذ القضيبي والموت المتجسد أنثروبومورفياً) يأخذ هذا الصدى الخافت والمتواضع . وعندئذ نجد أنفسنا على حافة صراع الأيديولوجيات - بأكثر أشكاله عمقا وتسطحا في نفس الوقت - الذي ينعكس على صراع « الأقوال النقدية » حول « الأقوال الأدبية » ؟ بل يتجاوب صراع « الأقوال النقدية » - بما يعكسه - مع الصراع الذاتي بين المستويات الداخلية للأقوال الأدبية ، أي نصوص نجيب محفوظ ، إذ لاشك في أن هذه النصوص ليست وحيدة المستوى ، أو ساكنة العلاقات ، بل هي أعمال تتعدد محاورها وتتصارع مستوياتها .

ولاشك أن الكثير من مثل هذه الأسئلة يطرحه الناقد على نفسه - ضمناً أو صراحة - قبل أن يلقى بأقواله حول العمل الأدبي . ولكن مادام هذا الناقد قد ألقى أقواله . ومادامت أقواله - من حيث علاقاتها بغيرها - تتعارض وتتضاد وتتنافر ، مثلاً تتجاوب وتتوازي بل تتداخل ، فإنها لابد أن تُفحص ، ولابد أن تُراجع .

ولن نجد « حالة » أكثر إلحاحاً على المراجعة من أقوال النقاد حول نجيب محفوظ . ذلك لأنه ما من مرة أصدر هذا الروائي عملاً من الأعمال إلا وانهالت الدراسات والتعليقات ، وما من مرة خلق هذا الروائي رمزا إلا وتعددت التفسير والتأويلات ، وعلى

نحو يتحول معه العمل والرمز إلى ساحة يتنازعها نقاد ، أشبه - في غير حالة - بإخوة أعداء . وليست مهمة من يقوم بهذه المراجعة سهلة ، إذ لا ينبغي أن يقتصر دور « الأب ياناروس » - في رواية « الإخوة الأعداء » لكازنتاز اكيس - فيحاول التوفيق بين « ماركس » و « المسيح » ومن الأفضل له أن لا يرتدى ثياب القضاة ، ليدين هذا أو يبرئ ذاك . إن عليه - أساسا - أن يكشف « عناصر تكوينية » تصنع علاقاتها « أنظمة » لهذه « الفوضى » البادية في ركام الأقوال النقدية . (وإن خلت هذه المراجعة من التصريح بموقف فإنها لا بد أن تنطوي - بداهة - على موقف مما تراجع ، وإلا تهاوت المراجعة نفسها تحت أوهام وضعية خالصة ، أو تجريبية زائفة) . وأيا كنت نتيجة هذه المراجعة - وأنا أطرح هنا ملاحظات أولية تمهد لها فحسب - فإنها لا بد أن تفيد - في تنظيم عمليات قراءة النص الأدبي ، كما لا بد أن تلفتنا إلى أهمية البحث عن معايير حاسمة في اختبار التفسير ، وتماسك التأويل ، ومعقولية الشرح . (ناهيك عن تحديد الفروق الحاسمة بين المصطلحات وتقليص فوضاها الظاهرة) . وبقدر ما تفيد هذه المراجعة في تعميق عمليات القراءة وتطويرها فإنها ستكشف - من خلال حالة تجريبية محددة - عن الأنظمة المتصارعة ، التي يشكل جماعها ما يسمى « النقد العربي المعاصر » ، مثلما تكشف عن « المدارات الأساسية » التي يتحرك حولها الناقد العربي المعاصر ، فتحكم « أقواله » ، وتوجه تفاسيره للقول الأدبي ، فتحكم بشكل غير واع في تأويله للنص الأدبي .

- ٣ -

لنقل إن عالم نجيب محفوظ يتكون - على المستوى التجريبي - من مجموعة من النصوص ، هي - في النهاية - كتاباته الروائية أو مجموعاته القصصية . ومهما تعددت هذه النصوص فإنها تشكل سياقاً دالاً . تصنعه مجموعة من العلاقات بين عناصر تكوينية ، تتخلل النصوص جميعاً ، إلى درجة تجعل منها نصاً واحداً كلياً ، يتسم بنوع من الانتظام الذاتي ، لا يتعارض مع التنوع الذي يمثله تعدد مستويات النصوص الجزئية ذاتها . ولا يبنى هذا الانتظام الذاتي أشكال الصراع بين العناصر المكونة للسياق الدال في كليته ، ولا يتناقض - في النهاية - مع التجليات الظاهرة للنصوص الجزئية ذاتها . ولا شك - من هذا المنظور - أن « اللص والكلاب » تتجاوب مع « الكرنك » مثلما يتجاوب كلاهما مع « القاهرة الجديدة » أو « عبث الأقدار » ، بل يندرج الجميع في شبكة واحدة من العلاقات تصل ما بين هذه النصوص ونصوص أخرى غيرها ، مثل

« الثلاثية » أو « كفاح طيبة » أو « أولاد حارتنا » . إن الفارق بين هذه النصوص ليس الفارق الجذري الذى ينقلنا من « كلية منتظمة » ذاتيا إلى « كلية » أخرى تنطوى على انتظام مناقض ، وإنما الفارق بين تجليات متعددة لنفس الكلية ، التى تتحرك عناصرها داخل « نظام » واحد ، لا يقضى على الكلية المتميزة لكل الأعمال . وإذا أردنا تشبيها نستمد من بعض إنجازات النحو المعاصر قلنا : إن النصوص الأدبية المتعددة لنجيب محفوظ إنما هى أبنية سطحية ترتد إلى بنية عميقة واحدة تحكمها ، فتجعل من النصوص الجزئية نصا واحداً ، ينطوى على نظام منظم ذاتيا .

ويشعر بعض نقاد نجيب محفوظ بوجود مثل هذا « النظام » فيطلقون على ما يشعرون به أسماء متعددة ، من مثل « رؤية نجيب محفوظ » أو « رؤيا نجيب محفوظ » ، مثلاً يطلقون عليه « عالم نجيب محفوظ » أو « العالم الروائى » ، أو أى اسم آخر . وقد يقرن بعضهم التسمية بصفات إيجابية أو سالبة . وقد يوغل بعضهم فى لغة الاستعارة والتشبيه فيتحدث عن « المعمار الفنى » ، أو عن « وحدة الإيقاع » وعن « الملامح الأساسية » ، أو « الهياكل الثابتة » . ولكن أيا كانت التسمية – أو الصفة ، أو الاستعارة والتشبيه – فإنها توحى بإدراك نوع من « النظام الذاتى » هو علة لكلية نصوص نجيب محفوظ أو بنيتها التحتية ، بل إن استعاراتهم المتكررة – فى هذا المجال – التى تنقل عن مجالات متنوعة (العمارة ، والنحت ، والرسم ، والموسيقى ، والشعر) ليست سوى محاولة لاقتناص هذا « النظام » المراوغ من وراء سطح النصوص المتنوعة . ولذلك يتجاوب « المعمار » – دلالياً – مع « وحدة الإيقاع » ، ليؤكد كلاهما « ملامح أساسية » و « هياكل ثابتة » ، هى بمثابة عناصر تكوينية لكل يتكون من علاقات . هذا « الكل » هو « العالم الروائى » ، أو ما ينطوى عليه هذا « العالم » من « رؤية » أو « رؤيا » . ورغم أن الفارق بين الكلمتين الأخيرتين فارق فى تصور النقاد لطبيعة العناصر التى يتكون من علاقاتها « عالم نجيب محفوظ » – (إذ « الرؤية » تقودنا إلى « الواقع » وتضعنا على ضفاف « الواقعية » على نحو ماتتجلى – مثلاً – فى كتاب عبد المحسن بدر « نجيب محفوظ » : الرؤية والأداة » . أما « الرؤيا » فتقودنا إلى « الرمز » وتضعنا فى حضرة « المطلق » على نحو ما يفسره – مثلاً – جورج طرايشى فى كتابه « الله فى رحلة نجيب محفوظ الرمزية ») – إلا أن كلتا الكلمتين (الرؤية / الرؤيا) تنبئنا بإدراك « عالم موحد » وتشعرنا بوجود « نظام » له على نحو من الأنحاء .

ولهذا السبب نسمع من يقول : « عالم نجيب محفوظ الروائى عالم قائم بذاته يكاد أن

يكون معادلا للمجتمع الخارجى ، ترتبط عناصره ارتباطا ميبيا ، ويستمد كل عنصر قيمته النسبية من علاقته بالأجزاء الأخرى ، وتلتقى ممراته الجانبية ، وأزقة الخلفية بشارعه الرئيسى ، فكل وقائعه منتظمة فى إطار ثابت يحدد لكل واقعة وزنها الخاص . وقد تساوى فيه إحدى التروات الشخصية ومعاهدة سياسية ، فكل الأشياء المحيطة بنا قد اندمجت فى شبكة من الدلالات الفكرية والانفعالات الجاهزة^(١٦) . كما تسمع من يقول : « إن الملامح الأساسية لعالم نجيب محفوظ قد اكتملت . ليس هذا حكما عليه بالجمود . لا .. فما أشد تنوع هذا العالم ، وما أشد خصوصيته ، وما أعمق تجددته المتصل ، ولكنه - فى الحقيقة - عالم متجانس ، منذ أول نبضة فى أول عمل ، حتى آخر أعماله التى لم تنشر بعد ، بل - فى تقديرى - لم تكتب بعد . هناك محاور وثوابت وهياكل أساسية ، يتحرك بها هذا العالم مهما تجددت ، ونمت ، وتطورت ، وتعمقت ، فكراً أو منهجا أو أسلوبا ، فهى تختزن رؤيا أساسية وفنية واحدة ، متكاملة ، رغم تطورها المتصل منذ البداية حتى تلك النهاية التى تنتظرها سنوات عديدة مديدة من الإبداع العميق الممتع »^(١٧) .

ولو تجاوزنا سطح الاستعارة أو التشبيهات الثانوية فى كلا القولين السابقين (الممرات الجانبية ، الأزقة الخلفية ، أول نبضة ، هياكل ، تختزن .. الخ) إلى النواة الدلالية التى تجتذب كل هذه التشبيهات والاستعارات ، وجدنا أنفسنا قرب « النظام » الذى أتحدث عنه ، وإن لم ننفذ إليها تماما . وقد ينطوى القول الأول على نعمة تقييم باطنة ، تسرب كنعمة تحتية للجمل ، فتقرن « العالم الروائى » بصفات سلبية (الشكلية الصارمة التى تفضى إلى الآلية .. الخ) وقد ينطوى القول الثانى على نعمة تقييم ظاهرة ، يحرفها - أحيانا - انفعال الانطباع (فما أشد ... وما أعمق !) لتقرن « العالم الروائى » بصفات إيجابية (الوحدة والتنوع) . ولكن كلا القولين يؤكد « انتظاما ذاتيا » ما لعالم نجيب محفوظ . وهو « انتظام » قريب من ذلك الذى يلفتنا إليه قول ثالث عما تطرحه نصوص نجيب محفوظ من « رؤية متكاملة للحياة الإنسانية » نتأمل - فى داخل تلاحمها - « العناصر الثابتة والمتغيرة »^(١٨) .

إن مثل هذه الأقوال تقرنا من المهمة الأولى التى يجب أن تناط بناقده نجيب

(١٦) إبراهيم فتحى ، العالم الروائى عند نجيب محفوظ ، دار الفكر المعاصر ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٦

(١٧) محمود أمين العالم ، المرجع السابق ، ص ٦

(١٨) عبد المحسن بدر ، نجيب محفوظ : الرؤية والأداة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٩

محفوظ ، وهى النظر إلى نصوص القاص باعتبارها كلا واحدا ، يحكمه نظام محدد ، له عناصره التكوينية ، ومحاوره المتعددة ، ومستوياته المتصارعة ، التى تجانس ما بين محاور عالمه ، وتناغم ما بين مستويات رؤيته . وإدراك الناقد لهذا الأمر ليس سوى إدراكه المبدأ القديم الجديد ، ذلك المبدأ الذى يرد القيمة الإسطيقية (الجمالية) إلى « الوحدة الكامنة فى التنوع » (وليس من الصعب أن نلمح تجليات متغيرة لمفهوم الكلية Totality فى الأقوال الثلاثة السابقة) . ولكن الوحدة - بهذا المعنى - ليست وحدة الأجزاء المتجاورة مكانيا ، أو الأعمال المتعاقبة زمنيا ، أو النصوص المتراكمة ظاهريا ، ولكنها « الوحدة » التى يقودنا الوعى بها إلى « النظام » الذى يكمن وراء كل نصوص نجيب محفوظ ، فنحاول النفاذ من السطح الظاهر للركام إلى الأساس الكامن للوحدة ، دون أن يلهينا التنوع فننتهى إلى التجزء ، ودون أن يصرفنا التعاقب عن غيره فننتهى إلى التفتيت ، بل ندرك التنوع فى علاقاته التى تقودنا إلى « وحدة حية » لنظام يتصف بالتوتر وليس الجمود ، فلا تصبح « الوحدة » مجموع الأجزاء بل محصلة العلاقات ، بين عناصر النص الواحد من ناحية ، وبينها وبين عناصر بقية النصوص من ناحية أخرى .

ولكن المشكلة أن ناقد نجيب محفوظ - فى الأغلب - يتباعد عن مهمته الأولى أكثر مما يقترب منها . ومن السهل أن نلاحظ أن تعامل هذا الناقد مع النصوص إنما هو تعامل يفرض على النصوص الاستجابة إلى نظرة جزئية من ناحية ، وتأريخية - بالمعنى الضيق - تطويرية من ناحية ثانية ، فتتجزأ هذه النصوص مرة ، وتتجاوز تعاقبا مرة ثانية ، دون أن تنتظم فى نظام موحد لاتغيب عن آنيته أبعاد التعاقب بحال .

وأبسط أشكال هذه النظرة الجزئية ، وإن كان ينطوى على نفس المدخل الخطر ، هو افتراض مرحلتين متغايرتين تماما فى الغالب مرتّ بهما نصوص نجيب محفوظ . وقد يطلق على هاتين المرحلتين « الواقعية » و « الواقعية الجديدة » ، أو يطلق عليهما « الاستاتيكية » و « الدينامكية » ، والقسمة - على هذا النحو - تنطوى على نوع من التسليم بأبعاد معرفية متضادة على مستوى التعاقب ، وتحول مزاجى من النقيض إلى نقيضه ، والتسليم الضمنى بتوالى أنظمة أفقية على محور المجاورة ، وليس تصارع مستويات آنية على محور التضاد . وتضع القسمة - على هذا النحو الحاد من الفصل بين المستويات والمحاور الآنية لنفس النظام - مجموعة من روايات نجيب محفوظ (مثل : « القاهرة الجديدة » و « خان

(١٩) رجاء النقاش ، أدباء معاصرون ، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٧١ ، ص ١٨٣ وما بعدها .

الخلي « و » بداية ونهاية « و » الثلاثية «) في جزيرة منعزلة ، تقابلها جزيرة أخرى مخالفة لها في طبيعة التركيب الجغرافي والبشري ، تحتوى روايات أخرى (مثل : « اللص والكلاب » ، « الطريق » ، « الشحاذ » .. الخ .) وليس هناك معبر واضح يصل مابين الجزيرتين من داخلهما . ولا بأس - مع هذه النظرة - لو تصورنا الجزيرة الأولى مرتبة ، مهندسة ، منمنمة ، يتنظم كل شيء فيها انتظام أصداف الأرايسك ، ويقوم كل شيء فيها على التسجيل والوصف والرصد البارد ، بل إن حركة الزمن فيها أشبه بحركة أوراق « النتيجة » تسقط ورقة إثر روقه ، كساعة تعقب أخرى . وتسكن الجزيرة « كائنات جامدة ... باردة توحى لنا بأنها تكره الانفعال » أما الجزيرة الثانية فمؤارة بالحركة والعنف ، وتتفجر فيها براكين الأعماق . وتتداخل فيها الأزمنة والأمكنة ، وتقطنها كائنات نارية ، لغتها مكثفة « فراء كل كلمة من الكلمتين أكثر من معنى محتمل » - كما يقول يحيى حتى . ولا بأس لو كرر ناقد آخر - هو رجاء النقاش - نفس الصيغة - مستندا إلى « الفنان والناقد الكبير ستيفان زفايج » - فحدثنا عن كائنات الجزيرة الأولى - الاستاتيكية - التي تخرج « حسب النظم الطبيعية لحركتها » ، « دون عجلة » ، وعن قاطنى الجزيرة الثانية - الديناميكية - الذين ينطلقون « وهم يصيحون ويزعقون ، تشتعل فيهم النيران ، في حلبة أهوائهم » ، فهم « شهداء ومستحرون » .

وإذا كان سكان الجزيرة الأولى لنجيب محفوظ يذكروننا بشخصيات تولستوى فإن سكان الجزيرة الثانية يذكروننا بشخصيات دستوفسكى ، لو صدقنا رجاء النقاش . ولماذا لانصدقه ويحيى حتى يقول : « إن الفنانين ينقسمون من حيث المزاج - فيما أزعم - إلى نمطين رئيسيين تجدهما في جميع المذاهب : النمط الديناميكي الذى تعكس أعماله وهج معركة ، والنمط الاستاتيكي الناجى من خوض المعارض ، عدته التأمل بلا انفعال أو ثورة ، فهو يضع حجرا على حجر بصبر ، كأنه مهندس معمارى ... ونجيب محفوظ - حفظه الله لنا - أصلح شاهد على الفرق بين خصائص النمطين .. فنحن نجد الاثنى عنده ، وهو فى النمطين قد بلغ حد الكمال فى التعبير الفنى . » (٢٠)

ولكن لو صدقنا يحيى حتى - أو رجاء النقاش - انقسمت أعمال نجيب محفوظ قسمة حادة ، وتراكت نصوصه فى مجموعتين تشكلان جزيرتين منفصلتين من ناحية ، ووضعين متعاقبين من ناحية ثانية ، ومزاجين متناقضين لنجيب محفوظ الشخص من ناحية ثالثة ،

(٢٠) يحيى حتى ، عطر الأحباب ، مطابع الأهرام ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٨٤ - ٨٥

فيتحول نجيب محفوظ إلى «دكتور جيكل» و«مستر هايد»، ولكن مع فارق مهم مؤداه أن دكتور جيكل يوحّد - أولاً - باستاتيكيته التي يعيش بها ردحا من الزمن، ثم يموت ليبعث - بدلا منه - مستر هايد، بديناميته، أو «سوطه الذي يسوط به شخصياته» لو استخدمنا تشبيهات رجاء النقاش.

صحيح أن المقارنة بين «الاستاتيكية» و«الديناميكية» طريفة ودكية، وهي ترجع - كمدخل نقدي - إلى التضاد الرمزي الذي يلخص به بعض النقاد اختلاف «أمزجة» الأدباء وتكوين «النمذجة» التي تتعارض - كنماذج أولية - تعارض «أبوللو» مثلا - مع «ديونيسوس»، أي تعارض برود العقل مع توهج العواطف، وتعارض الوضوح (الشمس) مع الغموض (القمر). ولكن مثل هذه التصنيفات الرمزية - رغم طرافتها - «تسرف في التجريد والتصنيف إلى الدرجة التي تمنعها من أن تقدم فائدة حقيقية لدراسة أسلوب بعينه أو كاتب بعينه»^(٢١) يضاف إلى ذلك أن هذه الثنائية النمذجة المتعارضة - لو عدنا إلى تجلياتها في نصوص نجيب محفوظ - هي ثنائية خطيرة، لأنها توهّنا - كما هي عليه عند يحيى حقي ورجاء النقاش - بتعاقب حاد في رؤية الكاتب لعالمه من ناحية، وكأنه تعاقب من رؤية إلى نقيضها، وتلهينا عن تتبع الصراع الآتي بين مستويات العالم الروائي بالاختصار على تعقب المغايرة الظاهرية المتعاقبة - فحسب - من ناحية ثانية، وتصرفنا عن النص الروائي إلى مزاج من ناحية ثالثة، وتلفطنا إلى اختلاف مجموعات النصوص أكثر من تشابهها من ناحية رابعة. والنتيجة النهائية هي تعريف النص بدل تحقيق إمكانياته، وتجزئة العالم الروائي بدل المحافظة على وحدته. وقد نسلم بوجود تحول يحدث في نصوص نجيب محفوظ، فننتقل من «إستاتيكية» إلى «ديناميكية» - إذا شئنا الإبقاء على مصطلحي يحيى حقي ولكن هذا التحول بمثابة تغيرات داخلية تحدث داخل نظام واحد من ناحية، وبمثابة صراع بين مستويات متعددة على محاور أفقية ورأسية، مترامنة ومتعاقبة، في النص الواحد والنصوص المتعددة في

(٢١) راجع:

S. Ulmann "style and personality", in G. A. Love & M. Payne (ed.) Contemporary Essays on style. Scott, Fpresman and compuny, p. 161.

وشير أولمان في مقاله إلى التعارض الرمزي الذي يصنعه باشلار وبرونو، عندما يقارن الأول بين «الصور الحية» و«الصور الجامدة»، ويقارن الثاني بين «النقط الكيميائي» و«النقط الملهم» من الشعراء، أو إلى ما يعتقد به بعض النقاد التصنيف. فيميز بين أكثر من نمط من الأساليب، كما فعل هنري موريه. في كتابه «سيكولوجية الأساليب» (١٩٥٩).

نفس الوقت . ومن هنا يمكن أن نلاحظ هذا الصراع وهذه التغيرات في كل نصوص نجيب محفوظ من حيث تعاقبها الأفقي ، كما نلاحظه في كل النصوص من حيث تزامنها (محورها الرأسى) أو من حيث وضعها الآتى . وما يحدث في النصوص - ككل - يحدث في كل نص على حدة . ومن هنا لا تواجهنا « الاستاتيكية » في « الثلاثية » ثم « الديناميكية » في « اللص والكلاب » - مثلا - بل تواجهنا كلتاهما في كلا النصين على السواء . إذ ليس الفارق بينهما فارقا في « التحول الفنى » من مدرسة إلى مدرسة متناقضة ، أو « الانقلاب التاريخى » من رؤية إلى رؤية ، بل هو فارق تجليات التحولات الداخلية والصراع الآتى لنفس النظام ، داخل كل نص - لوأخذناه على حدة . وليس معنى هذا إلغاء التاريخ أو نفي تحولات الأديب ، وإنما النظر إلى الوضع التاريخى والتحولات الفنية نظرة كلية وليست جزئية ، فلا ننزع الفنان في أدراج ، أو ننقله من موقف إلى موقف (دون أن يتقل حقا) بل ننظر إلى نصوصه - ككل - باعتبارها نظاما دالا ، لا يمكن فهم مدلوله أو مدلولاته ، إلا بوحدة نصوصه كنظام . وإذن ، فالمهم هو إدراك آنية العلاقة بين « الاستاتيكية » و « الديناميكية » في نفس الوقت الذى تترك فيه تعاقبها . ولذلك فإن تمثله « الاستاتيكية » - كصفة تنطوى على « الاستواء » و « الازدواج » ليس تقيضا صارما ، تنقطع علاقاته الآنية بصفة « الديناميكية » أو تتحول الصفتان إلى خاصيتين لعنصرين متوترين في نفس النص . ولهذا السبب أدرك لويس عوض لونا من التوتر - سماه هوة وصدعا - أو « كلاسيكية القالب » و « رومانسية المضمون » في « اللص والكلاب » ولاحظ نفس التوتر - في « الثلاثية » - بين « القالب الكلاسيكى » وما يخفيه وراء واجهته المتقنة من مضمون « أبعد ما يكون عن الكلاسيكية »^(٢٢) ولهذا السبب - أيضا - أدرك محمود الرببى تعارض الحوار (المديالوج) مع النجوى (المونولوج) في « اللص والكلاب » ، وتعارض الوحدات اللغوية المكونة للمعجم ما بين سطح الوعي وباطنه في نفس النص ، فأشار إلى تبسيط الوحدات اللغوية وحيدتها في الحوار ، كما أشار إلى تكثيفها البالغ إذا ارتدت نجوى ، وأكد صقل المعجم وتهذيبه على السطح الخارجى وانطلاقه وعنفه على مستوى الباطن الداخلى^(٢٣) .

إن الصفتين - من هذا المنظور - صفتان لمستويين مغايرين داخل نفس النظام .

(٢٢) لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ .

(٢٣) محمود الرببى ، قراءة الرواية : نماذج من نجيب محفوظ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٥ - ١٦ .

وتجليات العلاقة بين هذين المستويين خاضعة لحركة التحولات المنتظمة داخل سياق واحد شامل . ومن هنا يمكن أن يتعارض « الديناميكي » مع « الاستاتيكي » أو يتقاطع أو يتداخل معه ، على محور واحد ، أو محاور متعددة ، فالأمر - في النهاية - رهن بحركة تحولات داخلية في نص واحد ، هو أعمال نجيب محفوظ ككل . ومادام النص الواحد الكلي ينطوي على عناصر ثابتة لا تتغير في الحالات المتعاقبة لنصوصه الجزئية ، أو في حالاته الآتية ، فالانتظام قائم والكلية موجودة ، دون أن تنفي أبعاد التنوع والحركة والصراع والتوتر داخل هذا الانتظام ، ذلك لأنه ليس انتظام « جدار » في « معمار » بل انتظام مستويات ومحاور فاعلة في « اللغة » .

- ٤ -

ولكن النظرة الجزئية تأخذ أشكالا أكثر خطراً من شكل الثنائية بين « الديناميكية » و « الاستاتيكية » . ومن الممكن أن نرقب هذه الأشكال عندما نتأمل بطاقات تصنيف « المذهبية الأدبية » التي تلصق على نصوص نجيب محفوظ . إن أعماله - من هذه الزاوية - تنقسم - هذه المرة - إلى مراحل : تبدأ المرحلة الأولى من « عبث الأقدار » لتنتهي مع « كفاح طيبة » ، وتبدأ المرحلة الثانية من « القاهرة الجديدة » لتنتهي مع « السكرية » ، وتبدأ المرحلة الثالثة من « أولاد حارتنا » لتنتهي مع « ثرثرة فوق النيل » .. الخ . وتتعاقب هذه المراحل - تاريخياً - ابتداء من أول رواية نشرها نجيب محفوظ حتى آخر رواية ، وكأن مقياس المراحل هو التابع في الزمن الذي يوازي التابع في « المذهبية الأدبية » .

ولن توصف المرحلة الواحدة بصفة مذهبية واحدة ، بل بصفات مذهبية متافرة ، فالمرحلة الأولى - مثلاً - يمكن أن تصنف تحت عنوان « التاريخية الرومانسية » ، أو تحت عنوان « الرؤية الوهمية » و « الصلة بالواقع » في نفس الوقت ، كما يمكن أن توضع تحت عنوان « المرحلة التاريخية » فحسب ، أو توسع البطاقة لتضم - إلى جانب التاريخية - « النضالية من أجل التحرر » ، كما يمكن أن توضع أخيراً تحت لافتة « الرمز في إطار التاريخ »^(٢٤) . أما المرحلة الثانية فتوصف بأنها « واقعية نقدية » ، أو « اجتماعية » ، أو

(٢٤) أنظر على التوالي :

- نبيل راغب ، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ، دراسة تحليلية لأصولها الفنية والجمالية ، المؤسسة المصرية =

« فوتغرافية » ، أو « ناتورالية » فيما يذهب لويس عوض ، أو تتجاوز الواقعية ، كما يذهب ادوار الخراط . وهكذا تتقلب المرحلة لتصبح نصوصها قابلة للتراكم ، مستعدة لولوج ثلاثة أدراج مذهبية متباعدة تباعد « الطبيعية » عن « الواقعية النقدية » .

وليس يعني - الآن - أمر « فوضى التصنيف » ، إذ سنعود إليها فيما بعد ، بقدر ما تعيننا عملية التصنيف ذاتها ، وما تنطوي عليه من تمزيق لوحدة النصوص . إن التركيز على المراحل ، وتصنيفها - على هذا النحو - ينطوي على نفس النظرة الجزئية . والنتيجة الأولى التي تترتب على هذه العملية هي تفتت « الوحدة الحية » ما بين النصوص ، وتحويلها إلى « كتل » متراكمة على نقاط طويلة ، يمر عليها الناقد كما يمر القطار على محطات متباعدة . ومن الطبيعي - والأمر كذلك - ألا يتوقف الناقد عند مجموعة النصوص التي لاتقع مباشرة على شريط قطاره . أو لاتلج - في سر - أدراج تصنيفاته . وحتى إذا توقف الناقد عند هذه النصوص ارتبك في وضعها ، وحشرها حشراً داخل نفس المرحلة (لاحظ حالة « السراب » في المرحلة الاجتماعية) أو تجاهل خصائصها الشكلية ، أو يسطحها فيوحد ما بين « التمثيل » في « أولاد حارتنا » و« الرمز » في « الطريق » ، فالمهم أن تتجمع النصوص في أكوام متشابهة من حيث الظاهر ، ويسلس قياد الرحلة التاريخية لنجيب محفوظ ، فتبسط كتل أعماله ، كما يهبط المسافرون ، كل في محطة مختلفة . ومادام الناقد ينظر إلى فوارق التعاقب - في الأغلب - فلن يلتفت إلى الماثلات المضادة ، إذا نظر إلى الأعمال باعتبارها كيانا موجودا في الآن .

ومن هذه الزوايا لن يختلف ما تقوله فاطمة موسى مثلاً - في جوهره - عما يقوله على شلق . إذ تذهب فاطمة موسى إلى أن نجيب محفوظ « بدأ بالرواية التاريخية التي تمثل مرحلة الرومانس ... ثم انتقل إلى مرحلة الواقعية ... واستنفذ إمكانيات الرواية الواقعية المعاصرة .. فعبثها إلى مرحلة جديدة ، يمكن تسميتها مرحلة ما بعد الواقعية » (٢٥) . إن

= العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٧ وما بعدها .

- عبد المحسن بدر ، المرجع السابق ، ص ١٥١ وما بعدها .

- محمود أمين العالم ، المرجع السابق ، ص ٢٥ وما بعدها .

- على شلق ، نجيب محفوظ في مجهولة المعلوم ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٤٦ .

- سليمان الشطي ، الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المطبعة العصرية ، الكويت ١٩٧٦ ، ص ٢٩ وما بعدها .

(٢٥) فاطمة موسى ، في الرواية العربية المعاصرة ، الأنجلو ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٧ .

النصوص تتراكم ، عند الاثنين ، لتتجمع في هذه الأكوام الأفقية المتعاقبة ، إذ « يبدأ » نجيب محفوظ تحت لافتة ، ثم « يتقل » تحت لافتة أخرى ، ثم « يعبر مرحلة » إلى مرحلة جديدة . ولكن ما العناصر الثابتة ، والعلاقات الداخلية لمجموع النصوص ، والبعد الرأسي في « مراحل التطور الروائي » ؟ كلها أسئلة لابد أن تختفى عندما تنقسم النصوص إلى كتل تصنع جزرا ومحطات منفصلة . ولن يلغى الانفصال أن نشير إلى بعض الأساليب التي تطورت ، أو وجدت بذورها في الماضي .

وإذا عدنا إلى منطقية القسمة فإن علينا أن نتساءل : هل يمكن أن يوضع قاص واحد في كل هذه الأدراج ، وتحت كل هذه البطاقات ، ويظل سليم الأعضاء ؟ ألا تؤدي اللافتات المتعددة (واقعية ، ناتورالية .. الخ) إلى تغريب النصوص الأدبية للقاص وتحويلها إلى ما يشبه « مرقعة الدراويش » ؟ وإذا وضعنا في الاعتبار أن مصطلحات مثل الواقعية وغيرها ، هي - في حقيقة الأمر - تلخيص لأنظمة متغيرة ، أفلا يعني تسلميها بوجود كل هذه المصطلحات ، وإطلاقها على أعمال نجيب محفوظ ، أن أدبه يقع بين اثنتين : فوضى أنظمة متنافرة ، فتتفى عن أعماله القيمة ، في جانب من جوانبها ، لأنها ستفقد عنصر التلاحم ، أو أن نجيب محفوظ قصاص يرى العالم كما يراه الواقعيون (التقديرون - التسجيليون) والطبيعيون والوجوديون والعشيون ، فتتفى عن عقله السلامة . ولن يفيد - هنا - أن نقول : « ليس بين كتابنا من يقارب نجيب في فهمه الناقد للنظريات الأدبية وفي تطبيقه لها في أعماله »^(٢٦) . إذ لو سلمنا بذلك تحول نجيب محفوظ إلى ناقد ، أو تحول إلى أديب يكتب روايات على كل المقاييس والنظريات . وليس انقسام نصوص نجيب محفوظ إلى محطات يعبر عليها الناقد أفقيا وليد نظرة جزئية فحسب ، بل هو - بالمثل - وليد نظرة تاريخية - لاتاريخية - تنظر إلى أعمال الكاتب باعتبارها أشياء تتطور مع الزمن . إن كل حركة لنصوص نجيب محفوظ - من هذا المنظور - هي حركة إلى الأمام ، تنطوي على مزيد من إتقان الصنعة ، ونضج الرؤية إلى العالم ، وكأنه يبدأ - كالطفل - في « عبث الأقدار » ، ثم يشب في « الثلاثية » وينضج في « أولاد حارتنا » ، ويكتهل بالحكمة في « الحرافيش » . وقد تتوقف حركة التطور الصاعد لنجيب محفوظ - هونا - أو تتذبذب قليلا ، لكنها تظل صاعدة في سلم التطور . ولو تركنا مغالطة التطور شبه البيولوجي الذي تنطوي عليه هذه النظرة فإننا نلاحظ

(٢٦) يحيى حقي ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

افتقارها إلى « المنظور التاريخي » الذي لا يقيس الكاتب بالسنوات ، أو تعاقب الأعمال ، بل بمعايير أخرى تخالف هذه التطورية . وأهم من ذلك أن نلاحظ أن هذه النظرة ، تفترض - عادة - نقطة للبداية في حركة التطور ، شبيهة بنقطة الصفر ، أو بالنقطة التي تقع فيها أدنى الكائنات في سلم التطور ، إن هذه النقطة لقيمة لها إلا من حيث أنها مجرد بداية . ومادامت كذلك فيجب أن تنسب « نقطة البداية » إلى أدنى المذاهب الأدبية موقعا في سلم التطور ، وبالتالي في سلم القيمة . أما نقطة النهاية فيجب أن تعزى إلى أعلى المذاهب موقعا في سلم التطور . وبالتالي في سلم القيم . ومن المنطقي - والأمر كذلك - أن تترتب نصوص نجيب محفوظ - في تعاقبها الزمني - على نحو تعاقبي آخر ، يقوم على « هيراركية » أدناها « الرومانسية » في « عبث الأقدار » ، وأعلاها « الواقعية » في « الثلاثية » عند بعض النقاد ، أو « ما بعد الواقعية » عند البعض الآخر . ولا بأس - والأمر كذلك - لو أصبح للمذهب الأدنى درجات تبدأ من أدنى الأدنى حيث « الرومانسية الهابطة » أو « الرؤية الوهمية » لتنتهي بأعلى الأدنى حيث « الرومانسية الثورية » ، وتتراص « الواقعية » - بدورها - في درجات أهونها « الفوتوغرافية » وأوسطها « النقدية » وأعلاها « الاشتراكية » .

والنتيجة الأولى : هي المأزق الذي يواجهه الناقد « الواقعي » عندما يجده القاص فينحدر على سلم المذاهب من « واقعية الثورة الشاملة » إلى « قلب الليل » ، حيث لن يصل اليقين إلى نسبة الـ ٥٠٪ التي تحدث عنها « عبد الله » في « حارة العشاق » ، أو المأزق الذي يواجهه ناقد « ما بعد الواقعية » عندما يمكر به القاص ليعود مباشرة إلى الجلوس على مقهى « الكرنك » . أيتراجع الناقد الأول عما ذهب إليه ؟ أيتهم الناقد الثاني نجيب محفوظ بالارتداد ؟ إن الأمر ممكن . لكن مقولة « التطور » نفسها تتحول عندئذ إلى شيء مائع ، فتصبح دريئة لرب تعنى عليها .

أما النتيجة الثانية فهي مشكلة التصنيف الداخلي لنصوص نجيب محفوظ المتطورة . لقد أطلق الناقد على المراحل الأمامية أسماء ، وجعلها درجات بعضها فوق بعض . ولكن ماذا عن التقسيمات الداخلية للدرجات ؟ إننا يمكن أن نتوقف - هنا - عند عبد المحسن بدر ، فكتابه عن نجيب محفوظ - رغم الجهد المضني الذي بذله - نموذج واضح على مزالق هذه النظرة « التطورية » :

إن كتاب « الرؤية والأداة » يضعنا بعنوانه في ثنائية لا ترم ، تتحول فيها « الرؤية » إلى مقابل حاد للأداة ، ويتحول كلاهما إلى مقابل آخر لثنائية « الشكل »

و«المضمون» ، مما يعود بنا إلى تصورات تعاقبية عن مضمون يتكون أولا ليفرض شكلا ، ثم عن شكل لا حق بالضرورة ، وإن كان يعود ليؤثر في مضمونه . ولكن يظل المضمون شيئا قائما بذاته ، فهو رؤية - أو وليد رؤية - تتكون «جنورها» في مرحلة الصبا - ويمكن انتزاعها من مقالات نجيب محفوظ في صباه - لتنمو في مراحل لاحقة . وتظل هذه الجذور بمثابة العناصر الثابتة في «الرؤية» ، لا تتغير منها إلا بعض الأجزاء الهينة التي لا تقضى على قوة الجذور ، أو بعض جوانب «الأداة» التي تصبح - في النهاية وعاء مؤثرا .

وإذا انتقلنا من ثنائية «الرؤية» و«الأداة» إلى نصوص نجيب محفوظ الروائية وجدناها في حركة تطور عبر سلم تتكون درجاته من أنواع الرؤى . (هناك رؤية قدرية - وهمية ، وهناك رؤية فردية ، وأخيرا رؤية واقعية) ولقد بدأ نجيب محفوظ من أدنى الدرجات (في «عبث الأقدار» و«رادوبيس») ، ثم تطور فانتقل إلى مرحلة «الصلة بالواقع» ، في «كفاح طيبة» التي هي رسالة من مصر القديمة إلى مصر الجديدة ، وفي «القاهرة الجديدة» التي لامست الواقع . ثم تطور نجيب محفوظ - مرة أخرى - فوصل إلى «نحو الواقعية» في «خان الخليلي» و«السراب» ، ثم اكتمل تطوره فوصل إلى «الواقعية» مع «زقاق المدق» و«بداية ونهاية» .

ولو تساءلنا عن الفرق الحقيقي بين «الصلة بالواقع» و«نحو الواقعية» ، وهل يحمل التمييز أى دلالة فارقة ما وجدنا إجابة ، سوى الحرص البالغ على تقسيم درجات السلم الصاعد من الأدنى إلى الأعلى ، أى من «الرؤية الوهمية» إلى «الرؤية الواقعية» . ولكن ستبد لنا المفارقة - في نهاية الكتاب - عندما تصبح «واقعية» نجيب محفوظ - في حقيقة الأمر - مثالية أخلاقية ، يمثل القدر فيها «العامل المؤثر بالدرجة الأولى على الفعل والشخصية» ، وتمثل الغريزة أو الفطرة المؤثر الذى سلى دور القدر في الأهمية ، فلا يبقى للعامل الاجتماعى - في المرحلة الواقعية - سوى «دور هامشى» ، وذلك على خلاف ماذهب إليه كثير من الباحثين^(٢٧) .

وإذا عدنا إلى الفرضية الأولى لكتاب «الرؤية والأداة» وهى تكامل الرؤية عند محفوظ ، وجدنا هذا التكامل قد تمزق على درجات سلم التطور مابين «الرؤية الوهمية» ، و«الصلة بالواقع» ، و«نحو الواقعية» ، و«الواقعية» التى ضاعت فى

(٢٧) عبد المحسن بدر ، المرجع السابق ، ص ٤٥١ .

النهاية . يضاف إلى ذلك انفصال العالم الروائي نفسه بين رؤية سابقة ومضمون وشكل ، أو رؤية هي مضمون منفصل عن شكل ، مما يفضي إلى تمزق العلاقة بين « الرؤية » و « الأداة » وإلى ثنائية متعاكسة بين « الثوابت » و « المتغيرات » . ولو صدقنا « الثوابت » أنكرنا « التطورية » وحولنا « المتغيرات » إلى مجرد تحولات عارضة في الرؤية . ومع ذلك فنحن لسنا إزاء رؤية واحدة عند نجيب محفوظ بل إزاء رؤى تتطور ، وإلا فلا معنى للرؤية الوهمية في مقابل الرؤية الواقعية ؟! ولو صدقنا « التطورية » أثبتنا فاعلية « المتغيرات » وأنكرنا « الثوابت » . ومع ذلك فالثوابت كالصوى الحجرية لا تهتز ، لأنه لم يحدث - لدى نجيب محفوظ - « انقلاب جذري يؤدي إلى التغير من النقيض إلى النقيض ، وكل ما حدث أن رؤيته ازدادت عمقا . » (٢٨)

وسواء كنا في الحالة الأولى أو الحالة الثانية فقد اختفى الصراع بين الثابت والمتغير ، وغامت العلاقة بينهما إلى أبعد حد ، ليتحول الثابت - في الحالة الأولى - إلى ما يشبه « الروح الهيجلي » الذي يوجد قبل وجود النصوص . ويتجلى فيها عبر الدرجات الصاعدة في سلم الرؤى الوهمية والمثالية والواقعية . وعندئذ يغدو الثابت شيئا مطلقا . وجد دفعة واحدة في مرحلة الصبا (ومن الممكن أن نستمد من مقالات نجيب محفوظ الأولى وليس رواياته) لتقلب به الرؤى كما تتقلب المحطات أمام عيني المسافر . ويتحول المتغير - في الحالة الثانية - إلى أوضاع بيولوجية متطورة عبر مراحل ، تشبه تطور القرد الذي صار إنسانا ، فيصبح لكل مرحلة رؤية متغيرة ، تنطوي على مقولات معرفية ، متضادة تضاد رأس القرد والإنسان ، فيختفي الثابت تماما . وإذا كانت « الرؤية » تصبح مطلقا مفارقا لتجلياتها المرحلية في كتل النصوص - في الحالة الأولى - فإن « الرؤى » تغدو « مضامين » تلابسها « أشكال » متغيرة في الحالة الثانية . وإذا تذكرنا ما يقال من أن « المضمون » قرين « الموقف » . وأن الأساس - في الرؤية - هو المضمون ، فالنتيجة هي كثرة المواقف التي تنطوي عليها نصوص نجيب محفوظ ، أو - قل - كثرة التجزؤ الذي أصاب كلية هذه النصوص ، فبدد نظامها .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

إن هذا « النظام » الذى أتحدث عنه قرين « كلية » النص ، وبالتالي فهو لا يفارق « سياقه الدال » . ولكن مادامنا إزاء كلية للنص فنحن إزاء وحدة للدال بالضرورة . إن العناصر الثابتة تلتقى فى محاور وتفاعل عبر مستويات متعددة لتكوّن مساقا دالا له وحدته النابعة من هذه الكلية . ولكن العلاقة بين « الدال » و « المدلول » ليست علاقة وحيدة الجانب . وأهم من ذلك أن الكيفية التى ينطوى بها الدال على مدلوله ، أو يشير بها إلى مدلول . فيتج « دلالة » لاتعتمد على النص وحده ، بل تعتمد - إلى جانب ذلك - على « قارئ » النص ، وما يقوم به من مشاركة فى « إنتاج الدلالة » .

إن النص - فى ذاته - لا يمكن أن يتصف بالثبات أو ينحصر فى مدلول واحد ، جامد . إنه يتحول - فى جانب منه - إلى شبكة من المستويات المتصارعة ذاتيا ، كما يتحول - فى جانبه الآخر - إلى نص موجود فى العالم . ومادام النص موجودا فى العالم فمن المنطقى أن يعاد إنتاجه دلاليا لصالح العالم^(٢٩) . ومن المنطقى - أيضا - أن لا يتم تفاعل مستوياته الذاتية فى عزلة مطلقة عن قارئ يقع - بدوره - فى العالم . إن النص نتج - أصلا - عن صلة مباشرة بين كاتب وأداة فى عالم محدد . وبمجرد أن يطلق الكاتب هذا النص من بين يديه ويسمح بتوزيعه يدخل النص نفسه فى عمليات إنتاج أخرى لصالح العالم الذى وجد فيه . ويقدر ما ينتسب النص إلى صاحبه - فى هذه الحالة - فإنه ينتسب - بمعنى من المعانى - إلى الذين أسهموا فى إنتاج دلالاته .

ولكن عمليات الإنتاج التى أتحدث عنها لاتعنى خلقا لنص جديد غير نص صاحبه وإنما تعنى الوصول إلى دلالة تكون بمثابة محصلة للنظام الذى ينطوى عليه النص نفسه . ومن هنا تصبح القراءة النقدية عملية تفاعل بين النص - كمعطى - ينطوى على نظام - وبين القارئ . وقد تلعب القراءة النقدية للقارئ دوراً فى تشكيل دلالة النص أو إنتاجها ، وهى تلعب هذا الدور بالفعل ، ولكن هذا الدور يظل ثانويا بالقياس إلى قدرة النص نفسه على توجيه عملية القراءة .

ومن الممكن أن تعمق الأمر بالرجوع إلى الطبيعة المعرفية والوجودية (الأنطولوجية) للنص . إن النص - من حيث هو موضوع - ينطوى على حال من الوجود المستقل عن

(٢٩) قارن ب

Edward W. Said, "The Text, the World, The Critic, in Josué V. Harari(ed.) Textual Strategies, Cornell Univ. Press, 1979, p. 163.

وعينا ، أو- إذا أردنا الدقة - هو نفسه حال من الوجود المستقل عن وعينا ، ابتداء من أوراقه وكلماته المطبوعة ، وانتهاء بدواله المرتبطة بهذه الأوراق . ولذلك فهو موضوع للمعرفة متجسد في كيان أنطولوجي خاص . لكن هذا الكيان المستقل للنص ينطوي على مفارقة لا تدمر استقلاله ، وإن كانت تحد منه ، فتحدد - بالتالي - عمليات القراءة . إنه كيان مستقل من حيث هو موضوع للمعرفة . وهذا الاستقلال يفرض - بداهة - أثره على القارئ المدرك له ، ولكن القارئ المدرك - بدوره - يؤثر في تكييف موضوع إدراكه ، أى النص ، فيساهم - بالتالي - في تحديد وضعه الأنطولوجي وبعده المعرفي .

ومن هنا يظل النص منفصلا عن قارئه ومتصلا به في نفس الوقت ، كما يظل النص مؤثرا ومتأثرا ، فاعلا ومنفعلا . وتصبح عملية « إنتاج الدلالة » عملية يشترك فيها النص باعتباره الأداة الأساسية للإنتاج ، مثلما يشترك فيها القارئ باعتباره الأداة الثانوية في النهاية . وتظل هذه العملية « قراءة » مادام « القارئ » لا يضحى - بحال من الأحوال - بوجود النص « المقروء » ، وما دام « النص المقروء » يظل أساسيا في توجيه عملية القراءة . ولو انقلب الحال وتحول الثانوى إلى أساسى فلا بد أن تختفى القراءة ، لأن النص المقروء - في هذه الحالة - لن يصبح له قوة التوجيه ، بل يغدو شيئا سالبا ، يتحول - تدريجيا - إلى محض إسقاط من المدرك - بكسر الراء - الذى لن « يقرأ » أو « يُسقط » . والنتيجة المنطقية لذلك هي تدمير الوجود المستقل للنص - من ناحية - وتحويله إلى « مجلى » لعرض أفكار سياسية أو اجتماعية ، أو « مناسبة » لعرض تصورات دينية ، فيتحول النقد من « القراءة » ليصبح عمليات انطباعية ، تبدأ بالحديث عن « أثر العمل في النفس » باعتباره « أداء نفسيا » - لو استخدمنا مصطلحات أنور المعداوى - ، وتمر بعملية انتزاع لمجموعة من « الأفكار » تغزل بعيدا عن النص ، وتنتهى بالحديث عن أحلام سياسية أو اعتقادية تمكثنا من التعرف على الناقد وليس النص . وفي كل هذه الحالات تقع بعيدا عن « القراءة » ونقترب من « الإسقاط » .

وإذا أضفنا إلى هذا كله الفاعلية التى تنطوى عليها عملية « القراءة » - وليس « الإسقاط » - وعدم تعارض طبيعتها مع « التعدد » الذى لا يتناقض مع الدور الأساسى الذى يقوم به النص في توجيه القراءة ، وبالتالي في عملية الإدراك التى لا تلغى فيها الذات الموضوع . أو يلغى فيها الموضوع الذات . إذا أضفنا ذلك كله واجهنا وضعاً مزدوجاً في نقد نجيب محفوظ ، أعنى وضعاً يتراوح ما بين « القراءة » و « الإسقاط » . و « القراءة » - لذلك كله - « أداء » للنص و « إنتاج » لدلالته بمعنى محدد يجعل منها

عملية تلفظ للنص الذي ينطق عبر قارئه ، أما « الإسقاط » فهو عملية تلفظ للناقد الذي ينطق عبر النص ، ولذلك لا يمثل « الإسقاط » عملية « ينطق » فيها النص بل عملية « يُستنطق » فيها النص . و « القراءة » - بعد ذلك - عملية متعددة الجوانب ، متفاعلة المستويات ، يحقق فيها النص صراعه الذاتي بين العناصر التي يتكون نظامه من علاقاتها ، ويصطرع فيها نظام النص المقروء مع نظام القارئ المدرك ، دون أن يلغى أحدهما الآخر ، ويتأثر فيها كلا النظامين بأنظمة أخرى ، أكبر منها وأشمل ، تدخل كعامل من العوامل المؤثرة في عملية القراءة .

ولذلك نلاحظ - في عملية القراءة - تفاعل مستويات ثلاثة . والكيفية التي يتحقق بها التفاعل بين هذه المستويات ، وبالتالي محصلة العلاقات بينها ، هي التي تميز « قراءة » عن « قراءة » ، فتصبح « أنماطا » قابلة للوصف والتحليل . أما « الإسقاط » - كعملية - فأمره مختلف ، إذ يشحب فيه المستوى الأول الخاص بالنص ، فلا يبقى فيه سوى نظام الناقد (- أو : نظريته النقدية . أو أعرافه الأدبية ، إذا شئنا التبسيط -) الذي يتجاوب مع نظام أوسع (- نظرية شمولية ، رؤية للعالم .. الخ -) لينطلق من تجاوزهما « استنطاق » النص ، أو « إنطاقه » ، بما يتجاوب مع نظام الناقد ، وبالتالي مع ما يتولد منه هذا النظام .

وسواء كنا على مستوى « القراءة » أو « الإسقاط » فهناك توجه دائم - من داخل النص إلى خارجه ، أى من العالم الذاتي للنص ، العالم الفعلي الذي تتحقق فيه عملية القراءة أو عملية الإسقاط . وكانت الحركة - في عملية القراءة - حركة معقدة ، تتم - دوما - وسائط متعددة ، ومستويات متفاعلة ، فإنها حركة لا تتوقف عن الترك بين النظام الذاتي للنص والأنظمة الواقعة خارجه ، إلا بعد أن يكتم إنتاج الدلالة . وعلى العكس من ذلك الحركة - في عملية الإسقاط - فهي حركة مباشرة ، قد لا تكون وحيدة الاتجاه ، ولكنها تظل محوية سلفا ، تبدأ من نفس النقطة التي تعود إليها ، دون وسائط أو تعقد .

- ٦ -

وسواء كان ناقد نجيب محفوظ مُسقطاً أو قارئاً فإنه لابد أن يعود من نص نجيب محفوظ إلى العالم الذي نعيش فيه ، محملاً بخبرات القراءة ، أو مقتنصاً أسلاب الإسقاط . ومهما تحدث الناقد عن « الشكل الفني » أو عن « الأصول الفنية والجمالية » -

كما يتحدث بعض نقاد نجيب محفوظ - فإنه لابد عائد إلى العالم . قد يقول لنا رشاد رشدي : إن الإحساس الذي يخلقه العمل الفني لا علاقة له بالإحساسات التي تزودنا بها الحياة ، كما لا علاقة له بأي شيء خارج العمل نفسه .^(٣٠) وقد يقول لنا محمود الربيعي : « لقد أصبح الاهتمام بطبائع الأشياء ذاتها - لا الأفكار المجردة التي يتصور أنها تحكمها - هو الروح المسيطر على الحركة النقدية »^(٣١) وقد يحدثنا غيرهما - كما نسمع في الأعوام القليلة الأخيرة - عن النص المنغلق على نفسه ، كالفعل اللازم الذي لا يتعدى إلى مفعوله في النحو ، أو عن النص - البنية التي لا علاقة لها بأي شيء خارجها . ولكن هذا القول أو الحديث يتحقق على نحو مخالف في التعامل الفعلي مع النص . إنه مجرد نوايا ، أو فروض نظرية ، لا تتحقق في الواقع التجريبي للقراءة أو الإسقاط .

لقد توقف رشاد رشدي عند « اللص والكلاب » لبحث فيها عن « عنصرية القدرية » ، ولتتعامل معها باعتبارها « معادلا موضوعيا » Objective Correlative لحقيقة تقع خارجها بداهة . ولنلاحظ - منذ البداية - أن مفهوم « المعادل الموضوعي » نفسه مفهوم يقودنا - منذ اللحظة الأولى - إلى ما هو خارج عن النص الأدبي نفسه ، وإلا لما كان هناك معنى لهذا « الجسم المحدد » الذي « يعادل الوجدان المعين الذي يراد التعبير عنه . ومن يبحث عن هذا « المعادل » (بكسر الدال) لابد أن يبحث عن المعادل (بفتح الدال) ليتيقن من « موضوعية التعادل » بين « الوجدان » و « معادله الموضوعي » ، أي أنه يقيس - منذ الوهلة الأولى - النص بمقياس خارج عنه ، بل بمقياس يردنا إلى منطقة الشعور في داخل الأديب وليس في داخل النص ، كما نتوهم لأول وهلة ، ولهذا السبب قال إلزو فيفاس قولته الشهيرة عن صاحب « المعادل الموضوعي » الأصلي : « إن إليوت يقحم نظرة منقحة نوعا من التطهير في نظرية شائعة عن التعبير ليبرر الشعر كنوع من العلاج العصبي . » ولهذا السبب - أيضا - تحدث النقاد عن « المفهوم الآلي للإبداع » عند إليوت ، مثلما تحدثوا عن تضارب المفهوم « عبوة إليوت الجديدة » لنظرية « التعبير » القديمة .^(٣٢)

ومن يواجه نص « اللص والكلاب » بهذا المفهوم لابد أن يقع خارج النص ، في

(٣٠) رشاد رشدي ، ما (هو ؟) الأدب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢٧ .

(٣١) محمود الربيعي ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣٢) راجع - على سبيل المثال :

نهاية المطاف ، أراد ذلك أو لم يرد ، أظهر ذلك أو أبطنه . ومن هنا يتحول نقد رشاد لنص « اللص والكلاب » إلى لون من الترجمة المزدوجة « وليس التحليل الداخلي لنسيج العلاقات ، بمعنى أنه سيبحث في « القدرية » التي تحولت - موضوعيا - إلى نص أدبي ، هو « اللص والكلاب » ، ثم سيعود لترجم « الكيان الموضوعي » ليرده إلى أصله القبلي الذي يعادله ، لعله يكتشف - بذلك - العلاقة الحتمية بين « الشكل المعين » و « الهدف الفني » . وإذا كانت الحركة - هنا - حركة من « الشكل المعين » إلى « الهدف » فإنها حركة من الصورة (= معادل موضوعي) إلى أصلها الخارجي ، وهو - في حالة « اللص والكلاب » - « القضاء والقدر الذي يفصل الإنسان عن جذوره ليغرقه في الضياع . » وهنا يتحول نص « اللص والكلاب » إلى « وعاء » مؤثرة لـ « فكرة » منفصلة عنه ، ترتبط بوضع الإنسان الحديث « بعد أن انفصم عن جذوره فأغلق على نفسه ، وجف النبع فدفن وجهه في الجدار . » (٣٣)

ولو تأملنا - جيدا - ما يقوله رشاد رشدي عن نجيب محفوظ الذي « يرسم صورة للإنسان الحديث » وجدنا مفهوم « المحاكاة » كامنا في دلالات المصطلح الوصفي نفسه ، إذا أن رسم الصورة يعني الارتباط بأصل خارجها ، وإلا لما كانت هناك صورة ، ويزداد هذا الارتباط قوة عندما يقترن هذا المصطلح الوصفي - في سياق دلالي واحد - بالحديث عن سمات « الرواية في العصر الحديث » وكيف أنها تهتم بتسجيل كل ما تقع عليه العين من الزوايا والمنعطفات (٣٤) ، فيلجّ على أذهاننا - بحكم المصاحبات اللغوية Collocations - مفهوم « المحاكاة » الكامن داخل مفهوم « التعبير » عن الوجدان بواسطة « معادل موضوعي » . وذلك كله - في حقيقة الأمر - من قبيل البحث في النص عن معنى خارج عنه ، ومعادلة النص تقع خارج نطاقه ، في العالم الذي يعيش فيه هذا « الإنسان الحديث » ، وليس من قبيل « لا يمكنك أن تعادل العمل الأدبي بفكرة ، أو نظرة ، أو مشكلة خلقية » (٣٥) ، فالمعادلة قائمة شئنا أم أيّنا ، مادما في أسر « المعادل الموضوعي » .

والحق أن الناقد الأقرب - عملا وليس حديثا - إلى « النقد الجديد New Criticism » - من بين نقاد نجيب محفوظ - هو محمود الربيعي وليس رشاد رشدي ، فكتابه « قراءة الرواية : نماذج من نجيب محفوظ » تطبيق لافت لهذا النقد .

(٣٣) رشاد رشدي ، مقالات في النقد الأدبي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٦٦ .

(٣٤) الموضع السابق ، ص ١٦١ .

(٣٥) ما (هو) الأدب ، ص ٦٧ .

ويبدو ذلك في إلحاحه على أن رواية لنجيب محفوظ هي «وحده مستقلة ، لا تكمل شيئاً آخر ، ولا تكتمل بشيء آخر .» (ص ١٢) ويبدو ذلك في إلحاحه على الكشف عن العلاقات الداخلية للنص ، وفي إدراكه لغة المفارقة ، وفي تأكيد أن الاهتمام بطبائع الأشياء ذاتها هو الروح المسيطر على النقد ، وليس الاهتمام بالأفكار المجردة ، التي يتصور أنها تحكم النصوص الأدبية .

ولكن - مع ذلك كله - سنجد الحركة - دائماً - في قراءة . محمود الربيعي - تبدأ من داخل النص لتنتهي خارجه ، وعلى نحو يتعارض مع الجزم النظري لمقدمة الكتاب ، أو للتقرير المحذّر في داخل الكتاب . وهذا أمر طبيعي ، إذ كيف يفر الناقد - مهما كانت موضوعيته النصية - من مناقشة «القضية الكبرى» التي «تطل ... من وراء هذا العمل» ؟ (ص ٢٥) إن إغلاق النص عن العالم أمر مستحيل وتفاعل ذات الناقد مع موضوعه لابد أن يتحقق ، والبحث عن شبكة الدوال لابد أن يفضي إلى أنظمة خارج النص . وهنا لابد أن يتوجه الناقد إلى الخارج وهو يفتش عن «مغزى اجتماعي واقعي تجريدي في آن واحد» : (ص ٢٦) .

قد يقول الربيعي : «إن العمل الفني يعكس الواقع ، ولكنه يتجاوز هذا الواقع في نفس الوقت» . (ص ٣٥) ولكن «الواقع» يضغط عليه فيقرأ ما بين سطور النص ما يفيد بحق أن مصر في حاجة شديدة إلى أبنائها المكترثين ، حتى وإن أخطأوا كثيراً ، حتى وإن ضلوا أحياناً . أما غير المكترثين من أبنائها - وبناتها - فهم مصاصو دماء . وألد أعدائها . (ص ٤٤) ومعنى هذا التعقيب أن الناقد يطرح السؤال : «ما الذي يريد أن يقوله نجيب محفوظ من خلال ... ؟» (ص ٣٥) ومعنى هذا أنه يضطر إلى أن يناقش «فلسفة إنسانية كامنة وراء الحدث» (ص ٣٢) أو «أيدولوجية خاصة» . (ص ٧٧) أو «وجهة نظر نجيب محفوظ في هذه القضية الخطيرة ...» (ص ٧٩) أو يسأل : «ما هو موطن الداء الحقيقي من موقف هؤلاء المثقفين ؟ وكيف تحولوا - وهم من جسم الأمة - إلى أعضاء شلاء ، تمنح في العجز حتى تصوّر لنفسها أن العجز هو قدرها الطبيعي ؟ ... هل ابتعدت عن المد الاجتماعي لأنها أبعدت عنه ؟» (ص ١١٥) وقبل أن تبدأ الإجابة يأتي تأكيد حازم : «هذه مشكلة كبيرة ، وينبغي أن تتأملها النفس بكل تفهم وتعاطف .» (ص ١١٦) وعندئذ نصبح خارج النص بداهة ، ويشحب تجاوز الواقع ، لنصبح في قلب الواقع ، فنصبح داخل بنية وعي اجتماعي عند الناقد ، وتشحب الفكرة التي تربط الروح النقدي بالاهتمام بالوقائع لتغلبها الفكرة المضادة التي تربط الوقائع بأفكار توجه الوقائع . وهنا

لن يجد الناقد مفرا من الجزم بأن «الأدب والسياسة - من حيث الجوهر - كانا ولا يزالان صنوين .» (ص ٢٣) أو من أن ينغمس - دون أن يتنبه في «أوجه الصراع المحتدم بين طبقات المجتمع بغية الوصول إلى صيغة ملائمة تحكم مسار هذا المجتمع .» (ص ١٥٦) ويصبح النص - الوحدة المستقلة ، التي «لا تكمل شيئا آخر ، ولا تكمل بشيء آخر» مرتبطا - في حقيقة الأمر - بشيء آخر يكمله ، يرتد إلى هذا التفاعل الذي أشرت إليه بين مستويات عملية القراءة ذاتها .

- ٧ -

إن الانتقال من داخل النص إلى خارجه - إذن - أمر طبيعي ، ما ظل النص متحدثا عن العالم بطريقة أو بأخرى ، وما ظل النص - بحكم طبيعته اللغوية ذاتها - منظويا على إرشارة إلى العالم .^(٣٦) وما دامت كل «قراءة» للنص لابد أن تتصل - النهاية - أو تتفاعل مع شيء يؤثر فيها خارج النص فمن الممكن التسليم - من هذه الزاوية فحسب - بعدم براءة القراءة ، دون أن يتعارض ذلك مع التسليم باستقلال النص . ولكن هناك وجهين لعدم البراءة ، أحدهما سالب يتصل بالإسقاط ، وثانيهما موجب يتصل بالقراءة ذاتها . أما الوجه الموجب فقرين دور الذات الفاعلة للقارئ في إدراك النص - كموضوع معرفي مستقل عنه . وهذا الوجه قرين «صراع القراءات» . أما الوجه السالب فقرين إلغاء الكيان المستقل للنص نفسه ، والدخول - بالتالي - في «فوضى الإسقاطات» ، وما يصحبها من سوء طوية الاستنتاج .

ويبدأ «الاستنتاج» - عند نقاد نجيب محفوظ - منذ اللحظة التي لا يراعون فيها التوسطات المعقدة التي تفصل ما بين النص والعالم ، وعندما يسطحون العلاقة بين «الدال» و«المدلول» ، عندما يخلطون بين ثراء «الدلالة» وفقر «المقصد» . وعندئذ نصل إلى حال أقرب إلى تحويل النص إلى «وثيقة فكرية» ، تصبح دليلا على «مقاصد» نجيب محفوظ ، و«عرضا» من «الأعراض الدالة» على فكره . وعندئذ لن يتحدث الناقد عن «نصوص» أدبية ، بل عن «أفكار» مترجمة إلى لغة خيالية . ولا غرابة - والأمر كذلك - أن نجد من يتحدث عن «نجيب محفوظ سياسيا» ، أو من يبحث عن

(٣٦) راجع :

Paul Ricoeur, Interpretation Theory; Discourse and the Surplus of Meaning, The Texas Christian Univ. Press, 1976, pp. 36-37.

«الوجدان القومي في أدب نجيب محفوظ» ، أو عن «تاريخنا القومي في ثلاثية نجيب محفوظ» ، أو عن «أزمة الوعي السياسي في قصة السمان والحريف» ، أو حتى «مع الغناء والمغنين في أدب نجيب محفوظ»^(٣٧) .

وسيتوقف «الباحث» عن «نجيب محفوظ سياسيا» أمام عبارات «سوسن حماد» - في «السكرية» - عن صراحة المقالة وخطورتها ، ومكر القصة ومراوغتها في التعبير عن الرأي ، وسيوحد «الباحث» - أو «المستنطق» - بين ما قالته سوسن حماد ونجيب محفوظ ، فتصبح عباراتها «الدستور الذي التزمه نجيب محفوظ منذ بدأ يكتب ، معبرا عن آرائه وأفكاره» . وإذن فنجيب محفوظ «كاتب سياسي بالدرجة الأولى ، له رأى واضح ومحدد تاريخيا ، وله موقف متمسك ومستمر اجتماعيا ، وله نظرة شاملة فكريا ، مهما بدا كل هذا مسريلا أحيانا في حيل القصة التي لا حصر لها ، وفي ثنايا فنها الماكر» . ولا بأس في هذه الأقوال لو كانت «بحثا» من مؤرخ يفيد من النص الأدبي كوثيقة يوظفها لغايات تاريخية خاصة وليس لغايات أدبية . ولكن النص الأدبي سرعان ما يُحاكم سياسيا لتقفز ملاحظة تركيز النص على «صورة الفئات المتوسطة دون صورة فئات العمال والفلاحين في مسار ثورة مصر» .

وما دمنا قد دخلنا في إطار هذا اللون من «الإستنطاق» فلا بد أن ندخل في دائرة الحكم التقويمي الذي يستند - في إشارته المرجعية - إلى فكر الناقد (المستنطق) نفسه . وهنا يتذبذب الأمر بين السلب والإيجاب ، ونواجه تعارضات وتناقضات لا تحل :
سنجد - على مستوى السلب - من يقول : «نجيب محفوظ هو كاتب البرجوازية الصغيرة ، وليس المعبر عن القوى الاجتماعية الجديدة التي تكافح لكي توجد» . وإذن فنجيب محفوظ «يسجل مأساة طبقته ، ولكنه لا يرى أبعد منها»^(٣٨) . وتواصل مع نفس القول سنجد من يقول : إن نجيب محفوظ «يرى العالم رؤية مكانيكية ،

(٣٧) راجع على التوالي :

- إبراهيم عامر ، نجيب محفوظ سياسيا من ثورة ١٩١٩ إلى يونيو ١٩٦٧ ، الهلال ، فبراير ١٩٧٠ ، ص ٢٦ ، ٣٦ .

- فؤاد دواره ، الوجدان القومي في أدب نجيب محفوظ ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ - ١٠٩ .
- جلال السيد ، تاريخنا القومي في ثلاثية نجيب محفوظ ، الكاتب ، يناير ١٩٦٣ ، ص ٧٠ ، ٧٩ .
- غنيمي هلال ، أزمة الوعي السياسي في قصة السمان والحريف ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ، ٣١ .
- كمال النجمي ، مع الغناء والمغنين في أدب نجيب محفوظ ، الهلال ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٣٥ .
(٣٨) محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ، في الثقافة المصرية ، دار الفكر الجديد ١٩٥٥ ، ص ١٥٤ ، ١٦٦ .

تثبت العالم قوانين ثابتة وترغم أنها تستطيع فهمه عن طريق اكتشاف هذه القوانين». والنتيجة أن نجيب محفوظ «يضرب في السطح لا في الجوهر» و«بدلاً من رصد الحركة وتناقضها المضطرب لم يحاول وضع السؤال في صيغته الصحيحة، أو صيغته الممكنة، فبدلاً من كيف؟ يضع لماذا؟». ولابد أن نجد في شخصيات نجيب محفوظ - على هذا النحو - «بقايا الفكر البرجوازي» الذي يتخيل الفكر بمعزل عن العلم، والعلم بمعزل عن الفكر، «ويتخيل الاثنين بمعزل عن الإنسان، ويتخيل الجميع بمعزل عن ظروف حضارية معينة».^(٣٩) وتقودنا كل هذه الأقوال السابقة إلى نظام فكري، يعد بمثابة السياق الذي تعرض عليه أعمال نجيب محفوظ. (= الوثيقة) وفي إطار هذا النظام تتحدد الإشارة المرجعية للحكم بالقيمة المنفية.

ولكن نفس النظام الفكري يمكن أن يتج منظرًا معارضا، فنواجه - بالتالي - إشارة مرجعية مضادة في نفس النظام تؤدي إلى الحكم بالقيمة الموجبة. وعندئذ نسمع أقوالاً عن أكثر الكتاب فهماً للطبقة الوسطى وأقدرهم تعبيراً عن مشاكلها وعرض دقائق حياتها، بما أوتي من كشف لواقعها وتعميق لمناقضاتها».^(٤٠) وعن الكاتب الذي «أدرك بوعي ذكي طبيعة الطبقة المتوسطة»، بل «حقيقة الظروف الحضارية والتاريخية» و«طبيعة القوى الاجتماعية وصراعاتها وحركتها التطورية في المجتمع المصري» فساعدنا «على تقدير الظواهر الاجتماعية تقديراً سليماً». «^(٤١) واستمراراً لنفس القول سوف نواجه أوصافاً ترتبط بـ «تقدمية المفكر المثالي» وتدل على الفكر «الراديكالي» و«الإنساني وكلها على مستوى الإيجاب، فنجد - في النهاية - من ينظر إلى نفس الوثيقة التي انتفت عنها القيمة - على مستوى السلب - فيؤكد على مستوى الإيجاب، ويحزم بأن أعمال نجيب محفوظ تنطوي «على مدلول تقدمي كبير في مجتمع شرقي أخذت الاتكالية فيه أبعاداً لا معقولة». أو يؤكد أن في نصوص نجيب محفوظ «مقدمات المذهب الإنساني الذي لا يستطيع أحد أن يماري في دوره الديمقراطي التقدمي في مجتمع شرقي غربي، لم يعرف ثورة ديمقراطية جذرية».^(٤٢) ولكن حتى على هذا المستوى الإيجابي يمكن أن نلمح تعارضاً، فنجد من يحدثنا عن نجيب محفوظ «الكاتب الاشتراكي المادي»، بل لن يتردد ناقد في أن يقول لنجيب محفوظ - على

(٣٩) أحمد عباس صالح، قراءة جديدة لنجيب محفوظ، الكاتب فبراير ١٩٦٦، ص ٦٤، ٦٥، ٦٧.

(٤٠) عبد المنعم صبحي، الشخصية الإيجابية في أدب نجيب محفوظ، الكاتب يناير ١٩٦٣، ص ٦٤.

(٤١) صبري حافظ، المرجع السابق، ص ١٩، ٢١.

(٤٢) جورج طرايشي، الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٣، ص ٦٦، ١٣٠.

صفحات المجلات - إن مسارك السياسى كان من الوفد إلى الماركسية . (٤٣)

وسرعان ما يقودنا هذا التعارض الأخير إلى تناقض آخر ، إذ أن المحتوى الفكرى لنصوص نجيب محفوظ يمكن أن ينظر إليه من نظام مغاير تماما . وعلى مستوى الإيجاب سنجد سيد قطب يمدح نجيب محفوظ للمغزى الدينى - الخلق الذى تقدمه «خان الخليلي» فتصبح القصة دالة على فكر يؤمن بسخرية القدر «.. القدر الساخر من وراء الجميع» ، ذلك القدر الذى «لا يبدو عليه حتى مظهر الجذ فى سخريته المريرة» ، لأنك «تقرأ القصة ثم تطويها ، لتفتح قصة الإنسانية الكبرى ، قصة الإنسانية الضعيفة فى قبضة القدر الجبار» . (٤٤) وما فعله سيد قطب - فى هذا السياق - هو أنه اقتنص «عرضا» من «أعراض» رواية واحدة ، واستنطقها قيمة خلقية هى نفس القيمة التى جعلته يقول عن «كفاح طيبة» : «لو كان لى من الأمر شيء لجعلت هذه القصة فى يد كل فتى وكل فتاة ، ولطبعها ووزعتها فى كل بيت بالبحان» . (٤٥) وستدفع هذه القيمة سيد قطب إلى أن يؤكد «أن الناقد فى الشرق العربى لا ينهض لتصحيح مقاييس الفن وحدها ، ولكنه ينهض لتصحيح معايير الأخلاق» ، (٤٦) بل ستدفعه نفس القيمة إلى أن يحجى نجيب محفوظ لأنه - فى «القاهرة الجديدة» - يميل «لأن يتصر للمبادئ على كل حال ، وأن يحقر الإيمان بالذات والتدهور الخلقى والاجتماعى ، والقذارة والانحلال» . (٤٧)

وإذا تركنا مستوى الإيجاب - فى هذا النظام الأخلاقى - إلى مستوى السلب فسوف نجد من يأخذ على نجيب محفوظ قصفه الدائم برقاب شخصياته ، وتعريضهم - دوما - لعنة الحياة ، مما يكاد يقضى على الحس المتفائل بالنجاة أو الأمل ، وكأن بين نجيب محفوظ وشخصياته عدااء عجيبا «لا أدرى مبعثه فى نفسه . إنه يعاملهم بقسوة حتى إن بوارق الهناء التى تلوح أحيانا فى قصصه لا تستطع أبدا أن تبدد ما يكتنف جوها من صرامة وقتام ، وإن أحق ما توصف به قصص نجيب محفوظ أنها قصص قائمة» . (٤٨)

وسوف يتكرر هذا النظام الأخلاقى - مرة أخرى - على مستوى الإيجاب بعد سنوات

(٤٣) رجاء النقاش ، بين الوفدية والماركسية ، الهلال فبراير ١٩٧٠ ، ص ٤٠ .

(٤٤) سيد قطب ، كتب وشخصيات ، مطبعة الرسالة ١٩٤٦ ، ص ١٧٦ وانظر مجلة الرسالة ، ١٧ ديسمبر ١٩٤٥ ، ص ١٣٦٦

(٤٥) سيد قطب ، كفاح طيبة لنجيب محفوظ ، الرسالة ٢ أكتوبر ١٩٤٤ ، ص ٨٩٢ .

(٤٦) ، خواطر متساوقة ، الرسالة ٢٧ نوفمبر ١٩٤٤ ، ١٠٤٤ .

(٤٧) ، القاهرة الجديدة ، الرسالة ٣٠ ديسمبر ١٩٤٦ ، ص ١٤٤١ .

(٤٨) محمد فهى ، زقاق الملق ، المقتطف ، ديسمبر ١٩٤٧ .

طوال ، وسنعود لنستمع إلى أقوال هي استمرار للعناصر التكوينية الكامنة عند سيد قطب ، ولكن - هذه المرة - بعد عمق واتساع ، في كتاب محمد حسن عبد الله عن «الإسلامية والروحانية في أدب نجيب محفوظ» وذلك في محاولة تهدف إلى «إعادة البناء الفكري لمنطلقات الكاتب الخاصة ، باعتباره ينظر إلى الانتساب إلى الله على أنه الحل الممكن والمقدور للإنسان في التغلب على طلاس لم يجد لها حلاً»^(٤٩) وبمثل هذه المحاولة يعود نجيب محفوظ إلى حظيرة الإسلام بعد أن كاد يخرج منها ، وتظل «المشكلة الأخلاقية» شاخصة ، وسيوضع البحث عن «اللامتناهي» في مقابل «المتناهي» ، و«المنتهى» في مقابل «المتنهي» .

ويتوجه «الاستنطاق» - في المحاولة - إلى البحث عن «الشخصية الدينية واللمسة الروحية» . (ص ١٩) وعندئذ سيخبرنا «الاستنطاق» أن الأصل القرآني - مثلاً - «أقوى تأثيراً وأشد إرقاداً» لرواية «عبث الأقدار» من الأصل الإغريقي الأسطوري . (ص ٣٥) وسوف تعطينا «كفاح طيبة» «الكثير من الملامح عن الحياة الدينية» (ص ٥٥) وستوقف أمام «رضوان الحسيني» «الحتم العقيق» لزقاق المديق ، ذلك الذي يمثل «الالتزام العقيدى من القادرين نحو المعوزين ، ومن الأسوياء تجاه الشاذين ، ومن المهتمين لنفع الضالين» . (ص ١١٢) وستعلو قامة «عبد المنعم شوكت» على «أحمد شوكت» ، «فهو المنصب والآخر عقيم» . (١٨٤) .

ولا عجب - والأمر كذلك - أن يصبح «عبد الوهاب إسماعيل» - في «المرايا» - هو «سيد قطب» . ولكن لن يمر الأمر دون محاكمة جديدة ، فلقد كان باستطاعة نجيب محفوظ أن يغنى هذه الشخصية «وأن ينظر إليها نظرة إنسانية ، حتى وإن كان يرفض التعصب ، لأنه بهذا المسلك قد تعصب ضدها» . (١٣١) أما عندما صفا قلب نجيب محفوظ . وصغر الكون أمام عينيه «تغلبت التزعة الروحية حقاً ، وحلّق نجيب محفوظ شاعراً مأساوياً يرثى المصير الإنساني ، ويسخر من مكابرة الإنسان وهو المؤقت الزائل» . (١٩٢) وتلك عبارات لا تختلف كثيراً عن عبارات سيد قطب عن القدر في «خان الخليلي» ، مما يؤكد أننا ندور حول نفس العناصر التكوينية لنظام واحد .

وبغض النظر عن التضاد الأيديولوجي الظاهر بين البحث عن «قضايا البرجوازية الصغيرة» والبحث عن «القيم الروحية» فإن كلا البحثين وجهان لعملية واحدة هي

(٤٩) محمد حسن عبد الله ، الإسلام والروحانية في أدب نجيب محفوظ ، دار مصر للطباعة ١٩٧٧ ، ص ٤٥٠ .

«الاستنطاق». . ويقدر ما تدمر هذه العملية الاستقلال المتميز لنصوص نجيب محفوظ فإنها تعرضها للتشويه ، وتفقدتها أخص ما فيها ، وهو طبيعتها الأدبية . يضاف إلى ذلك أنها تساهم بطرائق متنوعة ، في تأسيس مفهوم سالب للأدب . في مجمله . باعتباره «محاكاة» ، وذلك بتعزيز الفرضية الضمنية التي تجعل الأدب يحاكي قبا أخلاقية مرة ، ومقولات أو أحداثا اجتماعية في مرة أخرى . ولن يفترق من يحدثنا عن «القيم الروحية» - نقديا - عن يحدثنا عن «القضايا الاجتماعية للبرجوازية الصغيرة» . بل إن كليهما لن يفترق كثيراً عن طه حسين عندما يتحدث عن «زقاق المدق» باعتبارها «سفراً ضخماً» خطير القيمة «لأنه بحث اجتماعي متقن كأحسن ما يبحث أصحاب الاجتماع عن بعض البيئات ، يصورونها تصويراً دقيقاً ، ويستقصون أمورها من جميع نواحيها» .^(٥٠)

وإذا تركنا «استنطاق» القيم الروحية وقضايا البرجوازية والبحث الاجتماعي المتقن إلى نتيجة أخيرة مرتبة عليه وجدنا أن النص الوثيقة يتحول مع كل استنطاق ، كما تتحول كائنات أوفيد ، فيصبح صاحب النص - نجيب محفوظ - «مثالياً» و«مادياً» مرة و«رجعياً» مرة أخرى ، ثم تتحول المثالية إلى «مذهب إنساني» و«اشتراكية صوفية» من ناحية ، ثم تتحول المادية إلى «اشتراكية علمية» و«ماركسية» من ناحية ثانية . وتتجلى التقديمية - بعد ذلك - في الكشف عن تناقضات طبقة ، وتظهر الرجعية قرينة نفس السبب . ولا شيء بعد ذلك - أو في أثناء ذلك - سوى فوضى الإسقاط .

- ٨ -

وأحسب - لذلك كله - أن هذا الاستنطاق الفكري يمثل عنصراً تكوينياً في الأنظمة الخارجية التي يتحرك في دائرتها نقاد نجيب محفوظ . إن عموميته لافتة ، وهو يفرض نفسه - في أشكال مراوغة - على أشد النقاد تباعداً عن هذا الاستنطاق ، مما يجعله - كنصر تكويني - «دالاً» يبحث عن «مدلول» داخل أنظمة ، فيفضي - بدوره - إلى عملية أخرى من عمليات إنتاج الدلالة ، في دائرة تتصل بسوسولوجيا النقد . وقد يفضي بنا هذا العنصر إلى أبنية للوعي تصطرع فيها تكوينات تراثية يتعارض فيها «أهل الظاهر» مع «أهل الباطن» ، حول «القصد» من وراء النص ، وحول «واحدية» هذا القصد وليس تعدده . وقد يفضي بنا هذا الاستنطاق إلى تكوينات أخرى في نفس أبنية الوعي تصطرع فيها

(٥٠) طه حسين ، نقد وإصلاح ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١١٨ .

«أشكال للاعتقاد» تتوسل بالتأويل لسد الهوة بين أنظمتها ونظام النص ، سعيًا إلى تطابق
يضمي «شرعية» متعددة الأبعاد . ويقدر ما تعود بنا هذه التكوينات إلى أعماق أعماق
التراث فإنها تصلنا بأشكال «الانتماء» المعاصرة .

ويقدر ما يلفتنا هذا العنصر التكويني إلى أن نقد نجيب محفوظ لا يمكن أن يتفصل عن
صراع «أنظمة اعتقاد» تقع خارجه ، فإنه يلفتنا إلى معضلة لا تزال تترك ناقد نجيب
محفوظ ، في محاولته إقامة توازن بين ذاته القارئة وموضوعه المقروء . ولكن لهذا كله حديث
آخر ، لابد أن يبدأ بتحليل «أنماط القراءة» ، تلك الأنماط التي لم نقم بتحليلها - كاملة -
بعد . وعندئذ يتكشف الجانب الآخر الموجب من الوضع المعقد من التفسيرات والشروح
والتأويلات في نقد نجيب محفوظ ، وأعني ذلك الجانب الذي ينطوي على التعقد والغنى
والتنوع .

فهرس

- مقدمة د. غالى شكرى
- ١ - اتجاهى الجديد ومستقبل الرواية نجيب محفوظ
- ٢ - من « عبث الأقدار » إلى « السراب » محمود أمين العالم
- ٣ - خان الخليلى سيد قطب
- ٤ - البرجوازي الصغير د. محمد مندور
- ٥ - بداية ونهاية أنور المعداوى
- ٦ - بين القصرين د. طه حسين
- ٧ - ثلاثية بين القصرين د. على الراعى
- ٨ - فهمى عبد الجواد سامى خشبه
- ٩ - المرأة فى ثلاثة أجيال صوفى عبد الله
- ١٠ - اللص والكلاب د. لويس عوض
- ١١ - اللص والكلاب بين الفن والواقع د. فاطمة موسى
- ١٢ - الواقعية الوجودية فى « السمان والحريف » رجاء النقاش
- ١٣ - ميرامار إبراهيم فتحى
- ١٤ - الاستاتيكية والديناميكية يحيى حتى
- ١٥ - الشكل الروائى من « اللص والكلاب » إلى « ميرامار »
- د. لطيفة الزيات
- ١٦ - قصصه القصيرة د. شكرى عياد
- ١٧ - فى دنيا الله صلاح عبد الصبور
- ١٨ - حديث الصباح والمساء : جندارية هائلة فاروق عبد القادر
- ١٩ - صباح الورد د. غالى شكرى
- ٢٠ - نقاد نجيب محفوظ د. جابر عصفور



لقد تعمدت في الاختيار أكثر الكتابات دلالة، فإذا اتفق ناقدان مثلاً على رؤية ما لنجيب محفوظ، أكتفى بالأكثر دلالة... دون أن يتم هذا الاختيار على حساب النسبة التي يتميز بها كل تيار وكل اتجاه. ودون أن يتم هذا الاختيار على حساب النسبة التي يتميز بها كل عمل من أعمال نجيب محفوظ. أي أن الثلاثة مثلاً و«اللس والكلاب» يتمتعان بعدد كبير من المتابعات، لأن الأولى ذروة اكتمل بها الوعي قبل الثورة، ولأن الثانية كانت فاتحة أو استئنافاً للوعي بعد «أولاد حارتنا».

لقد أثرت الترتيب التاريخي لأعمال نجيب محفوظ، لا للأعمال النقدية، فالكتاب يتابع الرحلة من أولها «عبث الأقدار» إلى أحدث أعماله «صباح الورد»... فالصورة العامة لأدب نجيب محفوظ في حركتها، هي التي أملت علي ترتيب المختارات.

ولكن هذا الترتيب لا يلغي أننا سنطالع في الوقت نفسه صورة موازية أو متداخلة أو متقاطعة لحركة النقد المصري الحديث، وقد أفسحت في الخاتمة لجابر عصفور أن يرسم خطوط هذه الحركة حسب قراءته لها.

لقد تأخر صدور هذه المختارات زمناً طويلاً، فما أحوجنا إليها، لا بالنسبة لنجيب محفوظ فقط، بل أدباء مصر، فالأدباء العرب جميعاً. بل ما أحوجنا إلى أكثر من مختارات للأديب الواحد، لأن المختارات في خاتمة المطاف مجرد قراءة. ولعلنا نحتاج للكثير الكثير من القراءات.

نجيب محفوظ إبداع نصف قرن

تشهد هذه المختارات من نقدنا المعاصر حول أدب نجيب محفوظ أن هذا النقد قد عني بالكاتب الكبير عناية فائقة ومحيطية وشاملة خلال السنوات الثلاثين الماضية أو أكثر قليلاً. وهذه المختارات التي لا تزعم الشمول حاولت أن تخضع لبعض الضوابط والمعايير:

أولها تعدد الأصوات فنياً وفكرياً فما قد يمثله شكري عياد وصلاح عبد الصبور يختلف عما يمكن أن تمثله صوفي عبد الله وفاطمة موسى، وما يمثله يحيى حقي يختلف عن أنور المعداوي، وكلاهما يختلف عن سيد قطب أو طه حسين. هذه الاختلافات في الرؤية والتقييم تمنحنا صورة أقرب إلى ملامح نجيب محفوظ العامة وأقرب إلى ملامح النقد المصري المعاصر. وهناك مواقف من أدب نجيب محفوظ قد تختلف في المقدمات وقد تلتقي في النتائج.

دار الشروق